

اسكندر دوما س الكبير

ذو القناع الحديدى

(الجزء الاول)

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

كلمة التحرير

هذه رواية « ذو القناع الحديدي » : شجاعة وغرام وعزم
واقدام ، ومكايد ودسائس ، وطموح ومغامرات ، وحوادث خلافة ،
مثرة للنفس ، ووقائع تاريخية عجيبة ، يصنعها عدد من أبطال
التاريخ . وهى من أروع ما أنتجته قريحة الروائى الفرنسى الأكبر
اسكندر دوماس . وتدور حوادثها فى السنوات الأولى من عهد لويس
الرابع عشر . فبينما هو ملك شاب ، طموح ، يريد أن يوطد دعائم
ملكه ويقضى على البقية الباقية من مكانة الشرفاء ، إذا هو شاب طائش
يحب هذه ويتروك تلك من حسان النساء

وأبطال هذه الرواية هم الفرسان الأربعة الذين اشتهروا فى عهد
ايه لويس الثالث عشر بأعمال البسالة الخارقة ، حتى جرت حوادثهم
مجرى الأمثال ، وعلى رأس أولئك الفرسان أراميس الذى انقلب أسقفا
لمدينة « فان » . وهو الرأس المفكر ، والداهية المدبر ، وزعيم جماعة
الجزويت المشهورين الذين كان مبدؤهم فى ذلك الزمان « الغاية تبرر
الواسطة » . وقد عمل هؤلاء الفرسان على اسقاط لويس الرابع
عشر ، واحلال أخيه التوأم « فيليب » مكانه على العرش
ولما كانت هذه الرواية التاريخية ضخمة ، لا يتسع لها عدد واحد
من روايات الهلال ، وكان اختصارها مخلا بروعة موضوعها ، وجمال
أسلوبها ، فقد آثرنا أن ننشرها فى جزئين . تقدم الجزء الأول منهما
 للقراء فى هذا الشهر . وهو يتضمن قصة ولادة لويس الرابع عشر
مع توأمه فيليب فى وقت واحد ، وكيف اختير الأول للعرش بعد
ايه بينما حرم الثانى ، ثم سجن اثنى عشر عاما ، فى سجن الباستيل
وكيف حيكّت المؤامرة حتى اسقط لويس الرابع عشر ، وسجن
بدل أخيه



أما الجزء الثانى ، ويصدر فى منتصف ابريل القادم ، فهو
يصور لويس الرابع عشر فى سجنه ، ثم كيف تخلص منه وتطلب على
أخيه فيليب الذى حل محله على سرير الملك ليلة واحدة . ثم كيف
وحد السلطة كلها فى يده ، وقضى على جميع خصومه ومعارضيه
بجراحة وشدة لا تعرف الرحمة ، حتى استتب له الأمر . وقد سجل
مؤلف هذه الرواية فى جزءها عصر لويس الرابع عشر بما فيه من
أحداث عجيبة ، فجاءت تحفة تاريخية رائعة

شخصيات الرواية

لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب ، ملك طموح يريد أن يوطد سلطته ، متقلب العواطف ، ولكنه يستمع إلى صوت الحق أحيانا

الامير فيليب : أخوه التوأم ، شاب عاقل رصين ، قضى طفولته مجهولا من الناس ، ثم سجن سنوات ، وكان لا يعرف نفسه ولا منبته الرفيع

الملكة آن النمسوية : والدة لويس وأخيه فيليب ، وأرملة لويس الثالث عشر .. ملكة متكبرة ، تعاني مرضاً جسدياً وألماً نفسانياً وتحفظ بسر مولد فيليب

الدوقة مدام دي شيفرينز : كانت صديقة للملكة آن ثم أخفى عليها الدهر ، واطلمت على سر لفرقيته فباعته لكولبير

فوكيه : وزير مالية فرنسا ، رجل وجهه متعال ، يقرب الشعراء والفنانين

كولبير : وكيل المالية ، رجل قدير ماكر ، يطمح إلى منصب وزير المالية

اراميس (الكونت دريلاي) : كان أحد الفرسان الأربعة الأبطال في عهد لويس الثالث عشر ، ثم صار أسقفا وعمل لاسقاط الملك واجلاس أخيه التوأم مكانه

بورتوس (دي فالون) : أحد الفرسان الأربعة ، ومن أغنى نبلاء فرنسا ، ضخيم الجسم كأنه مارد ، شجاع ، طيب القلب

آتوس (دي لا فير) : كبير الفرسان الأربعة ، ومن أكبر نبلاء فرنسا

راؤول (دي براجلون) : نجل آتوس ، شاب شجاع مقدم ، أحب الآنسة لويز دي لا فالير احدي وصفات الأميرة هنريتا ، موتهامدا على الزواج

دارتانيان : أحد الفرسان الأربعة ، وهو يشغل منصب قائد الفرسان

لويز دي لا فالير : احدي وصفات الأميرة هنريتا ، أحبها راؤول ، وعاهدها على الزواج ولكنها وقعت في غرام الملك لويس الرابع عشر

بيزمو : محافظ سجن الباستيل ، يحب أطيب الطعام والشراب ، واقع تحت تأثير أراميس الذي أقرضه أموالا ثم تركها له ، وهو عضو في جماعة الجزويت

مؤلف الرواية



لقبوه « بالكبير » تمييزا له من ابنه الذي يحمل اسمه نفسه « اسكندر دوماس » . وقد ولد سنة ١٨٠٢ في قرية فرنسية تدعى « فيلير - كوتريه » وقضى بها أعوامه الأولى خاملا ، ثم انتقل إلى باريس وعمل في مكتبة دوق أورليتز ، ثم اتصل بالبارون « تايلور » ومن طريقه عرف وكيل نيابة اسمه « فيلناف » كان قبل الثورة الفرنسية يكتب في كثير من الصحف ، فاتخذته أستاذا ومرشدا

ويعد اسكندر دوماس الكبير أكثر الكتاب الروائيين إنتاجا ، وقد ترجمت رواياته إلى أكثر اللغات الحية ، ومن أشهرها رواية « الكونت دي مونت كريستو » و « ذو القناع الحديدي » هذه

واشتهر طول حياته بالاسراف الشديد ، حتى لقد حجز الدائنون على متاعه أكثر من مرة برغم كثرة ما كان يربحه من مؤلفاته . على أنه مع ذلك كان دائم الفكاهة والابتسام ، لا يبالي ما يقع فيه من الأزمات المالية ، ويتلقاها بالسخرية التي كانت من لوازمه

وقد روى ابنه أنه قال له يوما : « انك يا أبي كأنما ترمى أموالك من النافذة » . فأجابته : « لا بأس ! . فهناك من يلتقطونها ! » . وقال لصديق له عاتبه على اسرافه : « كيف آكون مسرفا مع أنني جئت إلى باريس وليس معي سوى قطعة ذهبية واحدة ما زلت محتفظا بها حتى الآن ؟ ! »

وطلب إليه يوما أن يساهم في التبرع بنفقات جنازة أحد المحضرين ، فتبرع بضعف المبلغ المطلوب قائلا : « هذا لكي تدفنوا اثنين من المحضرين بدلا من واحد ! »

وذهب ذات ليلة إلى مسرح الكوميدي فرانسيز لمشاهدة تمثيلية شعبية لصديقه « اسكندر سوميه » . وهناك رأى أحد النظارة نائما فلفت إليه نظر المؤلف مداعبا . ثم حدث في الليلة التالية أن كانا في المسرح يشاهدان تمثيلية له هو ، فلفت سوميه نظره إلى متفرج نائم في المكان نفسه فأجابته قائلا : « هذا الشخص هو نفسه الذي رأيتاه أمس لم يستيقظ بعد ! »

فأوما برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدتي ، وإذا شاء الله فسنبقي صديقين الى الأبد ! »

وقالت الدوقة : « هذا ما أريده أيها الفارس ، وليس مجيئي الى هنا الا الدليل على ذلك ! »

فقال أراميس : « ان مصالحنا لم تعد موحدة يا سيدتي الدوقة كما كانت من قبل »

قالت : « نعم .. ان لنا الآن مصالح أخرى ، ولكن ما دام كل منا الآن يفهم حديث الآخر كما كنا نتفاهم قبلا ، ففي استطاعتنا أن نتحدث اذا شئت ! »

قال : « اني تحت أمرك يا سيدتي .. لكن كيف عرفت عنواني ؟ وماذا كان هدفك ؟ »

قالت : « انه الفضول قبل كل شيء ! - فقد أردت أن أعرف ما شأنك بالفرنسيسكاني الذي كانت لي به علاقة عمل ، وكان موته فجأة كما تعلم . ولعلك تذكر أننا بعد محادثتنا معا في فونتينبلو ، وفي الفترة التي تلت اغلاق القبر عليه ، كان التأثر قد غلبنا فلم نتح لأحدنا فرصة لاتمام الحديث »

فأوما أراميس برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدتي ! »

وواصلت الدوقة كلامها فقالت : « على أني لم أكد أفترق عنك حتى ندمت على أني لم أتم الحديث معك . ومنذ ذلك الحين وأنا تواقه لان أعرف الحقيقة .. انك أشرفت على جناية الفرنسيكاني ، ولم تقل لي كلمة عن علاقتك به ، وأنا أيضا لم أخبرك بما كان من صلوات بيني وبينه ، ولم يكن ذلك يجدر بنا ونحن صديقان قديمان . ولهذا أردت أن أقابلك وأتحدث معك لكي أطلعك على معلومات وقفت عليها أخيرا ، ولكن أؤكد لك أن ماري ميشون التي لم تعد في عالم الوجود قد خلفت وراءها امرأة تحرص مثلها على ذكريات الماضي ! »

فانحنى أراميس على يد الدوقة وطبع عليها قبلة ثم قال :

« لا شك في أنك لقيت نصبا في الاهتداء الى مقرى ! »

فقالت : « أجل ! ولكني أعرف أنك صديق المسيو فوكيه ، وقد أعانني هذا على تبين الطريق الاقرب اليك »

فقال متعجبا : « صديق المسيو فوكيه !؟ هذا شرف كبير لا أدعيه لنفسي ! - انني لست الا قسيسا صغيرا أستظل بحماية ذلك الكبير الكريم ، ويسعدني أن أحتفظ له بواجب الشكر والوفاء ! »

فقالت الدوقة : « لقد جعلك أسقفا ! - ولا شك في أنه منصب لا بأس به وذو معاش حسن لفارس جميل ! »

فابتسم أراميس وقال : « اذن فقد سألت عنى في ديوان المسيو فوكيه؟ »

صديقان قديمان

كان كل موظفي البلاط مشغولين بأعمالهم فيه حينما اتسل رجل الى البيت القائم وسط الحدائق خلف ميدان جريف ، يرتدى معظفا أسود يتدلى على جانبه سيف طويل ، وقد أخذ طريقه في خطى متمزنة ثابتة وان يكن قد ودع الشباب ، مما يدل على أنه ذو قلب غير هيب تعود المغامرات !

ولم يكد يجتاز الباب الداخلى حتى دقت الساعة الثامنة . وبعد عشر دقائق جاءت سيده يتبعها حارس كامل السلاح فقرعت الباب نفسه وسرعان ما فتحت لها امرأة عجوز كانت هناك ، فدخلت وهي ترفع عن وجهها القناع الذي كان يججبه ، واذا هي سيده جاوزت سن الشباب ، وتخلي عنها الجمال ، ولكنها مع ذلك ذات نشاط ظاهر ، ولها رأس مرفوع . وقد حاولت اخفاء حقيقة سنها وراء زينتها الدالة على حسن الذوق !

ولم تكد تدخل البهو حتى استقبلها ذلك الرجل الذي سبقها اليه منذ قليل ومد يده لتحييتها قائلا :

« يوم سعيد يا سيدتي الدوقة »

فأجابته قائلة :

« كيف أنت يا عزيزي أراميس ؟ »

ثم قادها الى جناح فخم تنعكس على نوافذه العالية أشعة الشمس الغاربة . وجلسا في الضوء الخافت جنبا الى جنب ، دون أن يطلب أحدهما اضاءة الجناح بالشموع ، كأنما راقهما أن يختلفيا وراء تلك الظلال ، أو كأنهما يريدان الانزواء في عالم النسيان !

ثم قالت الدوقة :

« انك لم تترك لي ما أعرف به أنك على قيد الحياة منذ حديثنا معا في فونتينبلو .. وانى أصارحك القول بأن وجودك في ذلك اليوم حين وفاة الفرنسيكاني ، ووقوفك على تلك الاسرار ، قد أثارا في نفسي دهشة عظيمة ! »

فقال محدثها أراميس : « في أمكاني أن أفسر لك وجودي هناك ووقوفى

على بعض الاسرار »

ولكن الدوقة واصلت كلامها قائلة :

« دعنا أولا نتحدث عن نفسينا قليلا ، فان صداقتنا ليست حديثة العهد ! »

قالت : « نعم ، وقد كان ذلك أمرا يسيرا ، فقد علمت أنك ستأفرت معي الى فونتينيبلو ، ثم توجهت الى مقر أسقفيتك ، وهي في (بل - أيل - أن - مير) على ما أظن ! »

فقال مصححا : « ان أسقفيتي في (فان) يا سيدتي »

فقالت : « هذا ما قصدت أن أقوله . ولكن لساني سبق الى ذكر (بل - أيل - أن - مير) التي هي من أملاك المسيو فوكيه . ولهذه المناسبة : هل صحيح أنها محصنة ؟ » أنا أعرف أنك واسع الدراية بالمسائل الحربية ، فقال : « لقد نسيت هذه المسائل منذ دخلت في خدمة الكنيسة »

قالت : « على كل حال ، كان يكفي أن أعلم أنك عدت من (فان) وعلى هذا عهدت الى الكونت دي لافر ، صديقنا الذي فطر على الكتمان ، في التحقق من أمر رجوعك . ولكنه اعتذر بأنه لا يعرف عنوانك »

فقال الاسقف لنفسه : « هذه شبيمة أتوس ، ان الشبه لا يتغير ! » ثم قالت الدوقة :

« انك تعلم اني لا أجرؤ على الظهور هنا فان الملكة الوالدة دائمة الغضب على ! هل يدعشك ذلك ؟ ان لذلك أسبابا . لا محل لذكرها الآن . على أني خلال احتجاجي عن الانظار صادفتني شيء من حسن الحظ فلقبت المسيو دارتانيان الذي كان في الماضي صديقا لك »

فأوما برأسه موافقا وابتسم قائلا : « ولا يزال صديقي » . بينما واصلت الدوقة كلامها فقالت :

« وقد حصلت منه على بعض المعلومات ، وأرسلني الى المسيو بيزمو محافظ الباستيل ! »

فدهش أراميس اذ سمع ذلك وقال للدوقة :

« ولماذا أرسلك دارتانيان الى بيزمو ؟ »

فقالت : « ليس في استطاعتي أن أوضح لك هذا الأمر الآن »

وأخذ هو يجهد فكره لعله يعرف السبب . ثم قالت له الدوقة :

« ان المسيو بيزمو مدين لك كما أخبرني دارتانيان . ومن السهل أن نعرف من المدين عنوان الدائن »

قال : « هذا صحيح . وعلى هذا كان بيزمو هو الذي ذلك على عنواني »

فقالت : « نعم ، وعلى أثر ذلك أرسلت اليك خطابا في سانت مانديه »

فقال : « لا أزال محتفظا بهذا الخطاب ، وله عندي قيمة كبيرة لان له

الفضل في رؤيتي اياك ! »

وأعقبت ذلك فترة سكوت قطعها هو بعد قليل بقوله :

« لقد وصلنا في حديثنا الى زيارتك للمسيو بيزمو . أليس كذلك ؟ »

فضحكت وقالت : « بل وصلنا الى أبعد من ذلك ! »

فقال : « أجل ، كنا نتحدث عن الضغن الذي تحمليه للملكة الوالدة »

فقالت : « أبعد من ذلك . لقد كنا نتحدث عن العلاقة التي كانت تربطنا

بالفرنسيسكاني ! »

فبدا الاهتمام في وجهه من جديد وقال :

« نعم ، نعم ! أتمى حديثك . ها أنذا كل! أذان صاغية للدوقة مدام

دي شيفريز »

فقالت الدوقة : « من السهل تفسير تلك العلاقة فانك تعلم أني أعيش في

بروكسل مع المسيو دي ليك »

« لقد سمعت ذلك »

« وأنت تعلم أيضا أن أولادي جردوني من كل ما أملك ! »

« هذا أمر شنيع يا عزيزتي الدوقة ! »

« شنيع حقا . وقد أرغمني ذلك على التماس وسيلة للعيش خصوصا

أنني ليس لي من يحميني ! »

« أنت التي طالما حميت أناسا كثيرين ! »

« هكذا الدنيا أيها الفارس ! وعلى كل حال ففي الوقت الحاضر تتاح لي

فرص كثيرة لمقابلة ملك اسبانيا ، وقد عين جلالته أخيرا قائدا جديدا للجزويت

كما هو المعتاد ! »

« كما هو المعتاد ! » أواثقة أنت من أن هذا هو المعتاد حقا ؟

« نعم ، كيف لا تعلم ذلك ؟ »

« عفوا ! انني أعلم ولكن ذهني كان شاردا ! »

« لا بأس ! أنا واثقة من أنك تعلم ذلك ما دمت على صلة وثيقة

بالفرنسيسكاني . وقد أردت أن أقول : « ان ملك اسبانيا رأى أن يؤدي لي

خدمة فلم يجد خيرا من اعطائي كتابا الى الفلاندر ، يوصيه بي خيرا وبالمسيو

دي ليك ، وقرر لي معاشا من أموال الجزويت ! »

فبدا التعجب في وجهه ، وتساءل قائلا : « الجزويت ! »

فقالت الدوقة : « أجل ! وقد زارني الفرنسيكاني ، أعني قائد

الجزويت ، ولما كان نظام تلك الجماعة لا يجعل حقا في الحصول على معاش

من خزانتها الا لمن يؤدي لها خدمات ، فقد تفاهم معي على أن يكون لي عمل

استحق به ذلك المعاش »

فقال أراميس : « عجا ! لم أكن أعلم شيئا عن هذا النظام »

فسكتت هنيهة حاولت خلالها أن تتفرد في وجه أراميس لكنها لم

تتبينه تماما لشدة الظلام ، ثم مضت فقالت :

- أجل تلك هي القاعدة . وعلى هذا يجب أن أكون ذا فائدة للجماعة .
وقد عرضت أن أقوم برحلة لهذا الغرض وتمت الموافقة على ذلك ، على أن
المسألة في الواقع ليست غير شكلية ، لا يمكن من نيل المعاش الذي أنا في
حاجة إليه !

فهمس أراميس قائلا في صوت متهدج : « انى ليحزنتى أن أسمع ذلك .
أمثلك تضطرين الى أخذ معاش من الجزويت ؟ »

فقالت : « كلا أيها الفارس ، ان المعاش ليس منهم سل من ملك أسبانيا !
فتنهده وهز رأسه مغمضا : « أليس المورد واحدا ؟ »

فقالت : « كلا أيها الفارس ، ان المعاش ليس منهم بل من ملك أسبانيا !
فاستطرد أراميس قائلا :

- لا شك فى أن ثروتك الطائلة قد بقى منها شىء ؟

فقالت : « لم يبق لى سوى قصر دامبير ، ولكنه مرهون مثقل بالديون ،
ويكاد يصيبه الحراب ! »

فحدجها بنظرة نافذة لكنه لم ير شيئا فى الظلام المحيط بهما ثم قال :
« كيف تسكت الملكة الوالدة على كل ذلك ؟ »

فقالت الدوقة : « لقد نسيت الملكة الوالدة كل شىء ! »

قال : « أحسبك سعيت فى سبيل استعادة رضائها عنك ؟ »

- أجل ! ولكن الملك فيما يظهر ورث عن أبيه كراهيته لى . انى امرأة
بغیضة لا يمكن أن يحبني أحد ! أليس كذلك ؟

- أرجو يا عزيزتى الدوقة أن تصلى الى الهدف وأن تخبرينى بما جاء بك
الى هنا ، لانى أعتقد أن كلامنا يستطيع أن يخدم الآخر

- هذا ما أعتقده أنا أيضا . لقد ذهبت الى فونتينبلو لغرضين : أحدهما
خاص بالفرنسيسكانى الذى تعرفه . ولهذه المناسبة خبرنى كيف عرفته ؟
لقد قصصت عليك قصتى ولكنك لم تخبرنى بعد بشىء عن نفسك !

- كان طبيعيا أن عرفت الفرنسيسكانى ، فقد كنا زميلين فى دراسة
اللاهوت بجامعة بارما ، وسرعان ما توطدت الصداقة بيننا ، ولكن شواغل
العمل أو السفر أو الحرب كانت تفرق بيننا أحيانا

- أكنت تعرف أنه قائد الجزويت ؟

- كنت أشك فى ذلك !

- ولكن أى ظرف عجيب جعلك توجد بالفندق الذى اجتمع فيه المسافرون
الاخوان التابعون للجماعة ؟

- كان ذلك مصادفة لا أكثر ! فقد توجهت الى فونتينبلو متكررا لمقابلة
المسيو فوكيه كى يمهد لى السبيل الى مقابلة الملك ، وهناك رأيت الراهب

المسكين يموت فى الطريق وعرفت شخصيته فورا ، وأنت تعرفين الباقي
فقد مات بين ذراعى !

- أجل ! ولكنه خلف لك سلطانا واسعا حتى انك تصدر أوامرك
وتوجيهاتك وكأنك أحد الملوك !

- لقد ترك لى بعض مهام أقوم بها !

- وماذا ترك لك فيما يختص بى ؟

- ترك لك اثنى عشر ألف جنيهه ، وأحسبني وقعت على الأمر الخاص
بصرف هذا المبلغ ، ألم تتسلمينه ؟

- تسلمته ! وقد قيل لى انك تصدر أوامرك بشكل جعل الكثيرين
يعتقدون أنك عينت خلفا للقائد الراحل !

فصعد الدم الى وجه أراميس ، واستطردت الدوقة تقول :

- لقد حصلت على معلوماتى هذه من ملك اسبانيا نفسه . وقد بدد بعض
الشكوك التى قامت بذهنى . انه هو الذى يعين كل قائد للجزويت ، ويجب
أن يكون القائد اسبانيا طبقا لنظم الجماعة ، ولكنك لست اسبانيا ، كما أن
ملك اسبانيا لم يعينك !

فقال أراميس :

- ها أنت ذى ترين يا سيدتى أنك كنت على خطأ فى توهمك ، ما دام
ملك اسبانيا نفسه قد بين لك ذلك !

- الواقع يا عزيزى أراميس أنى كنت أفكر فى شىء آخر ! انى أعرف
شيئا عن معظم الأمور ، وقد خطر لى أنك تعرف اللغة الاسبانية !

- ان كل فرنسى اشترك فى حرب (الفروند) (١) يعرف اللغة الاسبانية
- هل عشت فى فلاندرز ؟

- ثلاث سنوات !

- وهل مكثت طويلا فى مدريد ؟

- خمسة عشر شهرا !

- اذن لك الحق فى نيل الجنسية الاسبانية اذا شئت ! فكل ما يشترط
لكسب هذه الجنسية هو الإقامة سنتين فى أرض اسبانية ومعرفة اللغة .
وأنت قد أقيمت أكثر من تلك الفترة وتعرف اللغة الاسبانية

- الى أى هدف ترمين يا دوقة ؟

- الى اننى على صلة حسنة بملك أسبانيا !

فقال أراميس يحدث نفسه : « وأنا لست على صلة سيئة به ! »

حرب داخلية وقعت فى فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر حين كان قاصرا (١٦٤٨ -
١٦٥٣) بين حزب البلاط تمثله الملكة آن النمساوية ومازارين ، وبين البرلمان الفرنسى

ثم سألته الدوقة :

— أأطلب الى ملك أسبانيا أن يعينك خلفا للراهب الفرنسييسكاني ؟
إذا لم تكن قد عينت في هذا المنصب بعد فاني أستطيع أن أؤدى لك هذه
الخدمة !

— ولماذا لم تؤدى هذه الخدمة نفسها للمسيو دى ليك ؟ انه رجل موهوب
على أنك تحبينه أيضا !

— أجل ولا ريب ! ولكن دعنا الآن من المسيو دى ليك : ألا تحب أنت
أن تنال ذلك المركز ؟

— كلا ! وشكرا لك !

فسكتت هنيهة وقد رجحت أنه قد عين في ذلك المركز ، ثم قالت له :

— إذا أبيت على أن أقدم لك هذه الخدمة ، فان ذلك لا يشجعنى على طلب
ما أريده منك !

— ما عليك الا أن تطلبى

— وكيف أطلب اليك شيئا وأنا غير واثقة من أن لك القدرة على تلبية
طلبى ؟

— مهما تكن سلطتى ومقدرتى محددين ، فأرجو أن تطلبى الى ما تريدين
انى محتاجة الى مبلغ من المال لاصلاح قصر دامبيير

فقال أراميس بيروود :

— مبلغ من المال ؟ حسنا يا دوقة ! كم تريدين ؟

— انه مبلغ ضخيم

— انك تعلمين انى لست غنيا !

— كلا ولكن جماعة الجزويت غنية فلو أنك عينت قائدا لها ٠٠٠

— أحسبك تعرفين أنى لست القائد !

— فى هذه الحالة تلجأ الى صديق لك وافر الثروة . أعنى المسيو فوكيه

— المسيو فوكيه ؟ انه قد أصابه الحراب يا سيدتى !

— هذا ما يقال ولكنى لا أصدقه !

— ولم لا تصدقين ذلك ؟

— لأن عندى ، أو بالاحرى عند دى ليك ، خطابات معينة من الكاردينال

مازارين تدل على وجود حسابات غريبة !

— أية حسابات ؟

— حسابات خاصة بمبالغ مختلفة من المال اقترضت وتم التصرف فيها .

انى لا أذكر تماما ما فى هذه الخطابات ولكنها تثبت أن وزير المالية قد أخذ
ثلاثين مليون فرنك من خزائن الدولة . والأمر جد خطير !

فبدا فى وجه أراميس الاهتمام والقلق وسألها قائلا :

— أيمكن أن تكون لديك هذه الخطابات التى تتحدثين عنها ولا تخبرى
بها المسيو فوكيه ؟

— انى احتفظ بمثل هذه المسائل الصغيرة لوقت الحاجة . وقد يأتى
اليوم الذى أستمد منها نفعا وعندئذ تسحب من الخزانة التى حفظت بها !

فسألها أراميس : « هل حل ذلك اليوم ؟ » فلما وافقت على كلامه
قال لها :

— هل اعترمت أن تطلعى المسيو فوكيه على تلك الخطابات ؟

فقالت : « لقد آثرت أن أتحدث عنها معك ! »

فقال : « لا بد أنك فى حاجة ماسة الى المال ، ولهذا تفكرين فى مثل هذه
المسائل ، أنت التى كنت لا تكترئين لما يكتبه اليك مازارين نفسه ! »

قالت : « نعم ، الحقيقة أنى فى حاجة الى المال ! »

فقال أراميس بيروود : « لا شك أنه يؤمك أن تتخذى مثل هذه الوسيلة
انه لا أمر يشق عليك ! »

فقالت : « لو أنني أردت الشر بدل الخير ، ما كنت لأطلب الى قائد
الجزويت أو الى المسيو فوكيه مبلغ نصف مليون فرنك لاصلاح قصر دامبيير .

بل كنت أطلب هذا المبلغ التافه من صديقتى القديمة الملكة الوالدة . ولا شك
أن خطابات السنيور مازارين كانت تفتح لى بابها حيث لا يكلفنى الحصول
على هذا المبلغ الا أن أقول لها : (أود لو أستقبلك فى قصر دامبيير ، وأرجو
أن تسمحى لى بأن أجعل ذلك القصر أهلا لهذا الغرض) . أليس كذلك ؟ »

فلم يجب أراميس ببنت شفة ، وبقي ساكنا ، فقالت له : « فيم تفكر ؟ »

فقال : « انى أجمع بعض أرقام ! »

فقالت : « حسنا ! انك تجمع الأرقام ، بينما المسيو فوكيه يطرح
أرقاما . أما أنا فأضرب أرقاما بعضها فى بعض ! حقا يا عزيزى .

ما أبرعنا حاسبين ! وما أشد ما يفهم أحدنا الآخر ! »

فقال لها أراميس : « ألا تسمحين لى بأن أفكر قليلا فى الأمر ؟ »

قالت : « ان الأمر بين أناس مثلنا لا يحتاج الى ذلك ، ولا يحتمل الا أحد
أمرين : اما القبول واما الرفض »

فقال الاسقف يحدث نفسه : « انه شرك منصوب ، ومن المحال أن تستمع
الملكة آن النمسوية الى امرأة مثل هذه . » ثم قال لها :

— أحسب أن المسيو فوكيه لا يوجد عنده الآن نصف مليون فرنك

فقالت : « اذن لا فائدة من الكلام فى ذلك ، ويمكن أن يصلح قصر دامبيير
بطريقة أخرى »

— أحسبك لست فى ورطة مالية الى هذا الحد !

- بل أنا فى ضائقة شديدة !

- لا شك فى أن الملكة ستفعل لك ما يعجز عنه وزير المالية !

- نعم ، ولكن ألا ترى من الأفضل أن أكلم المسيو فوكيه نفسه فى شأن تلك الخطابات ؟

- كلا . ولكن افعل ما يحلو لك : فان المسيو فوكيه اما أن يشعر بأنه فى هذه المسألة مذنب أو برى . فإذا كانت الأولى فانه لشدة كبريائه لن يعترف بذنبه . وإذا كانت الثانية فان تهديدك اياه يكون اهانة بالغة له فقامت الدوقة من مقعدها وهى تقول :

- ان منطقتك كمنطق الملائكة

- واذن فستفضحين المسيو فوكيه لدى الملكة ؟

- أفضحه ؟ انك تتخذ كلمة شديدة . انى لن أفضحه يا صديقى العزيز . انك تعرف الآن من شؤون السياسة ما يكفي لان تدرى كيف تعالج هذه الأمور . اننى لن أفعل سوى أن أقف ضد المسيو فوكيه ، وفى حرب حزب ضد حزب آخر يكون السلاح الذى يستخدم فى الهجوم سلاحا ذا أثر ! ومتى عادت علاقتى الودية مع الملكة الوالدة فقد أصبح ذات خطر - انك لا تجهلين ان المسيو فوكيه على أحسن علاقة مع ملك اسبانيا ، وعلى ذلك اذا بدأت حربا حزبية ضد المسيو فوكيه ، فانه سيرد عليك بالطريقة نفسها ، وستتخذ من هذه العلاقة سلاحا للهجوم !

- أتريد أن تقول انه سيكون على صلة حسنة بقائد الجزويت يا عزيزى أراميس ؟

- قد يكون الأمر كذلك يا دوقة !

- اذن أنت ترى أنه سينقطع عنى المعاش الذى آخذه من الجماعة ؟

- أخشى أن يحدث ذلك !

- حسنا ! يجب أن أتمس ما أجده من عزاء . ان مدام شيفريز لم يبق هناك ما يمكن أن تخشاه بعد ريشيليو وبعد حرب الفروند وبعد المنفى !

فقال أراميس : « ان المعاش كما تعلمين هو ثمانية وأربعون ألف فرنك » قالت : « نعم ، هو كذلك ويا للأسف »

قال : « أنت تعلمين طبعاً أن الصراع بين الاحزاب لا يدع سبيلا للفرار أمام الحُصوم وأنصارهم »

قالت : « أتعنى أن دى ليك المسكين سيسقى كذلك ؟ »

فقال : « أظن أنه لا مناص من ذلك يا دوقة »

- ان معاشه لا يعدو اثني عشر ألف فرنك !

- أجل ولكن ملك اسبانيا لا يزال له سلطانه ، وفى استطاعته بايعاز من المسيو فوكيه أن يزج بالمسيو دى ليك فى السجن حتى حين

- انى لا يزعجنى ذلك يا صديقى العزيز ، لانى بفضل صلحى مع الملكة ان ، سأجعل فرنسا تصر على الافراج عن دى ليك !

فقال : « هذا صحيح . ولكن فى هذه الحالة هناك أمر آخر تخشينه ! » فسألته متلهفة : « ما هو ؟ » فقال :

- ستعلمين ، ان لم تكونى قد علمت ، ان عضو جماعة الجزويت لن يسهل عليه تركها ، لأن الاسرار التى وقف عليها تصبح وبالاً عليه !

ففكرت مدام دى شيفريز هنيهة ثم قالت :

- هذا أمر أشد خطراً ، وسأفكر فى الأمر !

وبرغم الظلام الشامل أحس أراميس أن محدثته تنظر اليه نظرة نافذة تكاد تخترق قلبه . ثم قال لها وهو يتحسس بدافع الفريزة خنجراً مخبأ على صدره : « لنخلص المسألة ولننتفاهم »

فقالت : « أجل ! ان دقة الحساب تسبب صدق المودة ! »

قال : « فلنبداً بالغاء معاشك »

فقالت : « ولنحسب معه الغاء معاش دى ليك ، فتكون جملة الحسارة ستين ألف فرنك فى السنة . أهذا ما تعنيه ؟ »

قال : « نعم ، ويهمنى أن أعرف ما تكسبته فى مقابل ذلك ؟ »

فقالت : « نصف مليون فرنك آخذها من الملكة ! »

قال : « لكنك قد لا تأخذينها منها ! »

فقالت : « انى أعرف الوسيلة لحصولى على هذا المبلغ ! »

فازداد أراميس اصغاء وقد أحس أنه بدأ يكسب فى هذا الحوار بمقدار ما تخسر محدثته ، ثم قال لها :

- لنفرض أنك ستحصلين على هذا المبلغ ، لكنك ستخسرين ضعفه لانك سيكون لك معاش قدره مائة ألف فرنك بدلا من ستين ألفاً ، لمدة عشر سنوات !

فقالت : « ان النقص فى دخلى لن يدوم أكثر من الفترة الباقية للمسيو فوكيه فى منصبه ، وأنا أقدرها بشهرين اثنين لا أكثر ، وأرجو أن تعجبك هذه الصراحة ! »

فقال أراميس : « شكراً لك يا دوقة . ولكنك تخطئين اذ تحسبين أن جماعة الجزويت تدفع معاشك بعد فضيحة المسيو فوكيه »

فقالت : « أنا أعرف كيف أجعلها تصرف لى معاشى ، كما أعرف كيف أجعل الملكة تعطينى ما أريده ! »

فارتسمت على شفثيه ابتسامة حجبها الظلام وقال : « فى هذه الحالة لا مناص لنا من أن نسلم لك ، ولكن ألا يمكن أن تكونى أكثر رحمة ؟ »

ولم تلاحظ الدوقة ما فى هذا القول من سخرية ، وقالت له :

عجبا ! كيف تستكثر مثل هذا المبلغ الزهيد الذي لا يزيد على نصف مليون فرنك ، على حين أن الأمر يتعلق بوقايبتك ! أعنى وقاية صديقك أو حاميك ، من العواقب الوخيمة التي تنجم عن حرب حزبية !

فقال في هدوء : « لنفرض أن ذلك المبلغ صرف لك ، إلا ترين أن المسيو دي ليك في هذه الحالة سيطالب بنصيبه أيضا ، أي بنصف مليون آخر ؟ كما أن أولادك وغيرهم ممن يلودون بك سيطلبون بأنصبتهم ولا شك من جديد . في حين أن تلك الخطابات التي وقع عليها مازارين مهما يكن ما تشتمل عليه لا تساوي ثلاثة ملايين أو أربعة ملايين من الفرنكات ! هل نسيت جواهر ملكة فرنسا ؟ لا شك في أنها كانت أكبر قيمة من هذه الخطابات ، ومع ذلك لم تكلف استعادتها ربع المبلغ الذي تطلبينه لنفسك ! »

فقالت الدوقة : « قد يكون هذا صحيحا ، ولكن للتاجر أن يقدر بضاعته وفق ما يراه وللمشتري أن يدفع أو يرفض الشراء ! »

فقال : « على رسلك يا سيدي الدوقة . أتريدين أن تعلمي لماذا لا أشتري تلك الخطابات ؟ انني لا أشتريها لأنها خطابات زائفة ! »

فضحكت الدوقة وقالت ساخرة : « هذه سخافة ولا شك ! وعجيب منك أن تصدقها ! »

فقال : « الواقع أنني لا أشك في أنها زائفة ، وأنت تذكرين أنك بعد أن اختلفت مع الملكة بمسعى المسيو مازارين قد مكثت على علاقة وثيقة به . وفي ذلك ما يجعلك في موقف الجاسوسة ، وصدقيني . لست أحب أن أطلق عليك هذا الوصف ! »

فقالت ساخرة : « بل أطلق على من الاوصاف كل ما تريد ! »

فقال : « ليس هناك ما يدعو الى هذا . على أنك على الأقل توافقيني على أن لطفك معه بعد ذلك ليس فوق مستوى الشبهات ! »

قالت : « ربما يكون هذا صحيحا ، ولكن الأصح منه ما تحويه الخطابات » ورات مدام دي شيفريز أنها قالت ما فيه الكفاية ، فنهضت ومشيت خطوات صوب الباب ، غير أن أراميس الداهية سرعان ما أعد مفاجأة للانتقام منها ، فدق جرسا هناك وإذا بالشموع توقد فورا في الغرفة المجاورة وإذا بالاضواء تنعكس على وجهها النحيل وخديها الذابلين ، وعينيها المغمضتين ، وأسنانها المسودة . وهي واقفة بجانب المرأة الكبيرة ، فوقف يتأملها مرفوع الرأس ، وعلى شفثيه ابتسامة ساخرة ، كشفت عن أسنانه اللامعة . وأدركت العجوز خدعته التي كشفت عما جاهدت لاختفائه من قبج منظرها ، فسارعت في الخروج ، متحاملة على ساقها المرتعشتين ، بينما انحنى لها هو في رشاقة الفارس الذي كانه ، ثم قفز عبر الغرفة ليقودها الى الباب

صفحة سياسية

قصدت الدوقة الرفيعة المنبت مدام دي شيفريز ، بعد مغادرتها الدار بميدان (بودوايه) الى الفندق الذي تنزل به ، وكانت تخشى أن يكون هناك من يتبعها ، فمكادت تصل الى باب الفندق وتستوثق من أن أحدا لم يسر في أثرها حتى خرجت من باب الحديقة الذي يوصل الى شارع آخر ، وتوجهت بسرعة الى شارع (كروا ديه بيتي شان) حيث يقيم المسيو كولبير وكيل وزارة المالية

وكان الليل قد أرخى سدوله ، والظلمة حالكة ، وقد شمل باريس السكون ، باسطا رداءه على تلك الدوقة وهي تحمل دسيستها السياسية ، وكانت قد ألقت الدسائس السياسية والمؤامرات التي تحاك في الظلام ، وعرفت أن أي وزير لا يمكن أن يرفض لقاء شابة حسناء في بيته ، ولا امرأة عجوز كثيرة التجارب !

واستقبلها أحد الخدم في دار المسيو كولبير ولم يستطع اخفاء دهشته من زيارة امرأة في مثل سنها لسيده في مثل تلك الساعة ، وكتبت هي اسمها على رقعة من الورق ناولته اياها ليوصلها الى سيده في غرفة مكتبه ، وقد فوجيء هذا اذ قرأ اسم الزائرة وأمر الخادم بادخالها تورا !

ووقفت الدوقة هنيهة بالباب تتفرس في وجه كولبير مليا لتدرس شخصيته قبل أن تحدته ، ورات أن له رأسا كبيرا مستديرا ، وحاجبين عريضين ، وملامح عاطلة من الجمال ، وقد وضع على رأسه قلنسوة كالتي يرتديها القساوسة . ولم تر في هيئته لاول وهلة أية دلالة على حب الانتقام أو الطموح . غير أنها قالت لنفسها وهي تتأمل عينيهِ الصغيرتين النفاذتين ، والفضون الباهية على جبينه ، وانطباق شفثيه : « انه الرجل الذي أحتاج اليه ! »

واستقبلها هو مرحبا في أدب متكلف ، وما لبث أن سألها بعد أن قدم لها مقعدا كبيرا ، فقال في صوت حاول جاهدا أن يضيف عليه الهدوء :

— أية مسألة يا سيديتي أتاحت لي شرف زيارتك الليلة ؟

فأجابت الدوقة قائلة على الفور :

— انهما مسألتان ، أو مسألة واحدة ذات شطرين هما : حاجتي اليك أيها السيد ، وحاجتك الى في الوقت ذاته !

فتكلف الابتسام وقال : « أما الشطر الاول فيسرني أن أضع نفسي في

خدمة سيدتى الدوقة لعل أستطيع القيام به . وأما الشطر الثانى
فقطعت الدوقة عبارته قائلة : « مسيو كولير . . انك وكييل المالية ،
وانه ليسرك طبعاً أن تكون وزيرها ! »
ففتح الرجل فمه ورفع حاجبيه دهشة ثم غمغم قائلاً : « سيدتى ! »
بينما واصلت هي كلامها فقالت :

– فيم الدهشة ؟ . ولم الانكار ؟ . ان هذا يطيل حديثنا بلا موجب ،
وهو بعد عبث لا فائدة منه !

فعاد الى ابتسامته المتكلفة وقال : « سيدتى . . انى ليسعدنى حقاً أن
أستمع لسيدة عظيمة لها مثل مركز ولقبك ، ولكن هذا لا يمنعنى من
الاعتراف بانى ما فكرت يوماً فى انتزاع وظيفة رئيسى منه ! »

فقالت : « لم أقل أنك تنتزع وظيفته ، ولم أفكر فى ذلك قط . وأحسب
أن كلمة (تحل محله) تؤدى المعنى المراد . وعلى هذا فانى أفرض أنك
يسرك أن تحل محل المسيو فوكيه وزير المالية ! »

فقال : « ان ثروة المسيو فوكيه يا سيدتى تمكنه من أن يحبط كل محاولة
من هذا القبيل . ان وزير المالية فى هذا العصر يشبه الى حد كبير تمثال
رودس الضخم الذى تسير السفن تحته دون أن تقلبه ! »

قالت : « نعم هذا صحيح ، ولكنى أذكر أن المسيو كونراد عضو الاكاديمية
قال يوماً : (ان تمثال رودس الضخم هذا سقط من مكانه الشاهق ولم يكن
الذى أسقطه سوى تاجر لا أكثر . وقد حمل أربعمائة رجل بأناقضه !) . . .
تصور يا مسيو كولير . . لقد فعل هذا تاجر بسيط هو أقل من وكييل
وزارة المالية على كل حال ! »

فسكت كولير قليلاً ثم قال : « لكنى أؤكد لك يا سيدتى انى لا أريد أن
أسقط المسيو فوكيه ! »

فقالت : « حسناً يا مسيو كولير : ما دمت تصر على أن تبدى لى كل هذه
الحساسية ، وكانك تجهل انى مدام دى شيفريز ، وانى قد تقدمت بى السن
الى حد ما ، أى أنك بعبارة أخرى تحدث امرأة كانت لها علائق سياسية
بالكاردينال دى ريشيليو ، وليس أمامها وقت تضييعه . . أقول : ما دمت
تأبى الا أن تكون هكذا كما أنت فخير لى أن أذهب ، وسأجد أناساً آخرين
أوسع أفقا ، وأشد رغبة فى تكوين مستقبلهم ! »

فقال متلعثماً : « كيف ذلك يا سيدتى ؟ »

قالت : « انك تعطينى فكرة سيئة عن مفاوضى العصر الحاضر . وأؤكد
لك أن المسيو (سانك مارس) الذى كان وكيلاً للمالية فى الجيل الماضى ،
أيام شبابه ، ما كان ليبدى مثل هذا التردد ، لو أنه سمع عن الكاردينال
ريشيليو مثل ما قلته لك الآن عن المسيو فوكيه ، وهذا برغم أن المسيو
(سانك مارس) لم يكن خارق الذكاء ! »

فازداد تلعثم المسيو كولير وقال للدوقة : « أرجو يا سيدتى أن تظهرى
شيئاً من التسامح ! »

فقالت : « حسناً . . أتوافق على أن تحل محل المسيو فوكيه ؟ »
قال : « أوافق ولكن فى حالة واحدة . . اذا فصل الملك المسيو فوكيه من
منصبه ! »

فابتسمت الدوقة العجوز وقالت : « هذا شرط لا حاجة اليه . فمن
الواضح انك اذا كنت لم تنجح فى ابعاد المسيو فوكيه عن منصبه فذلك
لانه أمر فوق طاقتك . وأنا لست بلهاء الى حد أن أتى اليك الليلة وأخاطبك
فى مثل هذا الشأن دون أن أعد للأمر عدته ، وتكون فى يدى كل الادوات
التي يحتاج اليها تنفيذه ! »

فقال كولير بعد فترة صمت قصيرة :

– آسف يا سيدتى لاضطرارى مع ذلك الى الاصرار على وجهة نظرى !
على أنى أرى واجباً على أن أبتك بأن المسيو فوكيه خلال السنوات الست
الاخيرة قامت ضده أكثر من تهمة ، ولكنها لم تستطع أن تهزه أو تؤثر فيه!
فحدثته الدوقة بنظرة فاحصة ، ثم قالت فى لهجة ملؤها الثقة والاعتداد
بالنفس :

– لكل شيء أوان يا مسيو كولير ! ان أصحاب تلك الاتهامات لم تكن
بينهم واحدة تسمى مدام دى شيفريز ، ولم تكن بأيديهم أدلة قاطعة تعادل
كتبا ستة تؤيد التهمة موقعا عليها من المسيو دى مازارين !

فتمتم كولير : « تؤيد التهمة ؟ . . أية تهمة يا سيدتى ؟ »
فقالت فى هدوء : « نعم ، التهمة بل الجريمة التى ارتكبتها المسيو فوكيه
اذا شئت ! »

فازدادت دهشته وأخذ يردد : « جريمة ارتكبتها المسيو فوكيه ! ؟ »

وواصلت الدوقة كلامها فقالت : « أجل ! لا أقل من ذلك . ومن عجب
يا مسيو كولير أن ملامح وجهك التى كانت جامدة منذ هنيهة قد بدت الآن
على عكس ذلك ، وهى تنبئ بوضوح عن شدة اهتمامك بالموضوع ، موضوع
الجريمة التى اقترفها المسيو فوكيه . ويسرنى أن الأمر على كل حال أثار
فى نفسك الاهتمام ! »

فقال : « اليس طبيعياً أن أهتم لذلك يا سيدتى ؟ ان هذه الكلمة الواحدة
(كلمة جريمة) تدل على شيء كثير خطير ! »

فقالت : « نعم ، انها كلمة تتضمن منصب وزير المالية لك ، وأمرها
بالنفى من البلاد أو النزول بسجن الباستيل للمسيو فوكيه ! »

فسكت قليلاً ثم قال : « عفواً يا سيدتى الدوقة ، ان نفى المسيو فوكيه
يكاد يكون من المحال . أما أن يسجن أو يوصم بالعار فهذا شيء كبير
فقطعت كلامه قائلة : « انى أعسنى ما أقوله تماماً ! ولئن كنت الآن

لا أقيم دائما بباريس ، فما زلت على بينة من كل ما يدور فيها . واني لعل
يقين من أن الملك لا يميل الى المسيو فوكيه ، وأنه لن يتوانى عن التضحية
به متى لاحت له الفرصة لذلك !

فغمغم المسيو كولبير قائلا : « انها فرصة طيبة على كل حال ! »
فقالت الدوقة : « بل هي فرصة طيبة جدا . . . تسارى نصف مليون فرنك
على الأقل ! »

فسألها كولبير : « من أى وجه ؟ »
فأجابت بقولها : « أعنى يا سيدى أنى اذ أمسك بيدي هذه الفرصة ،
لن أدعها تنقل الى يدك الا فى مقابل نصف مليون فرنك ! »
فقال : « انى أفهم ما تقولين تماما يا سيدتى . ولكن ما دمت قد حددت
ثمننا . . . ألا يحق لمن سيدفعه أن يرى السلع التى يبتاعها ؟ »
فقالت : « انها شىء تافه . . . وليست سوى ستة خطابات من المسيو مازارين
كما أسلفت القول . على أنها لا تعد فادحة الثمن ما دامت تثبت قطعا أن
المسيو فوكيه اختلس مبالغ طائلة من خزانة الدولة وأنفقها فى مآربه
الخاصة ! »

فلمعت عينا كولبير بسرور ظاهر وقال :

— أهى تثبت ذلك بصفة قاطعة حقا ؟

فقالت « أجل بالتأكيد ! . هل تحب أن تقرأ تلك الخطابات ؟ »

فأجاب : « أحب ذلك من كل قلبى ! . . انها صور من تلك الخطابات
طبعاً . . . أليس كذلك ؟ »

فأومات برأسها موافقة ، ثم مدت يدها النجيلية الى صدرها وأخرجت
رزمة صغيرة من الورق قدمتها له قائلة :

— هيا . . . اقرأ يا مسيو كولبير

فتناول رزمة الورق من يدها فى شغف ظاهر ، ثم فضها وأخذ يقرأ
ما فيها باهتمام شديد ، فلما انتهى من ذلك نظر الى الورقة وعيناه تلتصقان
سرورا ، وقال : « هذا بديع ! . . بديع جدا يا سيدتى ! »

فقالت وهى تبتسم : « الأمر واضح الى أقصى حد ، أليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا سيدتى . . . أجل ! . ان المسيو مازارين قد سلم الى
المسيو فوكيه مالا . . . ولا بد أن هذا احتفظ بذلك المال لنفسه . . . ولكن أى
مال هذا ؟ . . ان الخطابات الستة لم يرد فيها ما يوضح هذا الأمر »

فقالت الدوقة بهدوء : « صدقت ! . ولك الحق فى أن تسأل : أى مال
هذا ؟ . . ومتى وصلنا الى اتفاق فسأريك خطابا سابعا يزودك بتفصيل
المسألة كلها من أولها الى آخرها ! »

ففكر كولبير هنيهة ثم قال :

— وأين أصول هذه الخطابات

— هذا سؤال لا فائدة منه ، وما أشبهه بأن أسأل المسيو كولبير مثلا :

هل أكياس النقود التى سيدفعها ثمننا لهذه الخطابات مملوءة أم فارغة ؟

— حسنا يا سيدتى

— اذن فقد اتفقنا ؟

— كلا ! . هناك شىء لم يعره أحد منا أقل التفات . ان المسيو فوكيه

لا يمكن أن تتم فضيخته الا بدعوى قضائية يصدر الحكم فيها بادانته !

— حسنا ! . . فلترفع هذه الدعوى اذن

— لا يمكن اتخاذ الطرق القانونية ضده يا سيدتى . فهو النائب العام

للبرلمان . . . ولا شك فى أن جميع الدوائر والمصالح الحكومية فى فرنسا ،

ومن بينها ادارة الجيش وادارة القضاء نفسه متصلة كلها اتصالا وثيقا بروح

الزمانة . . . وفى هذه الحالة يا سيدتى لن يسمح البرلمان بأن يقف رئيسه

أمام محكمة علنية . حتى لو قدم الى المحاكمة بأمر ملكى فلن يحكم عليه !

فقالت الدوقة فى هدوء : « لا أدري ما شأنى أنا بكل هذا ؟ »

فقال كولبير : « أعرف ذلك يا سيدتى ، ولكنى أنالى شأن به ! . وهذا

ما يقلل من قيمة الدليل الذى أطلعتنى عليه . فالواقع أن أى دليل على

جريمة لا يكون ذا قيمة اذا لم يكن هناك مجال لمحاكمة مقترفها ! »

فقالت الدوقة متململة : « ان المسيو فوكيه سيقفد منصبه ولا شك

نتيجة لاتجاه الشبهات اليه . . . أليس هذا كافيا ؟ »

فسكت كولبير قليلا ، وبدت فى وجهه دلائل البغض وحب الانتقام ثم

قال : « أهذا كل ما فى الأمر ؟ »

فقالت : « عفوا يا مسيو كولبير ، لم أكن أدري انك شديد التأثير هكذا . . .

حسنا ! . فى هذه الحالة ما دمت تريد أكثر مما عندى فلا متسع لبحث

المسألة معك ! »

فقال : « بل نواصل البحث يا سيدتى ! . ولكن ما دامت قيمة بضاعتك

قد نقصت ، فيجب أن ينقص ثمنها ! »

فقالت وهى تمعن النظر فى وجهه : « انك تساومنى ! ؟ »

فابتسم وقال : « ان كل انسان يريد التعامل لابد له من أن يساوم ! »

فسألته متبرمة : « كم من المال تدفع ثمن تلك الخطابات ؟ »

فقال بعد تفكير قليل : « مائتى ألف فرنك ! »

فضحكت الدوقة ساخرة . ثم قالت له : « ألا تدفع أربعمائة ألف فرنك ؟

بل ثلاثمائة ألف . ما رأيك ؟ »

فبدا عليه التردد ، ولم يجد ما يقوله ، وواصلت هى كلامها فقالت :

- ثلاثمائة ألف لا أقل ! فاما أن تقبل واما أن ترفض ! .. ثم ان هذا كل ما فى الأمر !
- وماذا لديك أيضا ؟

- ان المال ليس كل ما أريده منك . فهناك خدمة أريد أن تؤديها لى أيضا ! .. انك تعلم أنى كنت مقربة من الملكة الوالدة ، وأنا الآن أود لو أقابلها وأحدثها !
فبقى ينظر إليها ساكنا ، ثم غمغم يقول : « الملكة ؟ تقابلين الملكة الوالدة ؟ »

فقالت له : « أجل يا مسيو كولبير ، أريد أن أقابل الملكة .. انها لم تعد صديقتى منذ فترة طويلة ، ولكنها ستعود الى صداقتى اذا أعطيت فرصة لمقابلتها ومحدثتها ! »

فقال كولبير : « لكن جلالتها لا تقابل أحدا الآن . انها تعاني من مرضها ألاما شديدة ، ونوبات الألم تعترئها الآن فى فترات متقاربة ! »

فقالت الدوقة : « هذا نفسه ما يدعونى الى طلب مقابلتها . ان مرضها العضال الذى حار أطباؤها فى علاجه ، كثير الانتشار فى اقليم الفلاندر ، ولاسيما بين النساء . وكثيرات منهن استطعن التخلص من آلامه وتم شفاؤهن ! »

فسألها كولبير متعجبا : « اتعنين السرطان ؟ انه مرض خطير لا يوجد ما يشفى منه حتى الآن ! »

فقالت : « لا تظن ذلك يا مسيو كولبير ، ان فلاح الفلاندر رجل فطرى ، وزوجته تعمل وتكد فى المنزل والحقل وما بينهما ، وانها لتشفى بذلك أكثر مما يشقى البغل أو الحمار ، ثم هى الى ذلك قليلة العناية بنفسها ، ولهذا تصيبها الامراض المختلفة . وكثيرا ما يابى زوجها أن يكتفى بتركها تشقى هكذا بينما هو يدخن غليونه ، فيضربها ضربا مبرحا يترك فى جسمنها رضوضا قد تسبب اصابتها بالسرطان ، فاذا اشتد بها الألم التمسست الشفاء عند الراهبات فى (بروجز) وهن خير طبيبات لكل نوع من المرض ، وعندهن سوائل مفيدة لمختلف الواجه ، وتكفى قارورة منها ومعها شمعة يعطينها للمريضة لكي تشفى من ذلك المرض الويبيل . وسأذهب الى الملكة ببعض ذلك الماء ، وستشفى جلالتها وتوقد من الشموع ما تراه ملائما . وما أنت ذا ترى يا مسيو كولبير أنك اذا حلت دون مقابلتى للملكة كنت بمثابة قاتلها ! »

وكان يصغى الى حديثها بكل جوارحه ، فلما انتهت منه قال لها : « الحق يا سيدتى الدوقة أنك ذات مقدرة بالغة . على أنى أعتقد أن هذا العطف المحمود من جانبك على الملكة يخفى وراءه صالحا شخصيا ولو ضئيلا ! .. ليس كذلك ؟ »

فقالت الدوقة : « أنا لم أحاول اخفاءه عليك يا مسيو كولبير . وهذا الصالح الشخصى ليس ضئيلا كما تقول ، بل هو فى الواقع صالح كبير جدا . والآن ما رأيك ؟ .. انك اذا مكنتنى من لقاء الملكة على انفراد فسأفنع بالثلاثمائة ألف فرنك التى طلبتها . والا فانى أحتفظ لنفسى بالخطابات الستة - اللهم الا اذا أعطيتنى فى هذه الحالة خمسمائة ألف فرنك ! »

وتحركت الدوقة فى مقعدها كأنما تهم بالنهوض والانصراف ، فاشتدت حيرة المسيو كولبير ، ورأى ألا فائدة من مواصلة المساومة ، برغم فداحة الثمن الذى تطلبه . وما لبث قليلا حتى قال لها :

- سيسرنى يا سيدتى أن أدفع لك الثلاثمائة ألف فرنك ، ولكن كيف أحصل على الخطابات الاصلية ؟

فقالت : « تحصل عليها بأبسط طريقة يا عزيزى المسيو كولبير . من الذى تثق به فى أداء هذه المهمة ؟ »

فضحك كولبير حتى بدت نواجذه وقال : « لا أثق بأحد ! »

فقالت وهى تشاركه الضحك : « يمكنك على الأقل أن تستثنى نفسك ! .. اعنى أن تكلف نفسك الذهاب معى الى المكان الذى توجد به الخطابات فتسلمها وتستوثق منها ! »

فاوما برأسه موافقا وقال : « صدقت يا سيدتى الدوقة . فقالت : لا تنس الثلاثمائة ألف فرنك ، فأنا أيضا لا أثق بأحد ! »

فصعد الدم الى وجهه حتى بلغ أطراف أذنيه ، فهو ككل الرجال البارزين المشتغلين بالارقام لا يرضى أن يتطرق الشك الى نوايته . ثم قال لها :

- سأخذ معى اذنين بالمبلغ على خزانتي . أيرضيك هذا ؟

فقالت : « بودى لو كان الاذنان بمليونين أو أكثر من الفرنكات . واذن كنت أريك طرقا عدة تؤدى كلها الى غايات لا تصل اليها الا فى الاحلام ! » وهنا نظر فى ساعته ، ثم قال لها : « أسمحين لى أن أطلب عربتى ؟ »

فقالت : « ان عربتى تنتظر بالباب ! »

فسعل كولبير بشكل يدل على التردد . وخطر بباله فى هذه اللحظة أن ما يمرضته الدوقة عليه انما هو شرك نصب لا يقاعه فيه ، وربما يكون هناك من ينتظرهما لدى الباب ، أو تكون هى قد اتفقت مع المسيو فوكيه من قبل على بيع تلك الخطابات اليه !

ولما بان عليه التردد نظرت اليه الدوقة وقالت له : « أتؤثر ركوب عربتك ؟ » فقال على الفور : « أعترف بذلك ! »

فابتسمت وقالت : « لعلك تحسب أنى ربما أفودك الى شرك ؟ »

فاحمر وجهه مرة أخرى وقال : « يا سيدتى الدوقة .. انك تبتدين جراءة نادرة وقلة مبالاة . ولكنى رجل له سميت الجد والصرامة ، فأية لعبة تلعب على قد تسيء الى سمعتى ! »

فقلت : « الحقيقة أنك خائف ! .. ولكن لا بأس .. هيا اركب عربتك
وخذ معك من الخدم أى عدد تشاء ، ولكن اصغ الى ما سأقوله لك : ان
ما ندبره فيما بيننا لا يعلمه سوانا ، واذا علم به أى شخص ثالث فكان
العالم كله قد علمه . وأنا لا أبالي كما وصفتني ، وستتبع عربتى عربتك ،
وحسبى أن أركب عربتك عند ذهابى الى الملكة ! »

فغمغم يقول : « الملكة ؟ » . فقلت :

— أنسيت هكذا بسرعة ؟ كيف يفوتك أهم بند من بنود اتفاقنا ؟
وهنا التفت اليها قائلا : « لقد فكرت يا سيدتى ولن أصبحك ! »
فسألته : « ولم لا ؟ » . فقال : « لأن لى بك كل الثقة ! »
فقلت : « شكرا لك . ولكن بشرط أن أحصل على المبلغ الآن ! »
فقال : « ها هو ذا يا سيدتى ! »

وكتب بضعة أسطر على رقعة من الورق وسلمها الى الدوقة

فتناولت الورقة وقالت : « ان مسلكك راق وسأكافئك عليه ! »

وضحكت ضحكة مخيفة .. ثم فتحت صدر ثوبها وأخرجت من طياتها
رزمة صغيرة من الورق ومدت يدها بها اليه وقالت وهى لا تزال تضحك :
— هاك الخطابات الاصلية يا مسيو كولبير . انها الآن ملكك . وان
مستقبلك الآن مكفول . هيا الآن اصحبنى الى الملكة !

فبهت مرة أخرى وقال : « الآن ؟ » انك اذا تعرضت مرة ثانية لغضب
جلالته وعرف فى البلاط أنى كنت الواسطة فى دخولك القصر ، فان الملكة
لن تسامحنى ما عاشت . كلا ! بل يوجد فى القصر بعض أناس مخلصين
لى وهم سيتولون أمر استقبال الملكة اياك ، دون أن يذكر اسمى »

فقلت : « كما تشاء ، ما دمت سأتمكن من دخول القصر ! »

قال : « ستدخلين القصر فى زى راهبة من راهبات مدينة بروجز »

قالت : « معذرة ولكنى لا أحب أن أتعرض لرفض المقابلة »

— هذا أيضا شأنك أنت يا سيدتى . سأصدر تعليماتى الى رئيس خدم
الأمين المختص بخدمة صاحبة الجلالة ، كى يسمح بدخول راهبة ، تحمل
الى جلالته دواء يشفى آلامها . خذى هذا الخطاب واعملى على أن تحصلى على
الدواء وعلى كل المعلومات اللازمة . انى أعترف بمعرفتى لراهبة ، ولكنى
انكر انى أعرف أى شىء عن مدام شيفريز !

منصب للبيع

سلم كولبير الخطاب الى الدوقة ، ثم سارع الى اراحة الكرسي الذى كانت
واقفة وراهه من طريقها الى الباب ، فحيتته بأيماءة خفيفة برأسها وغادرت
الغرفة حيث أوصلها خادمه الى عربتها المنتظرة بالباب الخارجى فاستقلتها
وانصرفت

وكان كولبير قد عرف خط مازارين منذ تبينه فى الخطابات ، فما كادت
الدوقة تنصرف حتى دق الجرس لسكرتيره ، فلما جاء هذا مسرعا أمره ان
يدعو اليه المسيو فانيل المستشار بالبرلمان ، فقال السكرتير :

— ان المسيو فانيل جاء منذ هنيهة ليقدم كمادته لسيدى الوكيل بيانا
بما دار خلال اليوم بالبرلمان

واقترب كولبير من أحد المصاييح وقرأ مرة أخرى خطابات الكريدينال
التوفى ، وابتسم ابتسامة الرضا إذ أدرك قيمة الأوراق التى تسلمها من
مدام دى شيفريز ، ثم أسند رأسه الى يديه واستغرق فى تفكير عميق ،
وفى أثناء ذلك دخل الغرفة رجل طويل القامة ضخم الجسم يدل وجهه
التحيل ونظرته الثابتة وأنفه الأتى ، على ثقة بالنفس مع التواضع . وكان
يتأبط رزمة ضخمة من الورق فوضعها برفق على المنضدة التى استند
اليها كولبير . وقال له هذا وقد تنبه لدخوله وقطع تفكيره :

— عم مساء يا مسيو فانيل

فحنى الرجل رأسه وقال : « عم مساء يا صاحب المعالي ! »

وخفق قلب كولبير إذ سمع هذا اللقب وقال للمستشار : « لماذا تلقبني
بصاحب المعالي ، ليس هناك ما يدعو الى ذلك ! »

فقال فانيل : « ان هذا من حقاك يا سيدى فانت وزير وهذا اللقب حق
للوزراء ! »

فزم كولبير شفقيه ثم قال : « لم يحن الوقت لذلك بعد يا مسيو فانيل ،
وما أنا الآن الا (مسيو) فقط ! »

فسارع المستشار الى الرد قائلا : « لا يا سيدى ! . انك وزير فى الواقع ،
وعلى هذا يجب أن تدعى صاحب المعالي . واذا كنت تكره ان أفعل ذلك
علنا فاسمح لى بأن أناديك بهذا اللقب فيما بيننا »

فرفع كولبير رأسه ونظر اليه مليا كأنما يريد أن يستشف مدى إخلاصه ،
ثم قال له كولبير فجأة :

- فانيل .. انك ذو جلد على العمل كما اعلم فهل تستطيع ان تعمل اثنتى عشرة ساعة في اليوم ؟
- فقال : « الواقع اننى اعمل خمس عشرة ساعة كل يوم ! »
- هذا مستحيل . ان عمل المستشار في البرلمان لا يحتاج الى اكثر من ثلاث ساعات
- انى اعد بعض بيانات لصديق لى في قسم الحسابات ، ولما كنت مع هذا اجد فراغا من الوقت فانى ادرس اللغة العبرية !
- ان لك سمعة عالية في البرلمان يا فانيل
- شكرا لله على ذلك يا صاحب المعالي
- يجب الا يصيبك الصدا ببقائك في منصب المستشار
- وماذا ينبغي لى ان افعل لاحول دون ذلك ؟
- اشتر لنفسك منصبا رفيعا . ان المطامع الصغيرة الحقةرة يصعب ارضاؤها
- الواقع ان ملء اكياس النقود الصغيرة اصعب من ملء الاكياس الكبيرة
- ثم قال له كولبير : « اى منصب ترنو اليه ؟ »
- لست ارنو الى اى منصب !
- هناك منصب معين ، ولكن لا بد ان يكون الانسان ملكا تقريبا حتى يستطيع ان يشتريه ، بل احسب الملك نفسه لا يرغب في شراء منصب النائب العام !
- وهنا نظر فانيل الى كولبير نظرة غبية ، فلم يدر كولبير افهم فانيل قصده ام لم يفهم . ثم قال له فانيل :
- لماذا تحدثنى يا صاحب المعالي عن منصب النائب العام للبرلمان ؟ انى لا اعرف منصبا من هذا القبيل الا ذلك الذى يحتله المسيو فوكيه الان
- نعم ، هذا صحيح يا عزيزى المستشار
- عفوا يا صاحب المعالي ، ولكن قبل ان يشتري هذا المنصب يجب اولا ان يكون معروضا للبيع !
- اعتقد يا مسيو فانيل ان هذا المنصب سيعرض للبيع !
- للبيع ؟ ! . ماذا ؟ . منصب المسيو فوكيه النائب العام للبرلمان ؟ !
- فسأله كولبير بجد : « اخائف انت من هذا المنصب ؟ »
- خائف ؟ ! كلا ، ولكن .. هل من المعقول ان مستشارا بالبرلمان لا يتمنى ان يصبح النائب العام !
- حسنا يا مسيو فانيل ، ما زلت اقول لك ان هذا المنصب سيكون للبيع عما قريب

- انى اقول يا صاحب المعالي ان هذا محال ، فان الانسان لا يرمى الدرر التى يذود بها عن شرفه ومستقبله وعن حياته نفسها
- من الناس من يبلغ بهم الحمق ان يظنوا انفسهم بمنجاة من كل اذى !
- اجل يا صاحب المعالي ، ولكن هؤلاء الناس لا يركبهم الشطط لصالح رجل مثلى
- ولم لا ؟
- لسبب واحد بسيط وهو الفقر !
- صحيح ان منصب المسيو فوكيه قد يكلف مبلغا طائلا من المال . ماذا تدفع في مقابله يا مسيو فانيل !
- ثلاثمائة الف فرنك او اربعمائة الف
- وقيمة المنصب ؟
- مليون ونصف على اقل تقدير . انى اعرف اناسا عرضوا مليوننا وسبعمائة الف فرنك دون ان يستطيعوا اغراء المسيو فوكيه بالبيع . واذا فرضنا ان المسيو فوكيه يريد بيع منصبه - وهو ما لا اعتقده برغم ما سمعته ..
- اسمعت شيئا عن ذلك ؟ . ممن سمعته ؟
- من المسيو دى جورفيل ، والمسيو بليسون وآخرين !
- حسنا ! . اذا كان المسيو فوكيه يريد البيع حقا ...
- لا يمكننى بعد ان اشترى المنصب لان المسيو فوكيه سيطلب الدفع نقدا ، وليس لاحد مليون ونصف من الفرنكات لكى يقدمها فورا
- فقطع كولبير كلامه باشارة متعالية ، اذ كان قد بدأ يفكر . ولما رأى فانيل اهتمام سيده ومواصلته الكلام في الموضوع ، مكث ينتظر الحل دون ان يتعجله . ثم قال له كولبير :
- اوضح لى المزاي التى لصاحب هذا المنصب
- له حق اتهام اى مواطن فرنسى لا يكون اميرا من الاسرة المالكة ، والحق في ابطال الاجراءات القانونية التى تتخذ ضد اى فرنسى غير الملك والامراء . ان النائب العام هو يد الملك اليمنى في معاقبة المذنب ، وهو الاداة التى يمكن بها ان يتفادى تطبيق العدالة . ومن ثم فان المسيو فوكيه يمكنه ان يقف امام الملك . ان النائب العام يمكن ان يصبح اداة جد نافعة او ذات خطر بالغ !
- فقال له كولبير فجأة : « اسمع يا فانيل : اتحب ان تصبح نائبا عاما ؟ »
- لقد بينت لك انه يعوزنى نحو مليون ومائة الف فرنك لكى اكمل المبلغ اللازم لشراء هذا المنصب
- اقترض هذا المبلغ من اصدقائك ، انك رجل شريف نزيه !
- اوه يا صاحب المعالي ! . وددت لو ظن الناس كما تظن

- أحسبك كذلك وفي هذا الكفاية . وإذا اقتضى الأمر ضامنا لك في ذلك المبلغ فأنا على استعداد لذلك

- لا تنسى يا صاحب المعالي المثل الذي يقول : « من كان مسئولا عن آخر فلا بد أن يدفع ثمن هذه المسئولية »

ونهب فانييل وهو في عجب مما عرض عليه فجأة على غير انتظار ، ثم قال لكولبير :

- لعلك لا تسخر مني يا صاحب المعالي

- انتظر : لقد قلت لي أن المسيو دي جورفيل خاطبك في شأن منصب المسيو فوكيه !

- أجل . وكذلك فعل بليسون

- أكان كلامهما في ذلك رسميا أم من تلقاء نفسيهما ؟

- لقد أقالا : « أن رجال البرلمان قد أوتوا من الكبرياء مثل ما أوتوا من الثروة . وينبغي لهم أن يجمعوا فيما بينهم مليونين أو ثلاثة ملايين ليقدموها للمسيو فوكيه حاميههم وكوكبهم المنير ! »

- وبماذا أجبت أنت ؟

- قلت : اني مستعد لان اقدم عشرة آلاف فرنك اذا اقتضى الامر ذلك فقال له كولبير مدفوعا بعامل البغض لفوكيه :

- أنت اذن تحب المسيو فوكيه ؟

فقال فانييل : « كلا ! ولكن المسيو فوكيه رئيسنا . وهو مدين وفي طريقه الى الافلاس والخراب . وينبغي لنا أن نحفظ شرف الهيئة التي نحن أعضاءها وبهنا ... »

فقطع كولبير كلامه وقال : « نعم ، وهذا يوضح لنا أن المسيو فوكيه سيبقى في أمان وسلام ما دام يشغل منصبه الحالي في البرلمان ! »

ثم عاد المسيو فانييل فقال : « ذكر لي المسيو دي جورفيل أن تقديمنا أية اعانة مالية للمسيو فوكيه قد يسئ الى كرامته ولا شك أنه سيرفضه . ولذا ينبغي لرجال البرلمان أن يكتبوا فيما بينهم ليشتروا منصب النائب العام ، وفي هذه الحالة يتم كل شيء على ما يرام ، فنحفظ شرف هيئتنا ونحفظ على المسيو فوكيه كرامته واباءه »

فابتسم كولبير ساخرا وقال : « هذا فتح للموضوع ! »

وقال فانييل : « لقد حسبت ذلك يا صاحب المعالي »

- حسنا يا مسيو فانييل . اذهب تورا وابحث عن المسيو دي جورفيل أو المسيو بليسون . أتعرف أي صديق آخر للمسيو فوكيه ؟

- أنا على صلة حسنة بالمسيو لافونتين

- لافونتين الشاعر ، مؤلف القصص الشعرية ؟

- أجل . لقد كان يكتب أشعارا لزوجتي حين كان المسيو فوكيه احد أصدقائنا

- اذن . . اذهب اليه ، ويحسن أن تحصل أيضا على موعد لمقابلة وزير المالية

- فقال فانييل : « سأفعل كل هذا يا صاحب المعالي ، ولكن المهم هو الحصول على المال المطلوب »

- اطمن يا مسيو فانييل ، في الموعد المحدد لاتمام الصفقة ستزود بالمال المطلوب ، فلا تقلق من هذه الناحية

- ما أعظم هذه الأريحية يا صاحب المعالي . لقد فقت الملوك في سخائهم ! بل لقد تفوقت على المسيو فوكيه نفسه في سخائه !

- انتظر لحظة . لا تدع مجالا لسوء الفهم بيننا . اننى لسبت اقدم لك مليوناً وأربعمائة ألف فرنك هدية لك يا مسيو فانييل ، بل عندي أطفال اعولهم ، ولكنى انما أقرضك هذا المبلغ !

- حدد أية فائدة تريدها ، وأطلب أى ضمان يرضيك . . اننى مستعد لأي شيء يا صاحب المعالي . وبعد الوفاء بكل شرط ما زلت أقول أنك فقت الملوك ومسيو فوكيه في الجود والكرم . فما هي الشروط التي تفرضها ؟

- الوفاء بالدين في خلال ثمان سنوات ورهن المنصب نفسه !

- حسنا ! . أهذا كل ما تشترطه ؟

- وسأحتفظ لنفسي بحق شراء المنصب منك ، بربح قدره مائة وخمسون ألف فرنك ، وهذا اذا لم تقم بأعباء المنصب بالطريقة التي تحقق صالح الملك وتتفق مع مشروعاتي ! . هل لديك اعتراض على شيء ؟

- لا . . يا صاحب المعالي

- حسنا ! . سنوقع على اتفاق بيننا بهذه الشروط في أى وقت تشاء . والآن اذهب بأقصى سرعتك الى أصدقاء المسيو فوكيه ، واحصل على موعد معه ، ولا تشتد حياء ما يطلب منك . ومتى تمت الترتيبات كلها . . .

- سألح عليه في التوقيع على عقد الصفقة

- كلا ! . بل حذار أن تفعل ذلك . لا تحدث المسيو فوكيه بشيء عن التوقيع أو الوثائق ، بل لا تطلب اليه كلمة شرف والا فقدت كل شيء . وكل ما عليك أن تفرجه بمصافحتك دلالة على الموافقة . أفهمت ؟

- فهمت يا صاحب المعالي !

بامرأة كتوم وتظاهرت بأنها لم تلاحظ شيئاً مما يدور امامها ، لكنها ازدادت اصغاء لما يقال ، وان لم تسمع شيئاً سوى مهمة من جانب الوصيصة الاسبانية التي يتمثل فيها الحذر ، وآهة عميقة من جانب الملكة ، فنظرت الى هذه توا وسألته :

سر بين صديقتين

- اتناين ؟
- كلا يا موتفيل . لماذا تقولين ذلك ؟
- لان جلالتك تأوهت الآن !
- صدقت ! .. لقد تأوهت حقاً
- ان المسيو فالو ليس بعيداً من هنا ، واحسبه في جناح المدام !
- لماذا هو هناك ؟
- لان المدام عندها نوبة عصبية !
- حقاً انه مرض لطيف ! .. لا فائدة من وجود المسيو فالو هناك ، على حين ان طبيباً آخر يستطيع ان يشفى المدام
- فبدت الدهشة في نظرات مدام دي موتفيل وقالت :
- طبيب آخر غير المسيو فالو ؟ .. من الذي تعنيه ؟
- أعني الشغل ، شغل الفراغ . اذا كان هناك احد مريضاً حقاً فهو ابنتى المسكينة !
- وجلالتك ايضاً
- نعم ، على انى اقل مرضاً في هذا المساء !
- فقالت دي موتفيل : « لاتركنى الى ذلك يا سيدتى »
- وما كادت تتم عبارتها حتى شعرت الملكة بالم حلا ، فعاد وجهها شاحباً كوجوه الموتى ، واستندت الى مؤخرة كرسيها ، وظهرت عليها دلائل الاغماء المفاجيء . فسارعت مولينا الى خزانة مذهبة ذات غطاء من الصدف ، وأخرجت منها قارورة فيها عقاقير للشم ، ووضعتها تحت أنف الملكة فاستنشقتها هنيهة ثم تمتمت قائلة :
- ان هذا سيعجل بوفاتى .. لتكن مشيئة الله !
- فأعادت مولينا القارورة الى الخزانة وقالت للملكة :
- بعد عمر طويل !
- وسألته مدام دي موتفيل : « أتشعرين جلالتك بتحسن الآن ؟ »
- فقالت الملكة : « احسن من ذى قبل ! »
- ووضعت اصبعها على شفيتها لتدعوها الى السكوت . ثم قالت مدام دي موتفيل بعد قليل :
- حقاً .. انه لأمر عجيب

كانت الملكة الوالدة فى غرفة نومها بالقصر الملكى ومعها مدام دي موتفيل والسنيوروا مولينا . وكان حضور الملك منتظراً منذ بداية النهار ولكنه لم يحضر ، فنغد صبر الملكة الوالدة وصارت تسأل عنه كل حين ، وكان جو البلاط كله يندر باقتراب عاصفة ، وقد تغادى رجال البلاط وسيداته الالتقاء فى الردهات حتى لا يتحدثوا عن أمور سائكة . وكان الامير اخو الملك الاصغر قد صحب جلالته منذ باكورة الصباح فى رحلة صيد . ومكثت زوجة الامير (التى يشيرون اليها بلفظ المدام) فى جناحها لالتقى احداً

وبعد أن تلت الملكة الوالدة صلواتها باللغة اللاتينية اخذت تتحدث مع صديقتها عن مسائل منزلية بلغة قسطة (من اقاليم اسبانيا) . وكانت مدام دي موتفيل تجيب باللغة الفرنسية برغم معرفتها لتلك اللغة . ولما استنفذ النساء الثلاث كل وسائل التصنع والادب الملقوف للتعبير عما فى مسلك الملك من اطلاق للملكة والملكة الوالدة يجعلهما تذبذبان كمدأ وغيظاً ، وبعد ان أبدين كل ما بنفوسهن من سخط على الأنسة دي لافالير بعبارات مهذبة كثيرة الحيلة ، بعد ذلك كله أتمت الملكة الوالدة كلامها بقولها :

- آه من هؤلاء الاولاد !

والحق ان هذه العبارة على ايجازها كانت كافية للدلالة على ما يعتدل فى نفس الملكة آن النمسوية ، التى عرفت بمقدرتها على كتمان أخطر الاسرار

وأجابت مولينا قائلة :

- أجل ، أولئك الاولاد الذين تضحى الامهات فى سبيلهم !

ثم عادت الملكة تقول :

- ان الام تضحى بكل شىء !

ولم تكذب كلفتها حتى رفعت راسها ونظرت الى صورة زيتية كبيرة للملك لويس الثالث عشر بحجمه الطبيعى وبوجهه الشاحب ، فخيّل اليها ان شعاعاً من الضوء ينشق من عينيه فى تلك الصورة ، وان خياشيمه قد امتلات حنقاً وغبضاً ، وكأنما دب الحياة فى الصورة !

وخيم السكوت على أثر الكلمة الاخيرة من الملكة الوالدة ، وأخذت مولينا تقلب الاشرطة والمخرم للآءة منضدة كبيرة ، وعجبت مدام دي موتفيل من نظرة تفاهم تبادلتها الملكة وصديقتها موضع نقتها فأرخت عينيهما كما يخلق

فسألته الملكة : « ماذا تعنين ؟ »

فقالت : « هل تتذكرين جلالتك اليوم الذى شعرت فيه بهذا الالم اول مرة ؟ »

قالت : « اذكر انه كان يوما حزينا جدا فيما يختص بى ! »

فقالت مدام دى موتفيل : « لكن جلالتك لم تعدى ذلك اليوم دائما يوما حزينا ؟ »

ونظرت اليها الملكة متسائلة ، فواصلت كلامها قائلة :

— فى ذلك اليوم ، منذ ثلاث وعشرين سنة ، ولد جلالة نجلك

فندت عن صدر الملكة آهة حزينة ، وأخفت وجهها بين يديها ، وظلت دقائق مستغرقة فى تفكير اليم . وألقت مولينا نظرة غاضبة على مدام دى موتفيل ، وكانت هذه قد اشتد بها الندم على ما قالته للملكة ، ولم تدر له معنى يؤلمها ، حتى أوشكت أن تسألها ، ولكن الملكة أن قامت وهى تقول :

— أجل ! .. يوم ٥ سبتمبر ، لقد بدأ حزنى يوم ٥ سبتمبر ، شعرت فى ذلك اليوم بأعظم فرح ، ثم شعرت فى غده بأشد حزن عرفته فى حياتى ، وكان هذا كفارة عن ذلك الفرح البالغ

وبقيت دقائق ساكنة زائفة البصر وقد تدلت يداها وكان الحياة فارقتها !
وقالت مولينا : « يجب أن نضعها فى فراشها »

فاشارت اليها الملكة قائلة : « نعم يامولينا . وليكن ذلك فورا .. ! »

ثم قالت الوصيغة الاسبانية : « لندع الملكة وحدها ! »

وحينئذ نهضت مدام دى موتفيل ، وأخذت تنظر فى اسف شديد الى الدموع تجرى على خدى الملكة ، بينما قالت لها هذه :

— أجل ياموتفيل ، دعينا وحدنا ، اذهبى !

وقد أحدثت هذه الكلمة أثرا سيئا فى نفس الوصيغة الفرنسية ، إذ دلته على أن هناك سرا قديما بين الملكة ووصيبتها الاسبانية توشك أن تفضى به اليها على حدة ، دون أن تقف عليه هى ، فتمهلته وقالت للملكة :

— أتكفى مولينا وحدها لخدمة جلالتك الليلة ؟

وإذ أومات الملكة برأسها موافقة ، لم يسع مدام دى موتفيل الا أن تنحنى وتسنح ، لكنها قبل أن تصل الى الباب فوجئت بفتحه ودخول وصيغة عجوز ترتدى ثيابا كثياب سيدات البلاط الاسباني سنة ١٦٢٠ ، وما لبثت هذه أن اقتربت من الملكة وهى ما زالت تبكى . وقالت لها : « الدواء يامولاتى ! »

فسألته الملكة أن : « أى دواء ؟ »

فقالت الوصيغة العجوز : « دواء يذهب عن جلالتك الالام ! »

وهنا سألتها مدام دى موتفيل : « من الذى أحضره ؟ .. المسيو فالو ؟ »

فقالت الوصيغة : « لا ، بل أحضرته سيدة من اقليم الفلاندر »

فدهشت مدام دى موتفيل وقالت : « من اقليم الفلاندر ؟ .. أهى اسبانية ؟ »

وبدا على الوصيغة أنها لاتدرى ، فعادت مدام دى موتفيل تسألها : « من الذى بعثها ؟ .. وما اسمها ؟ .. وما مركزها فى الهيئة الاجتماعية ؟ »

وأجابت الوصيغة العجوز بقولها : « لقد أرسلها المسيو كولبير ، وهى لم تفسح عن اسمها ، وستشرح بنفسها كل شيء عن شخصها ! »

فازدادت دهشة مدام دى موتفيل وقالت : « أعجوز هى أم شابة ، وماذا يدل عليه وجهها ؟ »

وأجابت الوصيغة قائلة : « انها تضع قناعا على وجهها ، ولذلك لم أتبينه تماما ! »

وكانت الوالدة تستمع لذلك الحوار ، فالتفت الى مولينا وقالت لها :

— اذهبى يامولينا وانظرى ماذا هناك ؟

وهنا انبعت من وراء الستار المسدل على الباب صوت حازم يقول : « لاجحة الى ذلك » . وفى اللحظة نفسها انفرج الستار ودخلت امرأة مقنعة ، فى زى يشبه زى الراهبات ، ثم قالت قبل أن تنطق الملكة بينت شفة :

— مولاتى .. اننى مندوبة من جماعة الراهبات فى مدينة (بروجز) ، وقد جئت ومعى الدواء الكفيل بشفاء جلالتك من الالام .

ثم وقفت فى مكانها ساكنة ، ولم تنطق احدى الحاضرات بكلمة حتى قالت لها الملكة : « تكلمى »

فقالت : « سأتكلم حين أكون وحدى مع جلالتك ! »

ونظرت الملكة أن الى وصيفيتها فانسحبتا توا ، وعندئذ تقدمت الراهبة بضع خطوات نحو الملكة وانحنى لها فى اجلال ، بينما نظرت الملكة اليها فى ارتياب محاولة أن تعرف هويتها بنظراتها الفاحصة الى وجهها الذى أخفاه قناعها ، ثم قالت لها الملكة :

— لا بد أن ملكة فرنسا فى مرض شديد حتى ان نبأ مرضها وصل الى ذير الراهبات فى بروجز ؟

فقالت : « ان مرض جلالتك لايعز على الشفاء ! »

— ولكن خبرينى : كيف علمت نبأ مرضى ؟

— ان لجلالتك اصدقاء فى الفلاندر

— من هم اولئك الاصدقاء الذين بعثوك الى ؟ .. اذكرى اسماءهم

— هذا محال يا مولاتى ما دامت ذاكرة جلالتك لم يوقظها قلبك !

وحسبت ان الله ملهمك ، فاتركيني ، أرجو منك ، فاني اخشى المستقبل !
فقالت الراهبة بحزم :

— لقد حسبتك تخشين الماضي أكثر من المستقبل !
ولم تكذ تتم هذه الجملة حتى قامت الملكة من مكانها فزعة ، وقالت لها
بلهجة الامر :

— تكلمي وأوضحي ! .. هيا والا ...
— لا تهدديني يا صاحبة الجلالة ، لقد جئت اليك وملء قلبي المحبة
والإجلال لك ، ولقد جئت اليك من طريق صديق !

— برهنى لى على ذلك بدلا من مضايقتى
— هذا أمر يسير على ، وسترين جلالتك من الذى يخلص لك فعلا .
اى الكوارث نزلت بك فى خلال الثلاث والعشرين سنة الأخيرة ؟

— انها كوارث شديدة ، ألم انتقد الملك ؟
— انى لا أعنى كوارث من هذا القبيل ، بل أود لو أسألك : منذ ميلاد
الملك هل سبب لك أحد الاصدقاء بعدم الكتمان اى قلق أو شر ؟

— انى لا أفهم ما تقولين !
— سأوضح قولى اذن ، ان جلالتك تذكرين ان الملك ولد يوم ٥ سبتمبر
سنة ١٦٢٨ فى الساعة الحادية عشرة والربع

— أجل ..
— وعند منتصف الساعة الثانية عشرة نودى ببنجلك وليا للعهد بعد ان
عمده صاحب الفخامة (دى مو) بحضورك وحضور الملك ، ثم ذهب الملك
الى كنيسة القصر القديم فى سان جرمان لحضور الصلاة

فتحتمت الملكة قائلة : « نعم ، نعم هذا ما حدث تماما »
ومضت الراهبة فى حديثها فقالت :

— وقد بدأت جلالتك النفاس فى حضرة المرحوم اخيك والامراء وسيدات
البلاط ، وكان بوفار طبيب الملك وهونوريه الجراح فى العرفة المجاورة ، ونمت
جلالتك من الساعة الثالثة الى الساعة السابعة كما اعتقد

— أجل ، ولكنك لا تخبريننى الا بما يعرفه كل انسان
— انتى الآن يا سيدتى أدنو من شيء لا يعرفه الا القلائل ، بل لا يعرفه الا
بعض القلائل ، أو اثنان فقط ، لانه فى حينه كان يعرفه خمسة ، ثم مات أهم
عارفه وهو الملك الذى يرقد الآن الى جوار اجداده ، وقد تبعته وشيكا
بيرون المولدة ، وأصبح لايورت فى عالم النسيان !

وهنا فتحت الملكة فاهها تريد أن تتكلم ، وشعرت بالعرق البارد يتصبب
من جبينها ، بينما استطرقت الراهبة فقالت :

— كانت الساعة الثامنة ، وقد جلس الملك الى مائدة العشاء بادى السرور ،

فمادت الملكة أن ترسل نظراتها خلال قناع الراهبة لتستشف غرضها ،
ولما عجزت عن ذلك قالت لها :

— لعلك لا تعلمين ان الشخصيات الملكية لا تخاطب من وراء قناع ؟
فقالت الراهبة : « أرجو أن تغفري لى ذلك »
وقالت الملكة : « لن أغفر لك الا اذا خلعت نقابك ! »

فقالت : « لقد أقسمت يا سيدتى على أن أساعد كل شخص يتألم دون
ان أسمح له برؤية وجهى ، ولعل فى استطاعتى أن أخفف من آلام جسمك
وذهنك ، ولكن ما دمت جلالتك لا تسمحين لى بذلك فاني أنسحب ، وداعا
يا مولاتى ! »

ونظقت هذه الكلمات بجد واحترام ذهبا بغضب الملكة وارتياها ، وان
تكن قد بقيت على فضولها ، وقالت لها :

— انك على صواب ، فلا يلىق بمن يتألم أن يرفض وسيلة لتخفيف آلامه
أرسلها الله اليه ، تكلمى اذن ، وعسى أن تقدرى على تخفيف الألم الذى
أضنى جسمى

— لتتحدث أولا عن الألم الذى بذهنك ، لانى موقنة بان الذهن يتألم
أيضا !

فرددت الملكة متعجبة : « ذهنى ؟ ! »
وواصلت الراهبة كلامها قائلة : « توجد أنواع من السرطان ، خفية فى
كنها حتى ان خفقها لا يلحظ . وهذه الأنواع ياسيدتى لا تكاد تنبئ عنها
العوارض الظاهرة ، فالطبيب الذى ينحنى على صدر المريض لا يسمع أسنان
المرض النهمة وهى تقرض العضلات لأن الدم يستمر فى جريانه ، وموضع
الجراح كان ولا يزال عاجزا عن القضاء عليها ، لأن موطنها هو الذهن الذى
تعمل على افساده ، وهى تملأ القلب كله بثغراتها ! »

فرفعت الملكة ذراعها وتاملت هنيهة بياضها الناصع وسرها ان وجدتها
عبلة كما كانت فى ايام شبابها ، ثم قالت للراهبة :

— ان الآلام التى تشيرين اليها هى من ظروف الحياة لأن يولد على الأرض
رفيع المنبت ، واذا أصبحت تلك الآلام أشد من أن يتحملها الانسان ، فان
الله يضع عنه وزرها بالندم والاعتراف ، وهناك نزيح عن كاهلنا حله ، ونعفى
انفسنا من عبء الاسرار التى تثقلها ، ولكن لا تنسى أن الله يمنحنا برحمته
قوة تعاوننا على حمل ذلك العبء . وقد حملت عبئى صابرة بفضل هذه
القوة

— أراك شجاعة يا مولاتى حيال أعدائك كما كنت دائما ، انك لا تقرين
بثقة لك فى أصدقائك !

— ان الملكات ليس لهن اصدقاء ، واذا لم يكن لديك شيء آخر تقولينه لى ،



« وخلمت قناعها نجاة ، فصاحت الملكة في دهشة : مدام دي شيفرير ! »

تغمره السعادة وترتفع من حوالبه صيحات الفرح وشرب الانخاب ، وكان الشعب يهتف تحت الشرفات ، ورجال الحرس السويسري ، والفرسان ، والحرس الملكي يجوبون خلال المدينة ، والطلبة يمشون سكارى صاخبين ، وأزعجت هذه الأصوات ولي العهد الذي كان واقفا بين ذراعي مدام (دي هوزاك) مرضعة ، ولو أنه فتح عينيه لرأى تاجين في أسفل مهده ، وبغثة صرخت جلاتك صرخة عالية فجرت اليك مدام بيرون ، وكان الطبيبان يتناولان عشاءهما في الغرفة المجاورة لغرفتك ، بينما القصر هجره الحراس ، وفحصتك القابلة ثم صاحت صيحة دهشة ، وأخذتك بين ذراعيها ، وأرسلت لابورت توأ ليخبر صاحب الجلالة أن الملكة تريد أن تراه في غرفتها. وكان لابورت كما قد تذكرين جلاتك رجلا هادئا حاضر الذهن ، فلم يفاجيء الملك بما يزعجه ، بل اقترب من جلالتك وقال له وعلى شفثيه انتسامة : « مولاي . أن جلالة الملكة في سعادة عظيمة وستزداد سعادتها اذا رأت جلاتك » . وكان الملك في أشد حالات السرور والمرح فقام قائلا للجالسين الى المائدة : « ايها السادة : اني ذاهب لرؤية زوجتي » . وجاء جلالتك الى سريرك في اللحظة التي قدمت اليه مدام بيرون اميرا ثانيا في مثل جمال الأول وهتفت قائلة له : « مولاي . ان الله لا يشاء أن تحكم فرنسا ملكات » . وتحت تأثير الفرحة الاولى تناول الملك الطفل بين ذراعيه ورفع رأسه قائلا : « شكرا لك يا الهى ! »

وسكنت الراهبة لترى مبلغ تائر الملكة ، وكانت هذه قد قبعت في كرسيها وأخذت تصغى باهتمام دون أن تحرك شفثيتها بلفظ ما . ثم قالت الراهبة : — لقد اقتنعت جلاتك يومئذ بأن الملكة لا ينبغي أن يكون لها غير ولي عهد واحد ، وهكذا نشأ الوليد الآخر بعيدا عن والديه الملكيين ، على أن جلاتك وان سمحت بذلك فقد تعذبت كثيرا ، وكم ذرفت الدموع الفزار ، وطبعت القبل الحنون على محيا ذلك الطفل البريء في مقابل حياة البؤس والظلام التي قضت بها ظروف السياسة على توأم لويس الرابع عشر !

وهنا تمتعت الملكة بصوت واهن : « آه . يا الهى ! »

واستأنفت الراهبة كلامها فقالت : « ان الملك قدر ما قد ينجم عن وجود ولدين له متشابهين في السن وفي حق المطالبة بالعرش ، وأزعجه الخوف على مستقبل البلاد وأمنها . وهكذا أخذ الكاردينال ريشيليو يفكر في الامر بتوجيه من الملك ، وبعد أن مكث ساعة يفكر وهو في مكتب الملك خرج يقول : (أمير واحد يمثل الأمن والسلام للدولة ، وأميران اثنان يمثلان الحرب الأداخلية والفوضى) .. »

وعندئذ قامت الملكة بغثة من مقعدها وقد شحبت وجهها وقبضت يديها وقالت بصوت أجش :

— أنك تعرفين أكثر مما ينبغي لك أن تعرفيه من أسرار الدولة . أما الأصدقاء الذين تزعمين أنك أتيت من عندهم فهم كاذبون خائنون . وانت

شريكتهم في الجريمة التي ترتكب الآن . اخلعي نقابك والا امرت قائد الحرس
بالقبض عليك . لا تحسبي أن هذا السر يخيفني ! انه لن يغادر صدرك ،
لان سرّك وحياتك لم يعودا ملكك منذ هذه اللحظة !

ونهضت الملكة آن وتقدمت خطوتين نحو الراهبة . فقالت هذه :

— تعلمي أن تقدرى قيمة الأصدقاء الذين نبذتهم ، وأن تقدرى اخلاصهم
وكنمانهم للسر !

ثم خلعت فناعها فجأة ، فصاحت الملكة في دهشة : « مدام دى
شيفريز ! »

وقالت هذه في هدوء : « نعم يا مولاتي ، انتى أنا هي تلك التى لا يعلم
بذلك السر سواها ! »

فتمتمت الملكة قائلة : « تعالى عانقينى يا دوقه . وا اسفاه ! انك تقتلين
صديقتك اذ تعشين هكذا بمأساتها ! »

وأسندت الملكة رأسها الى كنف الدوقة العجوز ، وانفجرت باكية .
فقالت لها الدوقة : « انك لا تزالين شابة يا مولاتي ، وليس أدل على ذلك
من أنك تبكين ! »



وجهت الملكة آن نظرة رزينة الى مدام دى شيفريز ثم قالت لها :

— أحسبك قد ذكرت اسمى مقرونا بكلمة السعادة منذ قليل ، ولست
أكتفك يا دوقه أنى لم أكن أتصور أن أى مخلوق من البشر يمكن أن يكون
أقل سعادة من ملكة فرنسا !

— ان أحزانك يا مولاتي كانت شديدة حقا . ولكنك فيما يختص بالمآسى
التي وقعت لنا نحن الصديقتين القديمتين اللتين فرق بينهما حقد الرجال ،
لا تزالين تملكين موارد للسرور قد تكون ضئيلة فى ذاتها ولكنها مما يحسدك
عليه كثير من الناس

فقالت الملكة : « موارد للسرور !؟ أين هذه الموارد ؟ وماذا يفريك
بأن تذكرى كلمة السرور أنت التي اعترفت منذ هنيهة بأن جسمي وذهنى
كليهما فى حاجة الى الدواء ؟ »

فجمعت مدام دى شيفريز شتات جرأتها وقالت : « ما أبعد الملوك عن
سواد الناس ! انهم ليعبدهم عن الناس ينسون أن غيرهم قد يعوزه
ضروريات الحياة . مثلهم كمثل ساكن فى جبل بأفريقيا يأكل من الارض
الحضراء ويروتوى من جداول الثلج الذائب ، فلا يقدر أن يفهم أن الناس
الذين فى السهول الواطئة يموتون جوعا وظمأ وسط أراضيهم التي تحرقها
حرارة الشمس ! »

فاحمر وجه الملكة قليلا اذ بدأت تدرك ما ترمى اليه صديقتها القديمة ،
وقالت لها :

— كان من الخطأ أن أهمل أمرك !

— آه يا سيدتى . انى أعرف أن الملك قد ورث عن أبيه كراهيته لى .
ولا شك أنه يخرجنى من هنا اذا علم بوجودى فى القصر !

— قد لا أستطيع أن أقول انه يميل اليك يا دوقه ، ولكنى قد أستطيع
أن أصنع شيئا دون أن يعلم به

فابتسمت الدوقة ولم تجب ، واستطردت الملكة قائلة :

— لقد أصبت اذ جئت الى هنا ولو لتكذيب نبأ وفاتك !

— هل قبل اذن انى مت ؟

— اننا جميعا مصيرنا الى الموت . ولعلك أدركت أن أختك الصغرى كما
كنت تسميننى ، تسير مسرعة نحو القبر !

— لو أن جلالتك اعتقدت صحة وفاتى ، فلا شك أنك عجبت اذ لم يصل
اليك منى نبأ قبل ذلك !

— ان الموت كثيرا ما يدهم الناس يا دوقه !

— آه يا صاحبة الجلالة . ان أولئك الذين تنقل كواهلهم الأسرار كالسر
الذى كنا نتحدث عنه ، يشعرون بحاجة ماسة الى أن يوحوا بها ، ويرغبون
فى تحقيق هذه الرغبة قبل أن يموتوا . ولا يفوتهم أن يرتبوا أوراقهم قبل
رحلتهم الأخيرة !

فارتاعت الملكة . بينما استمرت الدوقة فى حديثها قائلة :

— ان جلالتك ستعلمين نبأ وفاتى ولا شك ، وسيكون ذلك فى اليوم
التالى لهذه الوفاة ، اذ تتسلمين جلالتك رسائل تحوى كل ما دار بيننا من
مكاتبات فى الايام الحالية !

فصاحت الملكة منزعة : « ألم تحرقها ؟ »

وقالت الدوقة فى هدوء : « ان الحونة — وحدهم — هم الذين يحرقون
ما قد يكون لديهم من المكاتبات الملكية ! »

— تقولين : الحونة ؟

— أجل يا مولاتي . وبعبارة أصح قد يدعى أولئك الحونة انهم حرقوا
تلك المكاتبات ، على حين أنهم فى الواقع احتفظوا بها لكى يبيعوها . أما

الأصدقاء الأمناء فانهم على عكس ذلك تماما ، واذا كان أحد منهم قد احتفظ
بتلك الكنوز الملكية ، فلكى يحملها يوما من الايام الى جلالة ملكته المحبوبة

قائلا لها : « مولاتي . ان الزمن تقدم بى ، وصحتى فى تدهور مطرد .
وحيال خطر الموت أخشى أن يظهر السر ، ولهذا جئتك بهذه الاوراق التى
تضمن سرا خطرا عليك ، لتحرقها بيدك ! »

فسألته الملكة : « أية أوراق تشيرين اليها يا دوقه ؟ »

فقلت : « فيما يختص بي لا أملك الا ورقة واحدة ولكنها حقا من أخطر الاوراق ! »

— خبريني يا دوقة ما هي !

— هي خطاب بتاريخ الثلاثاء الثاني من أغسطس سنة ١٦٤٤ كتبتة الى بختك ، وطلبت فيه الى أن أذهب الى (نوزاي - لي - سيك) لأرى ذلك الطفل التعس

وهنا سعاد صمت عميق ، كان ذهن الملكة خلاله يجوس خلال الماضى وكانت مدام دى شيفريز ترقب نجاح خطتها . ثم تمتت الملكة قائلة :

— أجل . الطفل التعس . انه أشقى طفل في العالم . لقد عاش الطفل المسكين عيشة حزينة لينهيها بتلك النهاية القاسية !

فصاحت الدوقة : « هل مات ؟ »

— لقد مات بالسل . مات منسيا ذابلا كالزهرة التي وهبها عاشق الى حبيبته ، فتركها في خزانة مغلقة لتخفيها عن عين الرقباء !

وعادت الدوقة تكرر قولها : « مات ؟! » كان ذلك في (نوزاي - لي - سيك) « ٠٠ ؟٠٠ »

فقالت الملكة : « أجل ! مات بين ذراعى مربيه ، وكان رجلا مسكينا شريفا لم يعيش طويلا بعده ! »

— من السهل ادراك ذلك . فقد كان عسيرا عليه أن يحمل تلك الصدمة بعد وقوفه على ذلك السر وكلاهما يرهق الكاهل !

ولم ترد الملكة أن تلاحظ ما في هذا القول من سخرية خفية . ثم قالت مدام دى شيفريز : « مع هذا قد سألت منذ بضع سنوات عن ذلك الطفل البائس في (نوزاي - لي - سيك) . وقد وجدت الناس هناك لا يعتقدون أنه مات حقا ، وهذا هو السبب الذي جعلني لا أشارك جلالتك في الحزن ، لأنني لو كنت تصورت صدق ذلك لما أشرت أدنى اشارة الى هذا الحادث ولما رضيت أن أبعث الكمد في نفس جلالتك ! »

فاعتدلت الملكة في مقعدها وقالت : « تقولين : ان الناس لا يعتقدون انه مات ؟! »

فقالت الدوقة : « لقد قالوا : انه ذات مساء في سنة ١٦٤٥ جاءت الى هناك سيدة بهية الطلعة ذات كبرياء ، لفتت الانظار اليها برغم قناعها وبرغم المعطف الذي كان يلف جسدها . وكان واضحا أنها ذات رتبة رفيعة بلا ريب ، فوقفت بعربتها عند مفترق الطريق، حيث وافاها بالطفل ذلك الوصى عليه . وفي اليوم التالي غادر الطفل والوصى تلك الجهة »

فقالت الملكة : « ان فيما تحكيه شيئا من الصدق ، والواقع أن الطفل المسكين مات من مرض مقاحي يجعل حياة جميع الاطفال معلقة بخيط »

— لا شك في أن ما تقولينه جلالتك هو الحق ، لكنه مع هذا يبدو عجيبا،

فان الشخص الذي نبأني بهذه التفصيلات ، وهو الذي عهدت أنا اليه في السؤال عن صحة الطفل

فقطعت الملكة كلامها وسألته مرتاعة :

— هل عهدت في هذه المهمة الى أحد آخر ؟ آه يا دوقة !

فقالت الدوقة : « لا عليك يا سيدتي ، ان هذا الرسول لا يمكن أن ينبس ببنت شفة ، مثله في ذلك مثل جلالتك ومثلي . ولنفرض أنه أنا يا سيدتي . فالهم أنه حين مر بمدينة تورين »

فرددت الملكة متعجبة : « تورين ؟! » ومضت الدوقة في حديثها قائلة :

— نعم ، مر بتورين منذ بضعة أشهر ، وهناك عرف الطفل والوصى . أو بعبارة أصح ظن أنه عرفهما وكلاهما في عيشة ناعمة ، أحدهما في ختام حياته ، والآخر في عنفوان شبابه . فاحكمي بعد ذلك عما في الشائعات من صدق ! ولكن أحسبني أتعبت جلالتك ولم يكن غرضي ذلك ، ولهذا أستأذنك في الانصراف بعد أن جددت لك التعبير عن اخلاصي واجلالى !

فقالت لها الملكة : « بل امكثي يا دوقة وحديثي عن نفسك ! »

فقالت بعد زفرة طويلة : « عن نفسي ؟ اني لست أهلا لأن تلقى على نظرة يا سيدتي ! »

فاقتربت الملكة منها متحجبة وقالت : « كلا ! انك أقدم صديقة لي ، أم تراك غاضبة مني يا دوقة ؟ »

فقالت : « أنا غاضبة منك ؟! وماذا يحملني على ذلك ؟! لو كان لدى أي شعور من هذا القبيل نحو جلالتك ما أتيت إليك ! »

فسكنت الملكة قليلا ، ثم استأنفت الحديث فقالت :

— يا عزيزتي الدوقة . ان الموت يزحف صوبنا نحن الاثنتين ، ويجب أن نكون يدا واحدة حيال ذلك الموت الذي لن يلبث قليلا حتى يدركنا !

فقالت : « انك تأسريني يا مولاتي بهذا العطف الذي ليس غريبا عليك »

قالت : « ان أحدا من الناس لم يحبني ولم يخدمني مثلك ! »

— ان تذكر جلالتك خدمتي انما هو عطف كريم منك ، وهذا ما يجعلني دائما وكلي ولاء ووفاء لجلالتك

— اذن . . . ألا تقدمين لي برهانا على صداقتك يا دوقة ؟ يجب أن تطلبي مني شيئا الآن ، اني أعرفك حق المعرفة فليس هناك من هو أصدق منك ولاء أو أكثر نبلا !

— لا تمتدحيني كثيرا يا سيدتي

— مهما أطنب في الثناء ، فهذا ولا شك دون ما تستحقين !

فتنهت الدوقة وقالت : « حقا . . . إن السن وسوء الحظ يؤثران في الناس تأثيرا كبيرا . . . ! »

فقالته الملكة : « ان دوقه الايام الحاليه ، ذات البهاء والكبرياء كانت تقول دائما : (لا اريد شيئا منك) . اما الان فما اسعدنى حقا بان يكون فى استطاعتى اجابه اى طلب لك ! »

– يجب ان اوضح لك الامر اولاً يا مولاتى . ان جلالته تستطيعين ان تمنحينى اعظم سرور ، ولن يشق عليك ذلك برغم انك الان تحت سلطان ابنك كما كنت تحت سلطان زوجك . فهل انت على استعداد حقا لاجابه ما اطلب يا مولاتى ؟

فقالته الملكة ز « ناديتى اولاً كما كنت تساديتنى فى الماضى . وكلميتى بالاسبانية ان كنت لا تزالين تعرفينها ! »

فقالته الدوقة بالاسبانية : « حسناً . يا عزيزتى ان . . هل تقبلين ان تمنحينى شرف تمضيتك بضعة ايام معى فى قصر دامبيير ؟ »

فنظرت اليها الملكة فى تودد وقالت : « أهذا كل ما تطلبيته ؟ »

فقالته : « انى اذ اطلب اليك هذا ، انما اطلب اعظم شرف لى ! . . تقبلين ؟ »

– اجل بكل سرور . وساكون سعيدة اذا كان وجودى سيفيدك

وهنا امسكت الدوقة يد الملكة ، ثم راحت تغمرها بالقبلات ، وقالت لها : – اتوافقين جلالته على الانتظار اسبوعين قبل ان تاتى ؟

– اوافق بكل سرور ، ولكن لماذا ؟

– لان الناس وقد عرفوا انى مغضوب على فى القصر الملكى ، لا يرضون ان يقروضونى مائة الف فرنك لاصلاح قصر دامبيير . ولكنهم حين يعلمون ان ذلك الاصلاح لكى أستطيع ان أستقبل جلالته فى القصر ، فان كل المال الذى فى باريس يكون تحت تصرفى !

فأومات الملكة برأسها دلالة على الفهم وقالت :

– سأفرضك هذا المبلغ اذا شئت يا دوقه !

– لا أقدر ان أقبل منك مثل هذا المبلغ

– انك تخطئين اذا رفضت ذلك ، ثم ان مائة الف فرنك ليست بالمبلغ الفادح . انى أعلم علم اليقين انك لا تقدرين القيمة الحقيقية لصمتك وكتمانك . ادفعى هذه المنضدة قليلا نحوى وسأكتب لك أمراً الى المسيو كولير ، بل الى المسيو فوكيه الذى هو أكثر لطفاً وأسرع معروفاً !

قصة « لافونتين »

كانت ضاحية (سانت مانديه) هى المكان المختار الذى اعتاد المسيو فوكيه وزير المالية ان يستقبل فيه صفوة أصحابه من الادباء الأبيقوريين (١) وكان رب الدار قد مر خلال الفترة الاخيرة بتجارب قاسية يعلمها كل من فى الدار . خاصة بعد ان قلت فيها حفلات البذخ والترف ، وصار معروفاً ان صاحبها يعانى أزمة مالية قاسية !

وقد بذل المسيو فانيل جهده حتى يحفظ للدار شهرتها فى الكرم والضيافة ، ولكن أصحاب البساتين الذين يوردون حاجات المطبخ كانوا يشكون من التأخر فى دفع حقوقهم ، وكذلك التجار الذين يوردون النبيذ الاسبانى كانوا يطالبون بما لهم ، والصيادون الذين يعملون فى البحر عند الشاطئ النورماندى . وقد امتنع أكثر هؤلاء عن توريد أى شىء الى الدار ما لم تؤد اليهم حقوقهم المتأخرة !

على ان أصدقاء فوكيه استمروا برغم ذلك فى التسوجه الى داره يوم الاستقبال المعتاد ، وكان (جورفيل) والاب فوكيه – شقيق الوزير – يتحدثان معا فى شأن قرض لم يؤده الثانى للأول . بينما جلس (بليسون) يكتب الخطبة التى يعتزم فوكيه ان يلقيها فى افتتاح البرلمان ، وقد حرص بليسون على ان يجعلها قطعة رائعة من الأدب ، وضمنها كثيراً مما كان المسيو فوكيه خليقاً بان ينسأه !

وجاء (لوريه) و (لافونتين) من باب المديقة وقد استغرقتا فى جدل شديد حول سهولة قرض الشعر . فى حين جلس الرسامون والموسيقيون وبقية الضيوف يثرثرون بالقرب من غرفة الطعام ، فى انتظار انقضاء نصف الساعة الباقى على موعد اعداد المائدة فى الساعة الثامنة كالمعتاد

ولما اكتمل عقد الضيوف جميعاً ، ذهب جورفيل الى بليسون فأيقظه من أحلامه وقاده الى وسط الغرفة ، ثم أغلق الابواب وسأله : « هل من جديد ؟ » فقال له بليسون : « لقد اقترضت خمسة وعشرين ألف فرنك من عمى وهى معى الآن »

فقال جورفيل : « حسناً ! لا ينقصنا الآن الا مائة وخمسة وتسعون ألف فرنك لسداد أول قسط ! »

(١) اتباع أبيقور الفيلسوف اليونانى القديم الذى كان يدعو الى التماس السرور واللذة

فقال : « أجل ! » وقد أصابني برد . وعدت الى بيتي فشرعت زوجتي تشاجر معي ! »

وسأله لوريه : « أكان شجاركما جديا ؟ »

فأجاب قائلا : « طبعاً ! » وقد قذفتني برغيف كبير أصاب رأسي ! »

— وماذا فعلت أنت ؟

— قلبت المائدة عليها وعلى ضيوفها ، ثم امتطيت ظهر جوادى قاصدا الى هنا ، وها أنا قد وصلت !

وكان عسيرا على الحاضرين أن يكتموا الضحك وهم يسمعون تفصيل هذه المهزلة . ولما خف الضحك سأله أحدهم : « أهذا كل ما جئنا به ؟ »

فقال : « كلا ! » بل جئت وفي ذهني فكرة رائعة ! ألم تلاحظوا أن الشعراء في فرنسا يكتبون كثيرا من الاشعار الهزلية الاباحية ؟ »

فأجاب الجميع : « أجل ! » لاحظنا جميعا ذلك .

فاستطرد لافونتين قائلا : « ان القليل من تلك الاشعار هو الذى يطبع ويذاع ، لان القانون صارم الى حد كبير في هذا الشأن كما تعلمون ، ولكن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن مثل هذه المادة الادبية مادة نفيسة . ولهذا

كتبت قصيدة صغيرة من الأدب المكشوف ، وتحوى سخرية لاذعة ! »

وعاد الجميع يضحكون بينما الشاعر مستمر فى وصف بضاعته يقول :

— لقد اجتهدت لأجعلها تفوق كل ما كتبه (بوكاشيو) و (مارتين) وغيرهما من أساتذة هذا الفن !

فقال بليسون : « ان مصير قصيدتك معروف ، فلا شك فى أنها ستصادر ! »

فالتفت اليه وقال : « أظن ذلك ؟ » اننى أوكد لكم اننى لم أكتبها من أجل نفسى ، ولكن من أجل المسيو فوكيه ! »

ولم يتمالك الحاضرون أنفتتهم من الضحك مرة أخرى ، بينما استمر لافونتين فى حديثه قائلا :

— لقد بعث الطبعة الاولى من الكتيب الصغير الذى تضمن هذه القصيدة بثمانمائة جنيه وانكم لتعلمون أن الكتب الجديدة والدينية تباع بنصف هذه القيمة أو أقل !

فقال له جورفيل : « كان خيرا لك أن تؤلف كتابين دينيين بدلا من قصيدتك ! »

فقال جادا : « كلا ! » إنها كانا يحيثان مملين جدا ! وعلى كل حال . . . الثمانمائة جنيه معى هنا فى هذا الكيس ، وسأقدمها لتكون نصيبى فى الاكتتاب المقترح ! »

ثم مد لافونتين يده بالكيس الى أمين صندوق الجماعة فتناوله هذا منه ،

فسأله لافونتين : « سداد ماذا ؟ »

فأجاب بقوله : « أهكذا أنت دائما شاردا الذهن ؟ ! » انك أنت الذى أخبرتنا بأن المزرعة الصغيرة التى للمسيو فوكيه فى (كوربى) سيبيعها

أحد دائنيه ! » وأنت أيضا الذى اقترحت أن يكتب جميع أصدقائه لسداد ما عليه من ديون ، بل لقد عرضت أن تبيع جانبا من مزرعتك التى فى

(شاتو - تييرى) لكى تساهم بنصيبك فى ذلك الاكتتاب . فما بالك الآن قد نسيت كل هذا ، وجئت تسألنا : سداد ماذا ؟ ! »

فأثارت هذه الملاحظة ضحك الجميع حتى احمر وجه لافونتين خجلا ، ثم قال : « معذرة ! » انى لم أنس ولكن . . . »

فسارع لوريه الى اتمام عبارته قائلا : « ولكن لم تذكر شيئا عن الموضوع ! » هذه هى الحقيقة، وهناك فرق كبير بين النسيان وعدم التذكر ! »

وقال بليسون للافونتين : « حسنا ! » هل جئت بنصيبك من ثمن الجانب الذى بعته من المزرعة ؟ »

فقال لافونتين : « انى لم أبع شيئا . . . هذه هى الحقيقة »

فسأله جورفيل فى دهشة ظاهرة : « ألم تبع جانبا من مزرعة شاتو تييرى ؟ » فقال : « كلا ! » ان زوجتى لم تدعنى أفعل ذلك ! »

وهنا قهقه الجميع ساخرين وقال أحدهم : « ولكنك سافرت لهذا الغرض ؟ » فقال له : « أجل يا سيدى ، وقد سافرت على ظهر جواد ! بل الواقع أنها

ثمانية جياذ لا جواد واحد تنقلت بين ظهورها خلال الطريق ، وكنت ألقى حتفى غير مرة هاويا من فوقها ! »

فقال له ساخرا : « انك لبارع حقا ! » ولعلك ارتجت بعد أن عدت الى باريس ؟ »

فقال لافونتين : « نعم ، فقد كان أمامى عمل كثير أؤديه ! »

والتف حوله الحاضرون يسألونه عن ذلك العمل الكثير ، فقال لهم :

— كانت زوجتى تغازل الرجل الذى كنت سأبيعه الارض ، ولكنه رجع عن عقد الصفقة فدعوته الى المبارزة

وهنا سأله أحدهم : « وهل تبارزتما ؟ »

فأجاب قائلا : « يبدو أننا لم نفعل ذلك ! »

وقال له آخر : « كيف هذا ؟ ألا تدرى أنبارزتما أم لا ؟ ! »

فقال : « ان زوجتى وأقاربها تدخلوا فى الموضوع ، وقد بقيت أنا ربع ساعة أنتظر وسيعى فى يدي ، ولم أخرج على كل حال ! »

فعاد الرجل يسأله : « وخصمك ؟ أخرج أم لم يجرح ؟ »

فقال : « لم يجرح ، لانه لم يأت الى مكان المبارزة ! »

فصاح آخرون : « هذا بديع ! لا شك فى أنك غضبت من ذلك ! »

وأعقبه الآخرون فأخذ كل منهم يقدم ما اكتب به ، حتى اذا جاء دور لوربه
وأخذ الحاضرون يعدون المائة وخمسين جنبها التي قدمها ، دخل الوزير دون
أن يشعر به أحد ، وكان قد سمع كل ما دار من حديث فوق ذلك الرجل
الذي امتلك ملايين الجنيهات ، ونعم بكل ما في الحياة من مجد ومتعة ، وأخذ
ينظر الى أصحابه والى النقود بعينين اغرورقتا بالدموع ، ثم دنا من كومة
النقود الذهبية والفضية الموضوعة على المنضدة ، وراح يعبت بها قائلا :

ان هذه الهبة الضئيلة ستختفى في أصغر ركن من خزائني الخاوية ،
ولكنها ملأت قلبي حتى فاض بها ! شكرًا لكم يا أصدقائي . شكرًا جزيلًا !
ولما لم يستطع أن يعانق جميع الحاضرين - وكانوا برغم فلسفتهم لم
يتماكوا أنفسهم من البكاء - عانق لافونتين وقال له :

يا صديقي المسكين ! اذن لقد ضربتك زوجتك بسببي !

فقال الشاعر : « هذا شيء يسير ! لو أن دائنيك يصبرون سنتين اثنتين ،
لكتب مائة قصيدة ، ولكان ثمن طبعتين منها يفي بكل الدين ! »

وعلى أثر ذلك مد المسيو فوكيه يده الى المسيو لافونتين وصافحه قائلا :
يا عزيزي الشاعر . فلتكتب مائة قصيدة أو أكثر ، لا من أجل المال
الذي نفيده منها ، بل لتزيد في ثروتنا الادبية بروائعك التي لا تقوم بمال !
فقال لافونتين موجها كلامه الى الجميع : « لعلكم تحسبون يا سادة اني لم
آت الا ببتك الفكرة البسيطة ذات الثمن الزهيد ؟ »

فتضاحك الحاضرون وصاح بعضهم قائلين :

حقا ! ان المسيو لافونتين لفي أوجه اليوم !

وقال المسيو فوكيه بلهجة ملؤها السرور :

ليبارك الله أفكارك يا عزيزي لافونتين ! لعلها جاءت بمليون فرنك أو
مليونين !

فقال لافونتين جادا : « هذا ما أعنيه تماما ! »

وصاح به الجميع قائلين : « قل لنا ، قل لنا ! »

وهمس بليسون في أذنه قائلا :

انك حتى الآن قد أصبت نجاحا كبيرا ، فلا تقال حتى لا تفشل !

فأجابه بصوت سمعه الجميع : « كلا يا مسيو بليسون ! ان الأمر ليس
فيه أية مغالاة ، وأنا على يقين من أنك ، وأنت المشهود لك بدقة الحس
وسلامة الذوق ، ستقر كل ما صنعت ! »

وقال له جورفيل : « لا تنس قبل كل شيء اننا نتكلم عن ملايين من
الفرنكات ! »

فأشار لافونتين الى صدره قائلا : « معي هنا يا مسيو جورفيل مليون
ونصف مليون فرنك ! »

وهنا صاح لوربه قائلا : « أي هراء هذا ! بل أي جنون ! فليذهب
الشیطان بهذا الجاسكوني الذي جاءنا من شاتو - تيرى ! »

وضحك الحاضرون بينما قال فوكيه للافونتين : « كان ينبغي لك يا عزيزي
أن تشير الى العقل الكبير الذي في رأسك بدلا من الاشارة الى جيبيك ! »

فقال له لافونتين : « انتظر هنيهة يا جناب الوزير . لا تنس أنك شاعر
أكثر منك نائبا عاما ! »

فانطلقت صيحات الموافقة من كوربه وكونراد وكل الأدباء من الحاضرين .
وواصل لافونتين كلامه فقال :

أجل يا جناب الوزير . انك شاعر ورسام ومثال وصديق للأدب
والفنون . ولم تخلق لتكون محاميا !

فقال المسيو فوكيه وهو يبتسم : « انني أعترف بذلك »

واستطرد لافونتين قائلا : « واذا عينت عضوا بالاكاديمية فأحسبك
ترفض ! »

فقال الوزير : « نعم أحسبني أرفض ذلك مع احترامي لرجال الاكاديمية ! »
ومضى لافونتين فقال : « حسنا . اذا كنت لا تحب أن تكون عضوا في
الاكاديمية فكيف تسمح لنفسك بأن تكون عضوا في البرلمان ؟ »

وهنا قال بليسون : « أوه ! انه يتكلم في السياسة ! »

ولكن لافونتين استمر في حديثه قائلا : « أريد أن أعرف : هل رداء
المحامي يوائم المسيو فوكيه أم لا ؟ »

فقال المسيو بليسون وقد ضايقه ضحك الحاضرين : « المسألة ليست
مسألة رداء »

وقال المسيو لوربه : « ولم لا ؟ بل الحق انها ليست الا مسألة رداء ! »
وقال كونراد : « فلندع الرداء جانبا ، وبذلك لا يبقى الا المسيو فوكيه
الذي لا نجد سببا للشكوى منه . ولكنكم توافقونني طبعًا على أنه لا يوجد
نائب عام بغير رداؤه . ولهذا أرى مع المسيو لافونتين أن ذلك الرداء ليس
الا شيئًا وهميًا مخيفًا ! »

فقال بليسون : « على أي حال ، نحن جميعا نعلم أن الارانب لا يسعها الا
الفرار حين ترى المسيو فوكيه ! »

فضحك الجميع وقال له كونراد : « ولماذا خصصت الارانب بالذكر ؟ »
فقال بليسون : « لأن الارانب هي التي لا يسرها أن ترى المسيو فوكيه
تحيط به كل المزاي المستمدة من مركزه في البرلمان ! »

ثم قال جورفيل : « أحسب أن الرداء الذي تتحدثون عنه ليس سوى شيء
حسن ، ولكنني أحسب أيضا أن مليونًا ونصف مليون من الفرنكات هي شيء
أحسن ! »

فقال المسيو فوكيه : « أنا أوافق المسيو جورفيل على ذلك ! »

فتمتم بليسون قائلا : « مليون ونصف ! » ان هناك قصة هندية قديمة أحسبكم تعرفونها . كانت هناك سلحفاة لها غطاء تحتمي به كلما هدها عدو . وفي ذات صيف قال لها صديق : (ان هذا الغشاء يزيدك شعورا بشدة الحر ، ويحول دون ابداء محاسنك . وهنا ثعبان على استعداد لان يشتري غطاءك بمليون ونصف مليون) . وهكذا باعت السلحفاة غطاءها وبقيت متجردة بلا شيء يقيها ، ثم اتفق أن رآها نسر جارح جائع فالتهمها لقمة سائغة . ومن هنا ترون أن المسيو فوكيه لا ينبغي له أن يبيع رداءه !

فقال المسيو فوكيه : « لو أن السلحفاة لم تبع غطاءها ، لاستطاع النسر الجارح أن يلتهمها أيضا . وعلى هذا أحسبها كانت موفقة اذ حصلت على مليون ونصف مليون فرنك ثمنا لذلك الغطاء ، فمن لي بمن يشتري غطائي بمثل ذلك الثمن ! »

فقال لافونتين : « لقد وجدت الثعبان الذي يشتريه ! »

فسأله المسيو فوكيه باهتمام : « أتعنى أنك وجدت مشتريا لمنصب النائب العام الذي أشغله ؟ »

فاوما برأسه موافقا وقال : « أجل يا سيدي ! »

فقال بليسون : « ولكن الوزير لم يقل قط أنه يريد البيع »

فقال كونراد : « عفوا يا عزيزي ! انك أنت الذي تحدثت بذلك ! »

وقال جورفيل : « وأنا شاهد عليه ! »

فقال فوكيه ضاحكا : « يلوح لي انه مصر على فكرته الرائعة ، حسنا يا لافونتين . من ذلك المشتري الذي وجدته ؟ »

فقال لافونتين : « انه ثعبان أسود كبير ، يعمل مستشارا بالبرلمان ، واسمه . . . فانيل ! »

فقال فوكيه . « فانيل ، زوج »

فقطع كلامه قائلا : « أجل يا سيدي ! زوجها ! »

وقال جورفيل : « ان فانيل يريد أن يقتفي كل خطواتك يا مسيو فوكيه ، وأن يفعل كل ما فعلته ! »

فقال الوزير : « هذا مما يساعد في اتمام الصفقة . . . لكن كيف عرفت ذلك يا عزيزي لافونتين ؟ »

قال : « الأمر بسيط ، منذ وقت وجيز لقيته عرضا وأنا أسير في ميدان الباستيل اذكنت أهم بركوب العربة الصغيرة الموصلة الى سانت - مانديه »

فقطع لوريه كلامه قائلا : « لا بد أنه كان يراقب زوجته ! »

فقال فوكيه : « كلا . . . كلا ! انه أبعد الناس عن الغيرة »

واستطرد لافونتين فقال : « وجاء الى وصافحتي ، ثم أخذني الى حانة

تسمى (ليماج سان - فياكر) وأخذ يبشني همومه . وهكذا ترون أن الرجل له هموم . . . ثم علمت منه أن زوجته تريد منه أن يكون طموحا . . . وأن حديثا نعى اليه عن منصب في البرلمان يمكنه أن يشتريه ، وذكر له اسم المسيو فوكيه لهذه المناسبة ، ومنذ ذلك الحين لا تحلم زوجته بشيء سوى أن تسمى (قرينة النائب العام) . بل ان التفكير في ذلك يؤرقها !

فصاح لوريه : « يا للشيطان ! »

وقال المسيو فوكيه : « يا للمرأة المسكينة ! »

ثم واصل لافونتين حديثه فقال : « ان كونراد لا يفتأ يتهمني بأني لا أدري شيئا في عالم الاعمال . وسترون كيف عاجلت هذه المسألة ! . . . لقد قلت لفانيل : (أنت تعلم ولا شك أن المنصب الذي يشغله المسيو فوكيه في البرلمان ذو قيمة طائلة ، وقد علمت أنا أنه رفض مليوناً وسبعمئة ألف فرنك ثمتا له) . فقال : (لقد قدرته زوجتي بمليون واربعمئة ألف فرنك) . فسألته : (وهل يكون الدفع فورا ؟) . فأجاب : (نعم ان زوجتي باعت بعض أملاك لها نى جيبين وتسلمت ثمنها) . . . »

وهنا تكلم الأب فوكيه فقال : « هذا ثمن لا بأس به اذا دفع فورا ! . . »

وتمتم المسيو فوكيه قائلا : « مسكينة مدام فانيل ! »

وهز بليسون كتفيه وهمس في أذن المسيو فوكيه قائلا : « انها شيطانة ! فرد المسيو فوكيه قائلا : « فليكن ! . . وما يدعو الى الغبطة أن أنفق مال هذه الشيطانة في اصلاح ما أقسده ملك من الملائكة ! »

فنظر بليسون بدهشة الى فوكيه وقد بدا عليه أنه اتجه بفكره الى موضوع جديد ، ثم قال جورفيل : « ان بعض الناس يطعمون في الجواد على حين أنهم لا يملكون حتى ثمن البردعة ! »

فقال الأب فوكيه : « نعم ! . . وأحسب أن فانيل سينسحب من الصفقة اذا وجدها جدية ! »

فقال لافونتين : « كلا ! . . لست أعتقد ذلك . . . أنكم لم تسمعوا ختام الحكاية : لقد طلب الى فانيل حين علم أنني قادم الى سان - مانديه ، أن آخذه معي ، لا قدمه الى المسيو فوكيه . وعلى ذلك تركته في (بل - اير) على مقرية من هنا . فما رأيك يا مسيو فوكيه ؟ »

فأجاب المسيو فوكيه قائلا : « ليس من الاحترام الواجب نحو مدام فانيل أن نعرض زوجها للاصابة بالبرد في خارج بيتي . ابعت اليه يا لافونتين ما دمت تعرف أين هو ! »

فقال : « سأذهب بنفسى لآتي به »

وقال له الأب فوكيه : « سأصحبك فاني أقدر أن أحمل أكياس المال ! »

فقال المسيو فوكيه بلهجة جادة : « لا تمزحوا ! . . ما دام الأمر جددا فدعوه هكذا حتى يتم . ولتكن أولا كرماء نحو ضيفنا القادم . اعتذر عنى

يا لافونتين اليه وعبر له عن أسفه اذ تركته ينتظر دون أن أعلم ! »

وبعد ربع ساعة قدم المسيو فانيل الى غرفة مكتب المسيو فوكيه . فما كاد هذا يراه حتى نادى بليسون ، وهمس في أذنه قائلاً : « اصغ جيداً لما أقوله . . . دع كل الإثنية الذهبية والفضية والجواهر من كل نوع تعباً وتحمل الى العربية ، وخذ الجياد . السوداء ، وسيصحبك تاجر الجواهر ، وأرجى العشاء حتى تأتي مدام بليير ! »

جواهر مدام دي بليير

لم يكده فوكيه يصرف فانيل حتى أخذ يفكر في الأمر ، ويحدث نفسه قائلاً : « انه لقليل حقا كل ما يفعله الانسان في سبيل امرأة نعم زماناً يحبها ! وما دامت مرجريت يسرها أن تكون زوجة نائب عام ، فلماذا لا أمنحها هذه المسرة . . . ولكن أين هي الآن تلك المرأة الاخرى التي أبدت لي غاية الاخلاص والوفاء ؟ لقد كان يجب أن تكون مدام دي بليير هنا في هذه الساعة ! »

ثم التفت الى الباب السرى في الغرفة الخاصة التي خلا فيها الى نفسه ، في بيته ، وفتح ذلك الباب فبدا خلفه ممر تحت الارض يؤدي الى الدار التي تسكنها مدام دي بليير في شارع فنسين . وكانت في يده رسالة مطوية فوضعها تحت الباب الآخر في أقصى الممر ، ثم عاد الى غرفة مكتبه ينتظر ما يكون

ولم تمض الا دقائق معدودات حتى تسلمت مدام دي بليير تلك الرسالة فاذا هو يقول لها فيها : « تعالي يا مركيزة ، اننا أرجأنا العشاء حتى تحضري ! » . وما هي الا دقائق آخر حتى وقفت بها عربتها عند مدخل داره حيث كان جورفيل هناك في انتظار وصولها واستقبالها . ولم تلاحظ أن عربية فوكيه بجيادها السوداء وصلت في الوقت نفسه عائدة الى هناك وبها بليسون وتاجر الجواهر نفسه الذي باعته جواهرها وتحفها من قبل

وأدخل بليسون تاجر الجواهر غرفة مكتب فوكيه ، فاستقبله هذا مرحباً ، شاكرًا له أنه أبقى تلك الجواهر والتحف وديعة عنده ، على حين كان له كل الحق في بيعها لو شاء . ثم ألقي نظرة على الحساب الذي قدمه له التاجر فاذا به مليون وثلاثمائة ألف فرنك ، وسرعان ما جلس الى مكتبه وكتب أمراً بصرف مليون وأربعمائة ألف فرنك للتاجر ، على أن تدفع له في خزانته قبل الساعة الثانية عشرة ظهر غد ، وما كاد يتسلم الأمر من الوزير ويطلع على ما تضمنه حتى صاح متعجباً !

— معنى هذا أنني أربح مائة ألف فرنك ، حقا يا سيدي ما أكرمك !

فربت فوكيه كتف التاجر متلطفًا وقال :

— ان من المروءة أيها السيد ما لا يمكن أن يجزى حق الجزاء . ولا شك في أن هذا الربح الذي تنوه به ، كان في استطاعتك أن تحصل عليه لو

فسأله بليسون : « أخير مدام بليير بذلك ؟ »

فقال له : « كلا ! هيا اذهب يا صديقي العزيز »

وخرج بليسون دون أن يتبين غرض صديقه وان كان واثقا من سلامة تصرفه . بينما انحنى فانيل للوزير وهم بأن يلقي خطابا ولكن المسيو فوكيه قال له بلطف :

— لا تتعب نفسك يا سيدي . لقد قيل لي انك تريد شراء المنصب الذي أشغله ، كم من المال تدفع في مقابله ؟

— انك أنت يا صاحب الفخامة الذي تحدد المبلغ الذي تريده . اني أعلم أنه عرض عليك شراؤه

— علمت أن مدام فانيل تقدره بمليون وأربعمائة ألف ، أليس كذلك ؟

— نعم ، وهذا كل ما نملك !

— أيمكنك أن تدفع لي المبلغ فوراً ؟

فعجب فانيل من بساطة هذا الرجل التي بلغت حد العظمة ، وقد كان يتوقع خلافا وعقبات واعتراضا من كل نوع . وقال : « لم أحضر المبلغ معي ! »

فقال له فوكيه : « متى تستطيع احضاره ؟ »

قال : « في أي وقت تشاء يا صاحب الفخامة ! »

— لولا أن يشق عليك الرجوع الى باريس لقلت لك أنني أريد المبلغ فوراً . ولكن لا بأس . . . فليكن الدفع والتوقيع على العقد صباح غد !

وشعر فانيل بالدم يصعد الى رأسه اذ أربكه نجاحه السهل في هذه المهمة وأحس رعدة تسرى في أوصاله ، ثم مد يده اليه فصافحه فوكيه قائلاً :

« الى اللقاء ! »

واندفع فانيل بعدئذ مسرعا الى الباب ، وانصرف لا يلوى على شيء !

انك بعث تلك الجواهر والتحف . وعلى هذا يجب أن تحصل على مكافأة خاصة

ثم فك من كنه زرا من الماس وقدمه للتاجر قائلا :
- هذا تذكاري مني !

وغلب التأثير على التاجر اذ قدر قيمة هذا الزر بما لا يقل عن ألفي فرنك،
ثم قال لفوكيه وهو يضافحه مودعا :

- أنت يا سيدي أنبل رجل عاش على ظهر الارض !

وما كاد تاجر الجواهر ينصرف ، حتى سارع فوكيه الى استقبال مدام
دي بليير ، وكانت قد أحاط بها المدعوون ، ووقفت بينهم باهرة الجمال
والفتنة كما داتها ، بل كانت في تلك الساعة أجمل وأروع في عيني فوكيه
منها في أي يوم مضى ، ولهذا لم يسعه الا أن يهتف بجماعة الضيوف وهو
يشير اليها قائلا :

- ألا ترون يا سادة ان المركيزة تبدو في هذه الليلة وقد ازدادت جمالا
على جمال ؟

فقال أحد الحاضرين : « ان المركيزة ولا شك أجمل النساء قاطبة ! »

فقال فوكيه : « وهي كذلك خيرهن بلا استثناء ! ومع هذا »
فقطعت المركيزة كلامه وقالت له وهي تبتسم : « أهناك استثناء تذكرته
الآن ؟ ! »

فقال : « كلا ! بل أردت أن أقول ان جميع الحلي والجواهر التي
تحملها المركيزة الجميلة الرائعة الليلة ليست الا من النوع الزائف ! »
فاحمر وجهها خجلا ، وصاح بعض الضيوف قائلين :

- أوه . أوه ! لا يمكن أن يقال هذا عن السيدة التي تملك أنفس الجواهر
والحلي في باريس !

وهنا قال فوكيه لبليسون بصوت منخفض : « رأيت ؟ »

فقال له بليسون : « لقد فهمت قصدك أخيرا ، وقد أحسنت التصرف ! »
ثم جاء رئيس الخدم وقال لفوكيه : « لقد تم اعداد المائدة يا صاحب
القخامة . »

وسارع الضيوف الى قاعة الطعام حيث واجههم منظر باهر ، ففوق
البوفيهات ، وفوق المناضد الجانبية ، بل فوق مائدة الطعام نفسها بين
آنية الازهار ، كانت تسطع مجموعة من التحف الذهبية والفضية النفيسة ،
كلها من صنع فناني فلورنسا المشاهير لأسرة دي مديتشي العريقة . وكانت
هذه التحف الغالية قد أخفيت خلال الحرب الداخلية ثم أظهرت بعدها .
وقد حفر على كل قطعة منها الحرفان الأولان من اسم المركيزة !

على أنه كان هناك على المائدة أيضا ما هو أروع وأبدع من هذه التحف

التاريخية الثمينة ، فقد أمر فوكيه بأن توضع أمام المركيزة مباشرة ،
مجموعة أخرى من الجواهر النادرة كلها من الماس والزمرد والعقيق ، وقد
أبدعت تنسيقها أيدي الفنانين في آسيا الصغرى ، كما كانت هناك حلي من
الذهب بين أساور وخواتم وغيرها

وشحب وجه المركيزة حين فوجئت بهذا المنظر ، فقد عرفت جواهرها
أولحليها وتحفها من أول نظرة ، وأدهشها أن تجدها أمامها بعد أن باعها
منذ حين !

وساد الصمت فترة بدا الجميع خلالها وقد تملكهم التأثر ثم قال فوكيه :

- أيها السادة : ان كل هذه الجواهر والحلي والتحف كانت ملكا لمدام دي
بليير ، ولكنها لما وجدت صديقا لها في ضائقة باعها كلها الى تاجر الجواهر ،
ان هذا العمل النبيل من صديقة وفيه مخلصه لجدير بأن يقدره رجال أوفياء
مثلكم . وما أسعد الرجل الذي تحبه هذه السيدة مثل هذا الحب ، هيا بنا
نشرب نخب مدام دي بليير !

فهتف الجميع تحية لها ، على حين قبعت هي في كرسيتها وقد أجمها
التأثر . ثم قال الميسو بليسون :

- لنشرب أيضا نخب الرجل الذي ألهم مدام دي بليير هذا المسلك النبيل ،
لأن هذا الرجل يستحق أن يحب مثل هذا الحب !

وجاء دور المركيزة فوقفت شاحبة الوجه وقد ارتسمت على ثغرها
ابتسامة باهتة ، ثم أمسكت كأسها ورفعتها ، فلمست أصابعها أصابع
فوكيه وتلاقت نظرتها المفعمة حبا بنظرة عاشقها الولهان !

واستمر العشاء الذي بدأ هكذا وكأنه وليمة عرس أو عيد ، وكان الجميع
في أوج سرورهم ، يقولون النكات عفوا ودون اجهاد فكر . ونسى لافونتين
نبيذ جوزي الذي يؤثره ، وترك فانيل يسقيه من نبيذ الرون . وبلغ من
رقة الأب فوكيه ووداعته أن قال له جورفيل : « حذار أيها الأب لا تكن
كثير الرقة هكذا حتى لا تؤكل ! »

ومضت الساعات في خبور حتى ان الوزير ، على غير عادته ، لم يغادر
المائدة قبل تناول الحلوى . وكان يبتسم لأصدقائه وقد انتشى قلبه بفرط
سروره قبل أن ينتشى رأسه بما شرب من خمر ! وفجأة سمع الحاضرون
صوت عربة في فناء الدار ، ومن عجب أن صوتها كان واضحا برغم الضجة
السائدة . فأصغى فوكيه بانتباه ، ثم أخذ ينظر الى الردهة . وخيل اليه
أنه يسمع وقع خطى ، وأن هذه الخطى كأنما تقع على قلبه . وسرعان ما جاء
الحاجب يقول : « السيد دربلاي أسقف فان » . ثم بدا أراميس بالباب
بوجهه الجاد ونظراته الصارمة ، فكاد فوكيه يهتف مهللا برؤية هذا الصديق
الآخر الذي وصل الى بيته ، ولكن أراميس لم يتح له فرصة لذلك ، اذ بقي
واقفا بالباب ، وفي نظراته اليه ما يوحي بأن لديه ما يحب أن يتحدث فيه
معه على حدة !

وقال له فوكيه : « ماذا وقوفك يا اراميس ؟ » ألا تتناول معنا الحلوى ؟
أم أنت لا يروقك مثل هذا الصخب الذي نحن فيه ؟ »

فقال له اراميس باحترام : « يا صاحب الفخامة ، انى اعتذر اذ كدرت
صفو اجتماعكم السار ، وأرجو أن تمنحني دقائق نتحدث خلالها على حدة
في شأن بعض الاعمال ! »

استرعت كلمة (الاعمال) انتباه (الأبيقوريين) الحاضرين ، ثم نهض
فوكيه وهو يقول للأسقف :

– الاعمال قبل كل شيء يا مسيو دربلاى . ان مما يسعدنا ألا تأتي
الاعمال فى ختام الوليمة !

ثم أمسك يد مدام بليير وقادها الى غرفة مجاورة لغرفة المائدة وهى تنظر
اليه بقلق ، وتركها هناك مع أقل أصحابه . ثم تأبط ذراع اراميس
وقاده الى غرفة المكتب . وما كاد اراميس يدخل هذه الغرفة حتى ترك
سمت الاحترام وجلس على كرسى وقال له :

– أتدرى من الذى قابلته هذا المساء ؟

فقال : « يا فارسى العزيز : انك كلما بدأت الحديث على هذا النحو
أيقنت أنا ، بأنى سأسمع أنباء لا تسر ! »

فقال اراميس : « لكنك على خطأ فى هذه المرة يا صديقى العزيز ! »
فقال فوكيه : « هذا ما أرجوه ، والآن دع عنك التشويق والمقدمات
ولندخل فى الموضوع ! »

فقال اراميس : « حسنا ! لقد قابلت مدام دى شيفريز ! »

– أتعنى الدوقة العجوز ؟ ربما تكون قد قابلت شبيحها ؟

– كلا ! بل التى قابلتها هى تلك الذئبة بعينها وأنيابها ومخالبها !

– حسنا ! أى أذى لى وجدتها تفكر فيه ؟

– انها تريد أن تحصل منك على بعض المال !

– وبأية حجة يا ترى ؟

– انها لا تعوزها الحجج قط ! ويبدو أن لديها خطابات من المسيو دى
مازارين !

– لا يدهشنى ذلك فان ذلك القس كان ذا مغامرات !

– أجل ولكن هذه الخطابات لا علاقة لها مطلقا بغرامياته . بل هى خاصة
بمسائل مالية !

فقال فوكيه : « هذا يجعلها أقل تسلية ! »

وهنا سأله اراميس : « ألم تدرك بعد ما أرمى اليه ؟ » . فلما أجاب
بالنفي ، عاد صديقه الأسقف فسأله :

– ألم تسمع قط برفع دعوى لاختلاس أموال من خزانة الدولة ؟

فاجاب فوكيه : « أجل ! سمعت بمثل ذلك مئات المرات بل آلافها .
بل أنا منذ شغلت بالامور العامة لا أكاد أسمع غير ذلك . ان المسألة غاية
فى البساطة ، فكما يتهمك الناس بالفجور وأنت أسقف ، أو كما يتهمونك
بالجبن وأنت فارس ، كذلك هم يتهمون بالاختلاس كل وزراء المالية . »

فقال اراميس : « انك لم تعلم بعد أن الدوقة تؤكد أن المسيو مازارين
أشار فى خطاباته الى مسائل معينة ، فهو مثلا قد ذكر مبلغ ثلاثة عشر مليون
فرنك ربما يصعب تحديد الوجه الذى أنفقت فيه ! »

فردد فوكيه : « ثلاثة عشر مليوناً ؟ » ، ثم استلقى فى كرسية وأخذ
يفكر لعله يتذكر قصة هذا المبلغ ، ثم عاد يقول :

– ثلاثة عشر مليوناً ؟ . انى أحاول أن أتذكر هذا المبلغ ضمن المبالغ
التي اتهمت باختلاسها !

فقال اراميس : « لا تسخر يا سيدى العزيز ، فان الأمر جد . . ان
الدوقة تمتلك بضعة خطابات لها خطرهما ولا شك . فقد أرادت أن تبييعنى
أياها لقاء خمسمائة ألف فرنك ! »

وهنا أخذ فوكيه يضحك من كل قلبه ، ثم قال : « انها تغالى كثيرا فى
تقدير قيمة فريبتها ! . والآن فقط أدركت ماذا تعنيه تلك الذئبة . فهذه
الثلاثة عشر مليون فرنك كان المرحوم الكاردينال مازارين قد ربحها من بيع
أراض فى (الفالتين) لكنه حذفها من سجل الإيرادات وأرسلها الى لاودعها
باسمى ، ثم جعلنى أقدمها له كنفقات الحرب ، وأعطانى ايضا بذلك ! »

فاطمان اراميس وقال : « حسنا ! اذن لم يبق شك فى وجه انفاقها ،
وحيدا لو كان لديك ذلك الايصال . »

ونهض فوكيه فى هدوء ، ثم مشى خطوات حتى بلغ مكتبا من الآبنوس
مرصعا باللؤلؤ والذهب . ثم قال لأراميس :

– اننى أحب النظام فى كل شيء ، ولهذا لا أتعب فى البحث عن شيء .
وفى استطاعنى مثلا أن أؤكد لك أن ايصال مازارين محفوظ بالدرج الثالث
من هذا المكتب تحت حرف (م) . وما على الا أن أفتح الدرج فأضع يدي
على الورقة التى أريدها !

ومد يده مطمئنا وتحسس رزمة من الورق مكدسة فى الدرج الذى فتحه
ثم استطرد يقول : « أكثر من ذلك انى أتذكر تلك الورقة كما لو كنت أراها
الآن . انها سميكة ذات أطراف ذهبية وقد سقطت من قلم مازارين بقعة
حبر على رقم التاريخ ! »

ومضى الوزير يبحث فى الدرج ، ثم قال فجأة : « هذا أمر عجيب !
يخيل لى أن تلك الورقة تعرف أننا نتحدث عنها ونريدها ، ولهذا تتدلل
علينا ! »



« وضرب الوزير المنضدة بقبضة يده ، ثم قال : إني لم أعد النائب العام ! »

فقال اراميس : « ربما تكون ذاكرتك قد خانتك هذه المرة ، انظر في درج آخر ! »

وتناول فوكيه رزمة من الورق وأخذ يقلبها ثم شحب وجهه ، فقال له اراميس : « لا تقصر بحثك على هذا الدرج بل انظر في الادراج الاخرى » فقال : « لا فائدة من ذلك ! اننى على يقين من أنها كانت هنا . ولا أحد سواى يرتب المستندات التى من هذا القبيل . ولا أحد غيرى يفتح هذا الدرج وأنا وحيدى الذى أعرف هذا السر »

فقال اراميس وهو بادى القلق : « ماذا تستنتج اذن ؟ »

قال : « ان اىصال مازارين قد سرق منى . وهكذا تبدو مدام دى شيفريز على حق يا عزيزى ! . فما دام ذلك الاىصال غير موجود ، فكيف أذفع عن نفسى تهمة اختلاس الثلاثة عشر مليون فرنك من خزانة الدولة ؟ . اننى الآن لص محتال يا عزيزى ! »

فقال له اراميس : « كلا . كلا ! لا تثر أعصابك هكذا ، فليس ثمة ما يبرر ذلك »

قال : « بل هناك كل مبرر ! ومن السهل أن تتخذ الاجراءات القانونية معى ، ثم يصدر الحكم بادانتى ، وهكذا يزج بصديقك الوزير فى السجن كما حدث لسميلانساي ومارينى ! »

فابتسم اراميس وقال : « ليس بهذه السرعة ! »

فسأله فوكيه : « ولم لا ؟ لم لا يجرى الأمر أسرع من ذلك ؟ . وماذا تحسب مدام شيفريز قد فعلت بتلك الخطابات بعد أن رفضت أنت شراءها ؟ »

فقال : « أحسبها ذهبت الى المسيو كولير ، بل أنا متأكد من ذلك ، لانى تبعتها فرأيتها بعد أن دخلت بيتها سرعان ما غادرته من باب خلفى وذهبت مباشرة الى منزل وكيل المالية ! »

فتمتم الوزير قائلاً : « اذن ستتخذ الاجراءات القانونية ضدى ، وستتبعها الفضيحة والعار . . . وستنزل بى الصاعقة دون رحمة ! »

وكان يقول ذلك وهو قابع فى مقعده يرتعد ، على مقربة من الادراج المفتوحة . فدنا منه اراميس ووضع يده على كتفه وقال له بلهجة عطف : - لا تنس أن مركز المسيو فوكيه لا يمكن أن يقارن بمركز سميلانساي أو مارينى . أعنى أن جميع الاجراءات القانونية فى مثل هذه الحالة لابد أن تبدأ فى البرلمان ، من جانب النائب العام ، وأنت النائب العام !

فصاح فوكيه صيحة ألم وضرب المنضدة بقبضة يده ثم قال : « انى لم أعد النائب العام ! »

ثم قص على اراميس موجزا لما حدث من مدام بليير آذ باعت جواهرها وتحفها وكيف رأى أن يرجع اليها هذه الجواهر والتحف . فكاد اراميس يصعق لهذه المفاجأة لكنه تمالك نفسه وقال له :

صفحة لحساب الشيطان !

- حقا . هذا مسلك نبيل . ولكن كم كلفك ذلك ؟

- كلفنى المليون والاربعمئة ألف فرنك ، ثمن المنصب !

فقال أراميس : « لاتزال أماننا وسيلة واحدة أمل ألا ترفض استخدامها ،

- لن أرفضها اذا كانت وسيلة شريفة !

- انى أعنى رجوع المشتري فى صفقته . من هو ذلك الرجل ؟

- انه مستشار فى البرلمان ، اسمه فانيل !

فتغير لون وجهه اذ سمع ذلك الاسم وقال : « فانيل زوج مرجريت .. خيلتك السابقة ؟ »

فقال فوكيه : « أجل يا عزيزى ! انها تتوق لان تصبح زوجة النائب العام ، وهكذا ترى انى مدين لفانيل المسكين بهذه الفرصة التى أتاحتها لى كى أحقق هذا الأمل لزوجته ! »

فدنا أراميس من فوكيه وقال له : « أتعرف من هو عشيق مدام فانيل الجديد ؟ »

فقال متعجبا : « ألهأ عشيق جديد ؟؟ لم أكن أعلم ذلك ! »

قال : « ان اسمه (جان بابست كولير) .. وهو وكيل المالية . وقد زارته اليوم مدام دى شيفريز فى منزله بشوارع كرواديه بتى شان ، لتساومه على شراء خطابات مازارين منها ! »

ومر فوكيه بيده على جبينه وقال : « رباة ! »

فسأله أراميس : « ها أنت ذا بدأت تدرك الأمر .. فهل لا تزال مصرا على التوقيع على العقد !؟ »

فأجابه فوكيه قائلا : « نعم ، بدأت أدرك أننى ضائع لا محالة ! ولكنى مع هذا لا أجد بدا من المحافظة على كلمتى ! »

فتمتم أراميس قائلا : « ان الناس الذين جبلوا على العناد يعالجون الامور بشكل لا يسعنا معه الا أن نعجب بهم ! »

وفى هذه اللحظة دقت ساعة الحائط الموشاة بالصدف والمحمولة على عمد من الذهب ، ست دقات ، وسمع فى اللحظة نفسها صوت باب يفتح

فى الردهة ، وجاء جورفيل يستأذن للمسيو فانيل فى الدخول ، فأدار فوكيه وجهه كيلا يلتقى نظره مع نظر أراميس ، ثم أذن فى دخول فانيل

عجب فانيل لوجود أسقف فان فى غرفة مكتب فوكيه ، لكنه لم يزد على نظرة الدهشة والتساؤل التى وجهها اليه حين دخوله الغرفة . أما فوكيه السياسى الكامل المسيطر على أعصابه فلم يبد على ملامح وجهه شىء من أثر السر الذى كشفه له أراميس منذ لحظة ، وهكذا لم يعد الرجل البادى الشقاء كما كان قبل فترة وجيزة ، بل بدا كعادته مرفوع الرأس بادى الشمم والكبرياء

وكان أراميس يعرف فوكيه حق المعرفة فلم يدهشه ذلك منه ، وقصر مهنته على السماع والاصغاء ، على أن يشترك فى الحديث فيما بعد حين يصل الى طور يتطلب تدخله

وبدا على فانيل أنه غلب على أمره ، ودخل الى وسط الغرفة وانحنى لكل من فيها ثم قال : « ها أنذا قد جئت يا سيدى »

فقال له فوكيه : « أنك محافظ على مواعيدك يا مسيو فانيل ! »

فقال فانيل : « اننى يا صاحب الفخامة أعد المواظبة فى شئون الاعمال أهم أسس النجاح ! »

وأوما فوكيه برأسه موافقا ، وتمتم قائلا : « نعم ، بلا شك ! » بينما أشار أراميس بسبابته الى فانيل ، ثم قال موجها الكلام الى فوكيه :

- معذرة ! هذا السيد كما أظن قد جاء فى شأن منصبك ؟

فدهش فانيل من لهجة التعالى التى اتخذها أراميس نحوه وقال له : « أجل اننى هو ! »

وقال لهما فوكيه : « هيا أيها السيدان ، ليس لدينا متسع من الوقت لغير بحث الأمر الذى نعينه ! »

فقال له فانيل : « اننى يا صاحب الفخامة فى انتظار ما تراه »

فقال فوكيه : « بل أنا الذى أنتظر ما تقوله »

فقال فانيل يحدث نفسه : « ولقد فكر فى الموضوع ولا أخالنى الا ضائعا .. ثم استرد شجاعته وقال لفوكيه : « ليس لدى ما أقوله يا صاحب الفخامة بعد الذى قلته أمس ، وأنا مستعد لتكراره الآن ! »

فقال له فوكيه : « خبرنى يا مسيو فانيل بصراحة .. أليس فى هذا الأمر عيبه ثقيل عليك ؟ »

فقال على الفور : « بالتأكيد يا صاحب الفخامة ، فان مليوناً وأربعمائة ألف فرنك ليست بالمبلغ الزهيد ! »

فقال فوكيه : « بل هي مبلغ ضخم حتى اني فكرت في أنك ربما تكون في موقف لا يمكنك من الشراء ! » من أجل هذا لن ألومك على خلف وعدك ما دام ناشئاً من عدم القدرة على الوفاء من جانبك ! »

— كلا يا صاحب الفخامة ، بل انك ستلومني وستكون على حق في لومي . لأن الانسان يكون اما قليل التبصر واما فاقد العقل اذا أخذ على عاتقه عهداً لا يستطيع الوفاء به !

فاحمر وجه فوكيه ، وبدأ أراميس نافذ الصبر . ثم عاد الوزير يقول :

— انك تخطيء اذا بالغت في تقدير مثل هذه الأوهام ، ذلك لأن فكر الانسان قابل للتغير ومملوء بالأهواء التي يوجد ما يبررها . وقد يرغب الانسان في شيء أمس ثم يصدف عنه اليوم !

فشعر فانيل بالعرق البارد يتصبب من جبينه وتمتم قائلاً : « يا صاحب الفخامة ! » . وسر أراميس أن رأى الوزير يدير المناقشة بمهارة . وكان واقفاً مسنداً ذراعه الى منضدة ويده تعبت بمديّة ذهبية صغيرة فوقها . بينما سكت فوكيه هنيهة ثم قال لفانيل : « سأوضح لك موقفي ! »

فتولت فانيل رعشة ، واستطرد فوكيه يقول : « انني كنت راغباً في البيع أمس كما قد تذكر ، بل قد بعث فعلاً ! ولكنني اليوم أرجو منك أن تسدي الى جميلاً فترد الى كلمتي التي ارتبطت بها حيالك ! »

— لقد تلقيت كلمتك وأنا موقن أنك ستفي بها !

— أعرف ذلك وهذا ما يجعلني أقدم لك هذا الرجاء !

وسكت فوكيه لان كلمة (الرجاء) التي لم يعتدها كادت تخنق صوته ، وظل أراميس يعبت بالمديّة الذهبية الصغيرة وينظر الى فانيل نظرة نافذة يريد بها أن يستشف ما في ضميره . فلم يزد فانيل على أن انحنى وقال : — لقد قهرني يا صاحب الفخامة هذا الشرف الذي تمنحني اياه باستشارتي في أمر قد تم بالفعل ، ولكن ...

— كلا ، لا تقل « ولكن » يا عزيزي المسيو فانيل

فقال فانيل وهو يفتح حافظته نفود كبيرة :

— وا أسفاه يا صاحب الفخامة ! لقد أحضرت معي المبلغ كله كما ترى . وها هو ذا عقد بيع أرض كانت تملكها زوجتي . وأمر الدفع هذا بمثابة نفود حاضرة في الواقع . وبكلمة واحدة قد تمت الصفقة من جميع الوجوه !

— يا عزيزي المسيو فانيل : لا توجد في العالم مسألة مالية لا تحتتمل الارحاء مهما تكن أهميتها ، هذا الى أنك بارحاء هذه المسألة تسدي جميلاً الى رجل قد يصبح بعد ذلك صديقاً مخلصاً لك !

فقال فانيل بارتباك : « لا شك في ذلك » . وعاد فوكيه يقول : « ولا شك في أن مودة هذا الصديق قد تكون قدكسبت بجدارة ، نتيجة للخدمة التي أديت له . . . والآن ماذا تقول ؟ وماذا قررت ؟ »

فسكت فانيل ولم ينطق ببنت شفة . وفي الوقت نفسه ظل أراميس يرقبه من كتب وقد دلته ملامح وجهه على أنه رجل بخيل طموح ، وأدرك في الوقت نفسه أن فوكيه أوشك أن ينهزم أمام جمود فانيل ، فسارع الى نجده على طريقته الخاصة وقال :

— معذرة يا صاحب الفخامة ! أراك قد نسيت أن تبين للمسيو فانيل أن مصلحته تتعارض تماماً مع عدوله عن الشراء !

فنظر فانيل الى أراميس متعجباً ، اذ كان لا يتوقع أن يجد فيه معينا له وكذلك سكت فوكيه في انتظار ما يقوله صديقه الاسقف . ثم قال هذا موجهاً الخطاب الى فوكيه أيضاً :

— ألا ترى أن المسيو فانيل قد اضطر في سبيل شراء منصبك ، الى بيع ملك لزوجته ؟ ان ذلك ليس بالأمر اليسير . لان الانسان لا يستطيع أن يبيع ملكاً بمليون وخمسمائة ألف فرنك في يوم أو بعض يوم الا اذا تكبد في هذه الصفقة خسارة كبيرة فضلاً عن المتاعب !

فقال فانيل وقد استل أراميس سره من حنايا صدره : « تماماً يا سيدي ! » وواصل أراميس كلامه فقال : « ان أمثال هذه المتاعب تقتضي نفقات كثيرة وعلى الانسان كلما عاجلها أن يوجه تفكيره قبل كل شيء الى تلك النفقات ! »

قُبداً فوكيه يدرك ما يرمى اليه أراميس وقال : « أجل ، أجل ! »

وظل فانيل صامتاً اذ كان هو أيضاً قد فهم مراد أراميس ، ولحظ هذا سكوته وجوده فقال محدثاً نفسه : « لا بأس ! انه ينتظر حتى يعرف المبلغ الذي أعرضه ولعله لا يلبث أن يسلم بعد أن يعرفه »

وهنا قال فوكيه مدفوعاً بالسخاء الذي جبل عليه : « يجب أن تمنح المسيو فانيل مائة ألف كرون في الحال ، بل اني لأشعر بأنه ينبغي لي أن أوقع على أمر بصرف خمسمائة ألف فرنك اليك ، وحتى في هذه الحالة أشعر بأنني سابقى مدينا لك ! »

على أن فانيل برغم ذلك لم يبد في وجهه ما يدل على رغبته في القبول . فنظر أراميس الى فوكيه نظرة يأس ، ثم مضى الى فانيل قدما وأمسكه من سترته وقال له :

— يا مسيو فانيل . . . انك في هذه اللحظة لا تفكر في المتاعب التي تجسمتها ، ولا في بيع ملك زوجتك ، ولا في خسارة نجمت من ذلك ، انك تفكر فيما هو أخطر من ذلك . وأنا أقدر هذا منك حق قدره ، فاصغ الى ما سأقوله لك

ثم نظر اليه نظرة نافذة جعلته يرتعد ومضى في حديثه فقال : « اني

أعرض عليك ، باسم الوزير ، لا ثلاثمائة ألف فرنك ، ولا خمسمائة ألف ، بل أعرض مليوناً ! نعم أعرض عليك مليون فرنك ، لكي ترد إلى الوزير كلمته ! فهل سمعت !؟

فقال فانيل وقد شحب وجهه حتى عاد مثل وجوه الموتى : « مليون !؟ » واستمر الأسقف في حديثه قائلاً :

— أجل مليون ! أي دخل قدره سبعون ألف فرنك في السنة !
وقال له فوكيه : « أحسب أنه لا يمكنك أن ترفض ذلك يا مسيو فانيل » وسادت فترة صمت ، قطعها فانيل متمتما بقوله : « هذا محال ! »
ففض أراميس على شفقيه من شدة الغيظ ، ثم التفت إلى فانيل وقال له وهو يحده بظفرته النافذة :

— انك اشتريت المنصب بمليون وخمسمائة ألف فرنك ، اليس كذلك ؟
حسناً ! سيعاد إليك هذا المبلغ وفوقه مثله ، فما قولك ؟
فقال فانيل بصوت أجش : « لا يمكنني أن أقبل ذلك ! »
وكان أراميس ما زال ممسكاً إياه من سترته فتركها فجأة وتراجع بضع خطوات ، ثم قال له :

— حسناً ! ان غرضك من المجيء إلى هنا أصبح واضحاً ! هيا إبرز لنا عقد البيع . أحسبك قد جئت به معداً في جيبك كما يخبيء القاتل مسدسه أو خنجره في طيات ردايه !

وأراد فانيل أن يقول شيئاً فصاح به فوكيه : « كفى ! أين عقد البيع ؟ »
فبحث فانيل بيد مرتعشة في جيوبه ، حتى وجد ورقة العقد فمد يده بها إلى فوكيه ، في الوقت الذي سقطت من جيبه ورقة أخرى على الأرض ، وسرعان ما انقض عليها أراميس والتقطها ، ثم أبقاها في يده إذ عرف الحط الذي كتبت به . فمد إليه فانيل يده ليأخذها منه قائلاً : « معذرة ! ان هذه مسودة لعقد البيع »

ولكن أراميس ابتسم ساخراً وقال له :

— اني أرى ذلك بوضوح . والذي يعجبني منها أنها بخط المسيو كولبير ثم ناول فوكيه الورقة قائلاً : « انظر يا صاحب الفخامة ، انظر ! »
وعرف فوكيه كذلك خط كولبير من أول نظرة . وبدأ فانيل كالفأر الذي يبحث عن جحر يختبئ فيه . ثم قال أراميس لفوكيه :

— لو أنك لم تكن فوكيه ، ولو أن خصمك لم يكن كولبير ، ولو أن هذا اللص الحقير ليس أمامك ، لكنك أنصح لك بأن ترفض هذا العقد ، فإن هذا الدليل كاف لأن يهلك من كلمتك . ولكن هؤلاء الاوغاد قد يحسبون أنك تخشاهم ولهذا أقول لك : وقع على هذا العقد دون إبطاء !
ثم ناوله قلماً ليوقع به ، فضغط فوكيه يد أراميس ، وبدل أن يوقع على

العقد الذي قدمه له فانيل تناول المسودة التي بخط كولبير ليوقع عليها ، فقال له أراميس : « كلا ! لا توقع على هذه الورقة . إنها وثيقة أنفس من أن تتركها لأعدائك ! »

فقال فوكيه : « بل سأوقع تحت ما كتبه كولبير ، وسأكتب تحت توقيعى : (مع اعتماد الحط) »

وبعد أن انتهى من ذلك مد يده بالورقة إلى فانيل ، فتناولها هذا بيد مرتعشة ، ووضع المبلغ على المنضدة ، ثم هم بالانصراف فقال له أراميس : — مهلاً ! أوافق أنت من أن المبلغ هنا كله ؟ يجب أن نعده يا مسيو فانيل . ولاسيما أن المسيو كولبير يهدى المال إلى بعض السيدات ! نعم إن المسيو كولبير ليس سخي اليد مثل المسيو فوكيه !

وأخذ أراميس يقرأ كل كلمة وكل حرف من أمر الدفع ، بينما يصب غضبه وازدراءه بوساطة نظراته وحركاته على رأس فانيل زهاء ربع ساعة . ثم صرفه أراميس بإشارة من يده وكأنه يصرف خادماً أو متسولاً !
وبقى الوزير والقس بعد ذلك فترة صامتين وأحدهما ينظر إلى الآخر ، ثم قطع أراميس جبل السكوت قائلاً :

— بماذا يوصف الرجل الذي يهجم بالدخول في قتال مع عدو لدود له مسلح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ، فيبدأ بتزعم سلاح نفسه ثم يرخي ذراعيه إلى جانبيه ويتسهم لعدوه ويبعث إليه بالقبيل على أطراف أصابعه ؟
إن حسن النية يا مسيو فوكيه سلاح كثيراً ما يستفله الاوغاد ضد الشرفاء فينبههم مآربهم منهم . واني أرى أن الناس ذوى الشرف يجدر بهم أن يستخدموا وسائل غير شريفة مع هؤلاء اللثام ، فبذلك وحده يتقون مكاييد أولئك الخصوم ، ويسلم لهم من الأذى شرفهم الرفيع !

فقال له فوكيه في هدوء : « لا تنس يا عزيزي أن مثل هذا التصرف من أولئك الشرفاء يعد عملاً منافياً للشرف ! »

فقال أراميس : « كلا ! بل يكون منهم مداعبة للحقيقة . وعلى أي حال ما دمت قد انتهيت مع هذا الفانيل ، وما دمت قد جردت نفسك من مسرة اربابك برفض التوقيع ، وما دمت قد سلمته السلاح الذي يقضى به عليك . . . »
فقطع فوكيه كلامه قائلاً : « يا صديقي العزيز : انك مثل مدرس الفلسفة الذي حدثنا عنه لافونتين منذ قليل ! فقد رأى طفلا يفرق فوقف يتلو عليه محاضرة ذات ثلاثة فصول ! »

فابتسم أراميس وقال : « أجل يا عزيزي ! على أن الطفل يمكن انقاده كما ستري . ولكن لنتكلم في الاعمال أولاً . . . ألم تحدثني منذ حين عن رغبتك في اقامة مهرجان في مدينة (فو) . . . »

فقال فوكيه : « نعم ، ولكن هذا كان أيام كنا في رخاء يسمح بذلك ! »

فواصل أراميس كلامه قائلا : « وكان الملك سيحضر هذا الاحتفال من تلقاء نفسه ، اليس كذلك ؟ »

— ان المسيو كولبير هو الذى نصح للملك بأن يحضره !

— لأنه عندئذ يكون مهرجانا فادح النفقات بحيث يجبر عليك الحراب !

— أجل ! لقد كنت فيما مضى أشعر بالغبطة إذ أظهر لاعدائي أن مواردى المالية لا تنفذ . بل كنت أشعر بالفخر كلما لحظت ذهولهم لمقدرتى على انفاق الملايين فى ظروف يتوقعون لى فيها الافلاس والحراب . ولكنى فى الوقت الحاضر أرتب حسابى مع الدولة ، ومع الملك ، ومع نفسى ، فيجب على الآن أن أصبح رجلا شحيحا مقترنا وسأبرهن للعالم على أنى أستطيع أن أتصرف فى دراهمى المعدودة ، كما كنت أفعل باكياس مملوءة بالجنيهات . ومن الغد ستباع جيادى وسترهن أملاكى وستنكمش نفقاتى !

فقال أراميس فى هدوء : « بل من الغد تشغل نفسك دون ابطاء بالاستعداد لإقامة مهرجان (فو) على أن يتحدث به الناس بحسابه أبهر ما أقمتم من حفلات فى أحسن أوقات رخائك ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « ماذا تقول ؟! ان هذا يكلف عشرة ملايين أو اثنى عشر مليوناً ! »

فقال الأسيقف : « بل تنفق عشرين مليوناً إذا اقتضى الأمر ذلك ! »

فصاح فوكيه قائلا : « لكن أنى لى هذه الملايين ؟ »

فقال أراميس : « هذا شأنى يا سيدى الوزير . ولا تقلق من هذه الناحية ، وسيوضع المال تحت تصرفك . انى أخلص لك دون حد ، ولما كنت أنت أصفى عقلا منى ، فانتى أدع لك الاشراف التام على المهرجان ، الى أدق تفاصيله . ولكنى أترك لك وضع الخطط ، وأحتفظ لنفسى بأشراف عام على التنفيذ . أعنى أن تجعلنى فى ذلك اليوم بمثابة مفتش عام ، أو شيئا بين قائد الحرس ومدير القصر ، وسأعنى بالمدعويين وأحتفظ بمفاتيح الابواب . وستصدر أوامرك طيعا ولكنك لن تصدرها الا الى وحدى ، فتمر بين شفتى لتصل الى أولئك الذين يقصدون بها . »



عاد راعول دى براجلون فجأة من لندن وهو فى أشد حالات الحنق والغضب ، فقد نعى اليه أن هناك خطرا على غرامه ! وما كاد يضع قدمه فى باريس حتى بدا له ذلك الخطر شيئا محققا . على أنه لم يشأ أن يبحث عن الحقيقة كما هو المنتظر من عاشق غيور مثله ، بل انه لم يشأ حتى أن يذهب الى لويز حبيبته نفسها ليسألها : « أصبح أنك الآن لا تحبيننى ؟ وأنت استبدلت بى حبيبا آخر ؟ » . واكتفى بأن قال لنفسه : « لقد كتب الى

(دى جيش) يحذرنى . ولا بد أنه وقف على سر خطير ، فلاذهب اليه وأسأله عما يعرفه »

وكان دى جيش قد جرى به من فونتنبيلو الى باريس منذ يومين وقد بدأ جرحه يندمل وسمح له الطبيب بأن يمشى فى غرفته . فلما رأى راعول هتف به مرحبا فرحا ، بينما صباح هذا مندهشا إذ رآه شاحب الوجه نحيل الجسم ظاهر الجفن ، ثم قال له : « هكذا دائما حال الانسان الذى يحب ! ان الحب مرض لا شفاء منه الا بالموت ! »

فابتسم دى جيش وقال له : « ولكن الانسان لا يموت من الحب ! وليس اول على هذا من أنى أستطيع أن أعانقك الآن ! وأؤكد لك اننى لست فى تناسة كما تحسبنى ، بل أنا أسعد انسان فى العالم ! صحيح أن جسمى يتألم ولكن عقلى وقلبى على ما يرام ! »

فقال له راعول : « هذا شيء يسرنى حقا ، لكنى أخشى ألا يدوم ! »

فقال دى جيش : « لا تخش شيئا ! انتهى الأمر ، وان ما نعمت به من السعادة ليكفينى حتى آخر أيام حياتى ! »

قال : « ليس عندى شك فى ذلك ، ولكنها »

فقطع دى جيش كلامه قائلا : « انى أحبها لأنها . . . ولكنى أراك غير مصمخ الى يا راعول ! »

قال : « معذرة ! لقد سارعت الى هنا قادما من لندن ، وقطعت الرحلة فى نصف الوقت الذى تقطعها فيه عادة عربات السفر ! كذلك لم تخبرنى بعد يا عزيزى بما دعاك الى استقدامى ! »

فقال : « لقد أردت أن تحضر ، وهذا كل ما هناك »

فارتسمت امارات الدهشة على وجه راعول من جديد وقال : « أمن المعقول أن تحطم كل آمالى بهذا العنف ، وأن تجعلنى أتعرض لغضب الملك بعودتى رغم أوامره !؟ »

فقال له دى جيش : « قد لا يكون الأمر مما يدعوا الى كل الاطمئنان ، ولكنى أرجو أن تفهمنى يا راعول . انى لن أقول لك أى شيء آخر ! »

فنظر اليه راعول عاتبا وقال : « اذا كنت تعرف شيئا فلماذا تخفيه على ؟ واذا لم تكن تعرف شيئا فلماذا كتبت الى محذرا !؟ »

فقال دى جيش : « ربما أكون قد أخطأت ، وانى اذن لآسف على ما فعلت . على أنى حين كتبت اليك لم أكن أرى فى ذلك إلا شيئا عاديا . . . وليت شعرى أى غرابة فى أن يكتب المرء الى صديق له يستقدمه ؟ أما الغريب حقا فهو أن أرى هذا الصديق يرتعد فى قلق ، ويتوقع منى أن أقول له ما لا يجروء على قوله أحد ! »

فقال راعول : « ما هذا الذى لا تجروء على قوله يا عزيزى ؟ ان عندى من الشجاعة ما يسمح بأن تقول لى كل شيء ! »

فقال دى جيش : « انك ظالم يا راعول وتكاد تنسى أنك تخاطب صديقا جريحا ! ألا هدىء من روعك يا أخى ، فقد دعوتك الى المجد ، وما أنت ذا قد جئت ، وأرجو ألا تسألنى عن شيء بعد ذلك ! »

قال : « كيف يصح هذا ؟ انك ولا شك قد دعوتنى الى المجد لكى أرى بعينى ما هناك ! فلم ترددك الآن ؟ أنظن أنى لم أر بنفسى كل شيء . . . لقد رأيت (لويىز) نائفة الاعصاب . و (مونتاليه) فى ارتباك . والملك . . . نعم . . . الملك يا عزيزى ! مالك تفزع هكذا وتدير رأسك جانبا ؟ ان الخطر والشرف لم يجيئا الا من هنا ! . . . تكلم يا أخى وكن صريحا . . . اليس هو ؟ »

فغمغم دى جيش يقول : « ليس عندى ما أقوله ! » فصاح به راعول محتدا : « بل عندك ألف شيء مما يجب أن يقال ! . . . أنسيت أنك صديقى الوحيد ؟ تكلم وقل لى كل شيء . لقد سحق قلبى وطعن فى الصميم ، وما أنذا أكاد أموت من اليأس ! »

فقال له دى جيش : « اذا كان الأمر كذلك يا عزيزى ، فانى لا أستطيع أن أقول لك الا ما يبعث فى قلبك العزاء ! وبعبارة أخرى سأخبرك بما يمكنك أن تعرفه من كل انسان تقابله ! »

فقال راعول متعجبا : « يعرفه كل انسان ؟! أيتحدث الناس بهذا ؟ » فقال دى جيش : « ان الناس كثيرا ما يتحدثون أكثر مما ينبغى لهم ، وعندى أن الأمر فى حقيقته قد لا يكون أكثر من رياضة عادية قامت بها فى صحتها ! وقد تريض الملك مرارا عديدة مع سيدات كثيرات دون أن يكون فى ذلك أى شيء غير عادى »

— لكنك ما كنت لتكتب الى لو كانت تلك الرياضة عادية !

— الذى أعرفه أنه كان خيرا للملك اثناء العاصفة أن يأوى الى مكان ما ، بدلا من أن يبقى عارى الرأس أمام لافالير !

— أوه يا دى جيش ! انك تقتلنى !

— اذن لا داعى لأن نتكلم فى هذا الشأن !

— كلا بل استمر . . . هل تلك النزهة تبعثها نزوهات ؟

— لم يكن هناك بعدها أكثر من مغامرة قيل أنها وقعت تحت شجرة السنديان ! ولكنى لا أعرف عنها شيئا !

وهنا نهض راعول ، وحاول دى جيش أن ينهض أيضا برغم ضعفه ، ثم قال له : « لن أقول كلمة أخرى سواء أكنت قد قلت أكثر مما ينبغى ، أم لم أقل الا النزر اليسير . وعلى كل حال كان واجبى يقضى بأن أحذرك ، وقد فعلت - فراقب أمورك بنفسك الآن . وقد يستطيع غيرى أن يمدك بمعلومات أوفى »

— أتريد أن أسأل غيرك ؟ . . . انك اذن لست صديقا مخلصا ! وما عسى أن يقول لى من أسأله فى هذا ؟ . . . انه اما أن يكون سيء النية فيكذبنى القول

ليبعث فى نفسى ألما أشد مما أعانيه . واما أن يكون أحقق فتكون النتيجة خيرا من ذلك . وهكذا لن تمضى ساعتان حتى أكون قد سمعت عشر أكاذيب ، وأكون قد دعوت الى عشر مبارزات ! . . . كلا يا صديقى العزيز ! . . . خير لى أن أقف منك على الحقيقة المؤلمة كلها !

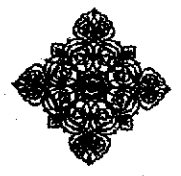
— قلت لك أنى لا أدرى شيئا . . . لقد جرحت ثم أصابتنى حمى . وكنت فاقد الوعى . ولا أذكر الا القليل عن الأمر كله . ولكن لا داعى لأن نبحت بعيدا على حين أن الرجل الذى تحتاج اليه جد قريب منا . اليس دارتانيان صديقك ؟ . . . اذن اذهب اليه ، فقد يستطيع أن يلقي بعض الضوء على الأمر ، وفى هذه اللحظة دخل خادم الغرفة وقال لى دى جيش : « ان أحد الزائرين ينتظر فى غرفة الخريف »

فقال : « حسنا ! » ثم التفت الى راعول وقال له : « أأذن لى يا عزيزى ؟ انى أشعر بالكبرياء اذا استعدت قدرتى على السير »

فقال راعول : « كان يسرنى أن أعرض عليك أن تستند الى ذراعى ، لولا أنى أعتقد أنك ذاهب لمقابلة سيده ! »

فابتسم دى جيش وقال : « أحسب ذلك أنا أيضا ! » ثم غادر الغرفة وبقي راعول وحده فيها جالسا بلا حراك وقد استغرق فى همومه ولم يلبث الا قليلا حتى سمع صوت (مونتاليه) فى الغرفة المجاورة . فقال لنفسه : « هي ؟! حقا انه صوتها ! انها تقدر أن تذكر لى الحقيقة كلها ! . . . ولكن هل أسألها هنا ؟ لا شك أنها قادمة من عندها . واذن يحسن أن أزورها فى جناحها . وسوف توضح لى سر انزعاجها وفرارها والطريقة العجيبة التى أخرجت بها . ستقول لى كل ذلك بعد أن أستمد من المسيو دارتانيان ، الذى يعرف كل شيء ، جديدا من الشجاعة ومزيئا من القوة . حقا انها امرأة عاشقة لمحب ذات أهواء وتقلبات ، ولكنها أحيانا تبدو ذات عطف وشفقة . كما أنها تؤكّد لى جيش أنه أسعد الرجال ! »

وعلى أثر ذلك ، غادر مسكن الكونت دى جيش مسرعا ، وهو يؤنب نفسه لأنه لم يحدثه الا عن شئونه هو نفسه . ولم يمض قليل حتى كان قد وصل الى منزل (دارتانيان)



لا بد أن في الأمر سرا • لأنه لا دخان بلا نار ! • ولكنك تعلم أني لا أتدخل في مسائل من هذا القبيل !

– حتى ولا من أجل صديق ابن صديق ؟

– حقا •• انك صديق ابن صديق ، ولولا هذا ما كنت لا أقول لك شيئا مطلقا • كيف حال عزيزنا بورتوس ؟

وهنا نهض راعول وأمسك يد دارتانيان ، ثم قال له : « اني أتوسل اليك باسم الصداقة قبل كل شيء ! »

فقال دارتانيان : « حقا انك مريض ! • مريض بداء الفضول على الأقل ! » فتنهذ راعول وقال : « ليته كان داء الفضول يا سيدي ، لكنه أدهى وأمر •• اني مريض بالحب ! »

– هذه كلمة كبيرة أخرى ! • ولكن لو أنك كنت مغرما حقا يا عزيزي راعول ، لكنت في حالة أخرى غير حالتك الآن !

– ماذا تعني بذلك ؟

– أعني أنك لست عاشقا متيما ، ولكنك مثل أي شاب آخر • قد خيل اليك ذلك ، فهذا الذي تقوله عن حبك للويز لا يمكن أن يكون الا نتيجة للوهم والذهول • والواقع أن عقل الانسان قلما يجديه شيئا اذا هو أسلم نفسه الى مثل هذه الاوهام • وأنا نفسي أعترف لك بأنني فقدت حواسي على هذا النحو مائة مرة في حياتي ! • إنك قد تصغى الي ولكنك لن تسمع ما أقول ، وقد تسمع ولكنك لن تفهم ، وقد تفهم ولكنك لن تطيعني !

فقال راعول : « تكلم يا سيدي ، قل كل ما لديك • وثق بأنني سأسمع وأفهم وأطيع ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا ، ثم هز رأسه أسفا وقال :

– أوه ! • اني اذهب بعيدا ! •• ولو أنني كنت أعرف شيئا ، وكنت من الحماقة بحيث أطلعك عليه بوصفك صديقي وابن صديقي ، فلا شك في أنه لن يؤدي آخر الأمر الا الى أن أخسر صداقتك ! • لأنك في هذه الحالة لا تغفر لي أبدا أني بددت أوهامك في مسائل الحب والغرام !

فزفر راعول زفرة حرى وقال :

– يا مسيو دارتانيان •• انك تعرف كل شيء ، ومع هذا تردني الى الحيرة واليأس بل الى الموت ! • اني لا أشكو أبدا كما تعلم عني • ولكن لما كان الله وأبني لن يغفرا لي قط اذا أطلقت الرصاص على رأسي ، فاني سأذهب وأرغم أول شخص أقابله على أن يفشى الي من الانبياء ما تسره أنت وتخفيه علي ، ثم أتهمه بالكذب والفساد •••

فقطع دارتانيان كلامه وقال متمما عبارته : « وتقتله ! •• ان هذا يكون شيئا جميلا يا عزيزي ! •• واذا كنت ترى فيه ما يبعث السرور في نفسك ، فهيا نغذه واقتل من تشاء ! »

حديث لا يبعث على الأمل

كان الكاتبن دارتانيان جالسا على كرسيه الكبير ، ومهمازه على الأرض ، وسيفه بين قدميه ، وقد شغل بقراءة بعض الخطابات بينما هو في الوقت نفسه يقتل شاربته • وما كاد يرى راعول حتى هتف به مرحبا في فرح قائلا له :

– مرحبا بالصديق ابن الصديق ! • أي حظ سعيد جعل الملك يستقدمك من لندن ؟

وجلس راعول وهو يقول : « الحق اني لا أعرف أكثر من أني عدت ! »

فهمهم دارتانيان وهو يطوى خطاباته ، ونظر الى الشاب نظرة عميقة ثم قال له :

– ماذا قلت يا بني •• ألم يستقدمك الملك •• كيف عدت اذن ! ؟

فاخذ راعول يدير قبعته في يده دون أن يجيب بشيء ، ثم استطرد الكاتبن صديق أبيه فسأله :

– ماذا بك ؟ وما الذي يسكتك •• أترارك قد اكتسبت هذا الجمود من الإقامة بانجلترا •• لكني أنا أيضا أقمت بها حيننا وقد رجعت ممثلنا حيوية ! • أم ليس لديك ما تقوله ! ؟

فغمض راعول قائلا : « بل لدى الكثير مما يقال ! »

فقال دارتانيان : « ماذا •• آه •• كيف حال أهلك ؟ »

فأجاب راعول : « كنت أهم بأن أوجه اليك هذا السؤال ! »

فأمعن دارتانيان فيه النظر وقال : « لعلك في كدر من شيء ما ؟ »

قال : « هذه هي الحقيقة ! • وأنت تعرف الأمر جيدا يا مسيو دارتانيان ! • وأرجو ألا تتصنع الدهشة يا سيدي ، ولتعلم اني دونك في كل ما يتعلق باللباقة أو يتصل بتجارب القوة والجلد ، وما أنت ذا تراني أمامك لا عقل لي ولا ادراك ، وليس لي رأس أفكر به ولا ذراع أصد بها • وبالإجمال أنا أشقى انسان في العالم ! »

فغمض دارتانيان قائلا : « أهكذا ! • ولم هذا كله يا بني ؟ »

فقال راعول : « لأن الآنسة دي لافالير تخدعني ! »

– تخدعك •• هذه كلمة كبيرة ! • ولكن ما الذي يدعوك الى هذا الظن ••

فقال راعول مكتئباً : « كلا يا سيدي !! لن أقتل أى انسان ! »

فقال دارتانيان : « ولم لا تفعل ؟ وماذا جعلك تتخذ لهجة أخرى ؟ .. »
لعلك تؤثر على ذلك أن تسعى فى أن يقتلك أنت أى انسان ؟ .. وصدقتنى
يا عزيزى ان هذا لشيء جميل أيضا ! على أنى سأحزن عليك حقا ! وسأظل
طول يومى أقول : لقد كان شابا لطيفا لكنه كان كذلك غيبيا أحق ! .. ولقد
قطعت السنين الطوال أعلمه كيف يستخدم سيفه لكنه مع هذا أسلم نفسه
لمن يقتله كما تقتل قبرة ! اذهب اذن يا راعول واخل الناس يخلصوا منك ..
لست أدري من الذى علمك هذا المنطق ، ولكن الحق أن أباك قد ضاعت عليه
نفقات تعليمك ! »

فوضع راعول رأسه بين كفيه وقال : « ليس لى صديق فى العالم ! انى
لا ألقى الا عدم الاكترات أو السخرية ! »

فقال دارتانيان : « هذه أوهام يا بنى ! انى لا أسخر منك مع أنى
جاسكونى يحب السخرية .. ولو أننى كنت لا أعيرك اهتماما لصرفتك منذ
ربع ساعة ، ولكان فى ذلك القضاء عليك لأنك لست فى وعيك .. والآن
أيها الشاب : أتحب أن أغريك بالاشمزاز من فتاتك حتى لتمقت الجنس
اللطيف كله الذى هو أصل الشرف والسعادة فى الحياة البشرية ؟ »

فقال راعول متلهفا : « بالله يا سيدي .. نبئنى بكل ما تعلم ، فانت بذلك
تسدى الى يدا لن أنساها ما حييت ! »

— كما تشاء .. ولكن لا تظن أنى قد خشوت رأسى بكل ما قيل عن
التجار والرسام .. الى آخر القصص التى من هذا القبيل ! »

فتساءل راعول متعجبا : « نجار ورسام !! ماذا تعنى يا سيدي ؟ »
— الحق أنى لست أدري ! وكل ما هناك أن أحد الناس أخبرنى أن نجارا
فتح فوهة فى أرض احدى الغرف !

— أعنى غرفة لافالير ؟

— قلت لك لست أدري !

— أظن اذن أن هذه الغرفة فى جناح الملك ؟

— لو كان الأمر كذلك لاخبرتك به ، ولكنى كما ذكرت لك لا أعلم شيئا
أكثر من هذا !

فسكت راعول قليلا ، ثم قال : « وما شأن الرسام اذن ؟ .. أهناك صورة
مثلا كلف أن يرسمها ؟ »

فقال دارتانيان : « نعم ، لكنى لا أعلم أكثر من أن الملك أراد أن ترسم
صورة لاحدى سيدات البلاط ! »

فصاح راعول : « صورة لافالير طبعاً ؟ .. أليس كذلك ؟ »

فقال دارتانيان ساخرا : « ألا تعرف غير هذا الاسم لتلوكه فى فمك ؟ ..
انى لم أشتر من قريب ولا من بعيد الى اسم لافالير ! »

— اذا لم تكن الصورة صورتها فما الذى جعلك تظن أن الأمر يعينى ؟
— أنا لم أظن أن الأمر يعينك .. ولكنى أجيب عما تسألنى عنه !

فضرب راعول جبينه بيده ياسا وقال : « يا لى من مسكين ! ان هذا
الأمر سيقتلنى ولا شك ! »

فقال له دارتانيان : « لم تأت بجديد يا بنى فقد ذكرت هذا الأمر من
قبل ! »

فغمغم قائلا : « صدقت يا سيدي .. صدقت ! .. ثم خطا خطوة أو
خطوتين كمن يعتزم الانصراف ، فقال له دارتانيان : « الى أين ؟ »

فقال : « الى حيث أبحث عن أعرف منه الحقيقة ! .. الى الأنسة دى
لافالير نفسها ! »

فقال دارتانيان : « هذه فكرة عظيمة ! .. انك لفى حاجة شديدة الى من
يبعث العزاء فى نفسك ، وستلقى عندها هذا العزاء ، ولا شك أنها بالطبع
لن تذكر عن نفسها أى سوء ! »

فقال راعول : « كلا يا سيدي ! ان المرأة التى أقصدها ستذكر لى كل
سوء تعرفه ! »

— اذن أنت تعنى (مونتاليه) صديقتها ؟ .. لكن هذه ستبالغ فى كل
حسنة أو سيئة تذكرها لك ! .. وأنا لهذا أتصح لك بالألا تتحدث معها
يا عزيزى فانه يكفى أن تكتب اليها !! ..

وفيما كان راعول يتناول القلم من يد الكابتن ، فتح الباب فجأة ودخل
أحد الفرسان وقال لدارتانيان :

— ان الأنسة مونتاليه هنا وتريد أن تقابلك يا كابتن !

فبنت الدهشة فى وجهه وقال : « أنا ؟ .. دعها تدخل وسترى ! »

ولم تكذ الأنسة دى مونتاليه تدخل حتى صاحت : « آه يا سيدي !
أرجو المعذرة يا مسيو دارتانيان »

فقال لها : « أنا أعلم يا آنسة أن من كان فى مثل سننى لا يطلبه الناس
الا الحاجة من الحاجات ! »

فقالت مونتاليه : « لقد كنت أبحث عن المسيو دى براجلون »

فقال لها : « هذا من حسن الحظ ، لأنه هو أيضا يبحث عنك »

ثم التفت الى راعول وقال له : « اذهب أنت مع الأنسة مونتاليه الآن ؟ »
ولما أوما هذا موافقاً ، دفعه دارتانيان برفق الى بخارج الغرفة ، ثم أمسك

بيد مونتاليه وقال لها بصوت خافت : « كونى رحيمة به ، وأبقى عليه وأبقى
عليها أيضا بقدر استطاعتك ! »

فقالت له : « لكنى لست أنا التى سأتحدث معه ! .. ان المدام نفسها هى
التي بعثتنى اليه ! »

فقال : « حسنا ! ما دام الأمر كذلك ، فلن تمضى ساعة حتى يشفى المسكين من حبه ! »
فقالت مونتاليه : « أو يكون في عداد الأموات ! »

□

لم يكدر راعول يخلو الى الأتسة مونتاليه حتى قبل يدها بشغف ، فقالت له بحزن :

— انك تبدد قبلاتك هباء ، وما أحسبها تعود عليك بأية فائدة !

فسألها : « وكيف ذلك ؟ ألا توضحين ؟ »

فقالت : « ان المدام (قرينة الشقيق الأصغر للملك) ستشرح لك كل شيء . »

وسأخذك الى جناحها ! »

فصاح متعجبا : « ماذا تقولين ؟ »

فوضعت الأتسة مونتاليه سبابتها على شفيتها محذرة آياه وقالت : « صه يا سيدي ، ودع عنك هذا المظهر الحزين . ان للنوافذ أعينا وللجدران آذاناً . وأرجو ألا تحدثني بصوت مرتفع أو ليكن الحديث عن المطر والجو وعن مفاتن انجلترا وما الى ذلك ! ان المدام لها عينان وأذنان ترى بهما وتسمع كل شيء . . . وأنا لا أحب أن أفصل من مركزي ، ولا أن يزوج بي في الباستيل ! »

فقبض راعول يديه محاولا أن يسترد شجاعته ، بينما تقدمته مونتاليه وهي تنظر حوالها حتى وصلت الى جناح المدام فسمح له بالدخول توا ، وكانت قد استلقت على مقعدها ومدت قدميها الدقيقتين على وسادة من المخمل ، وأخذت تداعب قطة ذات فروة حريرية طويلة الشعر . وبدأ عليها التفكير العميق حتى أنها لم تنتبه الا على صوت راعول وهو يقول لها : « لقد بعثت سموك في طلبى ! »

فهزت الاميرة هنريتا أو (المدام) رأسها كأنها تستيقظ من النوم وقالت له : « عم صباحا يا مسيو دي براجلون . أجل لقد بعثت في طلبك . واذن فقد عدت من انجلترا ؟ »

ثم أومأت الى مونتاليه ، فسارعت هذه الى مغادرة الغرفة ، بينما قالت الاميرة لراعول :

— هل لديك بضع دقائق أستطيع أن أحدثك فيها ؟

فقال لها : « ان حياتي كلها رهن تصرف سموك الملكي ! »

ولم يفته أن يلاحظ مظهر الجلد الذي ارتسم على محياها، وشعر بأن هناك تشابها بين شعورها وشعوره . والحق أن كل انسان قوى الملاحظة فى البلاط كان يعرف غرابة أهواء هنريتا واستبدادها . وقد أرضى غرورها

التفات الملك لها ، وتركت الناس يتحدثون بذلك ، وقد غرست فى قلب الملكة من أجل ذلك بذور الغيرة التى لا سعادة معها لأى امرأة

والحق أن الاميرة — أو (المدام) كما يسمونها فى البلاط — حاولت أن نداوى جروح كبرياتها ، ولكنها وجدت أن قلبها لم يعد ملكا لها . وقد بذلت جهودها لاستدعاء راعول دي براجلون ، وكان لويس الرابع عشر أرسله الى انجلترا لبيعه من طريقه . ولم يعلم راعول شيئا عن الخطاب الذى أرسلته المدام الى أخيها تشارلس الثانى ملك الانجليز ، وان كان دارتانيان قد تصور ما يحتويه

وقالت الاميرة لراعول بعد تفكير : « يا مسيو دي براجلون . هل رجعت مستريح البال ؟ »

فنظر هنيهة الى وجهها الشاحب ، ثم أجاب قائلا : « مستريح البال ؟ . وماذا هناك مما أنعم به أو أشقى يا سيدتى ؟ »

فسألته : « ما هى الاشياء التى تجعل شابا فى مثل سنك ومظهرك ، سعيدا أو شقيا ؟ »

فقال راعول لنفسه مرتاعا : « ما أشد اشتياقها الى أن أخبرها بما هناك ! ترى ما الذى سنتفنه فى قلبى ؟ » . وأراد أن يرجى الشر الذى ستنبئه به وأن يجيد بها عنه فقال لها :

— لقد تركت خلفى هنا صديقا فى تمام صحته ولما عدت وجدته مريضا ! فقالت متمالكة أعصابها : « أنت تقصد دى جيش ؟ لقد سمعت أنه صديق حميم لك ! »

فقال : « نعم ، انه حقا كذلك ! »

فاستطردت قائلة : « صحيح انه جرح ، ولكن حالته تحسنت الآن . . ان المسيو دى جيش ليس فى حاجة الى شفقة . . ولكن أيشكو شيئا ؟ . . هناك ما يضايقه أو يحزنه دون أن نعلمه ؟ »

فقال راعول : « أنا أقصد جرحه يا سيدتى ! »

فقالت : « حسنا ! ان دى جيش سعيد من كل وجه آخر . . انه دائما فى سرور ومرح ، وانى موقنة أنك أنت يا مسيو براجلون كنت تؤثر أن تكون مثله ، جريح الجسم فقط ! »

فاقترب منها راعول وقال لها : « انك يا صاحبة السمو الملكي تريدان أن تقولى لى شيئا ، ولكن رقتك وسماحتك تغريانك بأن تكونى على حذر فى قوله مراعاة لشعورى . ألا تدعين هذا الاعتبار الكريم جانبا ؟ . . انى أقدر أن أتحمّل أى شيء . . وها أنذا أضغى الى سموك ! »

— أنك على الاقل تعرف كل ما هو معروف فى البلاط . ألم يبلغك شيء عما حدث وقت العاصفة ، أو عن المناجاة فى الغابة، أو الرحلة الى شايو ؟ »

وكان راعول قد طأطأ رأسه كالزهرة التي قطعت ساقها ، فابتسم ابتسامة يأس وقال :

— أؤكد لسموك الملكي أنني أجهل كل شيء ، وأنني لست الا طريدا بانسا عاد هذه الساعة من انجلترا ! ولقد كانت ثمة أمواج صاخبة بيني وبين من خلفتهم هنا ، فلم تقدر أن تصل الى أية شائعة عن الظروف التي أشرت سموك اليها !

فتأثرت هنريتا بشحوبه ووداعته وشجاعته . وقالت له :

— يا مسيو دي براجلون . . ان الذي أبى أصحابك أن يصارحوك به ، سأقوله لك ، أنت الذي أحبه وأقدره كثيرا . وسأكون صديقتك في هذه المسألة . انك ترفع رأسك عاليا كما ينبغي للرجل الشريف ، وأنا يؤسفني أن ترغم على حتى رأسك حيال سخرية الناس ، وربما حيال ازدرائهم بعد حين !

فتساءل راعول : « هل الأمر بالسوء الى هذا الحد ؟ »

فأجابت الأميرة : « اذا كنت لا تعلم فاني أراك مشغول البال . . لقد كنت خطيب الأنسة دي لافالير على ما أعتقد ؟ وأنت اذن تستحق أن تحذر ما هناك . اني سأضطر يوما من الايام الى أن أفصلها من خدمتي ! »

فصاح هالعا : « تفضلين الأنسة دي فالير ؟ »

فقالت : « نعم ، أم تحسبني سأخضع دائما لدموع الملك وتوسلاته ؟ »

كلا ! ان بيتي لا يصلح مكانا لمثل ذلك »

فبذل راعول قصارى جهده ليتغلب على ضعفه وأجاب قائلا : « يا صاحبة السمو . . لقد تفضلت سموك وقلت ان الملك كان يبكي ويتوسل اليك ؟ »

— أجل ، ولكن بلا جدوى !

وكان راعول يستمع الى كلامها خافض الرأس ، ثم قالت له : « ماذا ترى في هذا كله ؟ »

فأجاب قائلا : « ان الملك يحبها ! »

فقالت : « ولكن يبدو أنك تحسبها لا تحبه ؟ »

قال : « واأسفاه يا سيدتي ! اني أفكر في الوقت الذي كانت تحبني فيه ! »

فهزت كتفها وقالت : « يخيل الى انك لا تصدقني . لا ريب أنك تحبها حبا عميقا . وأنت تشك في أنها تحب الملك ! »

فقال : « أجل ! حتى أرى برهاننا على ذلك . عفوا يا سيدتي ! لقد تعاهدت معها على الحب وأعطتني كلمتها . وان عقلها وقلبها لا زكي من أن تكذبني القول ! »

فنهضت الأميرة وهي تقول له : « أنت تطلب برهاننا ؟ فليكن . . تعال

معي اذن ! »

في مخبأ الغرام

مشيت الاميرة هنريتا — أو (المدام) — أمام الفيكونت راعول دي براجلون خلال الردهة ، حتى بلغت الجناح الذي تسكنه الأنسة دي لافالير . وكانت الفرصة سانحة لتنفيذ خطة الاميرة ، لان القصر كان خاليا ، اذ ذهب الملك في صباح اليوم نفسه الى سان جرمان ومعه رجال البلاط والوصيفات ، وبقيت هي في القصر مدعية انها منحرفة الصحة ، ثم أرسلت في طلب دي براجلون لعلها تفيد شيئا من مقابلته

وكانت على يقين من خلو غرفة لافالير وجناح سان اينيان ، فأخرجت مفتاحا سرياً من جيبها وفتحت باب غرفة وصيفتها ، ونظر دي براجلون الى داخل الغرفة التي يعرف كل شيء فيها ، ولم يفث الأميرة ادراك ما دار بخيلده في تلك اللحظة ، فقالت له : « انك طلبت الأدلة التي تقنعك ، وسأزودك بها . على أنك ان لم تكن لديك الشجاعة الكافية لمواجهتها ، فأمامك فرصة للانسحاب ! »

فقال لها : « شكرا لك يا سيدتي ، أنا ما جئت الى هنا الا لكي أقف على الحقيقة كاملة ! »

فقالت الأميرة له : « اذن . . ادخل وأغلق الباب وراءك ! »

ولما فعل ، قالت له : « أحسبك تعرف أننا الآن في غرفة الأنسة دي لافالير »

ثم سارت بجانب السرير الموضوع هناك ، وانحنيت على الأرض حيث رفعت جانباً من البساط الذي يكسوها وقالت له : « انظر . . هنا باب سري ستري الآن بنفسك الى أين يؤدي ! »

فقال متعجبا : « باب سري ؟ » وعاد الى ذاكرته ما سمعه من دارتانيان ثم نظر حوالياً باحثاً عن حلقة أو نحوها يرفع بها ذلك الباب ولكنه لم يجد ، فقالت له الأميرة : « هنا يا فيكونت . . هل ترى هذه العقدة التي في اللوح الخشبي الرابع ؟ انها هي المحرك السري ، وما عليك الا أن تضغطها بنفسك فيفتح الباب ! »

وبدا وجهه شاحبا كوجوه الموتى ، وضغط بأصبعه العقدة التي أشارت اليها ، فابتدأ المحرك عمله فورا ، وسرعان ما ارتفع الباب الخفي من تلقاء نفسه . فقالت الأميرة :

- انه اختراع يدل على براعة المهندس الذى صنع الباب ، ولعله كان يعلم أن يدا دقيقة ستستخدم هذا المحرك وقد رأيت كيف انفتح الباب بسهولة !

وأخذ راعول ينظر متعجبا الى السلم الذى بدا أمامه ، والى الحاجز الدقيق الذى صنع له ليحول دون سقوط من يهبطه . بينما واصلت الأميرة كلامها فقالت « هيا يا فيكونت .. سأهبط هذا السلم فاتبعنى »

فقال لها : « قبل أن أتبعك يا سيدتى ، أسمحين لى أن أسأل : الى أين يؤدى هذا السلم ؟ »

فقالت : « لعلك تعلم ان الميسيو (دى سان اينيان) كان يسكن الجناح الملاصق لجناح الملك ؟ »

فقال : « أجل . أو - على الأقل - كان هذا ما أعلمه قبل سفري ، وكثيرا ما زرته فى جناحه »

فاستطردت قائلة : « لقد حصل من الملك على إذن فى أن يبدل بجناحه التريخ الجميل غرفتين يؤدى اليهما هذا السلم ، وهو يسكنهما الآن مع أنهما أضيقت من جناحه السابق ، وأبعد من جناح الملك . والعجيب حقا أن هذا المسكن الجديد يقع مباشرة تحت غرف وصيفاتى ، ولاسيما غرفة الآتسة لافالير ! »

فسألها راعول : « لكن ما الغرض من انشاء الباب السرى والسلم ؟ » فأجابته بقولها : « هذا ما لا أستطيع أن أخبرك به ، وعلى كل حال سنهبط الى الغرفتين الآن ولعلنا نجد هناك ما يلقي الضوء على هذا اللغز ! »

ثم هبطت السلم مشيرة اليه أن يتبعها ، فتبعها وهو يتنهد . وخيل اليه أثناء ذلك أنه يشم رائحة كرائحة عطر لافالير ، ثم ما لبث قليلا حتى رأى بعض الازهار التى تحبها ، والكتب التى تؤثرها ، كما رأى ذوقها الذى يعرفه مجسما فى كل قطعة من الاثاث ، وفى لون الستائر ، فاشتد كربه وواصل المشى خلف مرشدته وكأنه مجرم يتبع سجاناه الموكل بتنفيذ الحكم باعدامه ، على حين أخذت الأميرة تثير كامن لواعجه بما تروى له من تفصيل ما يراه . فبدا وقد تملكه اليأس والقنوط ، وتخيل أنه يرى (لويز) مع حبيبها ، وقد اشتبكت يداهما والتصق خداهما ، وراحا يتبادلان القبلات

ثم أزاحت الأميرة ستارة من الحرير ، فأبصر وراءها صورة زيتية كبيرة تمثل لافالير فى جمالها وشبابها ، وسعادتها وحيويتها ، كأبدع ما تكون فتاة منعمة مثلها فى الثامنة عشرة من العمر . وصاح قائلا :

- لويز !؟ إذن فالامر صحيح ! ..
ونظرت الأميرة اليه ، وهى تكاد تحسد لويز على تأله هذا فى سبيل حبها ، برغم أنها هى نفسها يحبها دى جيش مثل ذلك الحب أو أشد . ثم قال لها راعول :

- عفوا يا سيدتى . انى أعلم أنه ينبغي لى أن أتمالك شعورى فى حضرتك ، وأن أكون أكثر صبورا وجلدا . ولكننى أسأل الله لك أن يجتنبك الشقاء الذى بقتت قلبى الآن .. أجل سامحيني يا سيدتى .. اننى رجل لا مركز له ولا مقام ، أما أنت فأميرة لا تعرف لسعادتها حدا ، ولا لسلطانها نهاية !

فقالت له : « يا ميسيو دى براجلون .. ان قلبا مثل قلبك لجدير بكل تقدير يمكن أن تهيه ملكة ! . وانه ليسرنى حقا أن تعدنى صديقة لك ، وثق باني لن أترك حياتك تسممها خيانة أو سخرية ! .. وهذا ما جعلنى أقدم على السعى فى سبيل عودتك من لندن ، اذ الواقع أنى أشجع من كل أصدقائك المزعومين - ما عدا دى جيش - ولهذا قدمت لك هذه البراهين المحزنة التى كان لابد منها لشفائك من غرامك ، هذا اذا كنت محبا شجاعا لا ضعيفا باكيا . على أنى لا أحب أن أسمع منك أى شكر على قيامى بهذا الواجب »

فابتسم راعول فى مرارة وقال : « سمعا وطاعة يا سيدتى .. » فقالت الأميرة : « ولا تنس أن حريتك ، بل حياتك نفسها فى خطر ! » فنظر اليها نظرة ثابتة عميقة دللتها على أن عبارتها الاخيرة لم تكن ذات أثر فى نفسه ، وقالت له :

- على كل حال ، أرى أن تزن كل أعمالك بميزان العقل والحكمة ، وأن تلتزم جانب الحذر ما استطعت ، فالملوك لا يستهان بفضيهم كما تعلم . وليس الخطر مقصورا عليك وحدك ، بل هناك أسرته وأصدقائك أيضا . وعلى هذا يجب أن تنتحنى للعاصفة ، وان تلتمس شفاء نفسك قبل كل شئ !

فقال : « انى أقدر نصيحة سموك ، وسأحاول اتباعها . على أنى أرجو أن تفضلى سموك بأن تكشفى لى سر ذلك السلم والباب وكيف عرفتهما ؟ »

فقالت : « ان الأمر جد بسيط ، فقد أمرت - لكى أراقب وصيفاتى عن كثب - بعمل مفاتيح سرية لغرفهن احتفظ بها عندى . وقد استغربت انتقال الميسيو سان اينيان من جناحه ، كما استغربت مجيء الملك كل يوم لزيارته فى مسكنه الجديد ، وهذا عدا ما لاحظته من أمور غريبة كثيرة خلال غيابك حتى لقد تغير الكثير من العادات المرعية فى البلاط . ثم أنا لا أحب أن يستهين بى الملك ولا أن يتخذ منى ستارا لغرامياته ، وأعتقد أنه شغف حينا بلافالير ، وقد يمل حبها لأنها دائمة العبوس ، وتروقه - مثلا - مونتاليه التى لا تبدو الا ضاحكة ، ثم تعجبه على هذا الأساس (توتاي شارنت) التى لا تفتأ تغنى طول يومها ! .. ولعلى جرحت شعورك ، ولهذا أكرر اعتذارى لك ، فقد كان واجبي يقضى بأن أحذرك قرب هبوب العاصفة لتعمل على أن تقى نفسك منها ! »

فقال دى براجلون فى حزم : « لن أقف ساكتا حيال هذا العار الذى

الصق بي والحياة التي ارتكبت معي !
فقلت : « افعل ما تشاء يا مسيو راعول ، ولكن حذار أنه تكشف عن
المصدر الذي وقفت منه على الحقيقة . هذا كل ما أطلبه اليك جزاء الخدمة
التي أدتها لك ! »

فابتسم راعول بمرارة وقال : « لا تخشى شيئا يا سيدتى »
وعادت الأميرة تقول : « لقد رشوت الحداد الذي وثق به العاشقان .
ولعلك كنت في موقفى تفعل ذلك »

فقال : « أجل يا سيدتى ! والآن هل لدى سموك الملكى أى نصح آخر
أو تحذير ؟ »

فقلت : « لا .. ليس عندى غير ما قلته »

فقال : « إذن اسمحى لى يا صاحبة السمو أن نبقى هنا قليلا ، ريثما
أكتب خطابا الى أحد الناس ! »

فقلت : « تكتب خطابا ؟ .. أهذه نتيجة تحذيرى يا مسيو دى براجلون ؟ »
فقال : « لن يستطيع أحد أن يعلم أن سموك تفضلت بارشادى الى هذا

المكان ، وسأوقع على الخطاب الذى أكتبه »

فقلت : « إذن افعل ما يحلو لك »

فأخرج راعول من حافظته قطعة ورق وكتب عليها الأسطر الآتية :

« سيدى الكونت .. لا يدهشك أن تجد هنا هذه الورقة التي وقعت
عليها ، ان صديقى الذى سأرسله قريبا اليك سيوضح لك سبب زيارتى
هذه لك ..
الفيكونت راعول دى براجلون »

وطوى الورقة ودسها فى قفل باب الغرفة المعدة لخلوة العاشقين ، وجعل
الورقة ظاهرة بحيث لا يسع (سان اينيان) الا أن يراها عند دخوله . ثم
لحق بالأميرة وكانت قد وصلت الى أعلى السلم . وبعدئذ افترقا ، بعد أن
شكر لها صنيعها مرة أخرى ، وبعد أن تظاهرت هي بالاشفاق عليه . وقالت
لنفسها وهو يخرج صاحب الوجه وقد احمرت عيناه : « لو كنت أعلم
ذلك لأخفيت عليه الحقيقة ! »

من يدفع ثمن الجريمة ؟

لم يكن الشرف الذى أعده الملك على بورتوس بدعوته الى مأدته ، ليغير
شيئا من عاداته وأخلاقه ، على أنه بدأ بعد ذلك أرفع رأسا ، كما بدأ شيء
من الوقار فى مظهره ، وبقي أياما لا يفتأ يستعيد فى ذهنه منظر المائدة
الملكية الفخمة وصفوف الخدم الواقفين حولها . وقد رأى بورتوس أن يمنح
خادمه موستون مركزا ممتازا بين بقية خدمه ، وأن يخلق فى بيته نظاما
عسكريا ، كما كان الشأن فى بيوت رجالات ذلك العصر والعصر الذى قبله ،
أمثال (دى تريفييل) و (شومبرج) و (ريشيليو) و (كونديه) ..
وكل هذا لأنه أصبح صديق الملك ، وصديق المسيو فوكيه ، عدا أنه
بارون ومهندس

وفيما هو يستعيد الى ذاكرته فخامة المأدبة الملكية ، بعد أن شرب بعض
النيبيذ الفاخر على الطعام وكاد يغلبه نعاس رقيق ، دخل عليه خادمه يقول :
« ان المسيو دى براجلون جاء للزيارة » . فانتقل بورتوس الى غرفة مجاورة
حيث لقي صديقه الشاب وصافحه مبديا دهشته من دلائل الجد فى ملامحه ،
ثم دعاه للجلوس ، فقال له راعول : « لقد جئت أطلب اليك خدمة تؤديها لى ! »

فقال بورتوس : « هذا من دواعى سرورى . لقد تسلمت اليوم ثمانية
آلاف (ليفر) من مزرعتى فى (بييرفون) . فاذا كنت فى حاجة الى مال .. »

فقطع راعول كلامه قائلا : « ان الأمر لا يتعلق بالمال ! وأنا على يقين من
أن لك من طيبة القلب مثل ما لك من رجاحة العقل وسلامة الحكم على
الأمر ! »

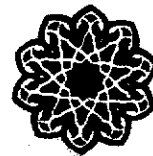
فقال بورتوس : « انك تحسن الظن بى . وعلى كل حال سنتناول
الغداء هنا ؟ »

فقال : « كلا ! . ولك الشكر فلست جائعا »

فقال بورتوس متعجبا : « ألا تتناول طعام الغداء ؟ ما أعجب بلاد
الانجليز التي جعلتك تترك وجبة الغداء ! . لكنك لن ترفض أن تشرب
شيئا . ان الانسان يشعر بالظما فى باريس ! »

وأمر باحضار زجاجة شمبانيا ، وملاء كأسا لراعول ، ثم كأسا لنفسه
تجرعها دفعة واحدة ، ثم قال :

— لقد كنت فى حاجة الى هذا لكى أصغى اليك بانتباه . والآن أنا فى



خدمتك ، ماذا تريد مني اذن يا راعول ؟

فقال : « أريد أن تدلى الى برأيك عن الخلافات عامة ! » انك دائما فى مرح وسرور ، ولكن اذا حدث سوء تفاهم بين أحد أصدقائك وبين رجل غريب عنك ، فماذا يكون موقفك فى هذه الحالة ؟ »

فقال بورتوس : « اذا أصبح أحد أصدقائى طرفا فى خلاف ، فانى أعمل دائما وفق مبدأ واحد ، هو ان الوقت الذى يضيع لا يمكن تعويضه ، وأن الانسان لا يستطيع أن يسوى مسألة الا اذا بلغ النزاع أشده ، وعلى هذا فانا - متى بدأ الخلاف - أجمع الطرفين معا ، وبهذه الطريقة يصبح من الممكن أن يسوى النزاع ! »

فقال راعول : « أحسب أن أى نزاع يعالج بهذه الوسيلة ينتهى بالعكس الى ... »

فقطع بورتوس كلامه قائلا : « كلا ! تصور أنى فى ماضى حياتى اشتكرت فيما يقرب من مائتى مبارزة نظامية ، عدا المبارزات العاجلة والمشاجرات التى تاتى بها المصادفة ! »

فابتسم راعول على الرغم منه وقال : « هذا رقم محترم ! »

واستطرد بورتوس فقال : « انه ليس كثيرا ، لأنى وديع متسامح . أما دارتانيان فان مبارزاته أكثر عددا . والحقيقة انه حاد الطبع قليلا . وقد صارحته بذلك ! »

فقال له راعول : « على ذلك أنت ترتب مسائل الشرف التى يعهد الاصدقاء فيها اليك ؟ »

فقال : « نعم ، وليست هناك مسألة واحدة من هذا القبيل لم أرتبها كما يجب ، وبالطريقة التى تتفق مع الشرف ! »

فسأله راعول : « هل لك فى أن توضح لى هذه الطريقة ؟ »

فأجاب بقوله : « أجل ! انى أذهب الى الخصم وأقول له : (لا يمكن يا سيدي أن تكون غافلا عن مدى الإهانة التى ألحقها بصديقى) ... »

فعبس راعول حين سمع هذه العبارة . بينما واصل بورتوس كلامه قائلا : « وقد يحدث أحيانا ألا يكون صديقى قد لحقته أية اهانة ، بل تكون الإهانة صادرة منه ، ومن هذا ترى أنى أحسن اختيار عباراتى ! »

ثم ضحك بورتوس ، فقال راعول محدثا نفسه : « انى سئى الحظ حقا ، ان دى جيش يعاملنى بغير اكتراث ، ودارتانيان يعاملنى بسخرية ، وهذا هو بورتوس الوديع يبدو غير مستطيع أن يسوى المسألة بالطريقة التى أريدها ! »

ثم قال له بورتوس : « انى بعبارة واحدة أدع الخصم بلا عذر يعتذر به ! » فقال راعول شاردا الذهن : « هذا على حسب الاحوال ؟ »

فقال : « كلا ! بل هو أمر مؤكد . انى لا أترك له عدرا . وعندئذ أبدى جانب الادب لكى أصل الى النتيجة السعيدة لمسعى ، وسرعان ما أتقدم اليه وأمسك يده وأقول له بلطف : (الآن وقد أيقنت أنك أهنت صديقى ، فنحن على ثقة من الترضية . ولا مناص لكما فى المستقبل من أن تبادلنا معاملات السلوك ، وبناء على ذلك فان مهمتى هى أن أطلعك على مدى طول سيف صديقى ! »

فقال راعول بدهشة : « ماذا تقول له !؟ »

فقال مستمرا : « أقول له : (ان سيف صديقى طوله كذا ، وجوادى ينتظر بالباب ليحملك الى البقعة التى ينتظرك فيها صديقى نافذ الصبر ، ويمكننا أن نأخذ معنا من الطريق أى شاهد تختاره) . وهكذا أسوى المسألة ! »

فتساءل راعول متعجبا : « أية تسوية تعنى ؟ هل تصلح بين الاثنين ؟ »

فأجاب بقوله : « أصلح بينهما !؟ لماذا ؟ » انهما بعد ذلك سرعان ما يلتقيان ، وجها لوجه ، ثم يقتل صديقى خصمه ، وهكذا تنتهى المسألة ! » فصاح راعول : « يقتله !؟ »

واستطرد بورتوس فقال جادا : « نعم يقتله ، أم تحسبنى أرضى بأن يقتل ذلك الخصم صديقى !؟ ان لى مائة وواحدا من الاصدقاء وفى طبيعتهم أبوك ، وأراميس ، ودارتانيان وكلهم على قيد الحياة وفى صحة جيدة »

فتنهض راعول وعانقه قائلا فى سرور : « آه يا عزيزى البارون ! »

وسأله بورتوس : « اذن ... أنت توافق على طريقيتى ؟ »

فقال : « أجل ! كل الموافقة . بل أنا سألجا اليها اليوم ، وفى هذه الساعة فورا ! » انك أنت الرجل الذى كنت أبحث عنه ! »

فقال بورتوس : « حسنا ! ها أنذا . أظنك تريد أن تبارز أحدا ؟ هذا أمر طبيعى يا عزيزى ، فمن ذلك الذى تريد مبارزته ؟ »

فقال راعول : « هو المسيو دى سان اينيان ! »

فهز بورتوس رأسه وقال : « اننى أعرفه . وهو رجل ظريف . وقد كان جيم اللطف معى فى ذلك اليوم الذى تشرفت فيه بتناول الطعام على مائدة الملك . لابد أنه أساء اليك اساءة كبيرة ؟ » يا للشيطان ! أين تحب أن تنتظره لتسوية هذه المسألة ؟ »

فقال راعول : « ان المسيو سان اينيان صديق حميم للملك كما تعلم ، فاذا أنا قتلته ... »

فقال بورتوس مقاطعا : « ستقتله بلا ريب ، لكن يجب أن تتخذ كل حيلة لتصل الى هذه النتيجة . وعلى كل حال لن تجد صعوبة تعترض سبيلك على نحو ما كان يحدث فى أيام شيباننا ... »

فقال له راعول : « يا صديقى العزيز ... انك لم تفهم تماما ما أرمى اليه ،

ما دام المسيو سان اينيان صديق الملك ، فان معالجة الأمر ستكون عسيرة ، لأن الملك سيعلم بالأمر سلفاً !

فقال بورتوس : « كلا ! ان هذا غير محتمل .. انك تعرف طريقي .. سأذهب اليه وأقول له : (سيدى .. لقد أسأت الى صديقي .. وجوادى واقف بالباب .. وسناخذ شاهدك فى طريقنا الى حيث ينتظرك صديقى نافذ الصبر !) .. »

فتكلف راعول الابتسام وقال : « أتخسه يترك نفسه يحمل هكذا ؟ » فقال بورتوس جادا : « على أى حال يمكننى أن أحمله حملاً اذا اقتضى الأمر ذلك ! »

وأراد أن يضرب لراعول مثلاً عملياً على استطاعته ذلك ، فحمله مع الكرسي الذى يجلس عليه ، وطاف بهما أرجاء الغرفة . فضحك راعول وقال :
- حسنا جدا ! ليس ينقصنا الآن الا أن نعين البقعة التى أبارز عليها المسيو سان اينيان !

فقال بورتوس : « أظن هذا قد تم ! .. ولست أجهل أن العرف السائد فى هذا العصر يقتضى ابداء سبب للمبارزة ، وهذا يسبب متاعب لم يكن لها وجود فى أيامنا الحالية اذ كنا نتبارز لغرض المبارزة وحده . ولكنك لن تعدم ذكر أى سبب للخلاف ! »

فتنهذ راعول وقال : « انها قصة يطول شرحها ، ولكن ما دام الأمر يتطلب ابداء السبب ، فأرجو أن تذهب للمسيو سان اينيان ، وتبلغه أنه أساء الى أولاً بتغيير مسكنه ، ثم بعمل باب سرى لمسكنه الجديد ! »

فقال بورتوس : « فهمت ! باب سرى ؟ .. حقا ان هذا أمر خطير ! .. وفى الحق ماذا يقصد ذلك المخلوق بايجاد أبواب سرية دون أن يستشيرك أولاً ؟ أبواب سرية ! يا للفضاعة ! أنا ليس عندي أى باب سرى الا فى الجب الذى فى بيتى بمزرعة براسييه ! »

واستطرد راعول فقال : « ثم تضيف الى ذلك أن هناك أمراً آخر أساء به الى ، وهو تعليق الصورة التى يعرفها حق المعرفة ! »

فقال بورتوس : « أهناك صورة أيضا ؟ .. حقا يا صديقى العزيز : ان سبباً واحداً من هذه الاسباب الثلاثة يكفى لأن يتبارز جميع السادة فى فرنسا وأسبانيا وأن يقطع كل منهم عنق الآخر ! »

فقال راعول : « اذن .. لديك الآن كل المعلومات التى تحتاج اليها ؟ » فأوما برأسه موافقاً وقال : « سأخذ معى جوادا ثانياً . اختر بقعة الارض التى تريد ، وفى أثناء انتظارك هناك يمكنك أن تتدرب على أحسن الطعنات ، لكى تجعل أعضاءك مرنة الى أقصى حد ! » فقال له راعول : « شكراً لك ! سأنتظرك فى غابة فنسين المجاورة لمينيم »

فقال : « حسناً .. وأين أجد هذا المسيو دى سان اينيان ؟ »

قال : « تجده فى القصر الملكى »

فدق بورتوس جرس يد كبير الحجم . ولما جاء الخادم قال له : « جهز لى بذلة البلاط ، وأعد جوادى وجوادا آخر »

ولما خرج الخادم التفت بورتوس الى راعول وقال له « أيعلم أبوك بذلك ؟ » فقال : « كلا ! وسأكتب اليه ! »

فسأله : « ودارتانيان ؟ » فقال : « انه شديد الخدركما تعهده ولو علم بالأمر لأرجعنى عن عزمى ! »

وقد عجب بورتوس كيف يلجأ اليه راعول ما دام دارتانيان فى عالم الوجود ، وذلك لشدة ثقته به ، ولكن راعول قال له :

- أرجو ألا تسألنى بعد ذلك يا عزيزى بورتوس ! لقد قلت لك كل ما عندي . وانتظر الآن عملاً سريعاً حازماً تؤديه على طريقتك الخاصة !

فقال بورتوس : « اطمئن وسيرضيك ما أفعله ! »

ثم قال راعول : « لا تنس أيضاً أنه يتبغى ألا يعلم أحد سوانا بسر هذه المبارزة »

فقال بورتوس : « ان الناس دائماً يكشفون هذه الأمور حين يعثرون على جثة بالغبابة . وعلى هذا أعدك يا صديقى بأى شئ عدا اخفاء الجثة ، لأننى لا أحب قط أن تدفن جثة مجرم أثيم ! »

فتنهض راعول وصافح بورتوس قائلاً : « اذن .. الى العمل يا صديقى العزيز »

ثم خرج وهو يقول لنفسه : « أيها الملك الغادر ! انى لا أقدر أن أصل اليك ، ولكن صديقك وشريكك فى الجرم ، ذلك الجبان الذى يملك ، سوف يدفع ثمن جريمته . وسأقتله ، ثم نفكر بعد ذلك فى لويز ! »

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

فقال بورتوس : « هذا ما هممت بأن أنال شرف شرحه لك يا سيدي الكونت ... ولكن ... »

ولم يتم بورتوس عبارته ، لأن الكرسي الذي جلس عليه كان قد تحطم تحت ثقل جسمه الضخم ، فنهض معتذرا ، وأخذ يبحث حوله حتى وجد مقعدا أمten جلس عليه ، ثم استأنف كلامه فقال :

— ان قطع الأثاث الحديثة تصنع بطريقة فيها كثير من الاستخفاف . وفي أيام شبابي حين كنت أكثر نشاطا منى الآن ، لا أذكر أنى كسرت كرسيًا قط ، إلا في الحانات بدرامى !

فابتسم سان اينيان ، بينما استطرذ بورتوس يقول :

— على أن ذلك لا علاقة له مطلقا بزيارتى هذه يا سيدي ، فقد جئت لكى أقول لك : انك أهنت صديقا لى أهانة شديدة !

فتساءل سان اينيان متعجبا : « أنا يا سيدي أهنت صديقا لك ؟ ! .. اتسمح بذكر اسمه ؟ »

فقال : « اسمه الميسو وأؤول دى براجلون »

فصاح سان اينيان : « اننى لا أعرفه الا معرفة سطحية ، بل الواقع أنى لا أعرفه مطلقا ، ثم هو يقيم بانجلترا منذ وقت طويل ، فمن المحال أن اكون قد أهنته ! »

فقال بورتوس فى هدوء : « ان الميسو دى براجلون فى باريس يا سيدي ، وأنا أؤكد لك أنك أهنته ، ما دام هو نفسه قد أخبرنى بذلك . أجل يا سيدي لقد أهنته أهانة بالغة مميته ! . ولا يمكن أن تكون غير عالم بذلك ، لأن الميسو دى براجلون ذكر لى انه أخبرك به فى مذكرة تركها لك اليوم ! »

فقال سان اينيان : « أقسم لك بشرفى أنى لم أتسلم أية مذكرة منه . وسأقنمك الآن بصحة ما أقول ! »

ثم دق الجرس يدعو الخادم فلما جاء هذا سألته : « كم عدد الخطابات والمذكرات التى وصلت الى اليوم أثناء غيابي ؟ »

فقال الخادم : « عددها ثلاثة يا سيدي الكونت : مذكرة الميسو دى فيسك ، وأخرى من مدام لافيرتيه ، وخطاب من الميسو دى لاس فوينيتيس » فآشار له سان اينيان الى بورتوس وقال له :

— أريد يا باسك أن تذكر الحقيقة كاملة أمام هذا السيد . ولن يلومك أحد قط !

فقال باسك : « كانت هناك أيضا مذكرة من ... من الأنسة دى لافالير ... »

فقاطعه بورتوس قائلا لسان اينيان : « هذا يكفى ! .. انى أصدقك يا سيدي الكونت »

فصرف سان اينيان الخادم وتبعه الى الباب لكى يوصده خلفه . ولما فعل

دعوة إلى المباراة

كان سرور بورتوس عظيما وقد شعر بأنه عاد الى شبابه منذ أخذ على عاتقه مهمة دعوة الكونت سان اينيان الى مباراة راعول !

وبلغ من فرط عنايته بالأمر أنه اقتصد نصف ساعة من الوقت الذى يمضيه عادة فى ارتداء بذلة البلاط . ثم رأى أن يثبت علمه بالتقاليد المتبعة عند أرقى الطبقات فأرسل خادمه ليسأل : هل الكونت دى سان اينيان فى مسكنه أم لا ، وما كاد يتلقى الجواب بأن الكونت عاد الى مسكنه منذ هنيهة بعد أن تشرف مع بقية رجال البلاط بمرافقة الملك الى سان جرمان ، حتى سارع الى مقابله فى مسكنه

وكانت نزهة الملك سارة فى ذلك اليوم ، وقد شمل بعطفه كل مرافقيه ، وبدا متلطفًا معهم الى أقصى حد ، وحرص سان اينيان على أن يمضى فترة النزهة كلها يؤلف الأشعار والأغاني فى وصف الملك ، ثم فى وصف الأنسة لافالير . وكان الملك أيضا رائق المزاج فياض الشعور لفرط ما يخالجه من السعادة والهيام ، فوضع بيتين من الشعر عبر بهما عن عواطفه .. أما لافالير فألفت أغنيتين .. وهكذا قضى الجميع يوما أشبه بالأيام الخالدة فى تاريخ أيولو (اله الشعر) عند الاغريق . وعاد سان اينيان الى باريس ، موقنا بأن أشعاره ستنتشر فى دوائر البلاط ، ولهذا أخذ يسترجعها فى ذهنه ، ويراجعها معنى ومبنى بعناية أشد مما أبداه حين صاغها أثناء النزهة ، وما كاد يشرع فى خلع ثيابه وحذائه حتى جاءه الخادم معلنا قدوم البارون دى فالون قائلا :

— انه ذلك السيد الذى كان له شرف تناول الطعام مع فخامتك على مائدة صاحب الجلالة فى فوتينبلو !

فأذن له فى احضاره ، وما كاد يراه حتى تذكر أنه السيد الريفى الذى استقبله الملك استقبالا طيبا فى فوتينبلو برغم الابتسامات الساخرة من بعض الحاضرين ، ومن ثم خف الى استقباله مرحبا مبديا دلائل التقدير ، وأمر خادمه بأن يقدم له كرسيًا ، فجلس بورتوس متخذًا سمت الجد وأخذ يسعل . وبعد تبادل عبارات المجاملة المعتادة قال له الكونت :

— هل لى يا سيدي البارون أن أسأل عن الظرف السعيد الذى منحنى جميل زيارتك ؟

ذلك نظر امامه عفوا فرأى في قفل الجناح المجاور تلك الورقة التي دسها
براجلون فقال: « ما هذا؟ مذكرة في ثقب المفتاح؟! »

وكان بورتوس جالسا وظهره الى الغرفة ، فاستدار ليرى ما هناك ، ثم
قال : « لعلها المذكرة التي حدثتك عنها يا سيدي الكونت ؟ »

فنظر سان اينيان الى الورقة وصاح قائلا : « مذكرة من المنيو دي
براجلون ؟! . هذا أمر شائن !. كيف استطاع الجيء الى هنا ؟ »

ثم عاد فدفق الجرس ، ولما جاء الخادم سألته غاضبا : « من الذي جاء الى
هنا أثناء غيابي ؟ »

فقال الخادم : « لا يمكن أن يكون أحد قد دخل هنا يا سيدي لاني احفظ
المفاتيح في جيبى »

فقال له : « لقد وجدت هذا الخطاب في ثقب المفتاح ، ولا بد أن أحدا
وضعه فيه لان الخطاب لا يستطيع أن يأتي وحده ! »

فبسط باسك كفيه دلالة على جهله كل شيء عن هذا الموضوع . وقال
بورتوس :

— ربما كان المنيو دي براجلون نفسه هو الذي وضعه هنا

فقال الخادم بعناد : « كلا يا سيدي ..! لانه ليس في استطاعة أحد أن
يدخل الى هنا والمفتاح في جيبى ؟ »

فصفت سان اينيان على الخطاب في يده بعد أن قرأه وتمتم قائلا :

— ان في هذه المسألة سرا خفيا !

وتركه بورتوس يفكر قليلا ثم عاد الى المهمة التي جاء من اجلها فقال له
بعد أن خرج الخادم :

— الا نعود لمسألتنا الصغيرة يا سيدي ؟

فقال سان اينيان : « أحسبني أستطيع فهمها من هذه المذكرة التي
وصلت الى هنا بطريقة خفية . لقد كتب فيها المنيو دي براجلون أن أحد
اصدقائه سيزورني لكي يطلبني للمبارزة ، وهو يشكو من أنى أهنته ! »

فقال بورتوس : « اننى أنا ذلك الصديق الذي أشار اليه ، وأنا على يقين
من أنك أهنته ، واذا كان مسلكه خفيا كما تقول فان اللوم يقع عليك أنت ! »

ثم نهض وانحنى أمام سان اينيان باحترام وقال :

— أنك يا سيدي قد غيرت مسكنك ، وهذه أول اهانة منك للمنيو دي
براجلون !

فقال سان اينيان : « كيف يكون في تغيير مسكنى اساءة الى المنيو دي
براجلون ؟. هل لك يا سيدي أن تتفضل بشرح ذلك لاني لم أفهم منه
شيئا ؟ »

فقال له بورتوس : « هذا هو السر الاول الذي يشكو منه المنيو دي

براجلون . وما كان ليشكو منه لولا شعوره بأن فيه اهانة له ! »

فضرب سان اينيان بقدمه الارض في غيظ وقال : « يبدو أن هناك سوء
تفاهم !. وعلى كل حال .. هل هناك شيء آخر يشكو منه المنيو دي
براجلون ؟ »

فقال بورتوس : « يكفى يا سيدي أنك لم تجد ما تبرر به الاهانة التي
لحقت بالمنيو دي براجلون من جراء تغييرك مسكنك ! »

فصاح سان اينيان وقد نفد صبره : « أكان ينبغي لى أن أستشير المنيو
دي براجلون قبل أن أبدل مسكنى ؟! لا يمكن أن تكون جادا في هذا
يا سيدي ! »

فقال بورتوس في هدوء : « على أى حال ، أنا موثق بأن صديقى دي
براجلون قد أهين بذلك التصرف .. وهناك اهانة أخرى لم نتحدث عنها
بعد ، وأعنى بها وجود الباب السرى ! »

وهنا شحب وجه سان اينيان ، ودفع كرسيه بفتة الى الورااء بحيث
أدرك بورتوس ، على بساطته ، أن الرمية قد أصابت . ثم تمتم سان اينيان
قائلا : « الباب السرى ؟! »

فقال بورتوس : « أجل يا سيدي !. فهل وضع الأمر الآن ؟ »

فطأطأ سان اينيان رأسه وتمتم قائلا : « لقد خائنى أحد . لقد عرف
كل شيء ! »

فقال بورتوس دون أن يفقه شيئا :

— أن ضميرك مثقل بالذنوب يا سيدي ، وموقفك صعب. واذا علم الناس
كل شيء عن الموضوع ...

وكان بورتوس يقول ذلك عفوا ولكن سان اينيان ارتاع وقال له :

— كلا يا سيدي !.. ان مثل هذا السر لا يصح أن يعرفه أحد ، حتى
ولا القس الذي يتلقى الاعتراف !. وما دام المنيو دي براجلون قد وقف
على السر ، فلا ريب أنه يدرك الخطر الذي تعرض له هو وغيره !

فقال بورتوس : « ان المنيو دي براجلون ليس معرضا لاي خطر ، وهو
لا يهاب شيئا كما ستري بنفسك قريبا ! »

فقال سان اينيان لنفسه : « ان هذا المخلوق مخبول العقل ولا شك في
ذلك »

ثم قال لبورتوس : « فلندفن هذا السر ! »

فقال بورتوس : « بقى أمر ثالث بعد تغيير المسكن والباب السرى ، وذلك
هو أمر الصورة المعلقة ... »

فحلق فيه سان اينيان في دهشة وقال : « آه ؟! .. صورة لافالير .
لقد تذكرت يا سيدي !.. ان المنيو دي براجلون كان قد خطبها ليس
كذلك ؟ »

فاتخذ بورتوس هيئة الرزاة والوقار ، مع جهله بالموضوع كله ، وقال :
- لا يهمنى مطلقا ولا يهكم أنت ايضا ان كان قد خطبها أم لم يخطبها .
بل أنا في دهشة من اشارتك الى ذلك ، فقد يسىء هذا الى موقفك !

فقال سان اينيان : « سيدى ، لقد تجسم فيك الذكاء والرقه والاخلاص ..
لقد وضح الأمر لعيني الآن ، بعد أن بينته لى بطريقة غايه فى الرقة
والكياسة . فاقبل يا سيدى منى جزيل الشكر ! »

فسر بورتوس بهذا المديح الذى لا يستحقه ، بينما واصل سان اينيان
كلامه فقال :

- والآن وقد وقفت على كل شيء ، اسمح لى أن اوضح ...

فهز بورتوس راسه دلالة على أنه لا يريد أن يسمع ، واستطرد سان
اينيان قائلا :

- انى فى دهشة حقا من كل ما وقع . ولكن .. لو انك كنت فى مكاني ،
ماذا كنت تفعل ؟ . تعال .. خبرنى فيما بيننا !

فقال له بورتوس : « ايها الشاب ، لا مجال للسؤال عما كنت افعله . انك
الآن قد وقفت على الأسباب الثلاثة لشكاية صديقى منك »

فقال سان اينيان : « أما السبب الاول ، اعنى تفسير مسكنى ، فليس
يخفى على فطنتك اننى ما كنت أستطيع الا أن افعل ذلك تنفيذا لرغبة
الشخصية العظيمة التى يجب أن تطاع »

وهم بورتوس بالرد ولكن سان اينيان لم يدعه يتكلم وقال :

- آه ! ان صراحتى قد اقتعتك .. انك تشعر بانى على صواب !

فلم يجب بورتوس واستمر سان اينيان فى كلامه فقال :

- انى امر من ذلك الباب السرى . ذلك الباب الذى هو أداة شقاء كثير ،
والذى صنع لأجل ... أنت تعرف طبعاً ... افتحسب اذن انى أنا من
تلقاء نفسى أمرت باقامة ذلك الباب ؟ كلا ! انك لا تصدق ذلك .. وهنا
ايضا لا بد لك أن تقدر تأثير ارادة تلك الشخصية العظيمة ، بل تستطيع
أن تتصور الوله بل العاطفة العمياء التى حفزت الى ذلك . ولا شك أن من
حسن حظى انى أحدث رجلا مثلك اوتى عقلا راجحا وشعورا رقيقا .
ولولا ذلك لوقعت الفضيحة على تلك الفتاة البائسة وعلى تلك الشخصية
العظيمة !

فشعر بورتوس بالحيرة والدهشة حيال هذا البيان ، وحاول أن يصد
تدفق الكلام من فم سان اينيان ، ولاسيما أنه لم يفهم كلمة منه ... ومكث
منتصب القامة بلا حراك فى مقعده . ثم استطرد سان اينيان فقال بصوت
متهدج من فرط التأثر :

- أما الصورة ، وأنا اعتقد أنها السبب الرئيسى للشكوى ، فقل لى
صراحة : هل أنا الملوم ؟ أنا الذى أردت أن ترسم لها صورة ؟ .. أم أنا الذى
شغفت بها حبا ؟ . أو سميت فى سبيل كسب محبتها ؟ . كلا يا سيدى ! ..
وقد يكون المسيو دى براجلون فى حالة يأس بسبب نكبته القاسية . ولكنى
أنا ايضا أنامل ! .. ومع هذا لا مجال للمقاومة . وافرض أننا قاومنا ، سنكون
موضع السخرية . وإذا أصر على مسلكه فإنه ضالع لا محالة . والآن .. اتبين
فى ملاحك الجادة أنك قد فهمتنى ، وأنك قدرت الموقف الدقيق الذى نحن
فيه . وعلى هذا أرجو أن تعود الى المسيو دى براجلون وتقدم له شكرى ،
على أن اختار وسيطا له مثل كفايتك . وثق بانى سأظل أذكر صنيع الرجل
الذى عرف كيف يزيل بلباقته سوء التفاهم الذى قام بيننا . ولما كان سوء
الطالع قد أبى الا أن يعرف السر أربعة أشخاص بدلا من ثلاثة ، فإنه ليسرنى
أن اشارك فى هذا السر . ومنذ الآن أرجو أن تعدنى صديقا لك ، وأن
تضعنى فى خدمتك . وما عليك الا أن تتكلم لأؤدى لك أية خدمة تريدها !
فقال له بورتوس : « سيدى .. ان أمام الباب جوادا ينتظر ، وهو جواد
أصيل تستطيع أن تركبه ... »

فقال سان اينيان : « أركبه ؟ ! ولماذا ؟ »

فقال : « لى تصحبنى الى حيث ينتظرك المسيو دى براجلون ! »

فهز سان اينيان راسه دلالة على أنه فهم وقال : « أنه يريد أن يتحدث
معى ليقف على التفاصيل ؟ . لكن واسفاه يا سيدى ! .. انها مسألة دقيقة ،
ولست أستطيع مغادرة القصر الآن لأن الملك ينتظرنى ! »

فقال بورتوس : « على الملك أن ينتظر اذن ! . ان الأمر لن يستغرق
سوى ساعة واحدة ! »

فسأله سان اينيان : « أين ينتظرنى المسيو دى براجلون ؟ »

فقال بورتوس : « أنه ينتظر فى غابة فنسين عند مينيم ! »

وسكت سان اينيان قليلا ثم قال : « أليست مينيم هى المكان الذى تقع
فيه المبارزات ؟ .. اذن .. ماذا نفعل هناك ؟ »

فاستل بورتوس سيفه وقال : « ان سيف صديقى طول هذا السيف ! »

فصاح سان اينيان قائلا : « ماذا تقول ؟ .. لا شك أنك جنتت ! »

فاحمر وجه بورتوس من الغضب وقال له : « لولا انى فى بيتك ، ولولا
انى أمثل المسيو دى براجلون ، لقدفت بك من النافذة ! .. والآن ماذا ترى :
أتأتى معى الى مينيم طوعا .. أم تضطرنى الى أن أحملك حملا ؟ »

وهنا صاح سان اينيان يدعو (باسك) خادمه . ودخل هذا وقال له :

- سيدى .. ان الملك ينتظر فخامتك !

فنهض بورتوس وقال : « حسنا يا سيدى .. سأتركك الآن ريشما تفرغ
من مقابلة الملك .. والى اللقاء مساء اليوم »

منافسة سياسية

عاد الملك لويس الرابع عشر من نزهته الشاعرية السعيدة الى القصر ، فعلم ان المسيو فوكيه ينتظر هناك ، كما ان المسيو كولبير ينتظر بالردهة وكان كولبير من الساسة الذين لا يعجبون الا بالبراعة والدهاء ، ولا يرون في الحياة غاية احق بالعناية من الفوز بالآرب . على انه لم يكن رجلا حسودا حقودا فقط ، بل كان في الواقع يهيمه صالح الملك والدولة ، وكان على اقصى درجة من النزاهة في كل ما يتعلق بالحسابات والارقام ، وقد حدث نفسه بأنه انما يكره فوكيه ويسمى في ابعاده تحقيقا لصالح الدولة ورعاية لكرامة التاج . ولم يفت فوكيه شيء مما يدور بخلد عدوه بل كان ينفذ بنظرة منه الى أعماق فؤاده ، ويتبين ما يكنه من الحقد له ومن الفرح بالظفر القريب ، لكنه جاهد لاختفاء عواطفه حتى لا يعرف خصمه ما في قرارة نفسه ، وظل رابط الجأش ، لا تدل ملامحه على شيء ، بل يبتسم ابتسامته الرقيقة التي عرف بها

وكان كولبير جالسا في حضرة الملك حين دخل عليه المسيو فوكيه ، فلم يكلف هذا نفسه عناء النظر الى منافسه اللدود بل اتجه الى الملك بكل مشاعره في اجلال ولباقة قائلا : « اني يسعدني جفا ان ارى في وجه مولاي صاحب الجلالة دلائل الرضا عن نزهة اليوم ! »

فقال الملك له : « حقا ! لقد كانت نزهة طيبة يا جناب الوزير ، ولقد فاتك بتخلفك عنها خير كثير ! »

فقال فوكيه في اسف واعتزاز : « كنت مشغولا بالعمل يا مولاي ! »

وواصل الملك كلامه فقال : « آه لو كنت معنا يا مسيو فوكيه ! ان جمال الريف لا يعدله اى جمال آخر . وددت لو أميش دائما هناك حيث الهواء الطلق والأشجار الوارفة الظلال .. ان الجلوس على بساط العشب الأخضر الناعم لهو شيء مريح حقا ! »

فانتهم فوكيه هذه الفرصة وقال : « ان جلالتك اذ تقول ذلك انما تحقق أمنية هي أعز أمانى ، وقد جئت اليوم معترضا رفع امرها الى مقام مولاي ! »

فسأله الملك : « أية أمنية تعنى ؟ » . فأجاب بقوله : « لقد تفضلت جلالتك يوما فوعدتنى وعدا ... »

وأوما الملك براسه دلالة على انه يذكر ذلك ، بينما تدخل كولبير في الحديث ليثبت وجوده ، وقال للملك :

— اظن يا مولاي ان ذلك الوعد كان في شأن المهرجان التقليدى المشهور الذى يقام بمنطقة فو ؟

على ان فوكيه تجاهل عبارة كولبير ، بل تجاهل قائلاً نفسه ومضى في حديثه قائلا دون ان يعيره اى التفات :

— ان جلالة الملك يعلم انى اعددت مزرعتى في (فو) كيما تليق لاقامة مهرجان فخم يشهده صاحب الجلالة ومن يختارهم من المقربين ، كما وعد جلالته بذلك

فابتسم لويس الرابع عشر وقال : « لقد وعدتك ، والملك لا يخلف وعده ! »

فانحنى الوزير شاكرا وقال : « انى لعلى استعداد لتنفيذ كل التعليمات التى يتفضل بها صاحب الجلالة في هذا الشأن »

فقال له الملك بعد ان وجه نظرة عجلى الى كولبير :

— هل يعدنا جناب الوزير بمعجائب كثيرة في المهرجان ؟

فبقى كولبير مطرقا ، وسارع فوكيه الى الاجابة عن السؤال الملكى فقال :

— ان مولاي يعلم انى لا ادعى الايمان بالمعجائب ، ولكنى ابذل جهد استطاعتى لاوفر لمولاي ما يدخل على قلبه السرور

فقال الملك مزهوا : « انك حقا جدير بأن تأتى بالمعجائب . انك ساحر يا جناب الوزير ، ونحن جميعا نعرف مقدرتك ونعرف انك تستطيع ان تجد الذهب حيث لا يلقى غيرك الا التراب . ألم تعلم بما يدور عن معجزاتك هذه على السنة الناس ؟ »

فشعر فوكيه بما وراء عبارة الملك من معان خفية ، وأيقن ان كولبير له نصيب كبير منها ، برغم استمراره في التجاهل . ورأى ان يستمر هو ايضا في تجاهل كولبير ، فابتسم وقال للملك :

— ان الناس يعلمون تمام العلم من اى منجم احصل على الذهب ، ومولاي يعلم ذلك قبلهم ! . على انى مع هذا اؤكد لصاحب الجلالة ان الذهب لنفقات مهرجان (فو) لا يساوى الا قليلا من الجهود التى بذلت في سبيل تدبيره !

فسكت الملك ، ولم يجد من اللائق به ان ينظر الى كولبير ليرى مدى تأثيره برد فوكيه ، وهم كولبير بأن ينظر الى الملك ، ولكن فوكيه اسكته بنظرة كبرياء كنظرة النسر . ثم تماك الملك اعصابه والتفت الى فوكيه قائلا :

— هل اعد نفسى الان مدعوا الى المهرجان ؟ . . في اى يوم اعتمت اقامته ؟

فقال فوكيه : « في اى يوم تراه جلالتك مناسبا لذلك »

فقال له الملك : « انك تتكلم كساحر يستخدم الرقى ويجعل من اعجب التخيلات حقائق لا شك فيها ! »

فقال فوكيه : « ذلك بفضل رضا مولاي صاحب الجلالة ، وليس لخدم

جلالتكم الا ان يعملوا جاهدين ليناووا رضاكم الكريم ! »
وحاول كولبير ان ينظر الى فوكيه ، ولكن هذا لم يلتفت اليه ، وبقي ينظر
الى الملك ، وقال هذا اخيرا :

— هل يمكن ان يقام المهرجان بعد اسبوع من اليوم ؟
فقال فوكيه : « اجل يا مولاي » . وعاد الملك يقول : « نحن الآن في
يوم الثلاثاء ، وامامك مهلة حتى يوم الأحد بعد القادم »
فبدأ السرور واضحا على محيا فوكيه وقال : « ان المهلة التي تفضل بها
صاحب الجلالة ستساعد كثيرا على انجاز الاعمال المختلفة التي يقوم بها
المهندسون الآن »
فابتسم الملك بدوره وقال : « هل جناب الوزير كون فكرة عن
المدعوين ؟ »

فقال فوكيه : « ان جلالة مولاي هو السيد الامر في كل مكان ، واني لفي
انتظار تفضل جلالتك باصدار التعليمات لدعوة من شاء ، وسأكون في خدمة
جلالتك وجميع مدعويه ! »

فتأثر الملك بلهجة التبل هذه وقال : « شكرا لك يا جناب الوزير »

ثم استأذن فوكيه في الانصراف ، بعد ان استمع لبعض الارشادات الملكية
في شؤون عامة . وخيل اليه وهو ينصرف ان كولبير قد تنفس الصعداء ،
ولا يلبث قليلا حتى يعود الى دسائسه ضده لدى الملك ، فرأى الا بعض
قبل ان يوجه اليه ضربة اخيرة قاسية ، والتفت الى الملك بعد ان بلغ الباب ،
وقال له :

— عفوا يا صاحب الجلالة ! .. لقد آتيت خطأ جسيما دون ان انتبه اليه !
فقال الملك متعجبا : « اى خطأ ؟ .. انك يا جناب الوزير لم تخطيء في
شيء ! »

فقال فوكيه : « كان على ان اخبر جلالتك بأمر قليل الاهمية خاص بى
وقع اخيرا ... »

فارتعد كولبير ، اذ حسب ان فوكيه سيفضحه ويكشف للملك ما كان
من مسلكه نحوه ، ثم اشتد روعه حين سمع فوكيه يقول للملك :

— اننى في صباح هذا اليوم بعث أحد مناصبى الرسمية التي اشغلها !

فسأله الملك : « اى هذه المناصب تعنى ؟ »

فأجاب قائلا : « منصب النائب العام ! »

فبدت الدهشة على الملك ، والتفت على الرغم منه الى كولبير الذى كاد
يغمى عليه . ثم قال لفوكيه : « لمن بعث هذا المنصب يا جناب الوزير ؟ »

فقال : « بعته الى مستشار البرلمان يدعى فانيل .. وهو صديق
للمسيو كولبير ! »

وقد حرص فوكيه على ان ينطق بهذه العبارة الاخيرة وكأنه ينطق بها
عفوا دون اهتمام . فزاد هذا في قلق كولبير . وما كاد يطمئن قليلا بعد
انصراف فوكيه حتى نظر الى الملك ، فسأله هذا :

— كيف يقع فوكيه في مثل هذا الخطأ ؟

فلم يجب كولبير ، لكنه شعر بالارتياح لادراك الملك جسامته الخطا الذى
ارتكبه فوكيه يبيع ذلك المنصب ، وأيقن ان أول خطأ يرتكبه فوكيه سيرضه
للكبتة التي لا وقاء له منها

ودعا الملك كولبير الى مهرجان فو ، فانحنى شاكرا . وهم الملك بأن يكتب
اسم الكونت دى سان ايتيان في قائمة المدعوين واذا بالحاجب قد جاء يعلن
قدومه ، فاستأذن كولبير في الانصراف ، وخرج قبل ان يدخل سان ايتيان



لم يكن قد مضى أكثر من ساعتين على انصراف سان ايتيان من حضرة
الملك ، ولكنه كان يعلم ان الملك في فورة حبه لافالير ، يروقه ان يسمع منه
اى حديث عنها ، ولا يكاد يستغنى عنه لهذا السبب

وقال له الملك حين رآه داخلا : « لقد جئت في الوقت المناسب ، فانت
ولا شك ستكون من المدعوين الى المهرجان ! »

فبدت الدهشة في وجهه وقال : « اى مهرجان يا مولاي ؟ »

فقال الملك : « سنسافر جميعا الى (فو) .. حيث يقيم وزير المالية
مهرجانا كبيرا يجمع فيه كل أسباب التسلية ! »

فقال سان ايتيان : « هل وزير المالية يقيم هذا المهرجان تكريما لجلالتك
فقط ؟ »

فقال الملك : « نعم ، ولكن الناس لا يكادون يعلمون بان المسيو فوكيه
سيستقبلني هناك يوم الأحد القادم ، حتى يبدلوا قصارى جهدهم لكي
يدعوا الى المهرجان ! . اما انت فمدعو اليه طبعاً منذ الآن ! »

فقال : « انى لأشكر مولاي كل الشكر على تكريمي بالدعوة الى هذه
الرحلة السعيدة .. ولكنى أخشى الا أستطيع القيام بها ، لأن لدى رحلة
أخرى قبل هذا الموعد ! »

فسأله الملك متعجبا : « وما هذه الرحلة الأخرى ؟ » . فأجاب : « رحلة
أطول جدا ، لكنها أقل سرورا ، لأنها رحلة الى العالم الآخر ! »

فضحك لويس الرابع عشر ولكن سان ايتيان استمر يقول :

— انى أتكلم بجد يا مولاي ، فقد دعيت الى رحلة من هذا القبيل . وقد
تلقيت الدعوة بصورة لا أدري معها ماذا أقول أو أفعل لكي أرفضها !

فقال الملك : « انى لا أفهمك ! . وانا أعرف أنك شاعر ، لكنى أرجو أن

تحاول أن تهبط قليلا من عالم الشعور الى عالم الحقيقة !
فقال : « اتعرف جلاتك البارون دى فالون ؟ »

قال : « أجل ! . لقد كان من خدام أبى المخلصين ، وهو رفيق مسهل على المائدة . الست تقصد ذلك السيد الذى تناول الطعام معنا فى فونتنبلو ؟ »
فقال : « أجل يا مولاي ! . ولكن جلاتك لم تذكر ضمن مزاياه أنه قاتل من أحسن أنواع القتلة ! »

فسأله الملك : « ماذا تقول ؟ . هل المسيو دى فالون يريد أن يقتلك ؟ »
فقال : « أو يريد أن يرانى مقتولا ، والنتيجة واحدة على كل حال ! »

فضحك الملك ، ثم أخذ سان اينيان يشرح له الامر ، فلما انتهى من ذلك قال له الملك :

« اطمئن ، فسأدافع عنك ، اذا كان هو المخطئ ! »

فقال : « ان جلاتك ستكون الحكم . والواقع انى لم أفعل شيئا يفضبه ، ولكن يبدو ان أحد أصدقائه يحسبني أسأت إليه ! . وصديقه هذا ابن واحد من الفرسان المشهورين ، وهو يزعم انى ساعدت غيره على أخذ حبيبته منه ! »

وهنا سأله الملك : « وهل هذا الأمر صحيح ؟ » . فقال : « نعم . أعترف بأنه صحيح ! »

فقال الملك : « فى هذه الحالة تكون أنت المخطئ ، واذا قتلك فإنه يكون على حق ! »

فقال سان اينيان : « انها طريقة سريعة على أى حال ! »

فقال الملك : « ان العدالة الطيبة سريعة الأداء . هذا ما كان يقوله جدى هنرى الرابع ! »

فقال : « فى هذه الحالة أرجو من جلاتك ان توقع امرا بالعفو عن خصمى لانه ينتظر الآن فى مينيم لانها شقائى ! »

قال : « اذكر اسمه ، واثنى بورقة »

فقال : « يوجد ورق على مكتب جلاتك . أما اسمه يا مولاي ، فهو الفيكونت دى براجلون »

فصاح الملك وقد تبدل سروره ذهولا : « الفيكونت دى براجلون الذى كان خطيب ... »

فقال سان اينيان : « أجل يا مولاي ! »

فقال : « ولكنه فى لندن ؟ » . قال : « أوكد لك يا مولاي أنه لم يعد هناك الآن ! »

فسأله « هل هو فى باريس اذن ؟ »

— انه فى غابة مينيم يا مولاي ، فى انتظارى ، كما تشرفت باخبارك منذ لحظة

— ايعلم كل شيء ؟

— أجل ، وأشياء اخرى كثيرة ، فضلا عن ذلك . لعل جلاتك تحب أن تلقى نظرة على الخطاب الذى وصل الى منه

وأخرج سان اينيان من جيبه خطاب راعول ثم قال :

— بعد أن تقرا جلاتك هذا الخطاب سأخبرك كيف تسلمته

فقرأ الملك الخطاب وهو فى هياج ظاهر . ثم قال له سان اينيان :

— ان جلاتك تعرف قفلا معيننا موضوعا فى باب معين من خشب الابنوس يفصل بين جناح معين وبين محراب معين ذى لون ابيض وأزرق

فسأله : « لعله مخدع لويز ؟ . . اليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا مولاي . لقد وجدت هذا الخطاب فى ذلك القفل . . . ولست أدري من وضعه هناك : أهو المسيو دى براجلون أو الشيطان نفسه ؟ . ولكن لما كان تفوح منه رائحة الكهرمان لا الكبريت فالأرجح أن براجلون هو الذى وضعه ! »

فأطرق الملك ، واستغرق فى تفكير حزين . وربما شعر فى تلك اللحظة بشيء من وخز الضمير . ثم قال : « لقد كشف السر اذن ؟ ! »

فقال : « سأبدل قصارى جهدى لكى يدفن ذلك السر فى صدر الرجل الذى يعرفه ! »

وتظاهر بالشجاعة ، ومضى صوب الباب ، فقال له الملك : « الى أين ؟ . . . فقال : « الى حيث ينتظرنى الفارس الصغير . . . للمبارزة ! »

وأما سان اينيان مؤكدا انه راغب فى المبارزة حريص عليها ، وبدأ فى هذه اللحظة أشبه بطفل عنيد يصر على الانتحار أو يترك ليستمر فى اللعب بمديفة فى يده . ولكن الملك استوقفه وسأله :

— من أين علمت بأن المسيو دى براجلون دخل تلك الغرفة ؟

فقال : « علمت ذلك من الخطاب الذى وجدته فى ثقب المفتاح ! . صحيح ان أحدا لم يذكر لى أن دى براجلون هو الذى وضعه هناك بنفسه ، ولكن . . . من ذا الذى يجزئ على ذلك غيره ؟ ! »

فعاد الملك يسأله : « لكن كيف استطاع الدخول الى غرفك ؟ »

فقال سان اينيان : « هذا أمر خطير حقا يا مولاي ! . ان جميع الأبواب كانت مغلقة ، والمفاتيح كانت فى جيب (باسك) خادمى »

فسأله : « اليس من الجائز أن يكون خادمك أخذ رشوة ؟ ! »

فأجاب قائلا : « هذا محال يا مولاي . لانه لو قبل الرشوة لحرص الذين

رشوه على كتمان أمره للانتفاع به في خدمات أخرى مماثلة يدل أن يكشفوه ! »

فأوماً الملك برأسه موافقا وقال : « اذن .. لم يبق الا ان يكون احد قد تمكن من الدخول بواسطة السلم ؟ »

فقال سان اينيان : « هذا ما أرجحه يا مولاي ، وارى ان احدا قد باع سر الباب الخفى أو تبرع بافشائه ، فهناك أشخاص معينون هم فوق ثمن الخيانة ، وهم لذلك يعطون ولا يبيعون ! »

فبدت الدهشة في وجه الملك ، ثم أطرق هنيهة مفكرا ، وقال أخيرا :

« ان كنت تقصد المدام ، فانت على صواب ! . وأحسبها قد ثارت شكوكها من تغيير مسكنك ؟ »

فقال سان اينيان : « ان لدى المدام مفاتيح لغرف وصيفاتها ، ولها من السلطان ما يمكنها من كشف أى سر تشاء »

وقال الملك : « اذن .. أنت تحسب ان زوجة أخى تحالفت مع براجلون وأخبرته بتفاصيل المسألة ؟ »

فقال : « نعم يا مولاي ، ولعلها زادت على ذلك فصحبته الى حيث أراد الوصول ، وقد تعلم جلاتك أن للمدام خبرة بالروائح العطرية ، ولاسيما عطر (اللوز) الذى تؤثره على غيره »

فسكت الملك وأخذ يفكر ، ثم قال بعد هنيهة : « ولكن لماذا تنتصر المدام لبراجلون ضدى ؟ »

ونظر الى سان اينيان ليتبين أهو على علم بسر مغالته لزوجة أخيه ؟ . ولكن سان اينيان كان أحصف من أن يجازف بكشف مثل ذلك السر ، فأجاب قائلا :

« ان جلاتك تنسى على ما أظن أن دى جيش هو الصديق الحميم للفيكونت دى براجلون ! »

فقال الملك : « لست أجهل هذه العلاقة ، ولكن ما صلتها بمسألتنا هذه ؟ »

فقال سان اينيان : « عفوا يا مولاي ! .. اليس الكونت دى جيش من أصدقاء المدام ؟ »

فقال الملك : « اذن .. جاءت الضربة من هذه الناحية ، ولا بد من أن نضرب من جانبنا ضربة قوية ، ولكن على ألا تكون من نوع الضربات التى تتبادل فى غابة فنسين ! »

فقال سان اينيان : « لكنك تعلم يا مولاي انى طلبت للمبارزة ، وهناك من ينتظرنى فى مينيم منذ ساعة . وسأفقد شرقى اذا لم أذهب الى هناك ! »

فقال الملك : « انك لست المقصود بذلك التحدى ، وأول واجب عليك

ان تطيع مليكك قبل كل شئ . وها انذا أمرك بالألا تذهب . كما انى أريد الوقوف على كل صغيرة وكبيرة فى هذه المسألة لأعرف من المسئول عن الاستخفاف بى والتجسس على محراب عواطفى بمثل تلك الوقاحة .. ان الاعتداء وقع على شرقى يا مسيو سان اينيان ، وهذا ادعى الى أن تنزل بالمعتدين أقصى ما تستطيع من عقاب ! »

فقال سان اينيان : « انى أتوسل الى جلاتك ألا تمنع فى غضبك على المسيو دى براجلون .. ان ولاءه لا تشوبه شائبة برغم ما بدا من قلة تبصره ! »

فأشار اليه الملك أن يسكت قائلا له : « كفى ! . سأعرف كيف أفرق بين العدل والظلم مهما يشتد بى الغضب . ولكن حذار أن تصل كلمة من كل ذلك الى المدام ! »

فقال سان اينيان : « ولكن ماذا أصنع ازاء المسيو دى براجلون ؟ انه سيبحث عنى فى كل مكان و ... »

فقطع الملك كلامه قائلا : « لن ينتهى هذا المساء حتى أكون قد كلمته أو بعثت اليه من يكلمه ! »

وحاول سان اينيان أن يعود الى استعطاف الملك ليكون رحيما بالمسيو دى براجلون ، ولكن الملك أسكته وقال وهو مقطب الجبين :

« لقد كنت رحيما أكثر مما ينبغى يا كونت . وقد حان الوقت لأن أبين لبعض الناس انى سيد قصرى ! »

وهنا ظهر حاجب بالباب وقال للملك :

« مولاي .. ان الكونت دى لافير ينتظر الإذن له فى المشول بين يدي جلاتك ! »

فتبادل الملك وسان اينيان نظرة تدل على القلق أكثر مما تدل على الدهشة ، ثم قال له الملك بعد هنيهة :

« اذهب الآن الى لوزير ، وأخبرها بالدسياسة التى حيكت ضدنا . وصارحها بأن المدام ستعود الى اضطهادها ، وبأنها بدأت تستخدم فى ذلك أناسا كان خيرا لهم لو بقوا على الحياء ! . ولا تنس أن تطمئنئها قدر استطاعتك . وأن تؤكد لها ان حب الملك لها كليل بأن يقبها كل سوء . وإذا كانت كما أتوقع قد تعرضت لهجوم من أى أحد فلا تنس أن تؤكد لها اننى فى هذه الحالة لن أكتفى بأن أدافع عنها ، بل سأنتقم لها انتقاما رهيبا يردع كل انسان فى المستقبل عن أن يرفع بصره اليها ! »

فتناول سان اينيان يد الملك وقبلها ، ثم غادر الغرفة والدنيا لا تكاد تسعه لفرط شعوره بالسعادة !

فقال الملك : « هذا صحيح »

واستطرد الكونت فقال : « وكانت حجة صاحب الجلالة أن تلك الآنسة ليس لها مركز في المجتمع ، كما أنها ضئيلة الثروة ، وليست عالية المنبت ، وهذا عدا ضالة نصيبها من الجمال ! »

وأصاب هذا السهم الاخير قلب الملك واستقر فيه ، حتى صار كأنه مربوط بمقعده ولكنه تمالك نفسه وقال : « ان ذاكرتك قوية يا كونت . ولهذا أحسب أنك لم تنس ما عقبته به على اضطرارك الى تقديم ذلك الطلب ، من أنك تشك في أن الآنسة دي لافالير تحب المسيو دي براجلون ! »

ولا شك في أن الملك نجح في تسديد هذه الرمية ، ولكن الكونت لم يتراجع ومضى يقول : « أهم ما في الأمر أن صاحب الجلالة أبدى رغبته في ارجاء ذلك الزواج مراعاة لصالح المسيو دي براجلون ، ولكن هذا نفسه لا يطبق صبرا على تأجيل الزواج ، ولذلك يرجو أن يجد لدى جلاتكم حلا عاجلا لهذه المسألة ! »

فامتقع وجه الملك وقال في تردد : « وأى حل يريده ؟ »

فقال الكونت وهو ينظر الى الملك في هدوء : « يريد الموافقة على الزواج فظل الملك صامتا ، واستطرد آتوس فقال :

« ان العوايق التي حالت دون ذلك الزواج في الماضي قد أزيلت الآن ، والآنسة دي لافالير العاطلة من الثروة والجمال والنسب هي برغم ذلك الزوجة المناسبة الوحيدة للمسيو دي براجلون ، لأنه يحبها ! »

وسكت الملك مترددا ، ثم قال بعد هنيهة : « انى أرفض الموافقة على هذا كل الرفض ! »

فقال الكونت في هدوء : « لقد كان لي شرف الادلاء الى مولاي بأن المسيو دي براجلون قد وطد عزمه على الزواج بالآنسة دي لافالير ، وعلى هذا لم تبق هناك أية عقبة »

فقال الملك مغضبا : « هناك ارادتي ألا يتم هذا الزواج ، أليست هذه عقبة يا كونت !؟ »

فقال الكونت : « هذه أشد العقبات يا مولاي ، ولهذا أستطيع العفو اذ أستوضح السبب الذي حدا بجلالتك الى هذا الرفض ؟ »

فصاح الملك حانقا : « السبب !؟ أتسألني السبب يا كونت !؟ انك تنسى كل التقاليد المرعية في البلاط حيث لا يجزؤ أحد على سؤال الملك ! »

فاحتفظ الكونت بهدوئه وقال : « لكن مولاي يعلم ولا شك أن ثمة مسائل ان لم يتفضل جلالاته بالقاء الضوء عليها ، فان هذا يكون مدعاة الى انتشار الاقاويل والاشاعات ، وفي ذلك ما يوهن من ثقة الرعية بالملك وولائها ! » فاشتد الغضب بالملك رغم حرصه على تمالك أعصابه وقال : « انك

السيف المكسور

استعاد الملك رباطة جأشه بأسرع ما يستطيع ، حتى لا يبدو مضطربا أمام الكونت دي لافير . وقد أدرك أنه ليس من المصادفة أن يزوره الكونت في ذلك الطرف ، بل لا بد لهذه الزيارة من أسباب مهمة . ودخل الكونت بعد قليل مرتديا ثيابه الرسمية ، وعلى صدره من الأوسمة مجموعة لم يتح مثلها لغيره من رجال البلاط . وكانت هيئته تنطق بما رجح ظن الملك ، فخطا خطوة نحوه وهو يبتسم ، ومد إليه يده ليصافحه ، فانحنى الكونت في اجلال عميق ، بينما قال الملك :

« أي حظ حسن جاء الينا اليوم بالكونت دي لافير ؟ »

فانحنى الكونت مرة أخرى وقال : « ان أكبر أمنية لي أن أنعم دائما بالقرب من صاحب الجلالة ! »

وأدرك الملك ما يرمى اليه دي لافير فقال له متكلفا الابتسام : « يلوح لي أن لديك ما ترغب في التحدث عنه ، وانه ليسرني حقا أن أحقق أية رغبة لك ! »

ثم جلس ، وتطلع الى الكونت مرهفا سمعه لما سيقوله ، فقال هذا في تأثر ملحوظ : « انى لعلى يقين من أن صاحب الجلالة سيمنحني شرف النظر بعين العدل والعطف فيما أعرضه على مسامحة . ولعل صاحب الجلالة يذكر ما أولانيه من العطف الكريم حين تشرفت بمقابلته بعد سفر دوق بكنجهام ؟ » فأومأ الملك برأسه موافقا وقال : « نعم ، اننى أذكر تلك المقابلة ، غير أنى نسيت موضوع الحديث »

فقال الكونت : « كان الحديث عن التماسي من جلاتكم الموافقة على زواج المسيو دي براجلون بالآنسة دي لافالير ! »

فقال الملك لنفسه : « ها هو ذا قد دخل في الموضوع » . ثم قال للكونت :

« نعم ، لقد تذكرت ذلك الآن . كما تذكرت أنك صرحت لي بأنك قدمت ذلك الطلب على غير رغبة منك »

فجاهد الكونت نفسه ليحتفظ بهدوئه وقال : « لقد وعت ذاكرتي كل كلمة سمعتها من صاحب الجلالة حينذاك ، وقد وضح لي مدى العناية الكبيرة التي يختص بها مولاي مسيو دي براجلون ، من المبادرة برفض الموافقة على ذلك الزواج »

تتسى نفسك وتتعدى حدود الواجبات والتقاليد !
ثم نهض من مقعده ، وقال باللهجة نفسها : « والآن أيها الكونت .. لقد
منحتك من وقتي أكثر مما كنت أريد ! »

وكان ذلك أمرا بالانصراف ، ولكن الكونت تجاهل وقال :

« عفوا يا مولاي ! .. اني لم أجد بعد الوقت الكافي لكي أدلي الى جلالتك
بما جئت لأجله .. وقد عشت طول حياتي وأنا أعتقد أن الملوك فوق البشر ،
لا يحكم مركزهم وسلطانهم فقط ، بل كذلك بحكم النبيل المنبعث من قلوبهم
والشرف الأصيل الكامن في نفوسهم .. ومن هنا لا أستطيع أن أقنع نفسي
بأن مليكي له قصد خفي من وراء رفض ذلك الزواج ! »

فسأله الملك : « ماذا تعنى ؟ وأى قصد خفي تشير اليه ؟ »

فقال الكونت في برود : « سأوضح ما أعنيه .. أن الناس يتحدثون
في كل مكان بأن صاحب الجلالة اذ يرفض زواج الأنسة دي لافالير بالمسيو
دي براجلون ، لا يرمى الى سعادة هذا ، بقدر ما يرمى الى ازاحتة من طريق
جلالته ، لأن جلالته يحب الأنسة دي لافالير ! .. »

وهنا مزق الملك قفازه من الغيظ وصاح قائلا :

« الويل لمن يتدخل في شئونى الخاصة ! .. لقد صممت على أن أتخذ
سبيلا معينا ، وسأحطم كل عائق في سبيلى ! .. نعم أنا أحب الأنسة
دي لافالير ! .. وهي لا تحب المسيو دي براجلون ، وأنت نفسك أكدت هذا ! »

فقال الكونت : « على كل حال يا مولاي .. لا شك في أن موافقة جلالتك
على زواجها بالمسيو دي براجلون تعد تضحية جديرة بملك عظيم مثلك من
أجل رجل أدى لجلالتك أعظم الخدمات .. هذا الى ما فى هذه التضحية من
دليل على الكرم والعرفان بالجميل وحسن السياسة فى آن واحد ! »

فقال الملك بخشونة : « قلت لك : الأنسة دي لافالير لا تحب المسيو
دي براجلون ! »

فسكت الكونت قليلا ، ثم قال : « فى هذه الحالة لا أفهم لماذا بعثت
جلالتك بالمسيو دي براجلون الى لندن ؟ .. ان هذا النفي كان مثار الدهشة
عند كل انسان يقدر شرف جلالتك باخلاص ! »

فصاح الملك قائلا : « من ذا الذى يجرو على التحدث عن شرفى يا مسيو
دي لافير ؟ »

فقال : « ان شرف الملك يا مولاي من شرف نبلائه جميعا .. فاذا سلب
الملك أحدهم ذرة من شرفه ، فلا شك أن جلالته يسىء بذلك الى نفسه ! ..
وهذا ما يدعونى الى الاصرار على البقاء فى حضرة مولاي حتى تسوى هذه
المسألة ، وليس يسع جلالتك الا الاستماع الى .. فأنا الآن شيخ لا يعيننى
الا المحافظة على عظمة المملكة وقوتها ، ولقد طالما بذلت دمي فى سبيل أبيك
وفى سبيلك دون انتظار أى جزاء .. وقد يزعم جلالتك أن أسألك حسابا



« وكسر الكونت سيفه على ركبته ، ثم ألقي بشطريه على الأرض ، وغادر الغرفة »

عما لحق بشرف ولدى وسبب شقاءه ، وقد تسائل نفسك عن وسيلة تعاقبني بها على صراحتي هذه ، ولكن هذا كله لن يغير من الحق شيئا ! »
 وكان الملك يسمع ذلك وهو يذرع الغرفة جيئة وذهابا ، وقد وضع يديه في صدر سترته ، وانبعث من عينيه شرر الغضب . ثم وقف فجأة وقال :
 - لو انني عاملتك كما ينبغي لانزلت بك أشد العقاب ، ولكني أوثر التسامح معك . وعليك أن تعلم أن الملك ليس الا انسانا له الحق في أن يحب !

فقال الكونت : « لو أن جلالتك أردت أن تستمتع بهذا الحق كانسان لا ملك ، لكنك صارحت المسيو دي براجلون بذلك بدلا من نفيه ! »
 فقال الملك بكبرياء : « لقد تسامحت كثيرا معك ، ولكنك تنسى أنك تخاطب ملكا . وهذه جريمة لا يمكن أن أقرها ، ولهذا أمرك بمغادرة هذا المكان فوراً ! »

فقال : « لا تنس يا مولاي أنك تحطم حياة رجلين بريئين ! ولن أبرح مكاني هذا حتى أصارحك بأنك بهذا التصرف الغادر قد بدأت حكمك بداية سيئة ، وقد أصبحت وأسرتي بعد ذلك في حل من كل محبة واحترام لك ، وليس لنا الآن من سيد غير الله ! »

فنظر اليه الملك في كبرياء وقال : « أتهددني ؟ »

فقال الكونت : « كلا ! ان نفسي تكره التفاخر بالشجاعة بقدر ما تكره الخوف . وقد علم الله أني في سبيل الدفاع عن تاجك وشرفه لا أتوانى عن بذل آخر نقطة من دمي ، بيد أني قاتلت في هذا السبيل عشرين سنة داخل البلاد وخارجها . فأنا لا أهددك بوصفك ملكا ولا بوصفك انسانا ، ولكني أقول لك يا مولاي : أنك تفقد خادمين مخلصين ، لأنك قد حطمت الايمان بك في قلب الأب ، والحب لك في قلب الابن ، فأحدهما لا يصدق بعد اليوم كلمة الملك ، والثاني لا يثق بعد اليوم باخلاص الرجل ولا بطهارة المرأة . أحدهما قد مات في نفسه كل شعور بالاحترام ، والاخر قد قضى في نفسه على كل طاعة ! »

ثم كسر سيفه على ركبته ، وألقى بشطريه بتؤدة على الأرض ، وغادر الغرفة !

وجلس الملك الى المنضدة مهموما مشتت الذهن ، ثم ما لبث قليلا حتى نهض ودق الجرس بعنف ، فلما جاء الحجاب مرتاعين قال لهم :
 - نادوا المسيو دارتانيان !

بعد العاصفة

غادر بورتوس القصر الملكي مرتاحا الى تادية مهمته كمنظم مبارزات ، وهناك في (مينيم) لحق براول وقص عليه تفصيل ما دار بينه وبين سان اينيان ، الى أن قال له :

- والآن ٠٠ لن تمضي ساعة أو ساعتان حتى يأتي الى هنا بعد انتهائه من مقابلة الملك !

فقال راول : « انه وقد ذهب لمقابلة الملك ، لابد أن يروى له نبأ دعوته للمبارزة ، وسينعمه الملك من قبول هذه الدعوة . وعلى ذلك لا أحسبه يأتي اليينا ، وعليك أن تنتظره ساعة أخرى ، فاذا جاء - وهذا ما لا أرجحه - فأرسل في طلبي حيث أكون في مسكني بعد أن أقابل أبي »

وكان الكونت أتوس - أبو راول - قد جاء الى باريس منذ يومين ، اذ تلقى خطابا من دارتانيان أخبره فيه بما حدث . فلما دخل عليه راول استقبله في عطف وحنان وأشار اليه لكي يجلس ، ثم قال له :
 - اني أعرف يا فيكونت أنك أتيت الى كما يأتي الرجل الى صديق لبيته ألامه ! »

فانحنى راول اجلا ، وأخذ يقص على أبيه كل ما حدث ، وهو يجاهد حتى لا تخنقه عبراته . فلما انتهى من حديثه ، قال له أبوه :
 - اني أعتقد يا راول أنه لا صحة مطلقا لما نمي اليك من شائعات ولا أنكر أني سمعت ذلك من ثقات ، لكنني في قرارة قلبي لا أحسب الملك يوجه مثل هذه الاساءة الى نبيل مخلص مثلك . وعلى كل حال سأجيتك بالبرهان القاطع عما قريب !

فانحنى راول وقال لأبيه : « سأنتظر عودتك يا سيدي الكونت »

ثم جلس مخفيا وجهه في راحتيه ، بينما ارتدى أبوه ثيابه على عجل ، ثم خرج الى حيث قابل الملك في قصره . وحين عاد بعد ذلك الى بيته وجد راول في انتظاره بادي اليأس كما تركه ، فأعطى قبعته ومعطفه للخادم ثم صرفه وجلس قريبا من ولده . فقال له هذا :

- والآن يا سيدي هل استوثقت من الأمر ؟

- أجل يا راول ، ان الملك مغرم بالآنسة دي لافالير ! وقد اعترف بذلك ، وذكر أنها تحبه أيضا !

فقال راعول وعليه دلائل اليأس : « رأيت يا سيدي ؟ »

قال : « لقد قلت للملك كل ما كنت تريد ، بل فوق ما كنت تريد !
وصرحت له بأن كل شيء قد انتهى بينه وبيننا ، وأنت لن تخدمه بعد اليوم ،
كما أنني سأعزله أيضا ! ولم يبق الآن إلا أن أستوتق مما اعترزته أنت
في شأن حبيك للآنسة دي لافالير ، وفي شأن خطتك للانتقام ! هل
طلبت مباراة سان ايتيان ؟ »

قال : « لقد بعثت اليه متحمدا ، فاذا قبل التحدي فاني أبارزه »

فنظر اليه أبوه في حزن واشفاق ، وهز رأسه أسفا دون أن يجد ما
يقوله . وفيما هما مطرقان ساهمان دخل الخادم معلنا قدوم المسيو
دارتانيان ، ثم دخل هذا عليهما الغرفة وعلني ثغره ابتسامة غامضة ، وبعد
أن صافحهما أبقى يد راعول في يده وقال لآبيه :

— ايه يا صديقي !؟ أما زلت تحاول أن تبعث العزاء في قلب هذا الشاب
المسكين !؟

فقال له الكونت آتوس : « ها أنت ذا جئت في الوقت المناسب لتعاونني
على أداء هذه المهمة »

وضغط دارتانيان يد راعول ، ثم قال وهو يفتل شاربه بيده الأخرى :
« أجل لقد جئت أنا أيضا »

وقال راعول وهو يحاول أن يبتسم : « لقد وجدت العزاء فعلا ، وقد كان
والدي منذ هنيهة يهم بأن يروى لي تفصيل الحديث الذي جرى بينه وبين
الملك »

فقال دارتانيان متظاهرا بالدهشة : « حديث بينه وبين الملك ؟ متى
كان هذا !؟ »

وابتسم الكونت آتوس ، بينما تنهد راعول وقال للمسيو دارتانيان :
« إذن .. لم تكن تعلم يا سيدي أن الكونت قابل الملك ؟؟ حمدا لله ! .. ان
لي أن أطمئن الآن ، فقد كان أشد ما أخشاه أن تكون صلتك الوثيقة بأبي
قد دفعتك الى مصارحة الملك بألمي واستيائي ، وأن تكون زيارتك هذه
ليست شخصية لكنها بوصفك قائد حرس الملك ! »

فضحك دارتانيان وقال له : « انك يا بني العزيز لفي حاجة شديدة الى
الراحة ، وأنا أنصح لك ، بعد أن قمت برحلتك الطويلة من إنجلترا الى
هنا ، وبعد أن زرت دي جيش والدمام وبورتوس ، وبعد ذهابك الى فنسين
.. أنصح لك بأن تذهب الى مسكنك الآن لتنام اثنتي عشرة ساعة على الأقل »
ثم جذبه اليه وعانقه كما لو كان ولده . وكذلك عانقه أبوه ثم قال له :
— حسنا ! ما دمت ذاهبا الى مسكنك الآن فسنلقاتك هناك !

وقال له دارتانيان وهو يدفعه الى الباب : « أجل يا بني العزيز ، هناك
شيء جديد سنعزرك به . فاطمئن وكن شجاعا كما عهدناك دائما ! »

زائرة غير منتظرة

ما كاد راعول يأخذ طريقه الى مسكنه حتى ألقي نفسه وحده وجها لوجه
مع همومه وأحزانه ، ولما استرجع في ذاكرته اقرار الملك بحبه للآنسة
دي لافالير وبمبادلتها اياه هذا الحب ، شعر بأن قلبه قد تحطم وقال يحدث
نفسه : « لقد انتهى كل شيء ! .. ولم يبق في العالم ما أرجوه ! ؛ حقا إن
هذه الحياة ليست سوى أحلام وأوهام . فهذا هو المستقبل الذي قضيت
عشر سنين في تشييد صروحه قد انهار كله ، وذلك الرباط الذي حسبته
يربط قلبي بقلبها لم يكن الا وهما من الأوهام ، ما كان أحقني اذ جعلت
أصدقائي يحزنون لي وأعدائي يشمتون بي ! »

ولم يسعه خلال ثورته النفسية هذه الا أن يلفظ بعض كلمات الروعيد
قائلا : « آه لو أن لي قوة دارتانيان ! اذن لضحكت ازاء غدر تلك الفتاة
التي شرفتها بحبي لها ، ولسارعت الى اقتفاء أثر الاوغاد الذين يتزلفون الى
الملك الآن بالسخرية مني ، لأسحق ثلاثة أو أربعة منهم تحت قدمي .
أجل ! ان هذا هو المسلك الجدير بي ، والكونت دي لافير نفسه لا يعارضه ،
فهو قد مر في شبابه بمثل التجربة التي أمر بها الآن ، وقص على مرارا ،
أنه لجأ الى الحمر والمتعة بالقيود بعد فشله في الحب ! انه تألم في شبابه
كما تألم الآن ، ولكن .. ما هي آلام الناس جميعا بجانب ما آتاسيه
الآن ؟ ومتى كان جرح القلب تخفف من ألمه جروح القلوب الأخرى ؟ ..
كلا ! ان كل انسان يتحمل نصيبه من الألم والعذاب والحزن والدموع ،
ولقد كانت حياتي حتى اليوم حياة قاحلة مجدبة ، قاتلت فيها في سبيل
الأخرين لا من أجل نفسي . أحيانا في سبيل الملك ، وأحيانا من أجل
امرأة . وما أنذا قد خانني الملك ، وتخلت عني المرأة التي أحببتها . وهذا
هو أبي يؤكد لي أن الشرف هو احترام المرء نفسه أولا ثم احترام الآخرين .
ولكن دي جيش ومانيكامب وسان ايتيان لا يرون الشرف الا الاستسلام
لنزعات الملك ومسراته لكي أبقى على مركزي في البلاط ، ولاكون قائد
فرقة ، وقد آكون بذلك دوقا أو أميرا ! .. وهكذا آكون أعظم ألف مرة من
الآنسة دي لافالير خليعة الملك لانها ستبقى خليعة له ولن يتزوجها ، وكلما
أعلن أنها خليلته زاد عارها واحتقار الناس لها ! »

ومضى راعول دي براجلون يحدث نفسه على هذا النحو حتى وصل الى
باب مسكنه ، وقد قطع الطريق اليه دون أن يلاحظ الشوارع التي مر بها ،

— يا راعول .. لا تحول نظرتك الشفيقة عني . انك لست أحد أولئك الرجال الذين يحترقون امرأة لأنها منحت رجلا آخر قلبها ، وان جر ذلك عليه الشقاء أو جرح كبريائه !

فلم يجب راعول واسترسلت هي قائلة :

— وا أسفاه . حقا ان قضيتي خاسرة ولست أدري كيف ابتدء . خير لي ان أقص عليك بالصرحة كل ما حدثت لي . ولما كنت لن أقول الا الحق الصراح ، فسأجد الطريق أمامي واضحا وسط الغموض والتردد والعوائق التي ينبغي لي أن أكافحها ، لا زيج حملا ثقيلًا من فوق صدري ، وأضعه عند قدميك !

وظل راعول صامتا ، ونظرت اليه دى لافالير نظرة كأنها تقول له بها : « شجعني ولو بكلمة ! » . ولكنه بقي مطبقا شفثيه ، فاضطرت الى مواصلة كلامها قائلة :

— منذ برهة وجيزة جاءني المسيو سان اينيان بتوجيه من الملك !

وأرخت عينيهما وهي تقول ذلك ، فأدار راعول وجهه جانبا ، ثم عادت تقول : « قد أخبرني المسيو سان اينيان بأنك تعلم كل شيء ! »

وحاولت أن تنظر الى عينيه بعد أن أحدثت به هذا الجرح الجديد ، ولكنه لم يبادلها النظر ، فاستمرت في حديثها وقالت :

— وقد أخبرني انك حائق علي ، واني أقر أن الحق في جانبك

ولم يزد علي أن نظر اليها وهو يبتسم ابتسامة مملوءة بالاستياء فمضت تقول :

— آه ! أرجو الا تذكر أنك تشعر نحوي بشعور غير الغضب وحده . أنتظر يا راعول حتى أفرغ من قول كل ما جئت لأصارك به !

فاستعان راعول بقوة ارادته حتى عاد اليه مظهر الهدوء وزالت ابتسامته الاستياء من ثغره بينما ركمت الآنسة دى لافالير بين يديه وقالت له :

— هذه يداي ممدودتين توسلا اليك ، وهذا جبينى منكسا الى الارض .. على أنني أطمح أن تغفر لي فأنت أكرم الناس قلبا وأنبلهم نفسا . واذا كنت قد تركت علي جهل بما يختلج في قلبي من عواطف فاني على الأقل لم أكن لأخذك قط ! . نعم انني أتوسل اليك يا راعول وأنا راكعة على ركبتى ، راجية أن تجيبنى ولو بكلمة تسيء بها الي . اني أوتر كلمة أذى من شفثيك على سوء ظنك بي في قرارة قلبك !

وهنا قال لها راعول وهو يجاهد ليبدو محتفظا بهدوئه :

— اني أقدر كياستك في التعبير يا آنسة . وانه لاخلص منك أن تخدعيني غير متمعدة هذا الحداع !

فأقلت : « سيدى .. لقد مكثت زمانا طويلا وأنا احسب اني أحبك أكثر

ودون أن يدري كيف جاء . ثم دفع الباب وصعد السلالم المظلمة شأن معظم البيوت في ذلك العصر ، وكان مسكنه بالطابق الاول فوق ليدق الجرس ، وظهر خادمه أوليفان فأخذ منه سيفه ورداه ، ومر راعول بالردهة ومنها الى غرفة الجلوس الفاخرة الاثاث ، وقد وضع بها أوليفان كثيرا من الازهار التي يجلبها سيده ، كما كانت هناك صورة معلقة للفالير رسمتها لنفسها بنفسها ، وقد علقها راعول وسط اطار . من حريق دمشق الداكن اللون . فاتجه الى هذه الصورة كمادته كلما دخل الغرفة وأخذ يمعن النظر اليها وأرتسمت على شفثيه ابتسامة مرة . ثم تتمم قائلا : « آه ما أشقاني ! » وقد شبك ذراعيه فوق صدره ورفع رأسه واغرورقت عيناه بالدموع ولم يكذب ينطق بهذه الكلمة حتى سمع خلفه صوت تاوه خافت ، فلما التفت متعجبا رأى في ركن الغرفة امرأة مقنعة كانت مختبئة وراء الباب فلم يلحظها حين دخل . وسرعان ما أزاحت القناع عن وجهها فبان ملامحها الحزينة على محياها الشاحب . ولم يسع راعول الا أن تراجع خطوة الى الوراء كأنما رأى شبحا أمامه ، ثم صاح قائلا : « لويز ؟ ! »

وكانت نبرات صوته تدل على الدهشة والحزن واليأس معا ، اذ لم يكن يتصور أن يجد نفسه هكذا وجها لوجه ، أمام الآنسة دى لافالير !

وتقدمت هي بضع خطوات نحوه ثم قالت له : « أجل أنا لويز ! » وكان هو قد استعاد رباطة جأشه فقال لها : « أنت يا آنسة ؟ أنت هنا ؟ »

فأقلت : « أجل يا راعول ، وقد طلبت الى أوليفان ألا يخبرك بقدمي ! » وساد بينهما السكوت ، ثم عادت هي فقالت :

— كان لابد لي أن أراك وحدك . وقد أقدمت على هذه الخطوة التي يجب كتمان أمرها ، لانه لا أحد غيرك يا مسيو دى براجلون يقدر أن يفهم حافزى الى الحضور !

فتلعثم راعول وقال بصوت يبدو فيه أثر العاطفة :

— حقا يا آنسة .. اننى فيما يتعلق بي وبرغم حسن ظنك بي ، أقر .. فقطعت كلامه قائلة بصوتها الناعم : « ألا تجلس أولا وتستمع لما أقوله ؟ » فنظر راعول حوله ثم هز رأسه فى أسف وجلس على كرسي بينما نظرت هي أيضا حولها وكأنها تخشى أن يعلم أحد بحضورها اليه ، فقام وفتح الباب وصاح بالخادم قائلا :

— يا أوليفان .. اذا سأل عني أى إنسان فلا تذكر له انى هنا !

ثم التفت اليها وقال : « اليس هذا ما تريدن ؟ »

وقد أثرت فيها هذه الكلمات القليلة أيضا تأثير ، على أنها سرعان ما استجمعت شجاعته وقالت بعد أن كففت بمنديلها دموعه كادت تنحدر من عينها :

من أي شيء في العالم . وطال بي هذا الاعتقاد حتى صارحتك بأنني أحبك ، بل كنت لا أتردد لحظة في أن أقسم على ذلك . ولكن جاء يوم انكشف عن عيني الغطاء

وسكنت فقال راعول : « حسنا يا آنسة ! لكن أما كان ينبغي لك وأنت تعرفين أنني ما زلت أحبك ، أن تصارحيني بأنك لم تعودى تحبينني !؟ »
فقلت له : « في ذلك اليوم الذي نظرت فيه إلى قرارة قلبي وتبين لي أنك لم تعد تملأ فراغه ، وأن أمامي مستقبلا آخر غير أن أكون صديقتك ، في ذلك اليوم لم تكن إلى جانبي لأصارك بذلك ! »
فابتسم ساخرا وقال : « لكنك كنت تعرفين أين أنا ، وكان يمكنك أن تكتبي إلى ! »

فقلت : « لم أجرؤ على ذلك يا راعول . لقد كنت ضعيفة جبانة . وكنت أعرفك حق المعرفة ، وأعلم أنك تحبني حبا صادقا حتى لقد ارتعدت من التفكير في الحزن الذي تسببه لك مصارحتي إياك بالحقيقة . اني يا راعول حتى هذه اللحظة التي أكلمك فيها ، وأنا راكعة أمامك ، وقد سحق قلبي بين جنبي ، واختنق صوتي من الألم ، وأمتلأت عيناى بالدموع ، في هذه اللحظة لا أجد لي ما أذفع به عن نفسي سوى صراحتي ، ولا ألقى حزنا أشد مما أتبينه في عينيك ! »

وحاول راعول أن يبتسم ، فقلت له : « كلا ! أرجو ألا تخفي الآن عواطفك عني . لقد كنت تحبني وكنت واثقا من حبك لي . انك لم يخذعك قلبك ولم يكذبك القول . أما أنا »

وهنا شحبت وجهها ووضعت يديها على رأسها بيأس ، فقال لها راعول :
- أما أنت فقد قلت لي انك تحبينني على حين أنك أحببت رجلا آخر !

فقلت : « أجل وا أسفاه ! اني أحب رجلا آخر . بالله دعني أقل ذلك فانه هو عذرى الوحيد . اني أحب ذلك الآخر أكثر مما أحب حياتي ! . . . اغفر لي هذا الذنب أو عاقبني على هذه الحيانة . . . اني لم أت إلى هنا لكي أذفع عن نفسي ، وإنما جئت لكي أقول لك أنت الذي تعرف ما هو الحب : (لقد صرت مثيمة بحب ذلك الآخر ، واني لن أتواني عن منح حياتي وروحي . ولئن كف عن حبي فاني أموت حزنا وكمدا ، الا اذا أعانني الله على الصبر . نعم يا راعول . . . لقد جئت هنا لكي أخضع لمشيتتك ، فأموت اذا أردت لي الموت ! . . . اقتلني اذن يا راعول اذا كنت تشعر في قلبك بأنني أستحق أن أموت !) . . . »

فقال : « حسنا يا آنسة ! لقد قلت لي في الواقع كل ما كان لديك ، وكل ما كنت أود أن أعرفه . والآن أرى من واجبي أنا أن أطلب اليك الصفع ، لأنني أنا الذي كدت أكون عقبة في سبيل حياتك . وأنا الذي أخطأت لأنني اذ خدعت نفسي ساعدتك على أن تخدعي نفسك ! »

فقلت دى لافالير : « كلا يا راعول ، اني لا أطلب اليك مثل هذا ! »
فقال : « انني أنا وحدى الملوم ، فقد كان جديرا بي أن التمس جوابا من قرارة قلبك ، لا أن أطلب جوابا من شفيتك . ولهذا أرجو منك مرة أخرى أن تغفري لي ! »

فقلت له : « هذا محال ! انك تسخر مني يا راعول ! »
فسألها في هدوء : « وكيف يكون محالا ؟ »
فأجابت بقولها : « أجل ! من المحال أن يكون الانسان بهذا النبيل وهذا الكمال ! »

فقال راعول وهو يبتسم بمرارة : « مرة أخرى . . . حاذري يا آنسة »
فقلت : « انك تحبني كما يحب الأخ أخته . فليبق ما بيننا هكذا يا راعول »

فقال لها متعجبا : « كما يحب الأخ أخته !؟ كلا يا لويز ! . . . لقد أحببتك حب العاشق ، حب الزوج ، أحببتك أصدق الحب وأعمقه ! . . . نعم أحببتك حبا ملك على قلبي ووجداني حتى اني ما كنت لأتردد في سفك دمي لأجلك قطرة قطرة ، ولا في ترك جسمي يقطع أربا . لقد أحببتك إلى حد أني الآن أشعر أن قلبي قد سحق ومات بين جنبي ، حتى فقدت كل أمل في هذا العالم ، وفي العالم الذي يليه ! »

فهمتت به قائلة في توسل : « راعول ! أشفق على ! لم أكن أعلم أنك تحبني إلى هذا الحد ! »

فهز رأسه أسفا وقال : « لقد فات الوقت يا لويز ! انك تحبين غيري الآن ، وأنت سعيدة في حبك هذا ، نعم وأنني لأرى سعادتك من خلال دموعك التي يغريها اخلاصك الطبيعي بأن تنهمل ! لقد جعلتني أشقى مخلوق في الوجود ، فاتركيني أتوسل اليك . وداعا . وداعا ! »

وأرادت أن تقول شيئا فوضع يده على ثغرها لكيلا تتكلم ، فأهوت بشفتيها على يده وقبلتها ، وفي اللحظة نفسها سقطت على الارض مغنى عليها .
فصاح راعول مناديا خادمه أوليفان ، فلما حضر قال له :

- خذ هذه السيدة واحملها إلى العربة التي تنتظرها أمام الباب
ولما رفعها أوليفان من الارض تقدم راعول نحوها ، يود لو يقبلها لآخر مرة ، ولكنه وقف فجأة وقال لنفسه : « كلا انها ليست لي ! اني لست لصا مثل ملك فرنسا ! »

إلى الباستيل

لم يكدر أعول ينصرف إلى مسكنه تاركا أباه وصديقه دارتانيان وحدهما حتى استعداد الأول سمعت الجدل الذي بدأ عليه عند قدوم صديقه ، وقال له : « والآن ماذا جئت لانبأني به أيها الصديق ؟ لعل الملك حائق ساخط ؟ » فقال دارتانيان : « الحق أنه ليس مسرورا ، بل هو غاضب ناغم ! » فقال الكونت آتوس : « اذن .. فقد جئت لكي تقبض علي ؟ هذا ما كنت أنتظره . وأنا على استعداد تام للذهاب معك »

فقال دارتانيان : « لا داعي إلى العجلة ، فإن عندي فسحة من الوقت ! ألا تحب أن تسمع كيف جرت الأمور بين الملك وبينني ؟ لقد كان الحوار الذي جرى بيننا عجيبا حقا ، وما كدت ألبى دعوته عقب خروجك من لدنه مباشرة حتى راعني منظر وجهه الذي بدأ قرمزيا لفرط غضبه ، ولم يكن لي علم بما حدث ، لكنني وجدت على الأرض سيفا مشظورا . وصاح بي الملك حين رأيته : (يا كابتن دارتانيان .. لقد خرج الكونت آتوس دي لا فير من عندي الآن ، انه رجل وقح !) . فقلت بدهشة : (رجل وقح !) . فقال وهو يضغط أسنانه : (يا كابتن دارتانيان .. استمع لما أقول !) . فقلت : (هذا واجبي يا مولاي) . فقال : (لقد أردت إكرام الكونت آتوس لما أحفظ له من ذكريات طيبة ، فلذلك لم أمر بالقبض عليه هنا في القصر . فعليك أن تأخذ عربة كي تلحق به وتقبض عليه .. وإذا كنت لا تستطيع القيام بهذه المهمة ، فابعث إلى الآن بقائد الحرس) . فقلت له : (لا حاجة إلى قائد الحرس يا مولاي ما دمت أنا في الخدمة) . وهنا زابلت حدة غضبه وقال لي متلظفا : (انك أخلصت لي الخدمة دائما يا كابتن دارتانيان ، ولهذا لا أريد أن أزعجك بتكليفك القبض على الكونت وهو صديق لك) . فقلت له : (لو أنه كان أبي يا مولاي لقبضت عليه أداء لواجبي) . فنظر إلى متعجبا متفرسا ، واذ رأى أن وجهي لم يهتز به عصب ، مضى فقال : (حسنا .. اذن ستقبض على الكونت آتوس دي لا فير ؟) . فقلت له : (نعم يا مولاي إذا أعطيتني أمرا بذلك) .. »

وهنا ارتسمت على شفتي الكونت ابتسامة خفيفة لم يخف معناها على صديقه القديم ، لكنه استمر في سرد روايته قائلا في هدوء :
- فلما سمع الملك مني ذلك قال لي : « حسنا .. اني أمرك بالقبض على الكونت » . فأنحيت وقلت : « أين هو الآن يا مولاي ؟ » . فقال : « ابحث

عنه » . فسألته : « أقبض عليه حيث أجده ؟ » . فقال : « أجل .. ولكن اجتهد أن يكون ذلك في بيته .. وإذا كان قد سافر إلى مزرعته فغادر باريس تورا واقبض عليه في الطريق » . فأنحيت ، ولكنني بقيت واقفا لا أتحرك ولا أتهدأ للانصراف . وسرعان ما سألني في دهشة عما أنتظر فقلت له : « أنتظر أمرا بالقبض على الكونت موقعا عليه من مولاي ! »

ومرة أخرى ، عاد الكونت آتوس إلى ابتسامته الهادئة الهازئة ، على حين مضى المسيو دارتانيان في حديثه قائلا :

- ان الملك يا صديقي كان يبأشر ضربا جديدا من ضروب سلطته . ولهذا بدأ عليه الضيق ، لكنه حاول إخفاءه وتناول قلما كتب به على ورقة صغيرة : « أمر صادر إلى الفارس دارتانيان بالقبض على الكونت دي لا فير حيث يجده » . ثم التفت إلى ووقع على الورقة بسرعة ثم مد بها يده إلى قائلا : « اذهب الآن » . وها أنذا أيها الصديق قد أطعت الأمر !

وهنا نهض الكونت ومد يده فتناول بها يد صديقه وقال : « اذن .. هيا بنا الآن ! » .

فقال له دارتانيان : « ولم العجلة يا صديقي ..؟ أليست لديك شئون تحب أن ترتبها قبل أن تغادر منزلك هكذا !؟ »

فابتسم الكونت وقال : « أية شئون يا صديقي ؟! انك لتعلم يا دارتانيان أنني لست سوى رحالة بسيط على هذه الأرض ، ولقد كنت ولا أزال على استعداد لمغادرة الدنيا كلها ، إذا دعاني الله إليه ، وماذا عسى يحتاج إليه رجل مثلي دائم الأهمية هكذا ..؟ انه لا يحتاج إلى أكثر من معطف أو كفن . ولهذا تجدني الآن مستعدا كما كنت دائما يا صديقي العزيز ، ويمكنني أن أصحبك في الحال ! »

فنظر إليه دارتانيان مليا ، ثم قال له : « وبراجلون .. ألا تريد منه شيئا ؟ »

فقال : « لقد رببته على المبادئ التي استرشدت بها في حياتي . ولعلك لاحظت انه لم يكدر يراك حتى فطن إلى الغرض من زيارتك . ولقد خدعناه لحظة ، ولكن لا تقلق فاني مستعد للنكبة التي تنزل بي ، وما أحسب أنها ستفاجئني أو تزعجه . هيا بنا يا صديقي . وأظنني في غني عن تسليمك سيفي لأنني كسرتة على ركبتني أمام الملك ورميت شطريه عند قدميه ! »

فقال دارتانيان في هدوء وهو يهيم بالنهوض : « أنت على حق ، وماذا كنت أفعله بسيفك ؟ »

ولما تهيأ للانصراف سأله الكونت آتوس ضاحكا : « أسير خلفك أم أمامك ؟ »

فتأبط ذراعه قائلا : « بل نسير هكذا وذراعك في ذراعي ! »

ثم هبطا الدرج حتى وصلا إلى الردهة . وهناك نظر « جريمو » إليهما

في شيء من القلق ، كأنما دلته خبرته بالأمر على أن هناك شيئا غير ما لوف ،
ولكن الكونت قال له في هدوء :

— أهذا أنت يا جريمو ؟ أنا ذاهبان ...

وأكمل دارتانيان عبارة الكونت فقال : « ذاهبان للقيام بنزهة في
عربتي ! »

فسكت جريمو وصحبهما الى الباب . ثم ركب الكونت العربية أولا وتبعه
دارتانيان ، وانطلقت بهما العربية في هدوء ، دون أن يلفت رحيلهما نظر
أحد من الجيران

ولما وصلت العربية الى أرصفة الميناء قال الكونت آتوس : « انك ذاهب
بي الى الباستيل كما أرى ؟ »

فقال دارتانيان : « أنا آخذك الى الباستيل ؟! أنت حسبني جنتت ؟! »
فدهش الكونت وسأله : « ماذا تعنى ؟ »

فقال : « انني يا صديقي ما قبلت أداء هذه المهمة الا لكي انفذها على
الوجه الذي تحبه . ولولا هذا لتركت قائد الحرس يتولى هذه المهمة بدلا
منى ! »

فقال الكونت : « اذن أين تذهب بي ؟ »

فرد عليه قائلا : « سنذهب الآن الى حيث تريد أنت ! »

فلم يتمالك الكونت عواطفه وقبله قائلا : « هيه يا صديقي العزيز ...
ان هذه شيمةك دائما ! »

وقال دارتانيان : « ان الأمر جد بسيط ! سيأخذك الحوذي الى الحدود
عند (كور - لا - رين) وهناك تجد جوادا أمرت باعداده لك . وبهذا
الجواد تستطيع أن تقطع ثلاث مراحل بريد دون توقف . أما أنا فسأحرص
على ألا أعود الى الملك لأخبره بذهابك ، الا بعد أن أطمئن الى أن أحدا
لا يستطيع ادراكك . وفي خلال ذلك تكون أنت قد وصلت الى (الهافر)
فتعبر (المانش) منها الى انجلترا حيث تجد القصر البديع الذي أهده
الى المسيو مونك ، ولن يقصر الملك تشارلس في اكرامك ! »

وسكت دارتانيان ونظر الى الكونت ليرى وقع هذا المشروع لديه ، وشد
ما كانت دهشته اذ هز الكونت رأسه وابتسم قائلا له : « كلا يا صديقي ...
بل خذني الى الباستيل ! »

على أنه كان يعلم أن صديقه الكونت صعب المراس شديد العناد ، فلم
يزد على أن قال له : « فلتفكر في الأمر قليلا يا صديقي ، انك الآن لست
شابا في العشرين ، واني أؤكد لك عن خبرة وتجربة ان الاقامة بالباستيل
هي بمثابة الموت لمن كانوا في مثل عمرنا . ولهذا لن أرضى قط بأن تختم
حياتك بسرعة هكذا ، بل ان تفكيري في ذلك كليل وحده بأن يصيبني
الدوار ! »

فقال الكونت دون أن يزياله شيء من هدوئه : « يا عزيزي دارتانيان ...
ان الله قد أنعم على بجسم عاقل في قوة تحمله . ولك أن تطمئن الى
أني سأحفظ بقوتي حتى آخر نسمة من حياتي ! »

فقال دارتانيان : « ليس الأمر أمر قوة جسمك ، ففكر في العاقبة جيدا »
فقال له : « هذه نهاية التفكير السليم . ولن أرضى قط أن أبحث معك
هذه الحطة . ولو كان الفرار يخطر ببالي لقبلت منك هذا العرض ... هل
نسيت ما كلفك الملك أن تقوم به ؟ »

فقال دارتانيان : « هذا لا يهمني قط ، وسأقول له ببساطة : (مولاي ...
اسجن وانف واقتل كل انسان في فرنسا وأوربا . ومروني بأن أقبض على
من تشاء وبأن أطعنه ، حتى ولو كان الأمير أخاك . ولكن لا تلمس شعرة
من رأس أحد الفرسان الأربعة ، والا فالويل والشبور) ... »

فقال له الكونت آتوس في هدوء : « يا صديقي العزيز ... اني أحب أن
أقتنعك بشيء واحد هو اني أريد أن يقبض على »

وهز دارتانيان كتفيه أسفا وحزنا ، بينما استطرد الكونت آتوس قائلا :
— أؤكد لك أنك لو مهدت لي سبيل الفرار ، فاني أعود من تلقاء نفسي
الى السجن الذي أراده لي الملك ! اني أريد أن أبرهن لذلك الشاب الذي
بهره بريق السلطان والفاخرة ، أنه يستطيع أن يعاقبني وأن يسجنني وأن
يعذبني ، ولكنه يسيء التصرف في الفرص التي أمامه ، وأنا أود لو يعرف
تأنيب الضمير !

فقال دارتانيان : « حسنا . اني أعرف حق المعرفة أنك لا ترجع عن أمر
اعتزمته ، فهل تريد الآن أن تذهب الى الباستيل ؟ »

فقال : « أجل يا صديقي ، هذا ما أريده حقا فهيا بنا الى الباستيل ! »
وهنا صاح دارتانيان بالحوذي قائلا : « الى الباستيل » . ثم ارتقى الى
خلف العربية وأخذ يعرض على طرفي شاربه بحق ، وساد الصمت بينهما
والعربية تسير بهما ، ثم تناول آتوس يده وقال له : « لعلك لست غاضبا
على يا دارتانيان ؟ »

فقال : « ان ما تفعله أنت يحاقر البطولة كنت أفعله أنا بدافع العناد ! »
فسكت قليلا ثم سأله : « ألا تعتقد ان الله سينتقم لي ؟ »

فقال دارتانيان : « وأعتقد أيضا أن بعض الناس سيمدون يد المساعدة
في هذا الانتقام ! »



وصلت العربية الى الباب الخارجي للباستيل ، ووقفها جندي كان في دور
الحراسة ولكن كلمة واحدة من دارتانيان كانت كافية لأن يدعها تمر ،

فمضت العربية دون عقبة أخرى . وبينما كانت تمر تحت المر ذى السفن المؤدى الى فناء بيت محافظ السجن ، نظر دارتانيان بعينه التي تشبه عين النسر والتي يكاد يرى بها كل شيء حتى ما وراء الجدران ، ثم صاح بغتة : « ما هذا الذى هناك فى الفناء ؟ »

فنظر آتوس الى الجهة التي أشار اليها صديقه ثم قال فى هدوء : « هناك عربية لعلها تحمل سجيناً مثلى ! »

وفى تلك اللحظة وقف ديدبان آخر عربية دارتانيان ، وبينما كانت المراسم تؤدى ، رأى آتوس على بعد نحو مائة خطوة رجلاً يهبط من العربية الأخرى أمام بيت محافظ السجن ، وسأله دارتانيان : « أرايته ؟ » فأجابته قائلاً : « انه يرتدى بذلة رمادية اللون ، ولا أدرى من أمره أكثر من هذا ! » فقال دارتانيان : « انه أراميس ولا شك ! »

فسأله آتوس فى هدوء : « أراميس مقبوضاً عليه ؟ هذا مستحيل ! » فقال : « لم أقل انه مقبوض عليه ، وما دمنا نراه وحده فى عربته فعله جاء لزيارة محافظ السجن . وهكذا نكون قد وصلنا فى الوقت المناسب ! » فقال آتوس : « انى أسف لهذا اللقاء أسفاً شديداً ، لان أراميس سينزعج ولا شك ! »

فقال دارتانيان : « اذا شئت ألا ينزعج أراميس لرؤيتك فدعنى أنا أقص عليه الأمر على طريقتى . انى أعلم أنك لا تستطيع أن تكذب . ولكن هذا سهل على رجل جاسكونى مثلى ! »

فابتسم آتوس ، وكانت العربية قد وصلت الى حيث وقفت العربية الأخرى عند باب بيت المحافظ فوقفت هناك ، وقال دارتانيان لصديقه بصوت خافت : « لقد اتفقنا اذن ؟ » فأوماً آتوس دليلاً على الموافقة ، وشرعاً يصعدان الدرج . وبعد بضع دقائق كانا فى غرفة الطعام ببيت المحافظ ، وكان أول ما استرعى التفات دارتانيان أن رأى أراميس بجانب بيزمو ينتظر اعداد طعام شهى فاحت رائحته فى البيت كله ، فتظاهر دارتانيان بالدهشة للقائه . أما أراميس فكان عجبه شديداً حقاً حين رأى صديقيه وكان تأثره ظاهراً . وأثنى عليه آتوس ودارتانيان كالمعتاد ، وأما بيزمو فقد بهت اذ رأى ضيوفه الثلاثة وأخذ يحييهم ويرحب بهم قائلاً : « أى ظرف سعيد . . . » فقطع دارتانيان كلامه قائلاً : « لقد كنا سنسألك . . . »

فقال أراميس ضاحكاً : « أترانا سنسلم أنفسنا لك سجناء ؟ » ورد دارتانيان قائلاً : « صحيح ان الجدران تبدو كجدران سجن . انك تعلم يا مسيو بيزمو أنك دعوتنى الى تناول العشاء عندك حين قابلتني منذ أيام ؟ »

فصاح بيزمو قائلاً : « أنا ؟ ! »

فقال دارتانيان : « نعم أنت ، لقد دعوتنى وان كنت الآن تبدو عليك الدهشة ، ألا تذكر ؟ »

فشحب وجه بيزمو ثم علتة حمرة ، ونظر الى أراميس فنظر هذا اليه ، وأخيراً قال بتلعثم :

— حقاً . . . هذا يسرنى . ولكن أقسم بشرفى ليست عندى أية فكرة . . . آه ان ذاكرتى ضعيفة جداً ! »

فقال دارتانيان فى شيء من الغضب : « اذن . . . أنا الذى أخطأت لائى تذكرت دعوتك ؟ »

فسارع بيزمو اليه وقال له مسترضياً : « يا عزيزى الكابتن . . . دعك من الكلفة . ان ذاكرتى هي أضعف ذاكرة فى العالم ! »

فقال دارتانيان بجرأة : « على أى حال أنت تذكر الأمر الآن ! لقد كان ذلك حين أتيت الى القصر لترانى، وقد قصصت على شيئاً عن حساباتك مع المسيو دى لوفيرير والمسيو ترمبلاى »

فأوماً بيزمو موافقاً ، بينما واصل دارتانيان كلامه فقال : « كما حدثتني عن عطف المسيو دربلاى عليك »

وهنا بدت الدهشة فى وجه أراميس ، ونظر الى المحافظ المسكين قائلاً له : « ومع هذا كنت تقول منذ لحظة انك ضعيف الذاكرة !؟ »

فلم يجبه بيزمو ، بل ظل ناظراً الى دارتانيان وقال :

— أجل ! . انك على حق يا كابتن ، ولست أدري كيف نسيت ؟! انى أذكر ذلك الآن ، وأطلب اليك الصفح . وثق يا عزيزى انك هنا فى بيتك سواء أديعت أم لم تدع ، أنت والمسيو دربلاى صديقك . (وهما التفت الى أراميس) . وهذا السيد كذلك (وانحنى لآتوس)

فقال دارتانيان : « لقد كنت واثقاً من ذلك ، ولهذا لما وجدت نفسى الليلة بلا عمل فى القصر الملكي رأيت أن أزورك هنا لأرى بنفسى كيف تعيش . وفى الطريق قابلت الكونت دى لافير عند خروجه من حضرة الملك ، فسلمنى أمراً يتطلب التنفيذ العاجل ، ولما كنا على مقربة من هنا فقد رأيت أن أزورك . ولو لم يكن لى غرض سوى أن أصفحك وأن أقدم اليك الكونت الذى أتيت أنت عليه ثناء كبيراً فى القصر حين . . . »

وهنا أوماً بيزمو موافقاً ، وانحنى للكونت دى لافير ، بينما استطرد دارتانيان فقال : « انى لعلى يقين من أن الكونت سيلقى منك كل ترحيب . وسيتناول العشاء معكما الآن ، أما أنا فان سوء حظى يضطرني الى الذهاب لأداء بعض واجبات العمل ! »

وهنا سأله أراميس وبيزمو معا : « أذهب أنت ؟ »

فقال : « نعم ، وسأترك لكما بدلاً منى ضيفاً نبيلاً ممتازاً ! »

ثم ربت بيده كنف آتوس متلطفًا ، ولم يسع هذا الا أن يبدي شيئًا من دهشته ، ولكن لم يلحظ ذلك سوى أراميس ، أما المسيو بيزمو فانه لم يكن نداً للأصدقاء الثلاثة في ذكائهم . ومن هنا عاد يسأل دارتانيان : « أتركنا حقاً ؟ »

فأجابه هذا بقوله : « لن أغيب سوى ساعة أو ساعة ونصف ساعة ، وسأعود في الوقت الذي تتناولون فيه الحلوى ! »

فقال بيزمو : « اذن تنتظرني » . فقال دارتانيان : « كلا . كلا ! » . وسأله آتوس : « أوافق أنت من أنك ستعود ؟ » . فقال له : « نعم . . بلا شك ! » . ثم نهض وضغط يد صديقه وهمس اليه قائلاً : « انتظرني وكن بادي السرور قدر امكانك ، وفوق كل شيء لا تشر أية اشارة الى شئون السياسة »

وقاد بيزمو دارتانيان حتى الباب الخارجي ، على حين جلس أراميس مع آتوس بادي السرور يحاول أن يغريه بقول الحقيقة ، ولكن آتوس لم ينبس ببنت شفة

وبعد عشر دقائق من ذهاب دارتانيان ، جلس السادة الثلاثة الى المائدة وكان عليها من ألوان الطعام ما يرضى كل نهم ، وكانت تقدم لونا بعد آخر ، وكلها على نفقة الملك ، ولعل المسيو كولبير كان يوفر ثلثيها على الأقل دون أن يضار بذلك أحد من نزلاء السجن . وكان بيزمو هو الوحيد بين الثلاثة الذي أقبل على الطعام والشراب . أما أراميس فكان يتذوق من كل ما يقدم له . وأما آتوس فانه بعد الحساء والمشهيات لم يأكل شيئاً مطلقاً . وبقي أراميس طول الوقت يسائل نفسه عن المصادفة العجيبة التي جعلت آتوس يبقى مع بيزمو بينما انصرف دارتانيان ، أما آتوس فكان يخبر غور أفكار أراميس الذي عاش وسط الخيل والدسائس والمراوغات ، وكان يدرسه عن كتب حتى أيقن انه بسبيل أمر هام . ثم بدأ يفكر في أمر نفسه ، ويتساءل لماذا تركه دارتانيان فجأة هكذا في الباستيل !

فقال سان اينيان : « اعتقد يا مولاي انك اذا شئت رؤيتها فلن يكون عليك أن تخطو الخطوة الاولى فحسب بل ان تقطع الطريق كله ! »

فقال الملك : « لا أبالي ذلك . أتحسبها لا تزال متعلقة ببراجلون ؟ »

فقال : « لا يا مولاي . ان هذا مستحيل ، لأنني موقن أنها لا تحب سواك ، وأنها تحبك من كل قلبها . ولكنك تعلم ان دي براجلون من قوم ذوى كبرياء يحبون أن يمثلوا دور الأبطال الرومانيين ! »

فاتسم الملك ابتسامة خفيفة ، اذ كان يعرف مدى صدق هذه العبارة . . ثم قال سان اينيان : « أما الآنسة دي لافالير فقد ربيت في كنف الملكة الوالدة أى وسط الجد والوقار ورعاية المراسم . وقد تبادلت مع ذلك الشاب أيمانها الصغيرة تحت ضوء القمر والنجوم ، والآن يشعران بأسى شديد لاضطرابهما الى الحث بتلك الايمان ! »

وحسب سان اينيان انه بذلك يضحك الملك ، ولكن الملك على العكس ترك الابتسام وبانت عليه هيئة الجد . لقد بدأ يشعر بوخز الضمير الذي تنبأ آتوس لدارتانيان بأنه لابد ملاحقه . وفكر في أن لافالير وبراجلون كانا متحابين وأقسم كل منهما لصاحبه يمين الاخلاص ، وقد وفى براجلون بعهده أما هي فان ضميرها يعذبها لحنيتها بذلك القسم . وقد صحب تائب الضمير عند الملك شعور بالغيرة القاسية . ولم يلفظ بكلمة ولكنه بدل أن يذهب الى أمه أو الى الملكة أو الى المدام (زوجة أخيه) لكي يتسلى قليلاً ، ارتقى في الكرسي الكبير الذي كان والده العظيم لويس الثالث عشر يجلس عليه . ورأى سان اينيان أنه ليس مستعداً للتسلية في تلك اللحظة ، فعمد الى آخر وسيلة عنده وقال للملك : « ماذا تعزم أن تفعله الليلة يا صاحب الجلالة ؟ » . تأمر باخبار الآنسة دي لافالير بعزمك على رؤيتها ؟ »

فقال الملك : « يبدو أنها تعلم ذلك ، ولكن . . . أرى أن تنتظر قليلاً فلعلها تتنازل فتبعث الينا ببعض أخبارها ! »

فقال سان اينيان : « آه يا مولاي ! أيمن أن تسيء فهم قلبها المفعم بالحب والاخلاص لك ؟ »

ثم نهض الملك وقد احمر وجهه من الغيظ والكدر ، اذ صار فريسة للغيرة ولتائب الضمير معا . وفيما سان اينيان يشعر بصعوبة موقفه ، اذا بالاستار الذي على الباب يزاح ، فاستدار الملك وحسب أول وهلة ان رسولا قد جاء من قبل لوزير بخطاب له ، ولكنه بدل أن يلقي خطاب غرام رأى أمامه قائد الفرسان واقفاً بالباب معتدل القامة صامتاً بادي الجد فصاح به قائلاً : « المسيو دارتانيان ؟ حسنًا ! ما وراءك ؟ »

فنظر دارتانيان الى سان اينيان ، وأدرك هذا معنى هذه النظرة فانحنى للملك وخرج ، وهنا قال الملك لدارتانيان : « هل نفذ الأمر ؟ »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاي ! »

أدى المسيو سان اينيان المهمة التي كلفه بها الملك فيما يتعلق بلفالير ، على أنه لم يستطع أن يقنع الفتاة بأن الملك كفيل بحمايتها في جميع الظروف والاحوال ، وبأنها ليست بحاجة الى أحد في العالم ما دام الملك الى جانبها . والواقع ان رجل البلاط لم يكذب يذكر لها ان السر الرهيب بات معروفًا حتى انهمل الدمع من عينيها مدرارا وغلبها يأس شديد ما كان يسر الملك لو شهد دلائله . وقد شعر سان اينيان ، وهو السفير في هذه المهمة ، بالاستياء الشديد ، وعاد الى الملك يئس بما رأى وما سمع . فقال له الملك : « ولكن ألا أراها على الأقل قبل العشاء ؟ » وهل تأتي الى أم اضطرت أنا الى الذهاب الى غرفتها ؟ »

ولم يستطع الملك أن يقول كلمة أخرى ، غير أنه رأى أن عليه أن يبرهن على صواب الاجراء الذى اتخذه ، فسأل دارتانيان بعد قليل : « ماذا قال الكونت ؟ »

فقال دارتانيان : « لم يقل شيئا مطلقا يا مولاي ! »

— لا شك انه لم يدع نفسه يقبض عليه دون أن يقول شيئا ؟

— لقد قال انه كان ينتظر القبض عليه يا مولاي !

فرفع الملك رأسه بكبرياء وقال : « لعل الكونت دى لافير لم يواصل تمثيل دور الثائر العنيد ؟ »

وهنا قال دارتانيان « ماذا يعنى مولاي ؟ ان ذلك الثائر فى نظر جلالتك هو الرجل الذى لم يكتف بأن يدع نفسه يزوج فى السجن ، بل عارض كذلك كل محاولة فى سبيل ألا يدخله ! »

فصاح به الملك : « ماذا تعنى ؟ من الذى حاول ألا يدخله السجن ؟ هل جننت يا كابتن ؟ »

فقال دارتانيان هادئا : « لا أحسب ذلك يا مولاي ! »

وعاد الملك يقول له : « انك أشرت الى محاولة لعدم ادخال الكونت أتوس السجن ، فمن ذا الذى حاول ذلك ؟ »

فقال : « هو الذى عهدت اليه جلالتك فى القبض عليه ! »

فبدا العجب والغضب فى وجه الملك وقال له : « أنت يا كابتن ؟ أنت الذى حاولت مخالفة أوامرى فيما يختص بالرجل الذى أهاننى !؟ »

فقال : « أجل يا مولاي . كانت تلك نيتى . بل لقد عرضت على الكونت أن يركب جوادا أعددته له عند حدود (لاكونفرانس) لكى يركبه الى الهافر ومن ثم يفر الى انجلترا . لكنه رفض ! »

فصاح به الملك : « لقد خنتنى اذن ؟ »

وقال دارتانيان فى هدوء : « هذا صحيح يا مولاي ! »

فلم يجد الملك ما يقوله ازاء هذا الاعتراف الصريح ، وقد تولته الدهشة من عناد دارتانيان وخروجه الصريح على طاعته . ثم قال بعد لحظة بكبرياء : « على الأقل كان هناك سبب لمسللك هذا ؟ »

فقال دارتانيان : « ان عندى سببا لكل شيء يا مولاي ! »

فقال الملك : « ان السبب لا يمكن أن يكون صداقتك للكونت ، وهو السبب الوحيد الذى ربما اتخذ ذريعة لمسللك ، لاني كنت قد عرضت عليك اعفاءك من هذه المهمة ! »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاي ، ولكنك صرحت لى بانى اذا لم أقبض عليه فسيقبض عليه قائد الحرس ! »

فسكت الملك هنيهة ثم سأله : « ألم أراع عواطفك فلم أرغمك على أداء هذه المهمة ؟ »

فأجاب بقوله : « أجل يا مولاي ، لقد كنت شفيقا بى ولكنك لم تكن شفيقا على صديقى ، لأنه كان سيقبض عليه على أى حال ، اما بيدي واما بيد قائد الحرس ! »

فقال الملك : « أهذا مدى اخلاصك لى ؟ انك لست جنديا ! وماذا جئت لتقوله لى اذن ؟ »

فقال : « جئت لأقول لجلالتك : ان الكونت أتوس دى لافير هو الآن فى سجن الباستيل ! فما دام قد أصبح هناك فمن واجبى أن أخبر جلالتك بذلك ! »

فقال الملك غاضبا : « يا مسيو دارتانيان : انك تتحدى ملكك ! واني أنذرك بأنك تستنفذ صبرى ! »

فقال دارتانيان : « لقد جئت لكى تأمر بالقبض على أيضا يا مولاي . فلا شك فى أن صديقى ستضجره الإقامة وحده بالباستيل ، ولذا جئت أعرض على جلالتك أن تسمح لى بمؤانسته . واذا شئت جلالتك فاني أقبض على نفسى ، ولن أحتاج الى قائد الحرس لهذا الغرض ! »

وهنا تقدم الملك صوب المنضدة وأمسك بقلم ليكتب أمرا بسجن دارتانيان ، فقال هذا بلهجة وعيد : « راع يا مولاي أن يكون سجنى مؤبدا . لأنك متى أمرت بذلك فلن تقدر أن تنظر الى وجهى مرة أخرى ! »

فرمى الملك القلم بعنف وصاح به قائلا : « أخرج من هنا ! »

فقال : « لقد جئت لأكلم جلالتك برفق واعتدال ، ولكنك تملكك الغضب ، وهذا من سوء حظى »

فصاح به الملك : « قدم استقالتك ! »

فقال : « أنت تعلم يا مولاي انى قدمت استقالتي يوم رفضت اعطاء الملك تشارلس المليون الذى أعطاه اياه الكونت دى لافير . أما الآن فلا محل لاستقالتي ، وقد أمسكت جلالتك القلم منذ هنيهة لتكتب أمر ادخالى الباستيل فلماذا غيرت رأيك ؟ »

فقال الملك : « اعلم يا دارتانيان أنك مهما تكن جاسكونيا عنيدا ، فاني أنا الملك لا أنت ! »

فقال دارتانيان : « نعم يا مولاي ، من سوء الحظ أنك أنت الملك لا أنا والا لكنت أقول لقائد الفرسان ، وأنا أنظر اليه فى هدوء : (لقد نسيت يا كابتن انى الملك ، لاني هبطت من عرشى لأهين سيدا !) »

فقال له الملك : « أتظن أنك تلتمس عذرا لصديقك بالتفوق عليه فى الوفاة ؟ »

فقال دارتانيان : « مولاي . انى قد أذهب الى أبعد مما ذهب اليه

الافراج عن سجين

بر دارتانيان بما وعد به المسيو بيزمو ، فعاد اليه وقت تناول الحلوى . وكان آتوس و أراميس قد تكلموا كثيرا عن الباستيل ، وعن الرحلة الاخيرة الى فونتينبلو ، وعن المهرجان الذي اعترم المسيو فوكيه أن يقيمه في (فو) . وتكلموا في موضوعات كثيرة أخرى ، ولكن دون أن يشير أحدهما الى مسألة شخصية . ووصل دارتانيان وهما وسط الحديث ، وكان لا يزال شاحب الوجه كثير الاضطراب لتأثره بما دار بينه وبين الملك ، فأسرع بيزمو وقدم له كرسيًا ، وطلب دارتانيان كأسًا من النبيذ فشربه حتى الثمالة ، ولحظ آتوس و أراميس اضطرابه ، أما بيزمو فلم يلحظ شيئًا ومضى في الترحيب بقائد الفرسان ، على أن آتوس أدرك أن عودة دارتانيان والاضطراب البادى عليه ، وهو الهادىء الأعصاب دائما ، إنما يعنيان شيئًا واحدا هو أنه طلب الى الملك شيئًا فرفض طلبه . وعلى هذا ابتسم آتوس وقام من مكانه مشيرا الى دارتانيان ، ففهم هذا مراده توا ، وأجابه بإشارة أخرى ، بينما راقب أراميس وبيزمو هذا الحوار الصامت ، ونظر كل منهما الى الآخر نظرة تساؤل . ثم قال آتوس :

— الحقيقة أيها الأصدقاء أن المسيو أراميس قد تناول العشاء مع سجين دولة ، وأن المسيو دى بيزمو قد أكل سجينه !

فصاح بيزمو صيحة دهشة تكاد تنم عن سروره بزيادة عدد سجنائه ، وبأن الاهتمام على أراميس وقال : « أذن ساحنى يا عزيزى آتوس ، ولكنى أحسب الأمر متعلقا براءول ولا فالير ؟ »

فقال بيزمو : « وا أسفاه ! » . ثم استطرد أراميس قائلا : « أنت التيبيل الرفيع القوى قد نسيت ولا ريب أن هناك رجال بلاط الآن ، فذهبت على ما اعتقد الى الملك وصارحته برأيك في مسلكه ؟ »

فقال آتوس : « لقد أصبت التقدير »

وقال بيزمو وهو يرتعش من فكرة مجاملة رجل كسب غضب الملك : « وعلى ذلك فإن جناب الكونت . . . »

فقال له آتوس مقاطعا : « أجل يا عزيزى المحافظ ، ان صديقى دارتانيان سيخبرك بمضمون الورقة التى أراها تطل من حزامه ، وهى على ما اعتقد ليست سوى الامر باعتقالى »

فمد بيزمو يده فى لهفة لتسلم الورقة ، بينما جذب دارتانيان من حزامه

بمراحل ، وسيكون ذلك خطاك أنت . وكنت أقول لك ما لم يقله لك هو لرقته ووداعته . انك ضحيت ابنه ، فلما دافع عنه ضحيته كذلك . لقد خاطبك باسم الشرف والدين والفضيلة ، فثرت وطرده وسجنته . ولهذا صار عليك أن تختار : أتريد أصدقاء أم خدما ؟ جنودا أم عبيدا ؟ رجالا عظماء يخدمونك أم أناسا ينحنون ويركعون لك ؟ وإذا كنت تؤثرالضعة والدسياسة والجبن ، فقل ذلك توا يا مولاي فنتركك نحن البقية الباقية من رجال الايام الخالية ، نحن الذين أديننا واجبنا ، وربما فقنا بشجاعتنا وكفائتنا العظماء الذين خلدت عظمتهم على مدى القرون . اختر يا مولاي ، ولا تبطئ في الاختيار . ان من بقوا لديك من النبلاء والعظماء يجب أن تعض عليهم بالنواجذ ، ولن يعوزك العدد الذى تريده من رجال البلاط . . . هيا يا مولاي مر برسالى الى الباستيل مع صديقى ، لأنك لم تعرف كيف تصفى الى الكونت دى لا فير وهو يتحدث عن الشرف ، ولا تعرف كيف تستمع الى دارتانيان وهو يتحدث عن الاخلاص ، واذن . . . فلست الا ملكا رديئا ، وغدا ستكون ملكا طريدا بانسا ! »

فارتقى الملك فى مقعده بارد الجسم بلا حس ولا حراك وكأنه جثمان ميت ! ان صوت دارتانيان نفذ الى قلبه كحد السيف . ولقد قال دارتانيان كل ما عنده ، ولما أدرك غضب الملك اقترب منه باحترام ووضع سيفه على المنضدة أمامه . ولكن الملك أزاح السيف جانبا بحق فوقع على الارض وانحدر تحت قدمي دارتانيان . ورغم رباطة جأش دارتانيان وتمالكة أعصابه ، شحب وجهه هو أيضا وارتعش من الغضب وقال :

— ان الملك قد ينكب جنديا ، وقد ينفيه من بلاده ، بل قد يحكم عليه بالموت ، ولكن اذا كان ملكا مائة مرة فليس له أن يهينه باهانة سيفه ! مولاي : ان ملك فرنسا لم يرح قط بازدرء سيفاكسيقي ! أما وقد أصبح هذا السيف مكلا بالعار فانه لن يكون له غمد بعد الآن سوى قلبك أو قلبى ، وأنا أختار قلبى يا مولاي ، ولك أن تحمد الله وتحمد حلمى اذ أختار قلبى دون قلبك ! »

ثم اختطف سيفه قائلا : « ليكن دمي على يديك » . وبحركة سريعة وضع مقبض السيف على الارض ووجه طرفه نحو صدره ، غير أن الملك بحركة أسرع من حركة دارتانيان ، أحاط عنق الفارس بذراعه اليمنى ، وأمسك بيده اليسرى بالسيف من وسطه ، وأعادته فى صمت الى غمده

وبقى دارتانيان واقفا يرتعش . وتغلبت على لويس عواطفه الرقيقة ، فعاد الى المنضدة ، وتناول قلما ، وكتب بضعة أسطر وقع عليها ثم أعطاها الى دارتانيان وقال له : « هذا أمر الى المسيو دارتانيان بالافراج عن الكونت دى لا فير قورا ! »

فتناول دارتانيان يد الملك وطبع قبلة عليها . ثم طوى الورقة ووضعها فى حزامه وغادر الغرفة . ولم ينطق الملك ولا الكابتن ببنت شفة !

ورقتين سلم احدهما الى المحافظ ، ففضها واخذ يقرؤها بصوت خافت وهو ينظر الى آتوس من فوقها : « امر باعتقال جناب الكونت دى لافالير في قلعة الباستيل » . ثم قال : « حقا يا سيدى ان هذه لحظة محزنة ! »

فقال آتوس بصوته الهادى الرقيق : « ستجد منى يا سيدى سجيننا صبورا »

وقال أراميس : « وهو أيضا سجين لن يتم الشهر في سجنه يا محافظى العزيز ! »

وكان بيزمو لا يزال ممسكا بالأمر في يده ، فدونه في سجل السجن . وهنا قال دارتانيان :

– بل لن يمكث يوما واحدا ولا ليلة واحدة !

ثم ابرز الأمر الآخر الصادر من الملك وقال للمسيو بيزمو : « والآن يا عزيزى المسيو بيزمو ، ستدون في سجل السجن هذا الأمر الثانى الذى يقضى بالافراج فورا عن الكونت ! »

فقال أراميس : « آه ، لقد حرمتنى أداء هذه المهمة يا دارتانيان ! »

ثم مد يده فضغط بها يدي دارتانيان وآتوس في وقت واحد . بينما قال الأخير متعجبا : « ماذا تقول ؟ الملك أمر بالافراج عنى ؟ ! »

فناوله دارتانيان الورقة الاخرى وهو يقول له : « اقرأ يا صديقى العزيز »

فتناول آتوس الورقة وقراها ثم قال : « هذا صحيح »

فسأله دارتانيان : « أبحزنك هذا ؟ » فقال : « كلا ! . بل انا على العكس ارجو أن يعدل الملك عن ظلم أى انسان ، فالظلم مرتعه وخيم . ولكن لاريب أن مهمتك كانت شاقة . السن كذلك ؟ »

فضحك دارتانيان وقال : « كلا ! . ان الملك لا يحجم عن تحقيق اية رغبة لى ! »

فنظر أراميس الى دارتانيان نظرة فاحصة ، وأدرك أنه لا يقول الحق . ولكن بيزمو كان ينظر الى دارتانيان نظرة اعجاب بحظوته عند الملك ثم قال أراميس : « هل الملك سينفى آتوس ؟ » . فأجاب دارتانيان قائلا : « كلا ! . ان الملك لم يوضح ما يعتزمه ، ولكنى أحسب أن خير ما يفعله الكونت أن يقدم شكره للملك »

فقال آتوس وهو يبتسم : « ليس هذا وقته يا صديقى »

فاستطرد دارتانيان قائلا : « اذن يا عزيزى تعود الى قصرك الآن ، الا اذا كنت تؤثر مكانا آخر »

فقال آتوس : « لا شىء أحب الى يا صديقى من أن أعود الى عزلتى تحت شجرى الاصيل على شاطئ اللوار »

ثم التفت الى بيزمو وقال : « والآن يا سيدى أحسبنى طليقا ؟ »

فقال محافظ السجن وهو يقلب الورقتين في يده : « أحسب ذلك يا سيدى الكونت . على الأقل أمل ذلك . الا اذا كان لدى المسيو دارتانيان أمر ثالث سيبرزه ! »

ثم التفت الكونت الى دارتانيان وقال له : « هيا بنا نذهب يا صديقى بصحبتك وهى أكبر مسرة لى فى الحياة ! »

فقال له دارتانيان : « سأصحبك الى باب المدينة فقط ، وبعد ذلك أخبرك بما قلته للملك . أما الآن فانى فى الخدمة رسميا »

ثم قال آتوس لأراميس : « الا تصحبنا ؟ ان مزرعة لافير فى طريق مدينة فان »

فقال أراميس : « شكرا لك يا صديقى العزيز ، ان عندى الليلة موعدا فى باريس لانجاز بعض المصالح ذات الأهمية »

فقال آتوس : « فى هذه الحالة ارانى مضطرا لأن أودعك الآن »

ثم التفت الى بيزمو وقال له : « انى مدين لك بالشكر الجزيل على لطفك معى ، وعلى نموذج الطعام المعتاد فى الباستيل ! »

ثم قبل أراميس وصافح بيزمو وتلقى منهما أحسن أمانيهما لرحلة سعيدة ، وخرج مع دارتانيان



كان جريمو قد أدرك حين شهد سيده يركب العربة مع دارتانيان أن وراء مظهرهما الهادى شيئا خطيرا . فلما انطلقت بهما العربة وسمع سيده يقول له : « وداعا » ، عاد الى ذاكرته ما مر من الظروف والملابسات ، واشتد به الحزن والقلق . وسرعان ما انتقل ذهنه الى التفكير فيما لحظه من الاهتمام الذى بدأ فى وجه سيده وهو يقرأ خطاب دارتانيان اليه ، ثم فكر أيضا فيما تلا ذلك من زيارة راعول لآبيه ، وكيف دعاه هذا على أثرها وأمره أن يعد لأجله بذلة التشريفة وأوسمته كلها ، ثم كيف عاد من مقابلته للملك مهموما ، وبعد أن تحدث مع راعول خرج هذا من عنده يادى الأسف ، وأخيرا وصل دارتانيان وهو يعرض على طرف شاربه كعادته كلما غضب ، ثم صحب سيده فى عربته

ونفض جريمو بعد ذلك فبحث فى جيوب سيده عن خطاب دارتانيان ، فوجده وقرأ فيه ما يلى :

« صديقى العزيز . . لقد زارنى راعول وسألنى تفصيل بعض الأمور الخاصة بمسلك الآنسة دى لافالير أثناء اقامته بلندن . وأنا لست الا قائدا للفرسان ، وقد كدت أموت اشمئزا من سماع الكلام عن الفضائح كل يوم فى الثكنات ، ولو أننى أخبرت راعول بكل ما أحسبنى أعرفه فان المسكين

كان يموت كمدا . ولكنى فى خدمة الملك ولا أستطيع أن أحكى كل ما أسمع
عن شؤون الملك . فإذا حدثك قلبك بالمجئ فافعل دون إبطاء ، فان الأمر
يتعلق بك أكثر منى ، ويهكم بقدر ما بهم راعول »

وشد جريمو شعر رأسه من الفيظ ، ثم قال يحدث نفسه : « أجل هذا
مفتاح اللغز . أن الفتاة كانت تلعب بالأعيها . ولا شك الآن فى صحة
ما يقوله الناس عنها وعن الملك ، ثم لا شك أيضا فى أن الكونت قد ذهب الى
الملك وأبدي له جانبا من رأيه . وعلى هذا أرسل الملك المسيو دارتانيان الى
سيدي الكونت . وقد تذكرت الآن فقط أنه عاد من عند الملك وسيغه
ليس معه ! »

وتصيب العرق البارد من وجهه ، ولم يشأ أن يضيع دقيقة واحدة
فوضع قبعته على رأسه وانطلق يعدو الى مسكنه بيت راعول . وكان هذا
بعد أن تركته لويز قد تغلب على حزنه وأن لم يتغلب على حبه . ونظر الى
الطريق الخطر الذى يدفعه اليه التهور والتمرد ، كما أدرك أن والده معرض
لغضب الملك ، ثم تذكر زيارة دارتانيان لأبيه . وأدرك أنها لا بد زيارة
رسمية موعز بها من الملك ، وشعر بمرارة الندم على أنه فى غمرة ثورته
الغرامية نسى أباه فى وقت ينبغى له فيه أن يدفع عنه الخطر الداهم . ولم
يلبث حتى شد سيفه الى نطاقه وجرى قاصدا الى بيت أبيه . وفيما هو فى
الطريق قابل جريمو قادما من الجهة الأخرى للطريق فقال له :

— جريمو . . هل الكونت بخير ؟ أين هو الآن ؟

فقال جريمو : « لقد خرج مع المسيو دارتانيان فى عربته بعد عشر دقائق
من خروجك ، ولا أدري أين ذهب ؟ »

فسأله : « هل أخذ أبى نقودا معه ؟ وهل كان معه سيفه ؟ »

فلما أجاب جريمو بالنفى ، عض راعول على شفثيه وقال : « اذن لقد
جاء دارتانيان لكى يقبض على الكونت ، وأظن أن العربية ذهبت بهما الى
الباستيل ! . هيا يا جريمو ، يجب الا نضيع لحظة واحدة ، ولكن الى أين
نذهب ؟ . ان المسيو دارتانيان لن يخبرنا بشيء ، ولكن المسيو دى فالون
لا يزال ينتظرنى فى مينيم بغابة فنسين ! »

فقال جريمو : « اذن . . فالطريق واحد الى الباستيل والغابة ،
وسامضى الآن لأعد جوادين ونذهب توا »

□

كان بورتوس المخلص الأمين على قواعد الفروسية القديمة ، قد اعتمز
البقاء حتى الغروب انتظارا للمسيو سان اينيان . فلما لم يأت هذا ، ولم
يتصل به راعول مل الانتظار ، وطلب طعاما ونبيدا ليتسلى بهما . وما كاد
ينتهى من تناول طعامه وشرابه حتى وصل راعول وجريمو على جواديهما ،

فحسب لأول وهلة أنهما سان اينيان وظهيره ، وقام من مجلسه فوق العشب
وأخذ يحرك ساقيه وذراعيه ويقول لنفسه : « حسنا فعلت اذ بقيت هنا
ولم أذهب ! »

غير أنه فوجيء بأن راعول هو القادم لا سان اينيان ، وكانت دهشته
أشد حين قال له راعول : « « ساحنى أبها الصديق العزيز . وأرجو الا تبقى
غاضبا على ، فما أنساني موعدك الا أننى فى انعس حال ! . آه لو علمت
يا صديقى . . انى أؤكد لك انى أشعر الآن بأن رأسى ليس فى جسمى ! »
فهتف بورتوس سائلا : « انك قتلته اذن ؟ . . قتلت سان اينيان ! .
أليس كذلك ؟ »

فقال له راعول بعد أن تنهد : « كلا يا صديقى ! . المسألة أن الكونت دى
لافير قبض عليه الآن ! »

فصاح بورتوس فى دهشة : « قبض على الكونت ؟ . ومن الذى قبض
عليه ؟ ! »

فغمغم راعول قائلا : « دارتانيان » . وهنا اشتد ذهول بورتوس ، وأخذ
يدير عينيه فى راعول وجريمو مرددا قوله : « كلا ! . هذا محال ! »

وقال راعول : « هذه هى الحقيقة ! » . وأوما جريمو برأسه موافقا فى
حزن ملحوظ ، ثم عاد بورتوس يسأل متعجبا : « الى أين أخذه ؟ »

فقال راعول : « الى الباستيل على الأرجح ، وقد سألنا فى طريقنا بعض
الناس فعلمنا منهم أن العربية التى تغلها دخلت الباستيل »

فتمتم بورتوس قائلا : « هذا خطير . . اننى لن أدع الكونت يبقى ليلة
واحدة فى الباستيل ! »

وهنا اقترب منه راعول وقال هامسا : « انك لم تعلم بعد أن القبض عليه
كان بأمر الملك ! »

فنظر اليه بورتوس معابا كأنه يقول له : « وماذا يعنينى من ذلك ؟ ! »
وأدرك راعول معنى نظراته فلم يسأله سؤالا آخر بل سارع الى امتطاء
جواده ، فركب بورتوس جواده كذلك بمساعدة جريمو . ومضى الثلاثة
حتى جاوزوا الغابة صامتين . ثم تنهد راعول من أعماق صدره وقال :

— ان موقفنا يدعو الى اليأس ، وليس فى استطاعتنا وحدنا أن نقتحم
الباستيل !

فقال بورتوس : « كان الموقف يتغير لو أن دارتانيان معنا ! »

فنظر اليه راعول معجبا بهذه الثقة النامة التى تمثل البطولة فى بساطتها ،
ثم قال بورتوس : « لقد نهنتى الى فكرة . . يجب حقا أن نرى المسيو
دارتانيان ! »

فاوما موافقا وقال : « لا بد أنه عاد الى بيته بعد أن صحب أبى الى
الباستيل . هيا بنا نذهب الى بيته »

وتكلم جريمو لأول مرة فقال : « نسال أولا في الباستيل » . فوافقا على اقتراحه فوراً ، وحتوا جيادهم قاصدين الى الباستيل ، فلما اقتربوا منه لمح جريمو عربية دارتانيان داخلية الى السجن بعد عودته من مقابلة الملك . وبعثا حاول الثلاثة أن يلحقوا بها ليروا من فيها ، اذ وصلت الجياد الى الجانب الآخر من الباب الكبير بعد أن أغلق من جديد ، وتصدى أحد الديدبانات لجواد راعول وضربه بمؤخرة بندقيته ليحول دون تقدمه ، ففهم راعول من هذا أن العربية لا يد تقل صيدا سمينا ، وكذلك فهم جريمو فلم يسعه الا أن هتف قائلا : « انه هو . . ثم التفت راعول الى بورتوس وقال له :

— الا ننتظر قليلا ؟ . . الا ترى أنه سيخرج ثانية ؟

فقال بورتوس : « الا اذا أصبح دارتانيان أيضا سجيناً ، وفي هذه الحالة نفقد كل شيء ! »

فلم يجب راعول لأن كل فرض كان ممكناً ، وأمر جريمو بأن يقود الجياد الثلاثة الى شارع جان بوزير الصغير حتى لا تثير الشبهات ، ووقف هو يرقب خروج دارتانيان أو العربية . ولم تمض عشرون دقيقة حتى فتح الباب من جديد وظهرت العربية ثانية غير أنه لم يستطع معرفة الأشخاص الذين بها

وقال جريمو : « ان العربية بها شخصان أحدهما سيدى الكونت »

وظل بورتوس يردد بصره بين راعول وجريمو لعله يعرف ما يعتزمان . ثم قال جريمو : « ما دام الكونت في العربية فاما أن يكون قد أطلق سراحه ، وأما أنهم يأخذونه الى سجن آخر » . فقال بورتوس : « سنرى أى طريق تسلكه العربية »

فقال جريمو : « اذا كان مطلق السراح فستذهب به العربية الى منزله » وأوماً بورتوس موافقاً ، بينما صاح راعول قائلاً : « ان العربية لا تسير في طريق المنزل »

والواقع أن العربية كانت قد بدأت تختفي في ضاحية (سان انتوان) . ولم تمض ثلاث دقائق حتى أدرك الفرسان الثلاثة العربية وتبعوها عن قرب حتى صارت أنفاس جيادهم تبلل مؤخرتها . وسمع دارتانيان وقع حوافر الجياد المطاردة للعربية ، وكان راعول قد طلب الى بورتوس أن يسبق العربية ليرى من في داخلها وهو يمر عليها ، ولكن سنائر العربية كانت تغطي نافذتها فلم ير بورتوس أحداً ممن فيها ، فاشتد غضب راعول اذ لحظ ذلك ، وهمز جواده حتى سار في محاذة العربية وقد اعتزم معرفة من فيها بأى ثمن . وفي هذه اللحظة كان دارتانيان قد لمح بورتوس وراعول من خلال سنائر النافذة وأخبر الكونت بأمرهما . ثم اتفق كلاهما على أن ينتظرا ليريا ما يكون ، وسرعان ما شعر راعول مسدسه في وجه الحوذى آمراً اياه بالوقوف ، ثم

أمسكه بورتوس وانتزعه من مقعده ، بينما وضع جريمو يده على مقبض باب العربية وأداره بعنف ففتح الباب وظهر الكونت ودارتانيان وهتف الكونت بآبته قائلاً : « اهذا أنت يا راعول ؟ » . وكان دارتانيان يضحك ملء شديقه ، ثم عانقه كلاهما وقبلاه ، وصاح الكونت منادياً بورتوس قائلاً :

— بورتوس الشجاع ! أحسن الأصدقاء ! انك لا تتغير أبداً !

وقال دارتانيان : « انه لا يزال في العشرين من عمره . . . بورتوس الجسور ! »

فبان ارتباك الخجل على بورتوس من هذا المديح وقال : « لقد حسبناك مقبوضاً عليك »

وأضاف آتوس قائلاً : « بينما الأمر لا يعدو القيام بنزهة في عربة المسيو دارتانيان »

فقال راعول بلهجة الشك : « ولكننا تبعناك من الباستيل الى هنا »

فقال الكونت : « كنا نتناول العشاء مع صديقنا الطيب المسيو بيزمو . . الا تذكر بيزمو يا بورتوس ؟ »

فقال بورتوس : « أذكره جيداً ! » . وواصل الكونت كلامه فقال : « وهناك وجدنا أراميس أيضاً ! » . ثم نظر الى جريمو وكافأه على همته وإخلاصه بابتسامة عذبة سأله هذا على أثرها : « الى أين يذهب سيدى الكونت ؟ »

فقال : « كنا ذاهبين الى (بلوا) . على أن أكتب من هناك الى راعول ليعتد الى بمتاعى أو يجيئنى به عند عودتى اليها ! »

وهنا قال دارتانيان للكونت : « اذا لم يكن لديه عمل يشغله في باريس ، فانه يحسن صنعا اذا اتبعك يا آتوس »

ونظر الى راعول نظرة نافذة كالصلب ، مؤلمة كحد السيف (لأنها فتحت جراح الشاب المسكين)

فقال راعول : « لم يبق شيء يربطنى بباريس ! »

وهنا قال أبوه : « اذن نذهب معا »

وقال المسيو دارتانيان : « سنصحكما أنا وبورتوس حتى الحدود ، أما عزيزنا جريمو فيعود الى باريس في هدوء »

فقال راعول لأبيه محاولاً أن يغيره بالكلام : « متى تعود الى باريس ؟ »

فقال له أبوه : « اظن أنه سيمضى وقت طويل قبل أن نعود الى باريس . ان اقامتنا الأخيرة بها لا تشجعنا على العودة اليها ! »

فأطرق راعول وسكت . ثم هبط آتوس من العربية وركب الجواد الذى كان بورتوس يركبه ، وقد بدا على الجواد أنه سر لتفسير حمله . . . ثم

ولم يفتن الى ان جليسه الاسقف لا يزهد شيئا زهده للكلام بعد تناول الحلوى... وهكذا استمر الحديث بينهما من طرف واحد هو المسيو بيزمو . وكان محور حديثه ذلك الحادث القريد الذي وقع منذ برهة ، وهو اعتقال آتوس والافراج عنه فوراً ، ولم يفته ان الأمرين المتناقضين المتتاليين كانا بتوقيع الملك نفسه . غير أنه رأى أن الملك ما كان ليكتب مثل هذين الأمرين الا تحت ضغط ظروف خاصة

وكان هذا كله شائقا ومحيرا للمسيو بيزمو ، لكنه كان عكس ذلك واضحا كل الوضوح لأراميس ، فانه لم يعط لهذا الحادث كل الأهمية التي أضفاها عليه محافظ السجن الهمام ! . ومن هنا لم يلبث قليلا حتى قطع كلامه قائلا :

— خبرني يا عزيزي المسيو بيزمو . . ألم يقع لك من ضروب التسلية في الباستيل غير ما شهدته في المرتين أو المرات الثلاث التي زرتك فيها ؟
فقال بيزمو : « ان لدى أنواعا كثيرة حاضرة من التسلية ، يا صاحب الفخامة »

فسأله أراميس : « عن الزيارات التي تتم هنا طبعاً ؟ »
فقال : « لا . . ليست عن زيارات . . ان الزيارات ليست كثيرة هنا ! »
فقال له : « وهل الزيارات نادرة هنا حتى من جانب مجتمعتك ؟ »
فبدت الدهشة في وجه محافظ السجن وسأله : « ماذا تعنى ؟ . اتقصد السجناء ؟ »

فقال : « كلا ! . اني أعرف حق المعرفة أنك أنت الذي تزور السجناء وليسوا هم الذين يزورونك . ولكني أعنى بمجتمعتك ، المجتمع الذي أنت عضو فيه ! »

فنظر بيزمو الى أراميس نظرة فاحصة ، ودارت بخلده فكرة ولكنه وجدها مستحيلة فقال :

— أوه ، لا أرى الا قليلا من المجتمع في الوقت الحاضر . والواقع يا عزيزي دربلاي ان الإقامة بالباستيل تبعث الملل والكرب في نفس الشخص الميال الى المرح . ثم ان السيدات لا يصلن الى هنا الا في خوف وفزع وهذا يسبب لي متاعب جمّة ، وفي الحق كيف لا يرتعدن فرقا حين يرين هذه الجدران الكثيبة ويذكرن أن في داخلها رجالا . . .

وسكت اذ تلغثم لسانه تأثرا بنظرة أراميس الفاحصة فلم يتم جملة . ثم قال له أراميس :

— يا عزيزي بيزمو . انك لم تفهم ما أقصده . اني لم أرد أن أتحدث عن المجتمع بوجه عام ، بل أردت أن أتكلم عن مجتمع معين ، عن الجمعية التي أنت عضو فيها !

فكادت الكأس تسقط من يد بيزمو حين سمع هذه الكلمة الاخيرة وصاح قائلا : « جمعية ؟ عضو ؟ ! »

تعانقوا وتصافحوا وتعاهدوا على المودة الى الأبد . ووعد بورتوس بأن يمضي شهرا مع آتوس في أول فرصة تسنح . وتعهد دارتانيان بأن يسافر إليه في أول اجازة يحصل عليها ، ثم قبل راعول قائلا له : « وسأكتب اليك يا بنى » . ولما كان دارتانيان قليل الكتابة فان هذا الوعد اثر في نفس راعول حتى اغرورقت عيناه بالدموع

وبعد أن ذهب آتوس وراعول ، لحق دارتانيان ببورتوس في العربة وقال له : « لا شك أنك متعب »

فقال بورتوس : « الى حد ما . وسأوى الليلة الى فراشي مبكرا لكي أكون مستعدا غدا »

فسأله متعجبا : « لأي شيء تستعد ؟ »

فقال : « أستعد لكي أتم ما بدأت به ! »

فنظر اليه دارتانيان مليا وقال له : « انك تجعلني أرتعد ، اذ تبدو غاضبا هكذا ! . . ترى ماذا بدأت يا صديقي ولم ينته بعد ؟ »

فقال بورتوس : « ان راعول لم يقاتل ، ولكني أنا لا بد أن اقاتل ! »

فسأله دارتانيان : « تقاتل من يا صديقي ؟ . تقاتل الملك ؟ ! »

فدهش بورتوس وقال : « الملك ؟ ! » . فقال دارتانيان : « أجل الملك ! أرايت أيها الطفل الكبير ؟ ! »

فقال بورتوس : « لكني انما أعنى المسيو سان اينيان ؟ »

فقال : « نعم ، ولكنك اذا جردت سيفك لتبارز هذا الرجل فانما تقاتل الملك »

فبدت الدهشة في وجه بورتوس ونظر الى المسيو دارتانيان قائلا : « أوأنت أنت من ذلك ؟ . وماذا تفعل إذن ؟ »

فقال دارتانيان : « خير ما نفعل أن نتناول عشاء جيدا . ان مائدة قائد الفرسان لا بأس بها . وهناك ستجد سان اينيان الوسيم وتشرب نخبه ! »

ثم ابتسم حين اشتدت دهشة بورتوس ، وهتف به قائلا : « ماذا ؟ . . أترفض أن تشرب نخب الملك ؟ »

فقال بورتوس : « اني لا أتكلم عن الملك مطلقا ! »

فقال دارتانيان : « أكرر لك القول بأن الأمر سواء ! »

ولما رآه يومئذ برأسه موافقا قال له : « حسنا ! . . ها أنت ذا قد فهمت » فغمغم بورتوس قائلا : « لم أفهم شيئا . . الا أن الأمر سواء كما تقول ! »



بقي بيزمو بعد انصراف دارتانيان والكوئت دي لافير من الباستيل ، يتحدث الى أراميس ، وقد اطلق لسانه ما شرب من الخمر بعد العشاء .

فقال أراميس هادئا : « أجل . الست عضوا في جمعية سرية يا عزيزي بيزمو ؟ . ان هذه هي الحقيقة التي أعر فيها كما أعر فك . . ولا داعي لأن تنكر . ولعلك تحسن اذ تنجرع كأسك أولا لأنك - الى حد ما - تبدو خائفا . . اشرب كأسك يا عزيزي لكي نتفاهم ! »

وتجرع بيزمو كأسه ، بينما قال أراميس : « ليس يعني قط أن تكون أو لا تكون عضوا في جمعية سرية أو خفية ، ولكنك ان لم تكن عضوا في جمعية أعنيها بالذات فانك لن تفهم شيئا مما سأقوله . هذا كل ما في الأمر ! »

فقال بيزمو : « صدقني . . أنا لم أفهم شيئا مما تعنيه ، وما أحسب اني سأفهم ! »

فقال أراميس : « لا داعي لليأس ! . الست تعلم مثلا أن الانسان لا يمكنه ان يكون عضوا في جمعية ويستمتع بمزايا عضويتها الا اذا ارتبط ببعض خدمات صغيرة يؤديها لها ؟ »

فقال بيزمو متلعثما : « هذا واضح ! »

فقال أراميس : « حسنا ! . هناك في الجمعية التي أعنيها ، تعهد يرتبط به جميع المنضمين اليها من محافظي السجن ورؤساء حراسها »

وهنا امتقع وجه بيزمو ، بينما واصل أراميس كلامه فقال :

- ان ذلك التعهد يقضى على محافظ السجن أو رئيس حراسه بأن يسمح لأي قسيس تابع للجمعية بزيارة أى سجين ليتلقى اعترافه عند الحاجة سواء أطلب السجن هذا أم لم يطلبه

وسكت أراميس هنيهة متفرسا في وجه بيزمو الذي كان يرتعد فرقا . ثم عاد يسأله : « أليس هذا هو نص التعهد ؟ »

فغمغم بيزمو قائلا : « يا صاحب الفخامة ! ! » . وابتسم أراميس قائلا له : « حسنا . لقد بدأت تفهم على ما أظن ! »

ثم استجمع بيزمو شتات ذهنه وقال : « يا صاحب الفخامة ، لا تلعب بعقلي المسكين . اني أجد نفسي لا شيء في يدك ، فلا تحاول أن تستل مني الأسرار الصغيرة لإدارة السجن ! »

فقال له : « لاتخدع نفسك يا مسيو بيزمو ، اننى لا أعنى الأسرار الصغيرة لإدارة السجن ، ولكنى أعنى أسرار ضميرك ! »

فقال بيزمو : « أرجو ألا تكون قد نسيت أن المركز الذي أنا فيه ليس مركزا عاديا ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « يا عزيزي . . انه حقا لا يكون مركزا عاديا اذا كنت عضوا في تلك الجمعية ، أما اذا لم تكن عضوا فيها فان مركزك يكون طبيعيا ، اذ تكون حرا غير مقيد بتعهد ، ولست مسئولا الا أمام الملك وحده ! »

فتنهذ مسيو بيزمو وقال : « حسنا يا سيدى ! . انى أطيع الملك ، والا فمن غيره يدين له نبيل فرنسى بالطاعة ؟ »

فلم يتراجع أراميس قيدا ، أمله ولكنه قال بصوته الفضى الهادى : « انه لشيء سار أن يسمع نبيل أو أسقف مثلى رجلا في مركزك يعبر عن ولائه هذا التعبير يا عزيزي المسيو دى بيزمو ، ويسرنى ألا اعتقد أكثر مما تعتقده ! »

فسأله بيزمو : « انت في شك من صدق كلامى يا سيدى ؟ » فأجاب قائلا : « أنا لا أشك في أن رجلا مثلك لا يخلص الخدمة للسادة الذين اختارهم لنفسه ! »

فصاح بيزمو قائلا : « سادة ؟ . . لا شك انك لا تزال تمزح . اليس كذلك ؟ »

فقال أراميس جادا : « من الصعب أن يكون للانسان سادة عديدون لا سيد واحد . غير أن هذه الحيرة ناشئة منك يا عزيزي بيزمو ولست أنا السبب فيها ! وعلى كل حال أظن أنه يستحسن أن أذهب الآن ؟ »

فقال المحافظ وقد زاد ارتباكها : « أتفادر المائدة ؟ . لماذا بالله ؟ . ان مسلكك معى عجيب يا صاحب الفخامة . . هل آليت على نفسك أن تعذبني ؟ »

فقال أراميس وهو يتهيأ للهبوط : « لم يبق لي ما أفعله هنا ، وعندى واجبات عاجلة في جهات أخرى ! »

فتساءل بيزمو فى دهشة : « واجبات فى مثل هذه الساعة ؟ »

فقال أراميس : « أجل يا عزيزي بيزمو . . ولقد قالوا لي فى المكان الذى جئت اليك منه : ان محافظ السجن سيسمح بدخول قسيس من أتباع الجمعية ليتلقى اعتراف السجن بناء على طلبه . وعلى ذلك جئت . ولكنك لا تدري ما أعنيه ولذا سأعود اليهم لأصارحهم بأنهم على خطأ ويجب أن يبعثوا بي الى مكان آخر ! »

فتنظر بيزمو الى اراميس نظرة خوف وقال له : « انك يا صاحب السيادة . . . »

فقطع أراميس كلامه قائلا : « أنا قسيس تابع للجمعية التى حدثتك عنها . ولكن لا فائدة من الكلام فى هذا ، لأنك طبعا غير مقيد باجابة طلب الجمعية ما دمت غير عضو فيها كما فهمت الآن ! »

فقال له بيزمو : « يا صاحب السيادة . . أرجو أن تصغى الى . . انى لم أقل بالأصلة لي بالجمعية ، ولم أقل : انى أرفض أن ألبى طلبها ! . وكل ما هناك أنى أردت أن أستوثق . وأنا فى جميع الظروف والأحوال تحت أمر سادتى »

فقال أراميس : « حسنا ! انى أفضل أن تكون هكذا يا سيدى ، فما الذى تريد أن تستوثق منه ؟ »
فقال متلعثما : « لا شيء ! أعنى أننى لم أتلق أى نبأ ، ولم أتوقع قط . . . »
فقطع كلامه قائلا : « أليس شعار الجماعة : (كل ما أريده ستريده أنت كذلك) ؟ »
فقال بيزمو : « لكن يا صاحب السيادة ليس فى الباستيل الآن أى سجين مريض حتى يطلب الاعتراف ! »
فهز أراميس كتفيه ثم استندار فى مقعده وأشار الى الباب قائلا :
« يا مسيو بيزمو ، ان خادمك يريد أن يكلمك ! »
فقال الخادم : « سيدى . . انهم أحضروا تقرير الطبيب ! »
فنظر أراميس الى بيزمو مبتسما ، وقال هذا للخادم : « دع الرسول يدخل »
ودخل الرسول فحىي وقدم تقريرا لبيزمو فقراه هذا وقال : « ان السجن بالغرفة ١٢ مريض ! »
فنظر اليه أراميس وقال : « رأيت اذن أنه ليس كل من فى السجن فى صحة جيدة !؟ »
فأشار المحافظ الى الرسول لكى يخرج ، فلما خرج قال لأراميس وهو يرتعش : « ان نظام الجماعة يشترط أن يطلب السجن قسيسا يتلقى منه الاعتراف »
فأوماً أراميس موافقا ، ثم أشار مرة أخرى الى الباب قائلا : « هذا جاويش بالباب . ترى ماذا يريد هو الآخر ؟ »
والتفت بيزمو ، فلما رأى الجاويش بالباب صاح به قائلا : « ماذا تريد ؟ ألا يمكن أن تتركونى فى هدوء عشر دقائق !؟ »
فقال الجاويش : « ان السجن الذى بالغرفة رقم ١٢ قد طلب الى أحد السجنائين أن يرجو منك ارسال قسيس الى ليترف له ! »
فكاد بيزمو يسقط على الارض ، ولكن أراميس لم يرد أن يطمئن كما لم يرد من قبل أن يزعهج فالتزم الصمت الى أن سأل بيزمو : « بماذا أجيب ؟ » فقال له : « اننى لست محافظ السجن ! »
فنتهد بيزمو وقال للجاويش : « أبلغ السجن أن طلبه أجيب ! »
ولما ذهب الجاويش قال بيزمو لأراميس : « أه يا صاحب السيادة . . . ! أكان باستطاعتى أن أتوقع ذلك ؟ »
فأجابه أراميس فى ازدراء : « من الذى طلب اليك أن تتوقع أو تتنبأ ؟ ان الجماعة هى التى تتوقع وتنبأ . ألا يكفي هذا ؟ »
فسأله بيزمو : « بماذا تأمر ؟ » فأجاب قائلا : « أنا ؟ لا شيء مطلقا ! . . . أنتى لست الا قسيسا مسكينا يتلقى الاعترافات . أتأمرنى بأن أذهب الى المريض ؟ »

فقال له : « اوه يا صاحب السيادة . . انى لا أمرك بل أرجو منك أن تذهب إليه ! »
فنهض أراميس وهو يقول : « حسنا ! . هيا اذن قدنى اليه ! »



تغيرت معاملة بيزمو لأراميس منذ علم بأنه قسيس للجماعة يتلقى الاعترافات من السجناء ، وبعد أن كان ينظر اليه على أنه قسيس صديق حميم ، بدأ يشعر بضغفه حياله، وبأنه أحد السادة الذين عليه أن يطيعهم . وعلى هذا أشعل بنفسه مصباحا ثم نادى حارسا والتفت الى أراميس قائلا : « انى رهن أمرك يا مولاي . . فلم يزد أراميس على أن أوماً برأسه وأشار اليه بيده ليريه الطريق ، فسار بيزمو أمامه ومن ورائهما الحارس حتى دخلوا السجن وقد اختلط وقع أقدامهم فيه بصليل مفاتيح الحراس المعلقة بأحزمتهم . وكان السجن الذى وراءهما هو نفسه الذى استقبل أراميس حين جاء ، بالسؤال والفضول ، أما الآن فقد مشى مطأطئ الرأس جامد الملامح . ولما وصلوا الى غرفة السجن المريض بدا من بيزمو أنه راغب فى الدخول ، ولكن أراميس وقفه عند الباب قائلا : « ان القواعد لا تسمح لمحافظ السجن أن يستمع لاعترافات السجن ! »

فانحنى بيزمو وأفسح الطريق لأراميس ، فأخذ هذا المصباح ودخل ، ثم أشار الى المحافظ والسجان لكى يذهبا ، ووقف لحظة ليستوثق من ذهابهما ، حتى اذا اطمان الى ذلك من وقع أقدامهما ، وضع المصباح على منضدة بغرفة السجن ، وأخذ يجيل بصره فى أرجاء الغرفة فى هدوء . وكان بالغرفة شاب راقد على سرير مغطى بصوف خشن أخضر ، لا يمتاز عن السرر الاخرى بشيء سوى أنه حديث، وطبقا لآنظمة السجن كانت المصابيح التى بغرف السجناء تطفأ كلها حينما يأتى المساء ، ولكن مصباح غرفة هذا السجن كان باقيا مضيئا الى تلك الساعة مما يدل على امتيازه . وكانت تملو السرير ستائر نصف مفتوحة ، وعلى مقربة منه كرسي كبير مغطى بالجلد ، ومنضدة ليس عليها كتب ولا أقلام حبر ، ولكن عليها عدة أطباق مملوءة بالطعام مما يدل على أن السجن لم يتذوق شيئا من عشائه . ورأى أراميس ذلك الشاب ممددا على سريره وقد غطى نصف وجهه بذراعيه ، ولم يتحرك عند دخوله . فاقترب منه فى شيء من الفضول والاحترام ، وعندئذ رفع الشاب رأسه وقال له : « ماذا تريد ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لقد طلبت قسيسا تعترف له ، هل أنت مريض جدا ؟ »

فصعد الشاب بصره فى أراميس وقال له : « شكرا لك ! »

وبعد أن سكنت لحظة قال له : « لقد رأيتك من قبل .

فأوما أراميس برأسه موافقا ، وبدا على السجين أنه لم يطمئن كثيرا الى ما يبدو على أسقف « فان » من صرامة وجمود ، فقال : « ان صحتي قد تحسنت ! » فسأله أراميس : « وأذن ؟ »

فأجاب الشاب قائلا : « ما دامت صحتي قد تحسنت فأحسبني لست الآن في حاجة الى قسيس أعترف له ! »

فقال له أراميس بتؤدة : « حتى على الرغم من رقعة الورق التي دست في خبزك وفيها أن أحد رجال الكنيسة سيفضى إليك بحديث ذى شأن ؟ » فبدا الشاب يجاهد كي يحافظ على هدوئه ، ثم قال : « اذا كان الأمر كذلك فاني مصغ اليك »

وعاد فوضع رأسه على الوسادة ، وأمعن أراميس فيه النظر فراعاه جلال البساطة في ملامحه وهو شيء لا يكتسب ولكن يودعه الله في قلب من يشاء أو يمزجه بدمه . ثم قال له السجين : « اجلس ! »

فانحني أراميس وأطاعه ثم سأله : « أنت مرتاح هنا في الباستيل ؟ أعني : ألا تتألم لشيء أو تأسف على شيء كحريتك مثلا ؟ »

فقال الشاب : « كلا ! لست أشعر بألم أو أسف ، ولكن ماذا تقصد بالحرية يا سيدي ؟ »

فقال : « أعني الهواء والضوء والازهار والنجوم ومسرة الذهاب الى حيث توجهك أعضاء سن العشرين ! »

فابتسم الشاب وقال : « انظر . ان عندى فى هذه الزهرية اليابانية وردتين قطفنا مساء أمس من حديقة المحافظ . واليوم صباحا تفتحت أكمامهما وأنا أرقبهما بعيني . وها هي ذى الغرفة مفعمة بأريجها العطر ، انظر اليهما . انهما تعبدان جميلتين بين الورد ، وهو نفسه أجمل الازهار . فلماذا اذن تريدنى على أن أطلب أزهارا أخرى مع أن عندى أجمل الازهار طرا ١٩ »

فنظر أراميس اليه مندهشا ، بينما استطرد الشاب قائلا : « اذا كانت الازهار عنصرا من عناصر الحرية فانا اذن حر ! »

فقال أراميس : « والهواء ؟ أليس ضروريا للحياة ؟ »

فقال : « نعم يا سيدي . وفي استطاعتك من النافذة المفتوحة هنا أن ترى الهواء يتخلل الفضاء بين السماء والارض ، وها أنذا أشعر بنسماته فوق خدي . وأحيانا أقف على هذا الكرسي فأمسك بقضبان النافذة بيدي وأتخيل أنى أسبح فى الفضاء الفسيح الذى أمامى ! »

فقطب أراميس جبينه واستمر الشاب يقول : « أما الضوء فعندى ما هو خير منه ، أعني الشمس التي تزورنى كل يوم دون اذن من المحافظ أو السجن . انها تأتي الى عند النافذة وتعكس صورتها على هيئة مربع ذى

قضبان ، باعثة أشعتها على أغطية سريري حتى الارض ، ثم يزيد حجم هذا المربع المضيء بين الساعة العاشرة والظهر وبعدئذ يتلاشى فى ببطء من الساعة الاولى حتى الثالثة ، وأكون قد استمتعت بالشمس أربع ساعات . ألا يكفينى هذا ؟ ان هناك مخلوقات شقية تحفر فى الحاجر ، وأخرى تشتغل فى المناجم ولا ترى الشمس مطلقا ! »

فأطرق أراميس وقد شعر بقوة فلسفة الشاب الحزينة ، ثم قال هذا : « هذا عن الازهار والهواء والضوء والنجوم . . ولم يبق الا تحريك أعضائى . . وأنا أسير طول النهار فى حديقة المحافظ اذا كان الجو صحوا ، أو أمشى فى غرفتى اذا كان الجو ممطرا . ألا ترى اذن ياسيدي انى أنعم هنا بكل ما يتنصاه الانسان أو يحبه ؟ »

فقال له أراميس : « هذا من فضل الله يا سيدي ، ولكن لنعد الى النقطة التي بدأنا منها . اننى القسيس الذي طلبت أن تعترف له ! . فماذا لديك من حقائق تخبرنى بها بحسبانك نادما تائبا ؟ »

فقال السجين : « ان ضميرى لا يتهمنى باقتراح أية جريمة ! »

فقال أراميس : « حسنا ! لكننا كثيرا ما نكون مجرمين فى نظر العظماء لا لأننا ارتكبنا جرائم بل لأننا نعلم أن جرائمنا قد ارتكبت ! »

فأبدي السجين اهتماما بالغا وقال : « أجل انى أفهم ذلك ، وانك لعلى صواب يا سيدي ، فمن المحتمل أن أكون مجرما بهذا المعنى »

فقال أراميس فى هدوء : « ألا يذكر سيدي أنه رأى منذ خمس عشرة أو ثمانى عشرة سنة فى قرية (نوازى - له - سيك) فارسا كانت معه سيده مرتدية ثيابا حريرية سوداء وبشعرها أشرطة حمراء ؟ »

فقال : « أجل ! وقد أدهشنى يومئذ أن الفارس قسيس يدعى الأيب دربلای ، ثم زالت دهشتى اذ علمت أنه كان من فرسان لويس الثالث عشر »

فقال أراميس : « حسنا ! ان ذلك الفارس القس صار بعد ذلك أسقف فان ، وهو نفس القس المائل بين يديك الآن ليتلقى اعترافك ! »

فهز الشاب رأسه دلالة على أنه تذكر ذلك ، بينما واصل أراميس كلامه فقال : « أما وقد علمت ذلك يا صاحب الفخامة ، فاعلم أيضا أنه لو علم الملك بأن هذا القس جاء اليك الليلة مجازفا بكل شيء ، فانه لن يحجم عن الأمر باعدامه بعد أن يزج فى غرفة من السجن أظلم من غرفتك هذه ! »

وهنا استوى الشاب جالسا فى سريره ، وأخذ يتنظر اليه باهتمام ، وكأنما أحس الثقة به !

فقال أراميس : « سأقول لك فى ايجاز ما حدث فى فرنسا خلال السنين الثلاث والعشرين أو الأربع والعشرين الاخيرة التي انقضت منذ ميلادك . »

ثم أخذ يسرد على مسمعه أسماء ملوك فرنسا الاخيرين فألفاه يعرف أكثرها من العملة ، ثم حدثه عن لويس الثالث عشر فقال : « انه كان يتوق لأن

يكون له ولد يرث العرش من بعده . وقد مكث سنوات طويلة يائسا . ثم اذا بالملكة آن النمسوية تضع وريثا للعرش في يوم ٥ سبتمبر سنة ١٦٣٨ «
ومرة أخرى لحظ أراميس ارتعاش الشباب ، وخيل اليه أن وجهه قد امتقع ، فقال له : « ستسمع الآن شيئا لا يعلمه الا قليلون ، لانه سر يحسبونه قد قبر مع الذين كانوا يعرفونه . على أني في الواقع لست أدري ما الفائدة من ذلك ما دمت غير راغب في مغادرة الباستيل ؟ »
ولم يزد الشاب على أن كرر قوله : « استمر . . اني مصغ اليك »

فقال أراميس : « وفيما كان البلاط يعلن ابتهاجه بذلك الحادث السعيد ، والملك يرى الأمير الوليد للنبله والشعب ، ثم يجلس الى المائدة ليحتفل بذلك ، وضعت الملكة وليدا ذكرا آخر ! . وأبلغ النبا الى الملك وهو جالس في المأدبة ، لكنه في هذه المرة لم ترسم على ملامحه دلائل السرور ، بل بدا أقرب الى القلق والجزع . ولا عجب فنظام الملك يقضى بأن يرث العرش أكبر أبناء الملك كما تعلم ، والأطباء ورجال القانون لا يقطعون برأى في تحديد أى التوأمين أكبر ! »

وهنا ازداد امتقاع وجه السجين حتى صار أشد بيضا من غطاء سريره ، ثم قال أراميس : « والآن تدرك كيف أن الملك تولاه اليأس والحزن لحوفه من أن يتنازع ولده التوأمين على العرش ، وقد تشب من أجل ذلك نار حرب داخلية تقضى على الأسرة المالكة كلها ! »

فتنم الشاب قائلا : « استمر . . استمر اني أفهم ما تقول »
ثم قال أراميس : « وحدث بعد ذلك أن حكم على أحد التوأمين بأن يجتفى في الظلمات ، وهكذا اختفى الوليد الثاني ، دون أن يعلم أحد أين هو ما عدا والدته ! والسيدة التي كانت مرتدية ثيابا سوداء . . . »

فسارع الشاب الى اتمام عبارته قائلا : « وما عداك أيضا . أليس كذلك ؟ . لقد آتيت الآن لتقص على كل هذا ، ولتثير في نفسي الفضول والبغضاء والطموح ، وربما أيضا الرغبة في الانتقام ! . واذا كنت أنت الرجل الذي أرتقبه والذي تنطبق عليه المذكرة التي تلقيتها ، فيجب أن تكون معك الآن صورة الملك لويس الرابع عشر الذي يجلس الآن على عرش فرنسا ؟ »

وهنا مد أراميس يده الى جيبيه وأخرج صورة تمثل لويس الرابع عشر بوجهه الوسيم وملامحه النبيلة ، فنظر اليها السجين وهو يكاد يلتهمها بعينيه . ثم قال له أراميس : « والآن يا صاحب الفخامة . . اليك مرآة أيضا » . ثم ناوله مرآة صغيرة أحضرها معه ، فأخذ السجين يتأمل وجهه فيها ، ويقارن بينه وبين وجه الملك لويس الرابع عشر في الصورة وهو يتمم قائلا : « أنتشابه الى هذا الحد !؟ »

فابتسم أراميس وقال : « والآن ما رأيك يا صاحب السمو الملكي ؟ »
فحدج الشاب بنظرة قاسية قائلا : « لا تخاطبني هكذا يا سيدي ،



فرزوف

« وأخذ السجين يتأمل وجهه في المرآة ، ثم قال : أنتشابه الى هنا الحد !؟ »

لا تدعنى أفكر فى شىء عدا جدران السجن هذه التى تضمنى بينها ، دعنى أعد الى حب الأسر والظلمة أو الى الاستسلام لهما على الأقل ! »

فقال أراميس : « يا صاحب السمو .. انك اذ تلفظ كلمات اليأس هذه بعد أن أطلعتك على برهان ميلادك الرفيع ، واذ تريد أن تبقى خامل الجسم والروح ، فانتى لا يسعنى الا أن أتخلى كارها عما جئت لعرضه طائعا من المعاونة والتضحية ! »

فقال الشاب : « يجدر بك أن تفكر فى أن ما أخبرتنى به قد حطم قلبى الى الأبد ! لقد حدثتنى عن السلطة والعظمة بل الملك . أفصلح السجن مكانا لذلك ؟ انك تريدنى على أن أفكر فى العظمة على حين نجلس هنا مختبئين فى الظلام . انك تلوح لى بالمجد بينما نحن نهمس بحدِيثنا وراء الستائر المسدلة فوق هذا السرير الحثير ، وتلمح لى بالسُلطان المطلق بينما نحن نرتعد لسماح وقع خطى السجنان فى ممر السجن ! كلا يا سيدى ! إذا أردت أن أصدق ما تقول فدعنى أولا أخرج من الباستيل »

فانحنى أراميس مرة أخرى وقال : « يا صاحب السمو .. اصبر حتى ترى النتيجة وعندئذ تحكم لى أو على ! »

واستطرد الأمير فقال : « حسنا يا سيدى ! وإذا كنت بفضلك سأجيا فى التاريخ ، وسأخلد لسلاطنتى الفخر بأعمال البسالة وبتفجع الشعب ، وإذا كنت سأرتفع بيدك الكريمة من أعماق السجن والحزن الى قمة الشرف والمجد ، فانى لن أحجم عن منحك شطرا من سلطانى ومجدى ، ولن أوفيك مع ذلك حفاك ، لأننى لن أستطيع أن أقاسمك السعادة التى آكون قد تلقيتها من يدك ! »

فقال أراميس وقد تأثر من حماسة الأمير : « يا صاحب السمو .. ان نبل شعورك يملأ قلبى فرحا واعجابا . لن تكون أنت المدين لى بالشكر ولكن الأمة التى ستكفل لها السعادة »

فمد الأمير يده الى أراميس ، وسارع هذا الى تقبيلها راکعا وقال : « هذه أول ظاهرة ولاء للملكنا المقبل .. وحين أراك فى المرة القادمة سأحبيك كما ينبغى أن يحيى جلالة الملك العظيم ! »

ثم قرع باب الغرفة فجاء السجنان مع بيزمو ، وكان الأخير قد بدأ يقلق ويخاف ، فأخذ يتسمع عند الباب لكنه لم يسمع شيئا لحسن الحظ

ولما وصل أراميس الى الجناح الذى يسكنه المحافظ قال له : « اليك الآن هذا الايصال الخاص بمبلغ المائة وخمسين ألف ليفر ، لقد كلفتنى الجمعية أن أردك اليك »

الافراج عن السجنين

كان جان برسران خياط الملك، يشغل بيتا كبيرا فى شارع سان أونوريه، وكان رجلا ذا ذوق رفيع ، قد ورث خياطة الثياب للملك أبا عن جد ، منذ عهد شارل التاسع . ومع أن برسران الجد فى ذلك العهد كان بروتستانتى المذهب ، فان ملكة نافار ، أو مارجوت الحسنة كما كانوا يسمونها ، بسطت عليه حمايتها لانه وحده الخياط الذى أعجبت باتقانه حياكة ملابس الركوب الخاصة بها بحيث تخفى عيوب جسمها ! وكان برسران بعيد النظر فلم يلبث قليلا حتى غير مذهبه ، وعاد هو وأسرته الى الكاثوليكية ، فلم يبق ثمة حائل دون أن يصبح حائك الملك، وتوارث ابنه وأحفاده هذا المركز بعده

والى محل هذا الحائك العظيم ذهب دارتانيان بصديقه بورتوس ، وقال الاخير فى الطريق لصاحبه : « حذار أن يسيء هذا الحائك بوقاحتة الى ، والا فانى سأعاقبه أشد العقاب اذا لم ألق منه الاحترام الواجب ! »

ولما وقفت بهما العربة عند باب البيت عجب بورتوس من كثرة العملاء المنتظرين هناك ، وكانوا جميعا من الطبقة الرفيعة ، وقد جلسوا فى صمت وقور . وبعد قليل جاء خادم يعتذر لهم جميعا بأن المسيو برسران مشغول ولا يستطيع استقبال أحد . وأسر الى بعضهم بأن سيده يعد خمس بذلات للملك ، وانه مستغرق فى التفكير لاختيار ألوانها ، وأشكالها والزينة التى يضعها عليها . فافتنع بذلك أكثر الحاضرين وانصرفوا صامتين ، بينما أصر بعضهم على الانتظار لصلتهم الوثيقة بالمسيو برسران

وكان خدم الدار قد هموا بأن يحولوا دون دخول دارتانيان وبورتوس ، ولكن الاول صاح بهم قائلا : « بأمر الملك » . فكانت هذه الكلمة كافية للسماح له وصاحبه بالدخول حيث جلسا يرقبان مساعدا الحائك العظيم وقد انهكوا فى أعمالهم محاولين جهدهم أن يرضوا العملاء فى غيابه . وما لبث دارتانيان قليلا حتى نظر فى دهشة الى رجل فى نحو الاربعين من عمره كان جالسا على كرسى أمام حاجز يكاد يخفى وجهه ، وقد أسند ذقنه الى يده ، وراح يتأمل الحاضرين . ثم هتف دارتانيان بذلك الرجل قائلا : « هل أصبحت مساعد حائك يا مسيو مولير ؟ » (*)

فأجابه هذا قائلا : « صه ! لا تدع الناس يعرفونى ! فالحقيقة أنى مشغول بمراقبة الناس ومعرفة بعض النماذج منهم ! »

(*) مولير الشاعر الفرنسى المشهور

فأوما دارتانيان موافقا وقال : « حسنا يا مولير . على شرط أن تقول لي أين المسيو برسران ! »
فقال مولير : « انه في غرفته الخاصة ، ولكنه لا يمكن أن يقابل أحدا »
فقال له : « حسنا يا عزيزي المسيو مولير ، لكنني أرجو أن تذهب وتخبره بأنني هنا . والا فاني لن أطلعك على نموذج يستحق الدراسة »
ونظر مولير الى بورتوس كأنه يسأل دارتانيان : « أهذا هو النموذج الذي تعنيه ؟ »
وأوما دارتانيان موافقا وهو يبتسم . فأخذ مولير ينظر الى بورتوس متفحصا وما لبث حتى آمن بأنه جدير بالدراسة ، فنهض لتوه ومضى الى غرفة برسران دون أن ينبس ببنت شفة
وبعد عشر دقائق ظهر مولير مطلا من وراء الستارة المسدلة على باب غرفة برسران وأشار بيده داعيا دارتانيان وبورتوس فنهضا مسرعين ، ولم تمش دقيقة حتى كانا أمام الحائك العجوز في غرفته ، حيث جلس ممسكا بقطعة قماش من الحرير موشاة بالذهب ، ثم نحاها جانبا ونهض محييا دارتانيان قائلا : « لا شك أن قائد الفرسان يعذرني لأنني مشغول »
فقال دارتانيان : « أجل يا عزيزي ، فأنا أعلم أنك تخطط ثلاث بذلات لصاحب الجلالة »
فقال برسران مضحكا : « بل خمس بذلات يا سيدي ! »
وابتسم دارتانيان وقال : « ثلاث أو خمس أو أكثر . . على كل حال أنا واثق بأنها ستكون آية من آيات الابداع ! »
فتنهذ برسران وقال : « أجل انها متى انتهت خياطتها ستكون أجمل بذلات في العالم ، ولكن لا بد أن يتم صنعها أولا ، يرغم أن الوقت ضيق جدا لا يتسع لذلك ! »
فقال له دارتانيان : « لقد بقي يومان ، وهما أكثر من الوقت المطلوب »
فنظر الحائك اليه نظرة تساؤل اذ لم يكن قد اعتاد أن يعارضه أحد . ثم قال دارتانيان : « لقد جئتكم بعميل عظيم . وها أنذا أقدم لك صديقي الكبير جناب البارون دي فالون دي براسييه دي بيرفون ! »
فانحنى برسران انحناءة خفيفة لم يرتح لها بورتوس الذي كان ينظر اليه منذ البداية نظرة تساؤل . ثم قال دارتانيان : « انه صديق قديم حميم ، ولهذا أرجو أن . . . »
فقال برسران مقاطعا : « مرحبا بالسيد العظيم ، انه ليسرني حقا أن أكون في خدمته متى سمح الوقت بذلك ! »
وهنا ظهر أراميس فجأة بالباب وقال لبرسران : « لا شك في أن الوقت يسمح اذا زكيت لك هذا الطلب ! »
فصاح الثلاثة معا مندھشين ، بينما واصل أراميس كلامه قائلا :

– يجب أن تخطط للبارون بذلته لأن ذلك يرضى أيضا المسيو فوكيه !
ولما كان لاراميس على برسران نفوذ أقوى من نفوذ دارتانيان فانه سرعان ما انحنى موافقا ، والتفت الى بورتوس وقال له بجفاء : « اذهب لاأخذ مقاسك في الجانب الآخر من البيت ! »
فاحمر وجه بورتوس من الغضب ، ولحظ دارتانيان أن العاصفة توشك أن تهب . . . فقال لمولير بصوت خافت : « انك ترى أمامك رجلا يحسب أنه يهان اذا قيس لجه وعظمه كما خلقهما الله . فادرس هذه الشخصية أيها الشاعر واستفد من دراستك ! »
ولم يكن مولير بحاجة الى هذا الاغراء ، فقد استقر بصره على البارون بورتوس ثم قال له : « سيدي . . اذا أتيت معي فاني سأجعل المساعد يأخذ مقاسك دون أن يلمسك ! »
وكان أراميس يرقب هذا المنظر ، ويود لو يذهب دارتانيان مع بورتوس ومولير ، ولكنه لحظ أن دارتانيان بقي في الغرفة ، وما لبث هذا أن التفت اليه وسأله : « أحتاج أنت أيضا الى بذلة لك ؟ »
فابتسم أراميس وقال : « لا ! » . ولكن دارتانيان عاد يسأله : « ولماذا لا ؟ . . أأست ذاهبا الى فو أيضا ؟ »
فقال في هدوء : « سأذهب بلا حاجة الى ثوب جديد . . انك تنسى يا دارتانيان أن أسقف فان الفقير ليس عنده من الثروة ما يجعله يعد ثوب جديدا لكل مهرجان ! »
ولم يتحرك برسران من مكانه ، وظل مشغولا بقطعة القماش التي بيديه فاحتفظها منه أراميس قائلا :
– يا عزيزي برسران . . على مقربة من هنا المسيو لبرون أحد رسامي المسيو فوكيه !
فسأله الحائك : « أتريد أن أخطط له أيضا بذلة كبذلات الايقورين ؟ »
فقال أراميس : « ان لبرون لا علاقة له بذلك ولكن المسيو لبرون سيرسم صورة للملك في احدى بذلاته الجديدة هذه ولذا يجب أن يراها ويدرسها »
فبانث الدهشة على برسران وقال : « أتعني أن الملك حين يصل الى فو ، سيرى صورة له مرتديا بذلة من بذلاته الجديدة ؟ »
فأوما أراميس برأسه موافقا ، وقال دارتانيان : « هذه فكرة بديعة ولا شك ! »
وسارع برسران فقدم كرسيًا للرسام ، ثم ذهب فأحضر أربع بذلات فاخرة للملك تم صنعها ، أما البذلة الخامسة فكانت لا تزال في أيدي الصانع . وبادر لبرون فشرع يرسم تلك البذلات . ولكن أراميس لم يلبث أن قال له : « لا فائدة من الرسم هنا فان الضوء غير مناسب ، ولا يمكنك

أن تقلد ألوان البذلات على اللوحة تماما . ولهذا يحسن أن تأخذ نموذجا لكل بذلة ثم ترسم على مهل في ضوء مناسب »
فقال الرسام : « أجل هذا أفضل كثيرا ، واني في هذه الحالة أضمن النتيجة ! »



عاد أراميس الى سان مانديه وقد ضايقه أن لقي دارتانيان في محل برسران ، أما موليرالذي صحبه الى هناك فكان مسرورا لثورته على شخصية مثل شخصية بورتوس . وكان هناك أيضا الشعراء : لافونتين ، وبليسون ، ولوريه وقد أخذوا يعدون القصائد لمهرجان فو . وبين حين وآخر كان أحدهم يسأل الآخر عن كلمة مناسبة للقافية وكانهم في ضحكهم ومرحهم ونقاشهم خلية نحل !
وانهم وكذلك ، اذا بالمسيو فوكيه يدخل عليهم ثم يقول لأراميس متحسرا دون أن يسمع همسة أحد الشعراء الحاضرين : « انهم يضحكون ! حقا ما أسعدهم ! »

فسأله أراميس : « وأنت ألا تضحك يا صاحب الفخامة ؟ »
فأجاب قائلا : « ليس عندي ما يبعثني على الضحك يا مسيو دربلاي . ان المهرجان يقترب موعده ، والمال ينزلق كالزئبق . ولا علم لي بشيء بعد عن الملايين التي وعدتني بها ! »

فقال أراميس : « ستكون في يدك غداة مجيء الملك الى فو »
فنظر اليه فوكيه نظرة فاحصة ثم سكت وهو يمسح جبينه بيده ، فسأله أراميس : « أمرتاب أنت في هذا ؟ »

فقال له في لهجة أشد حزنا : « يا عزيزي دربلاي . . انني اذا سقطت فسأسقط من شهاق ، وبذلك أتخطم تماما ! »
وسكت هنيهة ، بينما الشعراء ماضون في ضجيجهم ، ثم سأله فوكيه : « من أين أتيت يا صديقي ؟ »

فقال : « من باريس . من عند برسران »
فسأله الوزير : « ماذا كنت تفعل هناك ؟ اني أراك كثير الاهتمام باعداد ملابس أصدقائنا الشعراء ! »

فقال له : « لقد ذهبت لكي أعد مفاجأة أخرى لتقدمها للملك ! »
فسأله فوكيه : « أنتكلف كثيرا هذه المفاجأة ؟ » فأجاب قائلا : « ليس أكثر من مائة بستول تعطيتها الى لبرون »
فهز فوكيه رأسه وقال : « انها صورة اذن ؟ حسنا . ماذا تمثل هذه الصورة ؟ »

فقال أراميس : « سأشرح لك كل شيء . وقد ذهبت في الوقت نفسه لأطمئن على ملابس الشعراء . والواقع أنها فخمة الى حد أن قليلا من الكبراء سيمكنهم ارتداء مثلها ! »
فقال فوكيه : « حقا . . انك لكريم يا قسنا العزيز ! . والى أين أنت ذاهب الآن ؟ »

فقال أراميس : « انما أقتدى بك يا سيدي الوزير ، وسأذهب الى باريس اذا أعطيتني خطابا الى المسيو ليون وزير الداخلية ، لاني أريد منه أن يوقع على أمر كتابي بسيط ! »

فسأله الوزير مبتسما : « لعلك تريد أن تزج أحدا في السجن ؟ »
فقال أراميس : « بل أريد الافراج عن شاب بائس لبث في السجن عشر سنين ، لا لذنب سوى أنه كتب بيتين من الشعر باللغة الايتينية ! »
فسأله : « ما اسم هذا المسكين ؟ ولماذا لم تخبرني بأمره من قبل ؟ »
فقال : « اسمه سلدون ، ولم أعلم بأمره الا أمس اذ جاءتني أمه باكية تتوسل ، وهي سيده فقيرة بائسة ! »

فهز الوزير رأسه أسفا ، ثم كتب الخطاب المطلوب الى المسيو ليون وزير الداخلية وأعطاه الى أراميس ، ثم أخرج من جيبه عشر ورفات نقد حكومية من فئة ألف فرنك وقال له :

— خذ هذا الخطاب الى المسيو دي ليون ، وهذه عشرة آلاف فرنك الى أم الشاب . انها ستصبح أغنى مني بمقدار هذا المبلغ !
فتناول أراميس الخطاب والمال ، ثم قبل يد الوزير شاكرا وخرج



دقت الساعة الكبيرة التي تعلقو برج الباستيل سبع دقائق ايدانا بالساعة السابعة مساء ، وهي الموعد الذي حدده المسيو بيزمو مدير السجن لتناول العشاء ، وقد حرص على مضاعفة أطايب الطعام والشراب على ماأثرته في تلك الليلة اكراما لضيفه المسيو أراميس أسقف فان ، الذي جاءه في زى أقرب الى زى الفرسان وسيفه معلق بجانبه

وصرف بيزمو خادمه فرنسوا ثم قال لأراميس : « أتدري أنك في هذه الليلة تذكرني باثنين أحدهما الكاردينال العظيم دي ريشيليو ، والاخر فارس قديم وسيم الوجه صار قسيسا ثم أسقفا ثم »

فقاطعه أراميس قائلا : « أرجو أن تقف عند هذا الحد يا عزيزي بيزمو ! كل ما في الأمر اني لا أريد الليلة أن أشغل نفسي بشئون الكنيسة »
فقال بيزمو : « اذن أنت يا صاحب الفخامة تظمر نوايا لا تعد صالحة من وجهة نظر الدين ؟ »

فقال أراميس : « أجل ان لى الليلة نوايا دينوية لا يرضى الدين عنها »
فنظر اليه بيزمو متأملا زيه الجديد وقال : « هل عهزت طرقات المدينة
متنكرا هكذا ؟ وهل ما زلت تستعمل سيفك ؟ »

فاوما أراميس موافقا وقال : « على أنى لا أستعمل سيفى الا مضطرا ! »
فقال بيزمو : « لعلك تشعرا الآن باللعل بعد أن عاد المسيو دى لافير الى
مزرعته فى بلوا ؟ انه صديق قديم لك ، أليس كذلك ؟ »

فقال له أراميس : « انك تعرف ذلك كما أعرفه لأنك كنت فارسا معنا ! »
وهنا ابتسم بيزمو قائلا : « الواقع أننى لا أحسب عدد السنين التى
تمر ، كما أنتى لا أعد زجاجات النبيذ ! »
فهز أراميس رأسه موافقا وقال : « أنت على حق . غير أنى لا أحب المسيو
دى لافير فقط بل أجله أيضا ! »

فقال بيزمو : « أما أنا فان المسيو دارتانيان أحب الى ! »
وهنا قال أراميس فجأة : « يا عزيزى بيزمو . انى الليلة أشعر بهم
يكن فى أعماق نفسى ، ولهذا أريد أن تشرب كثيرا كما كنا نصنع فى الايام
الحالية ! »

فبدأ البشر فى وجه بيزمو وضاح قائلا : « مرحى مرحى ! » ثم صب
لنفسه خمرا فى كأس كبيرة وتجرعها مرة واحدة ، ثم ملامها مرة أخرى
وملا كأس أراميس !

وما وقت الساعة الثامنة حتى جاء الخادم فرانسوا بزجاجة النبيذ
الحامسة ، وفى الوقت نفسه جاء ساع يحمل رسالة ، وأحدث ضجة فى فناء
السجن ، ولكن بيزمو لم يسمع شيئا حتى صاح أراميس قائلا : « ليذهب
الى الجحيم ! » فسأله : « من تعنى يا صاحب الفخامة ؟ » فقال : « انه
ساع جاء راكبا جوادا . ألا تسمع ما أحدث من ضجة تكفى لازعاج مدينة
كاملة ! »

ورقع بيزمو كأسه قائلا : « اذن ليذهب الى الجحيم مسرعا حتى لا يزعجنا ! »
وابتسم أراميس وقال : « انك تنسانى يا بيزمو . ان كأسى خالية ! »
فبدأ السرور فى وجه بيزمو وقال له : « أقسم بشرفى انى مسرور منك
الليلة ! » ثم نادى فرانسوا خادمه وأمره باحضار زجاجة أخرى ، وما
لبث هذا قليلا حتى جاء بها وقال لسيدة : « بالباب رسول يستأذن فى
الدخول ؟ »

فقال له بيزمو : « ليترك الرسالة التى جاء بها فى المكتب وليذهب الى
الشیطان . وغدا بالنهار أرى ما فى تلك الرسالة »
ثم التفت الى أراميس وقال : « ان ذلك شىء مزعج حقا ، لكنهم لا يعلمون
طبعاً أنى الآن أتسامر مع صديق لا يلبث قليلا حتى يصير كاردينالا ! »

فقال له أراميس : « يجب أن ترى ما جاء به هذا الرسول ، فلعله يحمل
أمرا عاجلا ! »

فقال : « نعم ، أنت على حق . ان أوامر الملك مقدسة ولا شك ، لكنها
حين تأتى أثناء تناول العشاء فان الرسول الذى يأتى بها يجب أن يذهب
الى الشيطان ، وحسبى عذرا أنى لم أرد أن أزعج أسقفا عظيما سيصير
كردينالا عما قريب »

وهنا قال له أراميس جادا : « لا تنس يا بيزمو أنى الآن فى ثوب الجنديّة ،
وأنى تعودت الطاعة فى كل مكان . ولهذا أريد أن تؤدى واجبك كاملا
يا صديقى ، وبلا أى إبطاء ! »

فتنهّد بيزمو وقال : « حسنا ! فليأتونى اذن بذلك الأمر الملكى . . .
أندرى ماذا أتوقع أن يكون فى هذا الأمر ؟ أكبر الظن أنى سأقرأ فيه :
(احذر وضع النار قرب مخزن البارود) . أو : (راقب السجين . . . عن
كثب لأنه بارع فى الفرار) . آه لو علمت يا سيدي كم مرة أيقظونى من
أعمق النوم وأحلى الأحلام لان جيادا تعدو برسلى تحمل أمثال هذه الأوامر ،
بل كثيرا ما يكون الأمر ليس أكثر من سؤال عن الحال ! لا ريب أن الذين
يضيعون وقتهم فى كتابة أمثال هذه الأوامر لم ينأوا قط فى الباستيل ! »

وعاد فرانسوا فسلم بيزمو أمرا وزاريا ، وفتح هذا ببطء وقرأه .
وتظاهرا أراميس بأنه يحتسى كأسه لكى يراقب بيزمو من خلال زجاجها .
فلما انتهى هذا من قراءة الأمر قال : « ألم أقل لك ؟ انه أمر بالافراج عن
سجين فى الساعة الثامنة مساء ! . رأيت الأوامر التى يزعجوننا بها ! »

فقال له أراميس : « هذا عمل خيرى يا عزيزى بيزمو »
فرد قائلا : « نعم ، هو عمل خيرى بالنسبة للسجين ولكن ليس لى أنا
أثناء الترفيه عن نفسى ! »

فسأله أراميس : « هل تخسر كثيرا بالافراج عنه ؟ أعنى هل هو من
السجناء الذين يدفعون فئته غالية ؟ »

فأجاب قائلا : « كلا ! انه ليس الا شخصا بائسا لا يدفع سوى خمسة
فرنكات فى اليوم ! »

فقال أراميس : « دعنى أر الأمر . انه ليس سرا طبعاً ! »
فناوله الأمر قائلا : « كلا ! لكنه عاجل كما ترى مكتوبا فى أعلى
الورقة ! تصور يا سيدي . سجين يمكث فى السجن عشر سنوات ثم
يأتى أمر بالافراج عنه فورا هكذا ! »

فقال له أراميس معزيا : « انهم هم الذين يكتبون الأوامر ، وما عليك
الا التنفيذ ! »

فتساءل بيزمو مغضبا : « التنفيذ ! . أتحسبى عبدا رقيقا ؟ »
وسارع أراميس الى استرضائه قائلا : « من قال ذلك يا عزيزى بيزمو ؟ »

انك معروف بحرية الرأي ! ولكنك معروف أيضاً بطاعتك لرؤسائك .
ان الذى كان جندياً فترة من حياته يبقى جندياً حتى آخر العمر !
فهز رأسه موافقاً وقال : « على كل حال سأطيع هذا الأمر وأطلق سراح
السجين غداً عند الفجر ! »

فقال له أراميس : « ولماذا لا تطلق سراحه هذا المساء ما دام الخطاب
المختوم يحوى كلمة (عاجل) ؟ »
فنظر إليه بيزمو قائلاً : « أنت تريد ذلك أيضاً ؟ وفى الوقت الذى
نتناول عشاءنا فيه ؟ »

فقال له : « بل أنا أرجو منك أن تسارع الى اطلاق سراح ذلك المسكين ،
ان هذا يضمن لك الجنة ولا شك ! »

فدق بيزمو الجرس لفرانسوا ثم استدار نحو الباب . وكانت الورقة
التي بها أمر الافراج ما زالت فوق المائدة فانتهز أراميس هذه الفرصة
وأبدل بها ورقة أخرى تشبهها أخرجها من جيبه . ثم جاء فرانسوا فقال
له بيزمو : « قل لرئيس السجنين يجرى الى حالا » . فانحنى فرانسوا
وخرج . وعلى أثر ذلك ساد الصمت هنيهة لم يحول أراميس نظره خلالها
عن بيزمو ، وكان هذا يبحث عن ذريعة يرجى بها تنفيذ الأمر الى ما بعد
تناول الحلوى ، ثم ما لبث أن قال : « من المحال أن نفرج عن سجين فى مثل
هذه الساعة ! أين يذهب وهو لا يعرف باريس ؟ ان مثله اذا أطلق سراحه
ليلا لن يكون الا كمثل الأعمى ! »

فقال أراميس : « ان عربتى بالانتظار ويمكن الذهاب به الى حيث يشاء ! »
فقال له بيزمو : « ان لديك جواباً حاضراً عن كل سؤال ! » . ثم التفت
الى فرانسوا قائلاً : « اذهب الى رئيس الحراس وأبلغه أن المسيو سلدون
السجين بالغرفة رقم ٣ يجب أن يطلق سراحه الآن »

فصاح أراميس بلهجة طبيعية : « سلدون ؟ هل قلت سلدون يا عزيزى
بيزمو ؟ » . أظن أن الاسم المكتوب فى الأمر هو (مارشيبالى) وليس
(سلدون) ؟ »

فقال بيزمو نحي حزم : « كلا بل اسمه سلدون . وقد قرأته قبل أن تقرأه
أنت ، وهو مكتوب بحروف كبيرة »

فقال أراميس : « وأنا قرأت اسم مارشيبالى بحروف كبيرة أيضاً ! »
فقال بيزمو واثقاً من نفسه : « ما هى ذى الورقة ، ما عليك الا أن تعيد
النظر فيها لتعلم أينما أقوى ذاكرة »

فأمسك أراميس الورقة وبسطها قائلاً : « ها أنذا أقرأ فيها اسم مارشيبالى
.. انظر يا عزيزى بيزمو »
فنظر بيزمو فى الورقة ثم أدلى ذراعيه الى جنبيه . وقال مغلوباً على أمره :
« أجل مارشيبالى .. ان هذا هو الاسم المكتوب فعلاً . مارشيبالى ؟ مارشيبالى ؟ »

كيف ذلك ؟ انه الرجل الذى تكلمنا عنه كثيراً ! الرجل الذى يطلبون الى
كل يوم أن أعنى به ! »

فقال أراميس بعناد : « أجل . ان الاسم المكتوب فى الأمر هو مارشيبالى ،
الا تصدق عينيك ! »

فقال : « حقا .. ان عيني تقولان ان المكتوب هو مارشيبالى . ولكنهما
قالتا لي منذ هنيهة ان الاسم المكتوب هو اسم سلدون الايرلندى . وكانت
تحتة نقطة حبر أيضاً ! »

فتأمل أراميس الاسم المكتوب فى الورقة وقال : « كلا ! لا توجد نقطة
حبر يا عزيزى بيزمو ! وعلى كل حال ها أنت ذا ترى أن الأمر خاص
بالافراج عن مارشيبالى سواء كانت به نقطة حبر أم لم تكن ! »

فقال بيزمو بطريقة آلية : « ان الأمر خاص بالافراج عن مارشيبالى »

ثم قال أراميس ضاحكاً : « واذا كان قلبك يحدثك بالافراج عن سلدون
أيضاً فاني أصارحك بأنى لا أعارض فى ذلك مطلقاً ! »

وبعد نصف ساعة سمع صوت باب زنزانة يفتح فاطفاً أراميس كل
الشموع التي بالغرفة ما عدا شمعة واحدة تركها تضىء خلف الباب . ثم
سمع وقع خطى تقترب فقال لبيزمو : « هيا قابل رجالك »

فأطاع المحافظ ثم عاد بعد قليل يتبعه سجين . وكان أراميس قد جلس
فى ركن غير مضيء ، فرأى السجين دون أن يراه هذا ، ولحظ حيرته وارتباكته
حين أبلغه محافظ السجن أمر الافراج عنه ، كما لحظ ارتعاش صوته وهو
يقسم هامساً - طبقاً لما تتطلبه اللوائح - ألا يفشى أى سر وقف عليه خلال
وجوده فى الباستيل . وأخيراً قال بيزمو للسجين :

- أنت منذ الآن مطلق السراح يا سيدى ، فأين تريد الذهاب ؟

فتلقت السجين حوالبه كمن يبحث عن أحد يعتمد عليه ، وعندئذ خرج
أراميس من ركنه المعتم وقال : « ها أنذا هنا لاؤدى لهذا السيد أية خدمة
يريدها ! » . ثم تأبط ذراعه وخرجا



قال أراميس للأمير فيليب : « يا سمو الأمير .. انك تعسرف تاريخ
الحكومة القائمة الآن فى فرنسا . ان الملك كان فى طفولته مغموراً كما كنت
أنت مغموراً ، ولكنه بدل أن تنتهى به طفولته الى السجن مثلك ، انتهت
به الى العرش وتبعاته . والذى يجلس على العرش يسلط عليه ضوء يفضح
أقل شائبة فيه . ان الملك قد قاسى الألم وأثر ذلك فى نفسه ، وهو الآن
يريد الانتقام ، ولا أقول انه سيسفك الدماء مثل لويس الحادى عشر أو
شارل الحادى عشر ، ولكنه سيستهلك موارد شعبه . وأنا أريح ضميرى

اذ اذن مزاياه وسيئاته ، فاذا حكمت عليه لا له كان ضميرى مستريحا ! »
وتوقف اراميس عن الكلام لكى يجمع شتات افكاره ، ولكى يترك لما قاله
وقتا يستقر فيه بذهن الأمير ، ثم عاد يقول : « ان كل ما عند الله خير .
وقد أرادت العناية الالهية أن أكون بين القليلين الذين وقفوا على سر مولد
الملك ومولدك ، فلا شك أن تلك العناية قد اختارتنى أداة لتنفيذ ارادتها ،
فقد وهبت الايمان والعزيمة والجرأة ، وأنا زعيم جماعة دينية سرية
لا تخالف لى أمرا ! »

وهنا تحرك الامير فى مقعده فقال له الأسقف : « انى أفهم لماذا رفعت
رأسك ، انك تعجب اذ تسمع انى على رأس قوم أقودهم ، ولكنك لا تعلم
ان هؤلاء القوم يبدرون البذور ولا يبألون أن يجنوا الثمار ، لأنهم انما يعملون
فى سبيل مثل أعلى يضحون من أجله كل شيء ، وهم متحدون متساندون
حتى لكانهم رجل واحد ، هذا شأن الرجل الذى يحدثك يا صاحب السمو
ولقد أخرجك من الهاوية لغاية عظيمة ! »

وهنا لمس الامير ذراع محدثه وقال له : « انك تحدثنى عن جماعة دينية
أنت زعيمها . وأنا أدرك من كلامك أنك اذا شئت أسقطت الرجل الذى
تكون قد رفعتة ، وأنه انما يكون أداة فى يدك »

فأجاب اراميس قائلا : « ان المكان الذى ترتفع اليه سيكون لك الى
النهاية ! . وستزيح الكرسي الذى صعدت عليه ليتدحرج بعيدا عنك فلا تراه
مرة أخرى ، بل لن تذكر أنه يستحق منك عرفان الجميل ! »

فغمغم الامير الشاب : « ماذا يا سيدى ؟ ! » . وواصل اراميس كلامه
فقال :

– الواقع انى أطمح الى ما هو أكثر من عرفان الجميل . وانى موقن أنك
حين تبلغ الذروة سترانى أجدر منى اليوم بأن أكون صديقك ، وعندئذ
يا صاحب السمو سننجز من جلائل الاعمال ما سوف تحدث عنه الأجيال
المتعاقبة !

وهنا سألته الامير : « خبرنى فى صراحة . ماذا أنا اليوم ؟ . وماذا تريد
أن تجعل منى غدا ؟ »

فقال اراميس : « انك ابن الملك لويس الثالث عشر وأخو لويس الرابع
عشر ، فانت الوارث الطبيعى الشرعى لعرش فرنسا . ان الأطباء هم وحدهم
الذين يستطيعون أن ينازعوا أخاك التوأم حقه فى العرش ، ولكن الأطباء
بالطبع يؤثرون الملك الجالس فوق العرش على الامير البعيد عن العرش وان
كان أحق به ! . . . وقد شاء الله أن يكون اضطهادهم لك بحيث يثبت حقدك فى
العرش . لقد كان لك هذا الحق بقدر ما لأخيك ، ففى عروقتك ما فى عروقه
من الدم الملكى . ولهذا لم يجرؤ أحد على أن يسفك دمك كما سفكوا دم
مريك ومريتك . فلأن يا صاحب السمو . . . أنظر ماذا وهبتك العناية
الالهية التى بدت كأنها ظالمة لك . لقد وهبتك مثل ملامح أخيك ومثل

قوامه ومثل صوته ، حتى ان سبب اضطهادك لا يلبث حتى يصبح سبب
رفعك الى العرش . فغدا أو بعد غد ستجلس على عرش لويس الرابع عشر
بعد أن يغادره مفتصبه منك الى غير رجعة ! »

فقال الأمير : « انى أفهم أن أخى لن يسفك دمه . أليس كذلك ؟ »

فقال اراميس : « انك وحدك ستكون القاضى الذى يقرر مصيره ! »

فسأله الأمير : « والسر الذى اتخذوه سببا للاساءة الى ؟ »

فأجاب قائلا : « ستتخذة سلاحا ضده ! . لقد أخفوك عن العالم بالمؤامرة
التي دبرها مازارين مع الملكة النمسوية . وأنت اذ تحبط هذه المؤامرة
يا صاحب السمو ستجد صالحك فى أخفائه عن العالم ايضا ، فيصبح سجيننا
مثلما كنت ، على حين تصبح أنت ملكا مثلما كان ! »

فقال الأمير : « ومن الذى سيتولى حراسته ؟ »

فقال اراميس : « يتولاها من تولى حراستك أنت من قبل ! . ولن تستطيع
الملكة الوالدة ولا مدام دى شيفريز أن تعرفا حقيقة شخصيتك اذا تصرف
سموك على النحو المطلوب ! »

فقال الامير : « هذا صحيح . ولكن هناك صعابا شديدة ما أظنها تخفى
عليك . . . ان أخى متزوج . ولا أستطيع ان أتخذ لنفسى زوجة أخى ! »

فقال اراميس : « سأجعل ملك أسبانيا يوافق على طلاقها لصالح
سياستك الجديدة ! . . . والآن ما رأيك يا صاحب السمو ؟ »

فقال الامير : « قبل أن أتخذ قرارا دعنى أولا أهبط من هذه العربة
وأسير فوق الارض وأستشير نفسى . انى لا أطلب سوى عشر دقائق
وبعدها أدلى اليك بالجواب ! »

فأثنى اراميس امامه قائلا : « كما تشاء يا صاحب السمو ! »

وهبط اراميس من العربة ، وأمسك بانها مفتوحا حتى هبط الامير ، ثم
أخذ هذا يدور حول العربة فى خطى متعثرة لأنه لم يعتد السير منذ سنين .
وكان ذلك فى منتصف شهر أغسطس ، وقد أوشك الليل أن ينتصف ،
وتكاثفت السحب مندرة بقرب عاصفة ، فأخذ الامير يستنشق الهواء

المعطر برائحة الأعشاب والأشجار ، وينظر الى السماء وكأنه لا يصدق
أنه صار حرا طليقا . واستغرق فى تفكير عميق وهو يمشى الهوينى على مقربة
من العربة ، ثم عاد أخيرا الى اراميس وعليه سمت الجذ والعزيمة وقال له :
« هيا بنا نذهب الى حيث يوجد تاج فرنسا »

فقال له اراميس : « أهذا ما عولت عليه يا صاحب السمو ؟ » . فقال فى
حزم : « أجل ! »

وقال اراميس : « ان نظرتك يا مولاي تدل على خلق وعزيمة . انك
ستكون ملكا عظيما وانى لمؤمن بذلك ! »

فقال الامير : « لنعد الى ما كنا نتكلم فيه . لقد أردت أن أياحك فى شأن

الأخطار أو العقبات التي تواجهها وقد انتهينا من هذا ، ولم يبق الا الشروط التي تفرضها على . انه دورك في الكلام يا مسيو دربلاي !. أم أنت تحسبني من السذاجة بحيث اعتقد أن ليس لك صالح في هذا الأمر ؟ ! »

فقال أراميس : « سأقول لك يا سيدي كل ما أريده متى صرت ملكا » فسأله : « ومتى يكون ذلك ؟ » . فأجاب قائلا : « مساء غد ، أعني خلال الليل !. هل قرأت سموك المذكرات التي أرسلتها الليلة لتعرف الأشخاص الذين سيكونون في معيتك ؟ »

فقال الأمير : « نعم قرأت كل تلك المذكرات وحفظتها عن ظهر قلب ويمكنك أن تسألني فيما جاء فيها عن كل شخص ، بل أنا أعرف الآن كل هؤلاء الأشخاص من صورهم التي أرفقت بالمذكرات »

وسكت الأمير قليلا ثم سأل أراميس : « ماذا تريد مني أن أصنع بالمسيو فوكيه ؟ »

فقال : « أريد أن تبقيه وزيرا للمالية كما هو الآن ! »

فقال الأمير : « لكنه رئيس الوزراء في الوقت الحاضر ، أليس كذلك ؟ » فقال أراميس : « ليس كذلك تماما يا صاحب السمو ، وعلى كل حال أرى أنك لن تحتاج الى رئيس للوزراء قدر حاجتك الى صديق ! »

فنظر اليه الأمير وقال : « ليس لي سوى صديق واحد هو أنت يا مسيو دربلاي !. وأذن يجب أن تكون أنت رئيس وزرائي »

فقال : « ليكن ذلك فيما بعد إذا شئت ، أما الآن فإنه قد يثير الدهشة والريبة ! »

فقال الأمير : « ان المسيو دي ريشيليو الوزير الاول لجدتي دي مديتشي كان أسقفا بسيطا لمدينة لوسون ، كما أنك الآن أسقف فان »

فابتسم أراميس وقال : « أرى أنك يا صاحب السمو قد درست مذكراتي ووعيتها بصورة تدعو الى الإعجاب ! »

فقال الأمير : « وأنا أعلم أن ريشيليو لم يلبث أن أصبح كاردينالا بفضل حماية الملكة له »

فأثنى أراميس وقال : « اني أوتر الا أعين وزيرا اول الا بعد أن تحصل لي سموك على لقب كاردينال ! »

فقال له : « ستعين كاردينالا قبل أن ينقض شهران يا مسيو دربلاي ! »

وسكت الأمير قليلا ثم قال : « أنك أكثر من عظيم وأكثر من بارع وأكثر من عبقري . لكن لي أبا يا مسيو دربلاي ! »



يقع قصر فوكيه على بعد نحو فرسخ من بلدة ميلون ، وكان فوكيه قد شيده سنة ١٦٥٥ في وقت كانت تجتاح فرنسا فيه ضائقة مالية ، فقد أخذ

مازارين كل ما كان هناك من مال ، وأنفق فوكيه البقية الباقية . ولكن لما كان لبعض الناس أخطاء مثمرة ومساويء نافعة ، فإن فوكيه أذ بدد ملايين الفرنكات على انشاء هذا القصر قد جمع معا ثلاثة من العظماء هم : ليقان المهندس المعماري ، ولينورت مصمم الحدائق ، وليرون الرسام الذي زين جدران الغرف والسقوف . وهكذا جاء ذلك القصر آية فذة في فخامته

وقد أعد فوكيه هذا القصر أيما اعداد لاستقبال الملك الذي كان يعد أعظم ملوك ذلك العصر ، وقبل ذلك وصل الى هناك أصدقاء فوكيه وبينهم كثيرون من الممثلين والرسامين والمثاليين والشعراء وغيرهم من الفنانين

وفي اليوم الخامس عشر من أغسطس ، كانت الشمس قد أطلقت أشعتها على التماثيل البرونزية والرخامية البديعة في حدائق القصر ، ورفعت حرارة الماء في النوافير والجادول ، وانضجت على الشجر ثمار الخوخ الشهى . وقد عنى أراميس بتوزيع الضيوف الكثيرين على غرف القصر ، ولم يفته شيء من دقائق النظام ، على حين عنى فوكيه ببرنامج المهرجان في جملته ، فأطلعه جورفيل على معدات الألعاب النارية ، وقاده موليير الى المسرح الذي رتبته ، وأخيرا بعد أن زار الكنيسة و (الصالونات) والأروقة ، هم بالنزول الى الطابق الأسفل وهو منهك القوى ، فرأى أراميس هناك على الدرج ووقف معه يتأملان صورة كبيرة أوشك لبرون أن يتمها ، وقد وقف بجانبها منهمكا في ذلك والعرق يتصبب من جبينه ، وعليه آثار الجهد ، وكانت الصورة تمثل الملك مرتديا بذلة التشريفة التي تفضل برسران باطلاع أسقف فان عليها سلفا

ووقف فوكيه أمام هذه الصورة . هي تكاد تنطق بالحياة فنظر اليها مليا ، ثم لم يجد ما يجزي به الفنان القدير غير أن يقبله ، وكانت لحظة سعيدة للبرون ، ولكنها لم تكن كذلك للمسيو برسران الذي كان يسير خلف فوكيه وقد أعجب بالصورة ، وعلى الأخص بالبذلة التي هي من صنعه وتصميمه ، وبدأ يحتج بالقول والإشارة ، ولكن سمعت في تلك اللحظة إشارة من الحراس الرقباء الذين بأعلى القصر فقد لاح لهم في السهل الفسيح الممتد الى بلدة ميلون موكب الملك والملكات قادمة في الطريق ، وكان صاحب الجلالة وقتئذ يدخل تلك البلدة مع صف طويل من العربات والفرسان !

وبقى فوكيه ينتظر عند الباب نصف ساعة حتى وصل الملك فسارع الى امساك ركابه ، ومد الملك يده ليصافحه فقبلها رغم المقاومة الخفيفة التي أبداها الملك . واستقبلت مدام فوكيه الملكتين والأميرات والوصيفات ، بينما كان الضوء ينبعث كضوء النهار من خلال الشجر والزهرات والتماثيل الرخامية ، واستمر ذلك حتى أوبن الى داخل القصر . والواقع أن فوكيه كان قد أعد للملكه من روائع المناظر ما يشبه السحر

ولسنا هنا بصدد وصف المائدة الفاخرة التي زودت بكل ما هو شهى لذيد طريف ، على أن الملك بعد أن سر لتلك المناظر ما لبث أن تولاه وجوم

فقد رأى أن قصوره الملكية لا تدانى هذا القصر الذى هو لأحد رعاياه ،
ولا تشمل من دلائل الترف والنعيم بعض ما يحتويه

وبلغ من تأثر الملك أن اغرورقت عيناه بالدمع فلم يستطع أن ينظر الى
الملكة الشابرة الرقيقة القلب وهى تأكل بشهية وتمتدح فوكيه ، أما الملكة الوالدة
المنكبرة ففمرت فوكيه بالازدرء . وكان الملك قد أبدى رغبته فى أن يتناول
الطعام مع بقية المدعوين ولكن فوكيه أعد المائدة بحيث يكاد الملك يتناول
الطعام وحده مع الملكتين والأمراء إذ جعل لهم قسما منفردا وسط المائدة
العامة . وكان فوكيه يخدم الملك بنفسه أثناء العشاء . ووقفت مدام فوكيه
خلف كرسي الملكة الوالدة . وكان الملك يتذوق كل شيء ويقول لفوكيه :
— محال أن يجد الانسان الوانا من الطعام خيرا مما فى هذا المكان !

وعلى ذلك انقضت أفراد البلاط على الوان الطعام الموضوعة أمامهم كما
ينقض الجراد على النبات فلا يبقى ولا يذر !

غير أن الملك لم يكذب يشبع حتى عاد الى عبوسه ، وقد زاد فى كدره
ما لحظه من احترام رجال البلاط للمسيو فوكيه . وكان دارتانيان لا يأكل
ولا يشرب الا قليلا ، وقد جلس يراقب الجميع من كتب

ولما انتهى العشاء أبدى الملك رغبته فى التريض ، وكانت الحديقة مضاءة
بأضواء صناعية وكانما أراد القمر أن يكون أيضا فى خدمة الملك فأرسل
شعاعه على الأشجار والبحيرات ليزيد فى جمال المهرجان . وقد نجح
المهرجان من كل وجه ، ولاسيما أن الملك ما لبث قليلا حتى صادف الأنسة
دى لافالير فى أحد دروب الحديقة

ومضت ليلة السحر هذه فى طريقها قدما . حتى اذا رغب الملك فى أن
يأوى الى غرفته سرت الحركة فى كل مكان . وذهبت الملكتان الى جناحيهما
تصحبهما الموسيقى . وألقى الملك فرسانه واقفين على درج السلم إذ كان
المسيو فوكيه قد استقدمهم من ميلون ، وأعد لهم مائدة عشاء . وعندئذ
تبددت شكوك دارتانيان ، وأراد أن يستمتع ولو مرة فى حياته بحفلة
فاخرة كهذا المهرجان

وأرشد الملك وسط حفاوة بالغة الى غرفته ، وكانت أجمل غرف القصر ،
وكان لبرون قد رسم صور أحلام جميلة على سقفها المصنوع على هيئة قبة .
وقد زودت الغرفة بكل ما يكفل الراحة التامة والأحلام السعيدة . ولم يكذب
الملك يدخل الغرفة حتى بعث فى طلب المسيو كولبير



خيانة عظمى !

أقام المسيو فوكيه فى اليوم التالى حفلات شائقة عدة للميكة . فكانت
هناك نزهة ومأدبة ومسرحية جدية ، وأخرى فكاهية من تأليف مولير ،
وقد عجب بورتوس كثيرا حين شاهد مولير يمثل فيها ، لأنه كان يحسبه
مستخدما بمحل برسران !

على أن الملك كان مشغول الفكر بما أسره اليه كولبير بالأمس عن خيانة
المسيو فوكيه المالية القديمة ، وعن محاولته التودد الى الأنسة لافالير ،
وعلى هذا لم يستمتع بكل هذه الروائع التى تشبه ما فى ألف ليلة وليلة
وفى المساء كان كولبير ينتظر الملك فى أحد دروب الحديقة ، ولعل الملك
كان قد اتفق معه على اللقاء هناك ، وسرعان ما أوغلا معا فى الحديقة

أما دى لافالير فكانت قد لحظت عبوس الملك وأدركت أن هذا نذير
بفضبه على انسان ما ، فقررت أن تتدخل لتخفف من نقمة الملك ، وكانت
قد تملكها الحزن لانفصالها عنه طول تلك المدة ، وما لبثت أن ظهرت أمامه ،
وعندئذ تراجع كولبير خطوات الى الوراء ، فقال لها الملك وقد لمح ما ارتسم
على وجهها من حزن : « هل لى أن أسألك عما بك ؟ .. انك تتنفسين وكأن
على صدرك حملا ثقيلا ، ثم ان عينيك أيضا مغرورتان بالدموع ؟ ! »

فقالت له : « اذا كان الأمر كذلك حقا يا مولاي ، فان حزنى كله ليس الا
مشتقا من الكتابة المرتسمة على وجه جلالتك ! »

فقال لها : « كآبة ؟ .. أنت وأهمة يا عزيزتى ! .. انها ليست كآبة ،
ولكنها مهانة أشعر بها ! »

فقالت : « معاذ الله يا مولاي .. ان المهانة لا تجرؤ على التطلع الى
جلالتك ! »

فعض على شفتيه وقال : « أى مهانة أشد قحة من هذه التى تحيط
بى ؟ .. أنا الملك هنا ، أم ذلك الذى استطاع أن يعد هذا المهرجان ؟ . أن
المهرجان الذى أقمته فى فونتينبلو لم يكلف عشر ما أتفق هنا بغير حساب ! ..
ومن عجب أن كل هذا البذخ ، بل الأسراف الجنونى ، لم يكن الا باسمى ،
ومن مالى الخاص ، دون أن أدري ! .. أهناك ما هو أشد مهانة من هذا
يا آنسة ؟ »

فقالت مشفقة : « يا صاحب الجلالة ! .. ان هذا المهرجان ما أقيم الا
ابتغاء مرضاتك ومسرتك . وكلنا هنا رهن خدمتك وتسليتك و ... »

فقال الملك بغيظ : « ماذا يا آنسة ؟. أتريدين أن تدافعي عن المسيو فوكيه ؟. عن اللص الوقح الذي يستعلي على بما سلب من مالي الخاص؟... كلا !. لن أكون ملك فرنسا ان لم أبدل مهرجانه هذا ماتما له وسبة في جبينه الى الأبد ! »

وكان ضوء المشاعل القادمة قد اقترب من الحديقة ، فقالت دى لافالير للملك : « ان موكب المشاعل أوشك أن يصل ! »

وبقى الملك متواريا بين الأشجار بينما وقفت دى لافالير في مكانها فقال لها كولبير على مسمع من الملك : « يا آنسة لقد سقط منك شيء ! ». فسأله الملك : « ما هو ؟ ». فقال كولبير : « ورقة .. أحسبها خطابا . انظر يا مولاي ! »

فانحنى الملك والتقط الخطاب ، وفي اللحظة نفسها جاء حملة المشاعل فغمروا المكان بضوء كضوء النهار !

وأخذ الملك يقرأ الورقة على الضوء الساطع ، متوقعا أن تكون خطابا أعدته دى لافالير لترسله اليه ، ولكنه ما لبث قليلا حتى علت وجهه صفرة كصفرة الموت ، وأرتسم على ملامحه غضب لم يعهد مثله عليه من قبل ، وبدا كأنما ذهب من قلبه كل أثر لعاطفة نبيلة !

لقد كان الخطاب مرسلا الى دى لافالير حين كانت في فونتينبلو ، من فوكيه نفسه ، وفيه يحاول اجتذاب قلبها اليه . وقد ضاع هذا الخطاب قبل أن يصل اليها ، وما زال ينتقل من يد الى يد حتى وصل الى كولبير فاحتفظ به ليكون سلاحا في يده !

ورأى فوكيه ذلك الغضب الذي غشى الملك فجأة ، لكنه لم يدر سببه ، أما كولبير ففرح لاقتراب العاصفة ثم انتبه الملك من تفكيره على صوت فوكيه يسأله في رفق : « ماذا جرى يا مولاي ؟ »

فبذل الملك جهدا عنيفا حتى استطاع أن يرد قائلا : « لا شيء ! »

فقال فوكيه : « أخشى أن تكون جلالتك متألما من شيء »

فقال بجفاء : « انتى أشعر بألم ، وقد قلت لك ذلك قبلا ، وهذا كل شيء !! »

ولم يصبر الملك حتى ينتهى عرض الألعاب النارية ، بل مضى مسرعا الى داخل القصر ، وصحبه فوكيه وأفراد البلاط جميعا تاركين رؤية الألعاب النارية

وحاول فوكيه مرة أخرى أن يسأل الملك عما به ، ولكنه لم يتلق منه جوابا ، فافترض أن غضبه لسوء تفاهم قام بينه وبين دى لافالير ، ووجد في هذا الفرض عزاء له ، فابتسم للملك ابتسامة ودية حين صرفه هذا قائلا له : « عم مساء »

وكان الرحيل مقررا في الغد ، وعليه لذلك أن يقول كلمة يطرى بها

كرمه وحسن ضيافته ، ولكنه اكتفى بأن قال لفوكيه :

— ستسمع منى غدا . أرجو أن تبعث الى المسيو دارتانيان !

وكان الدم يغلي في عروق الملك وبوده لو يدق عنق فوكيه في تلك اللحظة ، لكنه أخفى القرار الذي اتخذه نحوه وراء ابتسامة ، وترك له يده ليطلع قبلة عليها ، وان أحس رجفة تسرى في جسمه حين لمست يده شفقتا الوزير ! ولم تمض خمس دقائق حتى جاء دارتانيان بعد أن تلقى أمر الملك بالحضور

وكان أراميس وفيليب في مكانهما يرصدان ما يحدث في غرفة الملك ويستمعان لكل ما يقال . ولم يترك الملك لقائد فرسانه وقتا للاقتراب من كرسيه بل مشى نحوه وقال له : « أحرص على ألا يدخل أحد هنا ! »

فعاد دارتانيان الى الباب حيث أصدر التعليمات لتنفيذ هذا الأمر ، ثم أقبل على الملك قائلا : « هل حدث شيء يا صاحب الجلالة ؟ »

فلم يجب الملك عن هذا السؤال ، وانما قال له : « كم رجلا تحتاج اليهم للقبض على المسيو فوكيه ؟ »

فترجع دارتانيان خطوة الى الوراء من الدهشة ، ومشى خطوات الى الباب ، لكنه التفت بغتة وقال للملك :

— معذرة يا مولاي . انى احتاج الى أمر مكتوب !

فسأله الملك في غضب : « متى كانت كلمة الملك غير كافية ؟ ! »

ولكن قائد الفرسان أجاب في هدوء : « لأن بكلمة الملك اذا كانت منبعثة عن غضب ، فليس بمستبعد أن تتغير اذا ذهب عنه الغضب ! »

فقال الملك : « انما أنت تطلب مهلة لكى تنشئ كلاما . هل لديك فكرة اخرى ؟ ! »

فقال دارتانيان : « أحسب يا مولاي أن عندي بعض أفكار وآراء »

فتردد الملك وسط سورة غضبه ، وتراجع أمام شجاعة دارتانيان كما يتراجع الجواد أمام راكب جسور مدرب . ثم سأله : « وما هى فكرتك ؟ »

فقال : « انك يا مولاي اذ تأمر بالقبض على رجل لا تزال تحت سقف بيته ، فلا شك أن الغضب وحده هو الدافع الى ذلك . ومتى ولى عنك الغضب فستندم على ما فعلت ، ولذا أحب أن أكون في موقف يمكننى من أن أريك توقيعك . واذا لم يفد ذلك في اصلاح الخطأ فانه سيدلنا على الأقل على أن الملك يخطيء اذ يفضب ! »

فنظر اليه الملك شزرا وقال : « ألم يفضب أبى وجدى أيضا ؟ »

فقال دارتانيان : « أن جلالة والدك وجلالة جدك لم يفضبا قط الا حين كانا في قصرهما ! »

فقال الملك : « ان الملك هو السيد حيث يوجد ! »

فابتسم دارتانيان وقال : « هذه عبارة مديح مغرية لا يمكن أن تتبعت
الا من رجل كالمسيو كولبير ولكن هل هي تمثل الحقيقة ؟ . وهل يكون الملك
سيدا في بيت أى انسان اذا هو طرد صاحب البيت منه ؟ ! »

فعض الملك على شفتيه ولم يقل شيئا . ثم قال دارتانيان : « أهذا
ممکن يا مولاي ؟ . ها هنا رجل يحكم على نفسه بالخراب لكى يسرك ، وأنت
تريد القبض عليه ! . حقا . . لو أننى كنت فى مكان فوكيه ، لابتلعت فى جرعة
وأحدة كل الألعاب النارية وكل معدات المهرجان الأخرى ، وأشعلت فيها
النار ، لأنفجر وينفجر كل ما فى هذا المكان . ولكن على أى حال ما دامت
تلك رغبة جلالتك فانها ستنفذ ! »

فقال الملك بعد هنيهة : « اذن راقبه حتى اكون قد صممت على رأى
الى صباح غد ! »

فقال : « سأفعل ذلك يا مولاي »



هدات تدريجا سورة الغضب الجائحة التى سيطرت على الملك حين قرأ
خطاب فوكيه الى دى لافالير ، ثم انقلب غضبه شعورا بالالم والتعب ، ولم
تمض دقائق معدودات بعد أن أوى الى فراشه حتى استرخت عضلاته
وخمدت أعصابه !

وخيل اليه فى بداية نومه أن الاله (مورفيوس) المرسوم على السقف
ينظر اليه نظرات تشبه نظرات البشر ، وأن شيئا ما أضاء فى القبة التى تعلو
غرفته وأخذ يروح ويحيى فى جوانبها ، وما لبث هذا الشيء أن تكشف عن
وجه آدمى ويد على قم هذا الوجه ، وملامح تدل على تفكير عميق !

أى حلم غريب هذا الحلم الذى يراه ؟ . . انه لا شك من أثر الجهد العنيف
الذى عصر أعصابه عصرا فى المساء : ولكن ما بال هذا الوجه الذى تراءى
له يبدو كأنه وجهه ؟

ثم خيل اليه أن القبة تختفى تدريجا عن مدى نظره وان الرسوم والأشكال
التي رسمها لبرون صارت أدكن من قبل . وأحس أن السرير يواصل الهبوط
به فى حركة رقيقة متتدة كحركة السفينة حين تنساب على صفحة الماء
الهادىء ، فقال لنفسه : « يا له من حلم ! » . ثم تراءى له أن التاج الذهبى
الذى عقدت به الستائر ، يبعد عن بصره كما بعدت القبة التى علق بها ،
وكما بعد الملاك ذو الجناحين الذى يحمل ذلك التاج !

وضاق ذرعا باستمرار السرير فى الهبوط ، ففتح عينيه ليتردد من رأسه
ذلك الحلم الغريب . ولكنه لم يستطع أن يرى شيئا . فقد حلت الظلمة
محل الضوء فى الغرفة ، وأحس فى الهواء برودة عجيبة ، ولم يعد يرى
رسوما ولا صورا ولا ذهباً ولا ستائر من المخمل ، ولكنه رأى جدراناً داكنة

اللون تزيد فى حلكة الظلام الذى غمره . ومع هذا استمر السرير يهبط ،
وبعد دقيقة بدت كأنها دهر استقر فى مكانه !

ولم يعد الملك يرى ضوءاً فى الغرفة الا كما يرى الانسان الضوء من قاع
بئر . فقال يحدث نفسه :

— لا ريب أنى تحت تأثير حلم مخيف . لقد حان الوقت لأن أستيقظ
منه . هيا . يجب أن أصحو !

وما لبث الملك أن تحقق أنه ليس نائما ، فها هو ذا فجأة قد رأى عن يمينه
ويساره رجلين مدججين بالسلاح وقد التف كل منهما بعباءة تغطى جسمه
وارتدى قناعا على وجهه . وفى يد أحدهما مصباح !

وحدث نفسه بأن الرؤيا مستمرة ، وأنه لكى يصحو منها ، ينبغى له أن
يحرك ذراعيه ، وأن يقول شيئا بصوت مرتفع . ثم ففز فجأة من سريره
فاذا به يجد نفسه واقفا على أرض رطبة رخوة . فسرت الرعدة فى جسمه
والتفت الى الرجل الذى فى يده المصباح قائلا : « ما هذا ؟ ما معنى هذا
المزاج الثقيل ؟ »

واشدت ارتجافه حين أجابه الرجل فى صوت عميق : « انه ليس مزاحا ! »
ثم سألهما الملك معا : « أنتما من رجال المسيو فوكيه ؟ »

فقال له الأول : « لا يهم من نكون . . اننا السادة الآن وهذا يكفى ! »

وكان الملك أقرب الى نفاذ الصبر منه الى الخوف ، فالتفت الى الشخص
المقنع الآخر وقال له : « اذا كانت هنا مهزلة فقل للمسيو فوكيه انها غير
لائقة وانى أريد أن تنتهى توا ! »

وكان هذا الشخص المقنع الثانى رجلا ضخما طويل القامة عريض الجسم
كأنه مارد ، فوقف معتدلا بلا حراك ، فضرب الملك الأرض بقدمه وقال له :
« ألا تحيب ؟ ! »

وهنا نطق المارد فقال : « كلا ! »

وهنا صاح بهما الملك قائلا : « الا يمكنكما على الأقل أن تقولوا ماذا
تريدان ؟ »

فأجابه حامل المصباح قائلا : « ستعلم ذلك تدريجا ! »

فسأله : « اذن خبرنى أين أنا ؟ » . فاكفى الرجل بأن رفع المصباح
الذى فى يده وهو يقول : « هل ترى الآن ؟ ! »

ونظر لويس حوله على ضوء المصباح ، ولكنه لم ير غير جدران رطبة
فقال : « أنحن فى جب ؟ »

فقال الرجل : « كلا ! . بل نحن فى ممر تحت الارض ! »

فسأله الملك : « الى أين ينتهى هذا الممر ؟ »

فأجاب بقوله : « ما عليك الا أن تتبعنا ! »

فصاح الملك غاضبا : « لن أخطو خطوة واحدة ! »

وهنا قال له الرجل الضخم : « اذا ابديت العناد يا صديقى العزيز ، فانى سأحلك بين ذراعى والفك فى عباءة ، فاذا أنت اختنقت فلن ألوم نفسى ! » . ثم شمر عن ذراعه الضخمة استعدادا لاستعمال العنف ، فلم يسع الملك الا الاذعان والاستسلام قائلا :

— يلوح لى انى وقعت فى ايدى اثنين من القتلة !.. هيا تحركا !

فلم يجب احد من الرجلين ، وانما تقدم الرجل الذى يحمل المصباح وتبعه الملك وخلفه الرجل الضخم ، وقطعوا مسافة تتخللها درجات ملتوية ، وكان الملك يسمع فى طريقه صوت ماء فى أعلى ، حتى وصلوا أخيرا الى ردهة طويلة فى نهايتها باب حديدي ، ففتح الرجل الذى يحمل المصباح هذا الباب بمفتاح معلق فى حزامه بين مفاتيح أخرى ، ولما انفتح الباب دخل منه هواء يحمل رائحة الأشجار التى تفوح فى يوم صيف حار فوقف الملك لحظة مترددا ، ولكن الرجل الضخم الذى وراه دفعه الى الامام فالتفت اليه الملك بحنق وقال له : « حذار ! ماذا تعزمان أن تفعله بملك فرنسا ؟ »

فأجابه الرجل الذى يحمل المصباح : « حاول أن تنسى هذه الكلمة ! »

وقال له الرجل الضخم : « أنت تستحق أن تكسر أضلاعك على عجلة التعذيب لهذه الكلمة التى قلتها ، ولكن الملك ذو قلب رحيم ! »

وهنا بدرت من الملك حركة سريعة كأنه بهم بالفرار ، ولكن يد المارد سرعان ما أمسكته من كتفه ووقفته حيث كان . ثم قال له الرجل الاول وقد أطفأ مصباحه : « تعال » . فتبعه دون أية كلمة . وكانت هناك عربة محتفية وراء الأشجار الكثيفة ، وقد علق بها جوادان ، ففتح الرجل باب العربة وقال للملك : « ادخل ! » . فاطاعه الملك وجلس فى العربة ، وسرعان ما أوصد بابها ، بينما جلس الرجل الضخم فى مكان الحوذى بعد أن فك قيود الجوادين ، ومضى بالعربة مسرعة حتى دخلت الطريق المؤدى الى باريس . وهناك فى غابة سينار أبدل الجوادين المجهدين جوادان آخران ، ثم سارت العربة بالسرعة نفسها حتى وصلت الى باريس فى الساعة الثالثة صباحا ، فمضت فى ضاحية (سان أنطوان) حتى وصلت الى الباستيل ، وقيل للديديبان : « بأمر الملك » فترك العربة تدخل الى فناء السجن

وهناك وقتت عن المسير والجوادان بتصبيان عرقا ، وصاح الرجل الضخم بالجوايش الذى أقبل نحوهم : « اذهب وأيقظ المحافظ ! » . وكان صوته الذى يشبه الرعد كافيا لأن يمضى الجوايش مسرعا لتنفيذ الأمر ! وبعد عشر دقائق ظهر بالباب المسيو بيزمو لابسا ثياب النوم وهو يصيح قائلا :

— ماذا حدث من جديد ؟ ومن الذى احضرتموه معكم ؟

ففتح الرجل الذى كان يحمل المصباح باب العربة ، وقال كلمتين أو ثلاثا

للجالس فى مكان الحوذى ، فنزل هذا توا من مقعده وأمسك بندقيته الصغيرة ووضع فوهتها على صدر السجين ، فقال له الرجل الآخر :

— اطلق النار دون تردد اذا نطق بكلمة !

ثم تقدم الرجل نحو المسيو بيزمو فلما رآه هذا صاح قائلا : « المسيو دريلاي ! »

فقال له أراميس : « صه ! هيا بنا ندخل غرفتك ! »

فسأله : « ترى ما الذى جاء بك فى مثل هذه الساعة ؟ »

فأجاب أراميس فى هدوء : « غلطة يا عزيزى المسيو بيزمو . يظهر أنك كنت على صواب ! »

فسأله بيزمو : « فى أى شأن ؟ »

فقال : « فى شأن أمر الافراج يا صديقى العزيز ! »

فقال بيزمو مشفقا : « ماذا تعنى يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال له : « الأمر بسيط جدا .. ألا تذكر يا عزيزى ذلك الأمر الذى أرسل اليك وأنا عندك فى شأن الافراج عن سجين ؟ »

فقال : « أجل .. السجين مارشيبالى ؟ »

فقال أراميس : « هذا ما حسبناه مع الأسف »

فقال بيزمو : « ما حسبناه ؟ .. أنك تذكر يا صاحب الفخامة انى لم ارد أن أصدق ذلك وأنت أرغمتنى على ... »

فقطع أراميس كلامه قائلا : « يا عزيزى بيزمو !. أن كل ما فى الأمر انى نصحت لك »

فقال بيزمو متصلا : « أجل !.. نصحت لى بقوة أن أسلمه اليك ، وقد أركبته معك عربتك واخذته معك ! »

فقال أراميس : « حسنا يا عزيزى !. لقد كانت غلطة اكتشفتها الوزارة فيما بعد . ولهذا جئت الآن بأمر خاص بالافراج عن سلدون الايرلندى البائس . أتذكره ؟ »

فقال : « سلدون ؟ !. اوافق أنت هذه المرة يا سيدى ؟ »

فأعطاه الأمر قائلا : « اقرأه بنفسك »

فلما قرأه بيزمو قال : « ان هذا الأمر هو نفسه الذى مر بيدي من قبل !. الأمر الذى أكدت لك فى ذلك المساء انى رأيتة !. انى اعرفه بنقطة الخبر التى عليه ! »

فجز أراميس كتفيه قائلا : « لا أدرى أهو ذلك الأمر القديم أم غيره . ولكنى اعرف انى أحضرته اليك الآن ! »

فسأله بيزمو : « ولكن ماذا أصنع فى شأن مارشيبالى الذى أفرجنا عنه ؟ »

فقال أراميس فى هدوء : « لقد جئت به معى لأعيدة اليك ! »

فبغت بيزمو ثم قال بعد هنيهة : « لا بد من امر جديد لكي اقبله في السجن بعد الافراج عنه ! »

فقال له اراميس : « لاتقل هذا الهراء يا عزيزي ، انه أشبه بكلام الاطفال . اين الامر الذي تسلمته منى في شأن مارشالي ؟ »

فجري بيزمو الى خزائنه الحديدية وأخرج منها ذلك الأمر ، فتناوله اراميس وقطعه اربا ثم حرقه بنار المصباح فصاح به بيزمو : « رباه ماذا فعلت يا سيدي ؟ ! »

فقال له اراميس في هدوء : « فكر في مركز جيدا يا عزيزي المحافظ ، ان الأمر أبسط مما تظن . انك لم يعد لديك امر بالافراج عن مارشالي ! وما عليك الا أن تعيد السجن الى زنزانتة وتوصد بابها عليه !

ففكر بيزمو قليلا ثم بدا انه اقتنع مكرها ، فقال له اراميس :
- وستسلمني سلدون بمقتضى هذا الأمر بالافراج عنه . افاهم أنت ؟ »
فقال متلعثما : « أنا ؟ أنا ؟ » . وواصل اراميس كلامه فقال : « انك فاهم كما أرى . حسنا ! »

فضرب بيزمو كفا بكف وقال : « ولكن لماذا تعيد الى مارشالي بعد ان أخذته ؟ »

فقال له : « لست اكنم سرا عن صديق مثلك ، عن خادم مخلص أمين ! »
ثم همس في اذنه قائلا : « ألم تلحظ الشبه العجيب بين هذا البائس وبين ... »

فأتم بيزمو عبارته قائلا : « وبين الملك .. أجل لحظت ذلك »
فقال له : « حسنا ! .. ان مارشالي لم يكذب يطلق سراجه حتى بدأ يقول ... أتدرى ماذا يقول ؟ »

فقلب بيزمو يديه قائلا : « أنى لي أن ادري ذلك يا سيدي ؟ »
فقال اراميس : « لقد أخذ يدعى انه الملك نفسه ! . وصار يقلد الملك في زيه وملابسه ! . وهذا هو السبب الذي جعلني اعيدته اليك يا صديقي العزيز . انه مسلوب العقل وقد لحظ ذلك كل انسان سمعه ! »
فقال بيزمو وهو يرتجف : « رباه ! .. ما العمل ؟ »

وعاد اراميس فربت كتفه مطمئنا وقال : « الأمر بسيط جدا ! .. لاتدع أحدا يتصل به مطلقا . ان الملك حين نمى اليه جنون هذا الشخص وعلم انه قابل الافراج عنه بهذا الادعاء ، تولاه غضب شديد ، وقد أمر باعدام كل من يسمح لهذا البائس بالاتصال بأى أحد سواى . افاهم أنت يا مسيو بيزمو ؟ .. والآن هيا بنا نذهب لتعيد ذلك الشقى الى زنزانتة ! »

(بقية الرواية في العدد القادم)

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع نحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

اسكندر دوامس الكبير

ذو القناع الحديدى

(الجزء الثانى)

الف
حياة
نقطة
مى

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

روائع الفصحى العالمى

وآيات الهلال

كلمة التحريم

هذا هو الجزء الثاني من رواية « ذو القناع الحديدي » للروائي الأشهر إسكندر دوماس الكبير . وقد وضعنا في مقدمة هذا الجزء خلاصة وافية للجزء الاول الذي صدر في شهر مارس الماضي ، حتى لا تنقطع سلسلة الحوادث التي احتوتها هذه الرواية الشائقة ، وليستطيع القراء - في يسر - متابعة فصولها وما قام به أبطالها من أعمال ووقائع

وهذه الرواية في جزءها تصور عصر لويس الرابع عشر بما فيه من أحداث عجيبة ، وشجاعة نادرة ، ومكاييد ودسائس ، وطموح ومغامرات . ولو أنها سميت باسمه ، لما كان في ذلك تجاوز ولا مفالة ، لأنها تصور حياته وطبيعته وأخلاقه وبخاصة في هذا الجزء الثاني . فان القارئ سيري فيه شخصية لويس الرابع عشر في قوته وعظمته وسلطانه . وكيف تغلب على أخيه التوأم فيليب الذي حل محله ليلة واحدة على سرير الملك ، وكيف قضى على خصومه ووحد السلطة في يده

وعلى الرغم من أن هذه الرواية تصور حياة ملك عظيم ، فان المؤلف استطاع بفنه الرائع أن يضمها غراما قويا عنيفا لا يقل عنفا وتضحية عن غرام قيس وليلي ، أو روميو وجوليت . بل لعله أكثر روعة ، وأشد عنفا وأسى ، فان غرام الشاب الفارس راول (الفيكونت دي براجلون) بالفتاة لويز دي لافالير ، قد بلغ الذروة في اللوعة والتضحية والحمران ، وقد كان غراما يائسا دفع راول المسكين الى أن يلتمس الموت في الحرب فرارا من بلائه وعذابه



اما الرواية التالية فهي « ابنة البخيل » للروائي العالمي الكبير أونوريه دي بلزاك ، تصدر في ١٥ مايو القادم . وهي تصور في أروع صورة جنابة البخل على الانسان وعلى ذريته من بعده ، كما تصور « البخل » في أعنف مظاهره ، وأبشع أحواله . ثم هي ترينا كيف تنشأ ابنة البخيل موضع ملاحقة ماكرة من المعجبين بمالها ، لا بجمالها . وهي بالاجمال رواية انسانية تحارب قوى الشر في نفوس الاشرار

شخصيات الرواية

ملخص الجزء الاول

كان الضابط الشاب « راعول » أو « الفيكونت دي براجلون » قد تبادل الحب والتعاهد على الزواج مع الفتاة « لويز » أو « الأنسة دي لافالير » كما كانت تعرف في بلاط « لويس الرابع عشر » ملك فرنسا حيث تعمل وصيفة للأميرة « هنريتا » قرينة شقيقه الأصغر ، وخبيلة « الفيكونت دي جيش » زميل راعول وصديقه الحميم !

وكان الملك قد شرع في مغازلة الأميرة واجتذاب قلبها ، لكنه ما لبث قليلاً حتى كف عن ذلك إذ جن غراماً بوصيفتها دي لافالير ، وبادلتها هذه غرامه وكثر تلاقيهما بعد أن أبعده الملك خطيبتها في مهمة أرسله فيها إلى إنجلترا ، فأثار ذلك حنق الأميرة المهجورة ودفعتهما الغيرة إلى الانتقام لنفسها ، فسعت حتى رجع خطيب الوصيفة فجأة إلى باريس ، وكشفت له خيانة خطيبته ، ثم انتهزت فرصة خروج الملك والحاشية في نزهة قصيرة ، وأطلعت الفتى على آثار تلك الخيانة بالغرفة السرية التي تجتمع فيها مع الملك في المسكن المخصص بالقصر الملكي للتبيل الشاعر « سان اينيان »

وسارع الشاب - بعد أن تحقق خيانة خطيبته - إلى مقابلة المسيو « دارتانيان » قائد فرسان الملك ليشاوره في الأمر بوصفه أحد الفرسان الأربعة المشهورين منذ عهد « لويس الثالث عشر » والذين يعد أبوه وهو « آتوس » أو « الكونت دي لافير » أكبرهم سناً ومقاماً وثروة . فلما نصح له « دارتانيان » بالترث ، لجأ إلى المسيو « بورتوس » أو « الكونت دي فالون » أقوى أولئك الفرسان الأربعة جسماً وأبسطهم عقلاً ، واستطاع أن يقنعه بأن يكون رسوله إلى « سان اينيان » لكي يدعوه إلى مبارزته . وكادت هذه المباراة أن تتم لولا أن علم بها الملك في آخر لحظة فحال دون وقوعها .

وما كاد الكونت دي لافير يعلم بالأمر من صديقه القديم « دارتانيان » حتى اشتد به الغضب من سوء تصرف الملك واعتدائه على كرامة ابنه ، وسرعان ما توجه إلى القصر الملكي حيث جابه الملك بسخطه واستنكاره تصرفه ، ثم لم يسعه حين لج الملك في كبريائه وعناذته وأخذته العزة بالانتم إلا أن جرد سيفه التاريخي المقدس وحطمه أمامه ثملقى به بين يديه وانصرف لا يلوى على شيء !

ولم يشأ لويس الرابع عشر أن يسكت على هذه الإهانة ، فأمر قائد فرسانه بأن يلحق بالكونت دي لافير ليقبض عليه ويزوج به في سجن

لويس الرابع عشر : ملك فرنسا الشاب ، ملك طموح يريد أن يوطد سلطته ، متقلب العواطف ، ولكنه يستمع إلى صوت الحق أحياناً

الأمير فيليب : أخوه التوأم ، شاب عاقل رصين ، قضى طفولته مجهولاً من الناس ، ثم سجن سنوات ، وكان لا يعرف نفسه ولا منبته الرفيع

الملكة آن النمسوية : والدة لويس وأخيه فيليب ، وأرملة لويس الثالث عشر . . ملكة متكبرة ، تعاني مرضاً جسدياً وأماً نفسانياً وتحفظ بسر مولده فيليب

الدوقة مدام دي شيفريرز : كانت صديقة للملكة آن ثم أخفى عليها الدهر ، واطلمت على سر لفوكيه فباعته لكولبير

فوكيه : وزير مالية فرنسا ، رجل وجيه متعال ، يقرب الشعراء والفنانين

كولبير : وكيل المالية ، رجل قدير ماكر ، يطمح إلى منصب وزير المالية

اراميس (الكونت دربلاي) : كان أحد الفرسان الأربعة الأبطال في عهد لويس الثالث عشر ، ثم صار أسقفاً وعمل لاسقاط الملك واجلاس أخيه التوأم مكانه

بورتوس (دي فالون) : أحد الفرسان الأربعة ، ومن أغنى نبلاء فرنسا ، ضخيم الجسم كأنه مارد ، شجاع ، طيب القلب

آتوس (دي لافير) : كبير الفرسان الأربعة ، ومن أكبر نبلاء فرنسا

راعول (دي براجلون) : نجل آتوس ، شاب شجاع مقدم ، أحب الأنسة لويز دي لافالير إحدى وصيفات الأميرة هنريتا ، وتعاهدا على الزواج

دارتانيان : أحد الفرسان الأربعة ، وهو يشغل منصب قائد الفرسان

لويز دي لافالير : إحدى وصيفات الأميرة هنريتا ، أحبها راعول ، وعاهداهما على الزواج ولكنها وقعت في غرام الملك لويس الرابع عشر

بيزمو : محافظ سجن الباستيل ، يحب أطيب الطعام والشراب ، واقع تحت تأثير اراميس الذي أقرضه أموالاً ثم تركها له ، وهو عضو في جماعة الجزويت

تولى أمرها الاسقف « دريلاي » الذي هو رابع الفرسان الاربعة وكان يعرف باسم أراميس . وتفصيل ذلك أن هذا الاسقف الفارس القديم كان رئيسا لجماعة « الجزويت » السرية ، التي ينتمى اليها كثيرون من كبار الموظفين وأعداء الملك في الداخل والخارج ، وكان يطمع في منصب « البابا » ورياسة الوزارة في الوقت نفسه . وكان يعلم أن الملكة الوالدة « آن » قد أنجبت مع ابنها « لويس الرابع عشر » توأما سمي بفيليب ، ثم اتفق معها زوجها « لويس الثالث عشر » على اخفاء أمر هذا التوأم تفاديا لما قد يقوم من نزاع على العرش بين التوأمين . وهكذا شب منقيا في جهة ثانية لا يعرف غير مربيته ومعلمه ، ولا يدري شيئا من أمر نسبه . وكانت أمه تزوره متكررة أحيانا دون أن يعرف شخصها . وبقي الأمر كذلك حتى تولى العرش لويس الرابع عشر ، فزج بالأمير المسكين في سجن الباستيل باسم « مارشالي » ، بعد أن اغتال أستاذه ومربيته ليدفن سره معها إلى الأبد . وعلى هذا سعى « أراميس » حتى زار الأمير في سجنه ، وكشف له حقيقة أمره ، ثم احتال حتى أخرجه من السجن حيث ألبسه ملابس كملابس الملك ، ودربه على القيام بدور الملك مستغلا ما بينهما من تشابه تام . واذ كان هو الذي تولى الاشراف على اعداد مهرجان الزيارة الملكية في قصر صديقه فوكيه فقد استطاع بسهولة أن يمضي في تنفيذ مؤامراته الخطيرة ، فاختطف الملك من سريره في غرفة نومه بقصر فوكيه وقاده بمعزفة صديقه « بورتوس » الى سجن الباستيل حيث حل محل السجن « مارشالي » أو أخيه فيليب ، بينما حل هذا محل في السرير ! ولم يستطع المسيو بيزمو محافظ الباستيل أن يعارض الاسقف الداهية في شيء ، لانه كان عضوا في جماعة الجزويت التي يرأسها الاسقف ، ولأن هذا كان يدينه بدين كبير متعذر الأداء !



الباستيل ، وفشلت محاولات دارتانيان لاقناع الملك بالعدول عن هذا الأمر ، كما فشلت محاولاته لحمل الكونت على الفرار إلى خارج الحدود . فلم يسعه إلا أن نفذ الأمر ، ثم رجع إلى الملك وطالبه ملحا بأن يأمر باعتقاله أيضا ، كي يلحق بزميله المجاهد الوطني الكبير ويشاركة مصيره الأليم . وازاء هذا لم يسع الملك إلا أن يأمر بالافراج عن الكونت المعتقل في اليوم نفسه !

وفيما كانت هذه الأحداث تجري داخل القصر وخارجه ، كانت هناك مؤامرتان خطيرتان تدبران في الخفاء : احدهما لاسقاط المسيو فوكيه وزير المالية ، والاخرى لاسقاط الملك نفسه

وقد تزعم المؤامرة الاولى المسيو « كولبير » وكيل وزارة المالية ، واستطاع أن يحصل على مستندات خطيرة تثبت خيانة الوزير للدولة والملك ، ومن بينها خطاب بخط « مازارين » - رئيس الوزارة الراحل - يثبت أن فوكيه استحل لنفسه جانبا كبيرا من مال الدولة ، وخطاب آخر يخطر فوكيه نفسه يثبت محاولته غزو قلب الأنسة « دي لافالير » خليفة الملك ! . وعرف كولبير كيف يهيم الفرصة المناسبة لتنفيذ هذه المؤامرة ، فحصل على المستند الرسمي الذي كان الوزير يحتفظ به دليلا على أنه سدد كل المال الذي أشار إليه مازارين في ذلك الخطاب ، وأعان المسيو « فانيل » زوج خليلته على شراء منصب النائب العام للبرلمان من فوكيه لكي يرفع عنه الحصانة البرلمانية . ثم سعى لدى الملك حتى أعرب للوزير عن رغبته في أن يزوره وحاشيته في قصره الريفي تحقيقا لوعده قديم كان قد وعده اياه . وبذلك يضطر الوزير إلى تبديد جانب آخر من مال الدولة في اقامة المهرجان اللائق بنزول الملك وحاشيته ضيوفا عليه ، لأن ثروته الخاصة كانت قد نفدت وتراكت عليه الديون إلى حد جعل خليلته الحسنة النبيلة « دي بليير » ترهن جواهرها لتقرضه بعض المال ، وجعل خاصته من الشعراء والفنانين وغيرهم يكتبون له بمبلغ آخر من المال ليحولوا دون بيعه منصب النائب العام ، لكنه كان قد باع المنصب واسترد بثمنه جواهر خليلته وحبليها وأهداها اليها من جديد !

وأخيرا ، ضرب كولبير ضربته القاضية ، حينما ألمح على وجه الملك آثار العيرة من فخامة قصر الوزير وفداحة ما أنفقه في تنسيق المهرجان ، فأطلعه على الخطابين السالفي الذكر . وسرعان ما اشتد الغضب بالملك ، فلم يستطع الاستمرار في مشاهدة بقية برنامج المهرجان ، ثم أوى إلى الغرفة التي خصصت لمبيته في قصر الوزير قبل الموعد المحدد لذلك ، بينما عهد إلى دارتانيان قائد فرسانه في ملازمة الوزير المغضوب عليه حتى الصباح تمهيدا لاعتقاله ومحاكمته على التهم المنسوبة إليه !

وفيما كان دارتانيان مرابطا لذلك الغرض في غرفة نوم الوزير ، كانت المؤامرة الأخرى قد أوشكت أن تتم فصولها من حيث لا يشعرون . وقد

صوت ذلك الرجل المتنكر الذي جاء بي الى هنا . . انه صوت المسيو دربلاي !. واذن كان كولبير على صواب . لكن ما هو غرض المسيو فوكيه ؟ اريد ان يجلس على العرش ؟ . كلا !. هذا محال !. ومع ذلك من يدري ؟ » وسكت هنيهة مفكرا في الأمر ثم قال لنفسه : « ربما قام أخي دوق اورليان بالدور الذي حاول عمي ان يقوم به في حياة أبي . ولكن هل أمي أيضا تأمرت ضدي ؟ . وما هو موقف دي لافالير الآن . لا شك ان هنريتا انتقمت منها شرانتقام . يا لتلك الفتاة المسكينة !. أجل لا شك انهم سجنوها كما سجنوني ، وهكذا أفترقنا الى الأبد ! »

وأخذ يبكي منتحبا بصوت مرتفع ، ولكنه ما لبث قليلا حتى كفكف دمه وقال منفعلا : « ان لهذا السجن محافظا ، فلماذا لا ادعوه الى وأخاطبه في الأمر ؟ »

وسرعان ما أخذ يصفق رافعا صوته بالنداء ، فلما لم يجبه أحد تملكه الغيظ وأخذ يندق باب الزنزانة بيديه ثم بالكروسي الذي كان يجلس عليه . وكان الصدى يردد الضجة الشديدة التي أحدثها ، دون ان يجيبه أحد أيضا ، فاستدل بذلك على قلة المكانة التي له في الباستيل . ولما خفت سورة غضبه التفت الى النافذة ذات القضبان المتشابكة وقد اخذ ضوء الفجر يتسلل منها الى الزنزانة ، فعاوده الأمل في اجابة نداءه ومضى يصيح بكل قوته ولكن بلا جدوى ، فغلا الدم في عروقه وصار يرتجف من فرط الغيظ والغضب لاهماله الى هذا الحد الشنيع ، وهو الذي تعود ان يأمر فيقطع !. وأخيرا عاد الى الباب السميك المغلق يضربه بالمقعد الثقيل في عنف ودون هوادة ، الى ان تصبب العرق من جبينه وتحطم المقعد . وهنا سمع أصواتا شتى فجعل ينصت اليها ، لكنها كانت أصوات السجناء الذين كانوا من قبل ضحاياها ، فأصبحوا الآن رفاقه في السجن ، وكانت تلك الأصوات ترتفع اليه من خلال السقف والجدران السمكية ، وكلها اعتراض على ما أحدث من الضجة . فاستأنف ضرب الباب بقطع الكروسي المحطم ، ولم يكف عن ذلك برغم تعبته الشديد . وبعد حوالي ساعة سمع وقع أقدام في الردهة ، ثم صوتا وحشيا يصيح به من خلف الباب قائلا :

— هل جنت ؟ . ماذا دهك لتصبح هذا الصباح ؟

فصاح الملك من داخل الزنزانة قائلا : « أنت المحافظ ؟ »

ورد عليه صاحب الصوت قائلا : « لا شك أنك فقدت عقلك ، ولكن هذا لا يدعو الى كل هذه الضجة ! »

فكرر الملك سؤاله : « أنت المحافظ ؟ . » ولكنه لم يسمع جوابا ، وما لبث هنيهة حتى سمع باب الردهة يفتح ، فأدرك ان السجنان عاد من حيث أتى من دون أن يعبا بالرد عليه !

وهنا بلغ غضب الملك أشده ، فأخذ يقفز كالنمر من المنضدة الى النافذة ، ويضرب القضبان الحديدية بأقصى قوته ، وكسر لوح زجاج فسقطت شظاياها

ليلة في الباستيل

ما كاد الملك لويس الرابع عشر يجد نفسه وحده في الزنزانة التي اغلقت عليه في سجن الباستيل حتى تضععت حواسه وتملكه اليأس والقنوط ، ثم خيل اليه انه انما انتقل الى عالم الأموات ، وأن السرير الذي هبط به في غرفة نومه بقصر المسيو فوكيه وزير المالية لم يكن الا وسيلة ذلك الانتقال ! وكأنما استراح الملك الى ذلك الخيال ، اذ وجد الموت أكرم له وأهون عليه من أن يكون حيا فقد عرشه وسلطانه الذي لا يحد ، وزج به في سجن حقيقي يلقي فيه ما لا عهد له به من المذلة والهوان

وبقى هنيهة معلقا بين الوهم والحقيقة ، ثم أخذ يحدث نفسه قائلا : « أهذا ما يسمونه بالعالم الآخر ؟ أهذه جهنم ؟ ! » . ثم أسند ظهره الى الحائط وأغمض عينيه ليوهم نفسه انه مات حقا ، لكنه ما لبث قليلا حتى تساءل في فزع : « لو أتني مت بسقوط أرض الغرفة بي لكنت الآن اشعر برضوض مؤلمة على الأقل . واذن لعل الخونة المجرمين قد دسوا لي السم في بعض الوان الطعام او مزجوه بالشمع لاستنشقه ! »

ثم اعترته رجفة من برودة الجو في الزنزانة ، فقال لنفسه : « لقد رأيت أبي مسجى الجسم على فراش الموت مرتدبا ثيابه الملكية ، وكان وجهه الشاحب ينم عن هدوء وسكينة ، كما كانت يداه ممدودتين الى جنبه بلا حس ولا حركة ، وقد جمدت أعضاؤه جمود الموت . ومع هذا كان يبدو كأنما أكسبه جلال الموت مزيدا من جلال الملك ، وكان يخيل اليه انه لا يزال على عرشه ، ولم يفقد مثقال ذرة من مكانته ! . . »

وفي هذه اللحظة شعر الملك السجنين بحركة غريبة بالقرب منه ، ففتح عينيه وأخذ يتطلع حوله مرتاعا . فاذا به يرى في أحد أركان الحجره فأرا كبيرا الحجم وقف يقضم قطعة خبز مقعد ، ويبادل نظرات الدهشة والارتياح ! ولم يسعه الا ان يتراجع نحو الباب وهو يصرخ على غير وعى منه ، وكأنما كان يحتاج الى هذه الصيحة ليستوثق من أنه لا يزال على قيد الحياة وأنه سجين حقا ، فعاد يصيح قائلا : « أنا سجين ؟ ! . . أجل أنا سجين ! »

ثم نظر حوله باحثا عن جرس يدقه ليدعو أحدا اليه ، وما لبث ان قال : « كلا لا توجد أجراس في الباستيل !. ولكن كيف سجت ؟ لا شك ان ذلك نتيجة مؤامرة من المسيو فوكيه . لقد استدرجني الى قصره في (فو) لهذا الغرض . ولكن لا يمكن ان يكون قد فعل ذلك وحده . واني لا أذكر الآن

فهز الرجل رأسه أسفا وقال : « نعم سمعت ، وها أنذا أرى بريق الهياج في عينيك مرة أخرى ، ولهذا سأبعد عنك السجين ! »

ثم أخذ السجنان السجين وترك الغرفة وأغلق الباب خلفه وأوصده بالفتاح ، وخلف الملك وقد زادت دهشته وتعاسته ، ورأى أن من العيب أن يحدث ضجة من جديد ، فاكتمى بأن قذف بآتية الطعام من النافذة !

وبعد ساعتين كان من الصعب على أى إنسان يراه أن يحسبه ملكا أو سيدا مهذبا أو أى آدمي ، فقد أخذ في فورة غضبه يحاول أن يمزق الباب بأظفاره وأن يحفر أرض زنارته ، وارتفع صوته في صيحات أقرب إلى أصوات الوحوش منها إلى أصوات الأدميين !

ولم يجد السجنان داعيا إلى ازعاج المحافظ بإبلاغه أمر هياج السجين ، ولكن الأمر بلغ اليه من آخرين ، على أنه لم يعره كبير اهتمام ، لأن جنون أحد السجناء كان أمرا مألوفا في السجن ، ولأن جدران السجن وأبوابه ونوافذه أقوى وأمنع من أن يؤثر فيها أى هياج . هذا إلى أن المحافظ لم ينس كلمة قالها له أراميس بشأن هذا السجين المجنون ، فبقى في جناحه يواصل الراحة من الإفراط في الطعام والشراب ، وكل ما يتمناه أن ينتهي أمر (مرشياي) أو السجين المجنون ، بأن يقتل نفسه بقوائم سريره أو بأحد قضبان النافذة ، وبذلك يريح ويستريح ، ولاسيما أنه لم يكن مصدر دخل له ، وكان وجوده يضايقه من جميع الوجوه منذ وقوع ذلك الخلط في أمر الإفراج عنه باسم سلدون ثم أعادته إلى السجن وأطلق سراح الأخير . وهذا عدا أن الشبه الشديد بين مرشياي هذا وبين الملك كان وحده يدعو المسيو بيزمو محافظ السجن إلى أن يتمنى له الموت !

إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

في فناء السجن ، ثم جعل يصيح بأعلى صوته قائلا : « المحافظ ! المحافظ ! » وظل على هذه الحال زهاء ساعة حتى نال منه الجهد والفيظ والحنق ، وتدلى شعره فوق جبهته وتمزقت ثيابه ، وخارت قواه ، وعندئذ فقط أدرك مدى سمك جدران السجن وأبوابه ، وأيقن الامندوحة عن الاستسلام . فأسند جبينه إلى الباب وترك أعصابه تهدأ تدريجا وخفقان قلبه يخف رويدا . ثم قال يحدث نفسه : « عما قريب يأتون إلى بالطعام كأي سجين ، وعندئذ سأرى إنسانا ما وأحدثه »

وجعل يسائل نفسه عن الموعد الذي يقدم فيه الطعام إلى السجناء ولكنه كان يجهل ذلك ، فشعر بتأنيب الضمير إذ مضى في الملك خمسا وعشرين سنة من دون أن يفكر لحظة في شقاء أولئك الذين خسروا حريتهم ظلما وعدوانا ، وأحس وجهه يحمر من الخجل ، وأدرك أن الله إنما كتب عليه السجن ليذوق عذابه الذي فرضه على الكثيرين . وغمره شعور ديني لكنه لم يجسر على الركوع والصلاة وحدث نفسه قائلا : « ان الله عادل حكيم ، ومن التذالة أن أسأله لنفسى ما آيبت على كثيرين من عباده ! »

وفيما هو في هذا التفكير سمع صوتا يقترب من الباب ثم صرير مفتاح يوضع في قفله ، فمال إلى الامام ليرى الشخص القادم ، ولكنه عاد فرأى ذلك غير جدير بمقام الملك فوقف مكانه في كبرياء وسكون ، وتطلع إلى النافذة لكي يخفى اثر انفعاله على القادم . ولم يكن هذا سوى سجان جاء بسلة بها مؤونة ، فنظر اليه الملك بقلق وانتظر حتى بدأ السجنان الكلام قائلا : « ما هذا ؟ لقد حطمت كرسيك ! لا بد أنك قد أصابك دخل في عتلك ! »

فقال له الملك : « كن على حذر فيما تقوله فقد تكون عواقبه وخيمة عليك ! »

فوضع السجنان السلة على المنضدة ونظر إلى السجين مليا ، ثم قال : « ماذا تقول ؟ »

فقال له الملك بلهجة الامر : « قل للمحافظ أن يأتي إلى فوراً ! »

فنظر اليه السجنان مشفقا وقال : « مسكين أنت يا ولدى . لقد كنت دائما هادئا عاقلا ، ولكن يبدو أنك بدأت تعمد إلى الشر ، ولهذا أحذرك عسى أن ينفع الحذر . لقد حطمت كرسيك وأحدثت شغبا شديدا ، وهذه جريمة يعاقب عليها بالسجن في زنزانة بالطابق الأرضي . فعدنى إلا تعود إلى مثل ذلك ولك على ألا أبلغ المحافظ شيئا من هذا الذي فعلت ! »

فقال الملك وهو لا يزال متمالكا أعصابه : « أريد أن أرى المحافظ ! »

فقال السجنان : « ان المحافظ سيأمر بنقلك إلى الطابق الأسفل ! »

فحدجه الملك بنظرة قاسية وقال : « انى أصر على رؤية المحافظ ، اسامع أنت ؟ »

وهنا ازدادت دهشة الوزير ، لكنه تماك نفسه وقال : « شكرا لك يا عزيزى على حسن ميولك وجميل عطفك ! »

ولم يخف على دارتانيان ما وراء عبارة الوزير من دهشة لزيارته له في هذا الوقت لغير سبب ظاهر ، في حين أنه في أشد الحاجة الى الراحة . لكنه تجاهل وقال للوزير : « أتريد أن تنام الآن ؟ حسنا يا سيدى !! انك ولا شك قد أقمت للملك مهرجانا رائعا »

فقال له : « يسرنى أن أسمع هذه الشهادة منك يا عزيزى المسيو دارتانيان . هل عهد الملك اليك فى أن تقول لى ذلك ؟ »

فقال دارتانيان فى تواضع : « انه ما كان يختار رسولا قليل المقدرة مثلى ، يا صاحب الفخامة ! »

فرد عليه الوزير قائلا : « انك لا تقدر نفسك التقدير الذى تستحقه يا مسيو دارتانيان » . وبدأ عليه القلق والتبرم باستمرار الحديث فى غير طائل ، وهنا سأله قائد الفرسان وهو يشير الى السرير الذى بالفرفة : « أهذا سريرك الذى تنام فيه . . يبدو أنه مريح ! »

فقال : « أجمل يا عزيزى انه مريح ، وأكبر ظنى أنك غير راض عن سريرك ؟ ولهذا يسرنى أن تأخذ غرفتى هذه »

فقال دارتانيان : « أنا آخذ غرفتك ؟ هذا محال يا صاحب الفخامة ! »

وهنا وقف الوزير يتأمل قائد الفرسان بنظراته الفاحصة ثم قال له : « ماذا أستطيع اذن أن أصنعه لاجل راحتك ؟ »

فتردد قليلا ثم قال : « هل لى أن أطعم فى أن تسمح لى بمشاركتك هذه الفرفة ؟ »

فبدأ الانزعاج فى وجه الوزير وقال : « انك قادم من عند الملك . اليس كذلك ؟ »

فقال : « أجل يا صاحب الفخامة »

فسأله : « وهل كلفك الملك أن تقضى الليلة معى فى غرفتى ؟ حسنا يا مسيو دارتانيان . اننى رهن اشارتك ! »

ثم التفت الى خادمه وأمره بالخروج من الفرفة، فلما خرج قال لدارتانيان : « هل لديك شىء تقوله لى ؟ ان هذا واضح يا عزيزى . . اليس كذلك ؟ ها أنذا كلى آذان لسماع ما تقول ! »

فقال دارتانيان : « ليس عندى ما أقوله لك يا صاحب الفخامة ، وكل ما هناك أنى أريد التمتع برفقتك ! »

ففكر الوزير هنيهة ثم قال : « اذن هيا بنا الى الحديقة يا عزيزى ، فالجو هناك أصلح للسهر والسمر ! »

زيارة غير متتظرة

كان دارتانيان لا يزال مضطرب الفكر على أثر حديثه مع الملك ، حتى لقد جعل يسائل نفسه : « أفى حلم أنا فى يقظة ؟ وهل صحيح انى فى قصر (فو) . وأن المسيو فوكيه هو صاحب هذا القصر ؟ ! »

غير أن قائد الفرسان الجاسكونى كان كالمهد به رابط الجأش ، يؤمن بأن سيفه كفيلا بإبلاغه ما يشاء ، وعلى هذا راح يحدث نفسه وهو يغادر الجناح الملكى فى طريقه الى غرفة المسيو فوكيه قائلا لنفسه : « يبدو أنى سأغدو ذا شأن كبير فى المستقبل . وسيدكر التاريخ أنى قبضت على المسيو نيكولا فوكيه وزير مالية فرنسا فى قصره والملك ينزل فيه ضيفا مع كل حاشيته . ولسوف يفخر أحفادى بذلك . . لكن : كيف أستطيع تنفيذ هذا الأمر العجيب ؟ ان من السهل أن أذهب الى المسيو فوكيه وأقول له : (سلمنى سيفك يا سيدى !) . ولكن كيف يستطيع انسان أن يضع المسيو فوكيه تحت الحراسة دون أن يدع أحدا يلحظ ذلك ؟ هذه هى المشكلة »

وزاد فى حيرة قائد الفرسان أن ضميره بقى غير مستريح الى قيامه بتنفيذ ذلك الأمر ، فألقى على المسيو فوكيه انما يعنى هلاكه ، فى حين أنه كان حتى هذه الساعة مضيفا كريما ! ولاح له أن يصارح المسيو فوكيه بما يضمه له الملك ، لكنه عدل عن ذلك لانه لا يتفق وواجبه العسكرى

وكان القصر فى تلك الساعة قد هجم كل من فيه ، وأخذ المسيو فوكيه فى خلع ملبسه الخارجية بمساعدة خادمه استعدادا للنوم ، وشد ما كانت دهشته حين فوجيء بظهور المسيو دارتانيان بباب الفرفة فى تلك الساعة المتأخرة ، فهتف به قائلا :

— ماذا ؟ المسيو دارتانيان هنا ؟ لعلك جئت لكى تنتقد المهرجان ؟ انى اعرف أنك بارع فى النقد !

فدخل المسيو دارتانيان بعد أن انحنى شاكرا وقال : « ليس لى أى ملاحظة على المهرجان ! »

فقال له الوزير : « هل وجد رجالك العناية الكافية ؟ »

فانحنى مرة أخرى وقال : « لقد كانت العناية بهم تامة من جميع الوجوه فابتسم الوزير وسأله متلظفا : « لعلك غير مرتاح الى الفرفة المعدة لك ؟ » فأجاب بقوله : « بل هى غرفة جد مريحة ! »

فقال : « ان الغد لم يأت بعد يا صاحب الفخامة . ومن الذى يدرى ما يأتى به الغد ؟ »

فسأله : « ألا أستطيع أن أتحدث مع المسيو دربلاي الآن ؟ »
فأجاب بقوله : « وأسفاه يا صاحب الفخامة . ان هذا محال . ان لدى أوامر مشددة بالأأ أدعك تتصل بأحد »

فسأله مستنكرا : « حتى ولا بالمسيو دربلاي ، صديقك ؟ »
فأجاب : « ليس المسيو دربلاي وحده هو الذى تمنع من الاتصال به ! »

فاحمر وجه فوكيه من الفيظ وقال : « انك على صواب يا سيدى . لقد لقتنى درسا كان ينبغي لى ألا أنساه . ان الرجل اذا سقط لم يبق له حق حتى عند من كان سبب سعادتهم ، فما بالك بمن ليس له أى فضل عليهم ! وأيا ما كان الأمر فأنا أعترف بأن مسلكك كان دائما جديرا بالاعجاب، وهو المسلك الذى يليق برجل قدر له أن يقبض على . انك أنت على الأقل لم تطلب الى أى يد أسديها اليك ! »

فتأثر دارتانيان بهذه العبارة التى تتم عن الحزن والنبل وقال له :
« يا صاحب الفخامة : انى أطلب اليك جميلا تسديه الى وهو أن تعدنى وعد رجل شريف بالأأ تغادر هذه الغرفة ! »

فهب الوزير كتفيه وقال : « وما فائدة ذلك يا عزيزى المسيو دارتانيان؟
أتحسبنى سأقوم أبرع سيف فى المملكة ؟ »

فقال : « انى لا أقصد ذلك يا سيدى ، ولكنى أريد أن أذهب الى المسيو دربلاي ، وأن أترك وحدك . أين هى غرفته ؟ أليس هى الغرفة الزرقاء؟
أحسب أن الذهاب اليها والعودة منها لن يستغرقا أكثر من عشر دقائق ؟ »
تضاف اليها خمس دقائق لا يقاظ المسيو دربلاي من نومه العميق عادة .
وعلى هذا لن أعيب عنك سوى خمس عشرة دقيقة . والآن عدنى وعدا شريفا بأنى سأجرك هنا حين أعود اليك »

وهنا تنهد الوزير ثم قال : « أعدك بذلك يا سيدى ! » . ثم لبث واقفا ينظر الى قائد الفرسان حتى غادر الغرفة وأغلق بابها وراءه ، ثم سرعان ما أخرج من جيبه بضعة مفاتيح وفتح بها خزائن صغيرة سرية فى بعض قطع الاثاث ، وأخذ يبحث عن أوراق معينة وما لبث قليلا حتى قال لنفسه :
« لعل تركتها فى (سان - مانديه) ، وهذا من سوء الحظ » . ثم أخرج بضعة خطابات وعقود كانت فى احدى تلك الخزائن . وقذف بها كلها فى النار المشعلة بالمدفأة . وبقي ينظر اليها حتى اطمان الى احتراقها تماما ثم ارتدى على احدى الارائك بالضرفة وراح يفكر الى أن عاد اليه دارتانيان فالتفت اليه وسأله : « هل قابلت المسيو دربلاي ؟ »

فقال وهو ينظر الى المدفأة ويستنشق رائحة الورق المحترق : « حقا يا صاحب الفخامة ، لا بد أن يكون المسيو دربلاي شغوقا بالرياضة ليلا ،

فقال قائد الفرسان : « ان الهواء هنا على ما يرام ! »
فقال المسيو فوكيه : « اذن . . . لقد جئت لتقبض على !؟ »

فغمغم دارتانيان قائلا : « ماذا . . . هذا محال يا صاحب الفخامة !
وأقسم بشرفى ما جئت الا لكى أعنى بأمرك ! »

فقال : « تقسم بشرفك !؟ هذا شئ آخر . اذن سيقبض على تحت سقف بيتى ! »

وهنا اقترب منه دارتانيان وهمس اليه قائلا : « أرجو ألا تقول شيئا من هذا »

فقال الوزير محتدا : « بل سأقوله بأعلى صوتى ! »
فقال دارتانيان فى هدوء : « اذن أضطر فى هذه الحالة الى أن أرجو منك السكوت ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « حسنا ! . أتعنى أنه سيستخدم العنف معى هنا فى بيتى !؟ »

فقال دارتانيان : « يبدو أننا لم يفهم أحدنا الآخر تمام الفهم . انى أرى هناك لوحة شطرنج فيها بنا نلعب الشطرنج اذا لم يكن لك غرض آخر ! »

فنظر اليه الوزير معاتبا وقال : « لا تحاول أن تقنعنى بغير الحقيقة يا مسيو دارتانيان ، ان مسلكك يكاد يسبب لى الجنون ، لقد كدت أقع من شدة حاجتى الى النوم ، ولكنك أطرت النوم من عينى ! »

فقال دارتانيان : « اذن . . . لن أغفر لنفسى ذلك . واذا أردت الراحة لك ولى فهيا اذهب الى سريرك »

فسأله : « أنت تعنى طبعاً انى تحت الحراسة ؟ »
وتظاهر دارتانيان بأنه يهيم بالخروج وقال : « طابت ليلتك يا صاحب الفخامة . ها أنذا أغادر غرفتك ما دمت لا تريد أن تصدقنى ! »

وسارع فوكيه الى اللحاق به ثم أمسكه قائلا : « ما دمت تأبى الا أن تعاملنى كما يعامل للصيدا فريسته فانى سأضعك فى مأزق ! »

فابتسم دارتانيان وقال : « ماذا تريد أن تصنع يا صاحب الفخامة ؟ »
فقال : « سأمر بأعداد جيادى ، لأعود الآن الى بلديس ! »

وقد أراد فوكيه بذلك أن يسبر غور دارتانيان، فلما قال له هذا : « اذن أذهب معك . . . رد عليه قائلا : « فى هذا الكفاية ! . انك قد استأهلت عن جدارة ما اشتهرت به من الخلق والذكاء ، ولكن لا حاجة لك باستخدامهما معى ، ولنتكلم فى الموضوع : لماذا تقبض على !؟ »

فقال دارتانيان : « انى لا أفهم شيئا مما تقول يا صاحب الفخامة ، ولكنى أعود فأؤكد انى لن أقبض عليك ، ليس فى هذه الليلة على الأقل ! »

فامتقع وجه فوكيه وقال : « ليس فى هذه الليلة . . . اذن ستقبض على غدا !؟ »

الأمر ، وصدقني أن الملك لا يزال يحبك ، برغم أن المسيو كولبير يبغضك
ويتمنى لك الحراب ! »

فابتسم فوكيه ساخرا وقال : « الحراب ؟ لقد أصابني الحراب قبل أن
يأتيني به يا سيدي ! »

وبدت الدهشة في وجه دارتانيان ، وأخذ يتأمل فيما حو اليه في الغرفة ،
فأدرك فوكيه ما يدور بخاطره وقال له : « لعلك تقول في نفسك : « ان
قصر (فو) هذا يساوي وحده ثروة كبيرة » ، والواقع أنه كذلك ، ولكنني لن
أستطيع بيعه يا عزيزي ، لأنه لا يوجد في فرنسا من يشتريه حتى بعشر
ما كلفني تشييده وتأثيثه . كما أنني لا يمكن أن أبيعته ، ولكنني أهبك إياه
إذا شئت ! »

فقال دارتانيان : « تهيب لي أنا ؟ بل قدمه هدية للملك ، فذلك خير لك »
فابتسم الوزير وقال : « ان الملك لن يحتاج إلى أن أهديه اليه ، لأنه
يستطيع أن يستولى عليه متى راقه ذلك ، ولهذا أوتر أن أرى القصر يتهدم .
أتدري يا مسيو دارتانيان انه لو لم يكن الملك في بيتي الآن لكنت آخذ هذا
الشمعدان وأشعل به صندوقين مملوءين بالألعاب النارية محفوظة بالمخزن
هناك لكي أحيل هذا القصر إلى رماد !؟ »

فقال دارتانيان في هدوء : « على أي حال ، ما كنت تستطيع أن تحرق
الحدائق وهي أجمل ما في القصر ! »

ثم عاد فوكيه يقول : « ومع هذا ما أظن أنني كنت أستطيع حرق قصر
فو هذا أو تدميره ! انه ليس ملكا لي الا من حيث الاستمتاع به لقاء ما أنفقت
في تشييده . أما من حيث الخلود فهو ملك لمن صنعتته أيديهم من كبار
المهندسين والفنانين أمثال : ليرون ولنوتر وبليسون وليفان ولافونتين
وموليير . ان فو ملك للأجيال القادمة يا مسيو دارتانيان وليس ملكا لي ! »

فقال له دارتانيان : « هذه فكرة جميلة جديدة بالمسيو فوكيه ، ولا شك
أنك أنت أيضا ملك للأجيال القادمة ، وعلى هذا لا حق لك في أن تقلل من
قيمتك ، وعليك أن تتلقى كل ما تجيء به الظروف بما هو جدير بك ، هناك
مثل لاتيني يقول : (ان الحاتمة تتوج العمل) . وأنا كجندى يسرني أن
أعمل بهذا المثل ، وأن أحرص حين أسقط على أن أسقط واقفا ! »

وهنا قام فوكيه من مقعده وعانق دارتانيان باحدى ذراعيه وضغط يده
باليد الاخرى ثم قال له : « هذه موعظة حسنة يا مسيو دارتانيان ، ولا بد
ان لي مكانة عندك »

فقال دارتانيان : « انها موعظة جندی ، أما مكانتك عندي فهي فوق كل
ما تظن ! »

ففكر فوكيه هنيهة ثم قال له : « أين يمكن أن يوجد المسيو دربلاي ؟
هل لي أن أرجو منك أن تبعث في طلبه ؟ »

فقال : « انك لن ترجو مني ذلك لأنني لن أفعله حتى لا يعلم به أحد ،

فأنا لم أجده في غرفته . ولعله ينظم الأشعار الآن في ضوء القمر بالحديقة
مع بعض شعرائك الاعزاء ! »

فصاح فوكيه مندهشا : « ماذا تقول ؟ أليس أراميس في غرفته ؟ »
فقال دارتانيان : « اذا كان فيها فلا شك أن عنده من الاسباب ما جعله
لا يجيب ندائي ! »

فقال له الوزير : « لعلك لم تتاده بصوت مرتفع »
فابتسم وقال : « أكنت تتوقع يا صاحب الفخامة أنني سأناديه بصوت
يوقظ جميع من في القصر ، فأعطي بذلك فرصة للمسيو كولبير لكي يقول
اني تركت لك وقتا تحرق فيه أوراقك !؟ »

وغمغم فوكيه وهو يحملق فيه بدهشة : « ماذا ؟ أية أوراق تعني
يا سيدي ؟ »

فقال دارتانيان هادئا : « هذا على الأقل ما كنت أفعله لو أنني كنت في
مكانك ! »

فأيقن الوزير أن قائد الفرسان تركه عامدا ليتيح له تلك الفرصة ،
ونظر اليه شاكرا وقال : « حسنا يا مسيو دارتانيان . أظن أن أراميس
لم يسمع نداءك ؟ »

فقال : « الواقع أن أراميس اما أن يكون قد غادر غرفته ، واما أنه تعمد
ألا يجيب ندائي لسبب أجهله ، ولعلك تجهله أنت أيضا برغم كون أسقف
فان من أتباعك ! »

فتنهذ فوكيه وقام من مقعده ومشى بالغرفة بضع خطوات ، ثم عاد فجلس
مكتئبا ، وهنا قال له دارتانيان وهو يرقبه في أسف وعطف : « لقد رأيت
في حياتي كثيرين يقبض عليهم ، وأرى ألا تكتئب هكذا . تصور أن أصدقاءك
يروذك على هذه الحال فماذا يقولون ؟ »

فأجاب فوكيه وهو يبتسم ابتسامة حزينة : « يا مسيو دارتانيان . .
انك لا تفهمني . اني أبدو حزينا لان أصدقائي لا يرونني . انني لا أستطيع
أن أعيش بمنأى عن أصدقائي ، وقد مضيت حياتي في اصطناع الاصدقاء
ومساعدتهم ورفعهم . وفي وقت الرخاء كانت أصواتهم بمثابة موسيقى
تمتدحني أنغامها . وكلما مسنى ضر كانت تلك الاصوات تنسجم مع
خفقات قلبي ، بل طالما سخروا من شبح الفقر الذي يتهددني وداعبوه في
أشعارهم . وهذا ما جذبني اليهم . اني أرضى الفقر وأقبله لأنه غير العزلة
وغير النفي أو السجن . وهل تراني أعد فقيرا ولي من الاصدقاء أمثال
الشعراء : بليسون ، ولافونتين ، وموليير ؟ ولي صديقة وفية مثل . . .
آه لو علمت ما أشعر به من الوحدة والعزلة في هذه الساعة ! »

فتأثر دارتانيان وقال له : « لقد قلت لك من قبل : انك تعالي في تقدير

وقد يكون في ذلك احراج لاراميس ، ان لم يدخله في نكبتك مع انه لا شأن له بها !

فقال فوكيه : « اذن أنتظر حتى يطلع النهار ؟ »
قاوماً موافقا وقال : « هذا هو الافضل ، واني على استعداد لتنفيذ كل ما تأمر به »

فقال الوزير : « شكرا لك يامسيو دارتانيان ، اننى لا أريد الا أن تكون صريحا معي ، فتخبرني بما أمر به الملك في شأنى »

فتردد قائد الفرسان قليلا ثم قال : « ان موقفك صعب يا سيدي ، من حيث انك تحت سقف بيتك . وثق على كل حال بأني لا أكن لك الا كل الاحترام والتقدير . ولولا هذا ما كان أسهل على من أن أتى الى غرفتك هذه بعد انصراف أصدقائك ، أو بعد القبض عليهم حين يخرجون واحدا اثر واحد ، ثم أفاجئك وأضع يدي عليك وأججرك حتى يتناول الملك طعام فظوره في الصباح ، وفي هذه الحالة أكون أيضا قد تفاديت كل ضجة ممكنة . ولكن في هذه الحالة لا يكون هناك تحذير للمسيو فوكيه ولا مراعاة لشعوره . وما أحسب أنك ترضى عن مثل هذه الحطة »

فقال له الوزير : « حقا . . انها تجعلنى أرتجف ! . ولو أن ذلك حدث لكان فيه الموت المحقق لى تأثرا بالحزى والعار ، ولهذا أكرر لك شكرى »
فقال دارتانيان : « انك نبيل حتى فى عرفانك بالجميل ، على أنى فى الواقع لم أفعل ما يستحق . . . »

فقطع كلامه قائلا : « بل الشكر كله لا يفي بحقك يا مسيو دارتانيان ! »
فقال : « حسنا يا صاحب الفخامة . . وما دمت راضيا عن موقفى ، وقد استعدت رباطة جأشك بعد الصدمة التى هبأتك لها قدر امكاني ، فلنمض الساعات القليلة الباقية فى هدوء . انك متعب وتحتاج الى ترتيب أفكارك ، ولهذا أرجو منك أن تأوى الى سريرك لكى تنام أو تتظاهر بالنوم . أما أنا فسأنام على هذا الكرسي ذى الذراعين ، ومتى نمت فلن يوقظنى قصف المدافع ! »

فابتسم فوكيه ، بينما استطرد دارتانيان قائلا : « على أننى يوقظنى مثلا فتح باب سرى ، أو خروج أحد من الغرفة أو دخول أحد فيها . . واذن تستطيع يا سيدي أن تتحرك فى الغرفة كما تشاء ، وأن تكتب أو تحو ما هو مكتوب »

فقال الوزير : « انك ولا ريب أكثر الناس ذكاء ومعاملة . ولست أسفا على شيء الا على أنى لم أعرفك على حقيقتك الا بعد فوات الوقت ! »
فتنهذ دارتانيان أسفا ثم جلس على كرسيه بينما تمدد فوكيه على سريره وأخذ يفكر فى حالته . وبقي هكذا حتى طلع الفجر . ولم يكن هناك أى صوت يعكر سكون القصر ، أما فى خارجه فكان حراس الشرف والديديانات يؤدون واجبه راتحين غادين !

وفاء وزير

بينما كان الملك لويس الرابع عشر يحاول أن يحطم قضبان النافذة فى زنايته فى سجن الباستيل ، كان فيليب شقيقه التوأم الذى غادر هذه الزناينة نفسها منذ أيام قد استقر على السرير الوثير الذى أعد لنوم الملك فى قصر المسيو فوكيه ، وما لبث قليلا حتى هبط منه ووقف بجانبه يتأمل فى غبطة ما يحيط به من مظاهر البذخ والترف ، وأخذ يفكر فى الدور الذى عليه أن يمثله

وامتقع وجهه حين وقعت عينه فوق السرير على منديل كان أخوه الملك السجين قد تركه فوقه حين هبط به الى القبو ، وقال فيليب يحدث نفسه : « اننى الآن أواجه المستقبل المقدر لى . وشدما أخشى أن يكون شرا من الأسر الذى كنت فيه ، لأن هذه السلطة التى اغتصبتها بدأت ترعج ضميرى »

وتردد حينما فى أن يعود الى السرير ، أو يمسك بالمنديل الذى عليه شعار أخيه ، لكنه ما لبث أن قال لنفسه : « لماذا لا أقتدى بالمسيو دربلاي الذى لا يفكر الا فى نفسه ولنفسه ويحسب نفسه رجلا شريفا ما دام لا يضر غير أعدائه وحدهم ؟ . ان هذه السلطة التى آلت الى كان ينبغي أن تكون لى منذ سنين لولا أن وقف أخى فى طريقى وساعدته أُمى بلا شفقة ولا رحمة ، وهذا المنديل الموشى بشعار فرنسا ما كان لويس يستأثر به لو اننى تركت بالهدى ولم أذهب ضحية تلك المؤامرة الدنيئة ! »

وهكذا عاد فيليب الى السرير فتمدد فيه ، متأملا فى اعجاب تاج فرنسا المعلق فوقه تحمله ملائكة بأجنحة من ذهب . على أن الانسان الذى يتوق الى أن ينام فى عرين الاسد ، لا يكون فى مقدوره غالبا أن ينام فيه نوما هادئا . . وهكذا بقى فيليب يقظان يصغى الى كل صوت ، وقلبه يخفق من توقع أى خطر . غير أنه كان واثقا من قوة ارادته التى تؤيدها عزيمة أقوى ، ولما اقترب الصبح ، لم يدهشه أن ظهر اراميس فجأة أمامه فى الغرفة فقد كان يرتقب حضوره ، وسرعان ما هتف قائلا : « عم صباحا يا مسيو دربلاي »

فقال اراميس : « عم صباحا يا مولاي ، لقد تم كل شيء كما نريد ! »
فسأله : « ألم يبد أية مقاومة ؟ » . فأجاب بقوله : « لم يقاوم الا بالدموع والتوسلات ثم استسلم فى ذهول ! »

فقال الأمير : « ومحافظ الباستيل ؟ .. ألم بيد اى ارتياب ؟ » . فقال اراميس : « كلا ! وقد اتخذت الالهة لكل أمر . وبعد بضعة ايام ، او ربما اقرب من ذلك ، سنخرج السجين من سجنه ونرسله الى مكان منعزل في الريف ، لن يعود منه مدى الحياة ! »

وعندئذ نظر كل منهما الى الآخر نظرات ذات معنى ، ثم اراد فيليب ان يغير موضوع الحديث فقال : « والمسيو دى فالون ؟ »

فقال اراميس : « سينشرف اليوم بمقابلة جلاتك ليهنك على نجاتك من الخطر الذى واجهك به ذلك المتآمر ! .. وحينئذ تمنحه جلاتك الدوقية التى يحلم بها ، وبذلك لا يلبث قليلا حتى يقتله فرط الفرح ، فأفقد بذلك زميلا قديما وصديقا حميما ، وفي الوقت نفسه يدفن معه السر الذى وقف عليه ! »

وكان الفجر قد انبثق فقال اراميس : « ان جلاتك قبل ان تاوى الى فراشك قررت ان تفعل شيئا عند طلوع الفجر »

فقال فيليب : « نعم يا عزيزى ، لقد أمرت قائد الفرسان ان يوافينى عند طلوع الفجر . وها انذا اسمع وقع خطاه في الردهة . انه محافظ على المواعيد حقا ، وسنبدا العمل الآن »

فقال له اراميس : « ان دارتانيان لا يعرف شيئا ولم ير شيئا ، ولذلك لا يداخله اى ارتياب فيما حدث . ولكنه اذا كان اول انسان يدخل هذه الغرفة في هذا الصباح فانه لا بد سيشتبه في شئ ما فيشغل نفسه به . وقبل ان نسمح لدارتانيان بدخول هذه الغرفة يجب ان نجدد هواءها تماما او نسمح بدخول عدة اشخاص فيها حتى تختلط الرائحة على ادق انف في المملكة ! »

فسأله فيليب : « لكن كيف ابعده مع انى امرته بالمجيء عند الفجر ؟ »
فقال اراميس : « ساتولى هذا الامر وسأبدا بضربة تذهله ! »

وكان دارتانيان قد وصل الى الباب ونقر عليه معلنا قدمه ، بعد ان ترك المسيو فوكيه في غرفته ينتظر عودته اليه بما يأمرك الملك في شأنه ، كما ينتظر ان يبعث اليه باراميس اذا وجده في طريقه الى جناح الملك ، بعد ان تعهد الوزير بالا يحاول الفرار

ولم يدهش دارتانيان حين فتح باب غرفة الملك عقب نقراته الخفيفة ، فقد كان على يقين من ان الملك لن يستطيع النوم نظرا الى حالة الهياج التى تركه فيها امس . ولكنه ما كاد يهم بالتحية العسكرية للملك عقب فتح الباب ، حتى فوجيء بان الذى فتحه ليس هو الملك ، ولكنه اراميس بقامته المديدة وملامحه الهادئة . فصاح قائلا : « اراميس ؟ ! .. اكنت هنا اذن ؟ »
فرد عليه الاسقف قائلا في برود : « عم صباحا يا عزيزى دارتانيان . ان

صاحب الجلالة يرغب اليك ان تعلن انه لا يزال نائما بعد ان تعب الليلة الماضية »

ولم يستطع قائد الفرسان ان يفهم سر وجود اراميس في غرفة الملك ، ولاسيما انه لم يكن من المقربين اليه

واستطرد اراميس فقال : « أرجو يا كابتن الا تدع احدا يدخل عند الملك في هذا اليوم ، الا من حدد له موعد للمقابلة »

فقال دارتانيان : « يا سيدى الاسقف ، ان جلالة الملك حدد لى موعدا هذا الصباح »

وفي هذه اللحظة نفسها سمع دارتانيان صوتا ينبعث من داخل الغرفة قائلا : « فيما بعد يا مسيو دارتانيان ! » . فلم يشك في انه صوت الملك لشدة التشابه بين صوت الملك وصوت شقيقه التوام . وهكذا لم يسع دارتانيان الا ان انحنى وهم بالانصراف وهو ما زال في دهشة . ثم قال له اراميس وهو يتسهم : « اما جواب ما جئت تسأل الملك عنه فاليك يا عزيزى دارتانيان امرا من صاحب الجلالة أرجو العناية بتنفيذه لانه يتعلق بالمسيو فوكيه ! »

فتناول دارتانيان الامر وقراه وما لبث ان تعتم قائلا : « يفرج عنه ؟ ! »

وحدث دارتانيان نفسه قائلا : « هذا هو سبب وجود اراميس عند الملك ، ترى كيف اكتسب هذه الحظوة الكبيرة عنده ، حتى اغراه بالاخراج عن المسيو فوكيه ، بل حتى صار واسطة لابلاغ اوامر الملك ؟ »

وانحنى دارتانيان تحية لاراميس ، ثم هم بالانصراف ولكن اراميس قال له :

— انتظر يا عزيزى ، ساتى معك الى المسيو فوكيه ، فانى اريد ان اكون شاهدا على سروره !

وهنا قال له دارتانيان : « آه يا اراميس ! شدمما حيرتنى ! »

فابتسم هذا وقال له : « والان أحسبك تفهمنى ؟ .. »

فقال : « بالطبع افهمك كل الفهم ! » . ثم قال لنفسه : « كلا ! لم افهم شيئا بعد ، ولكن على اى حال ها هو ذا امر الافراج عن المسيو فوكيه . ثم سار مع اراميس الى الغرفة التى حجز بها الوزير . وكان هذا ينتظر في قلق ، وقد تخلص من خدمه واصدقائه الذين كانوا يعرفون ساعة الاستقبال عنده فجاءوا لتحيته والاطمئنان على صحته . وقد كتم عنهم المركز الذى هو فيه والخطر الذى يهدده ، وانما صار يسأل كل واحد منهم من خلف الباب : « اين اراميس ؟ » . ولما رأى دارتانيان يعود اليه ، ومن ورائه اراميس ، لم يستطع ان يخفى سروره برؤية صديقه الاسقف ، وكانما وجد فيها عوضا عما قاساه منذ الليلة الماضية . وكان اراميس ساكنا

جاد الهيئة فقال فوكيه لدارتانيان : « ها قد أحضرت معك المسيو دربلای ؟ ! »

فقال دارتانيان : « أحضرت معي شيئاً ادعى الى السرور يا صاحب الفخامة ! »

فسأله في لهفة : « ماذا أحضرت ؟ » . فأجاب : « الحرية ، وبأمر من الملك ! »

فاستعاد فوكيه سمت الرزانة ، ونظر الى اراميس نظرة تساؤل فقال له دارتانيان : « أجل يا صاحب الفخامة ، ان الفضل في ذلك لاسقف فان ، فهو الذي استطاع أن يغير رأى الملك ! »

فشعر فوكيه بالمهانة لهذا الفضل اكثر من شعوره بعرفان الجميل ، ولم يقل شيئاً

ثم قال دارتانيان لاراميس : « ألا تؤدى لى خدمة يا صديقى القديم ؟ » فقال اراميس : « أى شيء تريده يا صديقى ؟ »

قال : « أريد شيئاً واحداً فقط ، هو أن تخبرنى كيف استطعت أن تكسب الخطوة عند الملك ، أنت الذى لم تحدته طول حياتك سوى مرتين ؟ »

فابتسم اراميس وقال : « لست أستطيع أن أخفى شيئاً على صديق منلك . انك تظن انى لم أقابل الملك الا مرتين ، ولكن الحقيقة اننى قابلته اكثر من مائة مرة غير أننا كنتمنا نأخذ هذه المقابلات عن الجميع ، وهذا كل ما فى الأمر ! »

ثم التفت اراميس الى فوكيه ، وكان لا يقل دهشة عن دارتانيان ، وقال له : « يا صاحب الفخامة . . ان الملك طلب الى ان أخبرك أن مودته لك أشد منها فى أى وقت مضى ، وان المهرجان الجميل الذى أعدته له بهذا السخاء قد اثر فى نفسه تأثيراً عميقاً »

وشعر دارتانيان بأن الوزير والأسقف يريدان أن يتحدثا على انفراد ، فهم بالانصراف غير أن فضوله تغلب على أدبه ولطفه فظل فى مكانه ، وعندئذ التفت إليه اراميس وقال له بصوت هادىء : « أرجو يا صديقى ألا تنسى أمر الملك بشأن من يريد استقبالهم صباح اليوم حين يصحو من نومه »

وكانت هذه الكلمات واضحة المعنى فانحنى دارتانيان محيياً المسيو فوكيه ثم اراميس وخرج من الغرفة وحينئذ أسرع فوكيه فأوصد الباب ، ثم عاد الى الأسقف وقال له : « يا عزيزى دربلای ، أحسب انه قد حان الوقت لكى تشرح لى ما حدث ، لأنى فى الحق لم أفهم شيئاً »

فجلس اراميس وقال له : « سأوضح لك كل شيء . لكن ألا تخبرنى اولاً : لماذا أمر الملك بالقبض عليك ؟ »

فقال الوزير : « اعتقد أن الغيرة هى السبب ، فان نجاح المهرجان أفقد

كولبير عقله فيما يظهر ، فامعن فى الدس والوشاية ، ولعله استغل (بيل - ايل) ليغضب على الملك »

فابتسم اراميس وقال : « ان (بيل - ايل) لا شأن لها بهذا الموضوع ، هل تذكر الأوراق التى فقدتها وكانت خاصة بالملايين الثلاثة عشر التى سددها لرئيس الوزراء الراحل مازارين ؟ . ان كولبير أتهمك باختلاس هذه الملايين من أموال الدولة ! »

فتمتم الوزير قائلاً : « رياه ! » . بينما واصل اراميس كلامه قائلاً : « ليس هذا كل ما فى الأمر ! . هل تذكر أيضاً الخطاب الذى كتبتة الى الانسة دى لافالير ؟ »

فقال الوزير متزعجاً : « ماذا ؟ . هل وقع هذا الخطاب فى يد كولبير ؟ » فقال اراميس : « واعطاه للملك أمس ليثبت له أنك خنته هو نفسه بمحاولة اغواء خليلته ! »

فعض فوكيه على شفثيه من الغيظ وقال : « أذن كيف عفا الملك عنى بعد هذا كله ؟ ! »

قال : « لم نصل بعد الى هذه النقطة . . ان الملك قد علم أنك اختلست أموالاً عامة . ولم ير المستندات التى تنفى وقوع هذا الاختلاس . كما أنه قرأ الخطاب الذى كتبتة الى دى لافالير فلم يبق له شك فى صحة كل ما بلغه عنك ، وهكذا ترى الى أى حد بلغ غضبه عليك ! »

فقال فوكيه : « هذا مفهوم ، ولكن ما الذى جعل الملك يحجم عن البطش بى برغم ذلك كله ؟ »

فقال اراميس فى هدوء : « ان الملك لم يحجم عن البطش بك ! » فسأله متعجباً : « كيف ؟ . . اليس قد صفح عنى ؟ وهو الذى كلّفك ان تقول لى ما قلته ؟ »

فسكت اراميس قليلاً ثم قال : « الواقع يا عزيزى ان الملك لم يكلفنى ان أقول لك أى شيء ! »

فبدأ الانزعاج فى وجه الوزير وقال له : « انك تقتلنى بهذه الألفاظ يا دربلای . . وانى استحلفك بصدقتنا وبالحلف الذى بيننا ، وبكل ما هو عزيز عليك فى العالم ، ان تخبرنى فى صراحة كيف استطعت أن تجعل لويس الرابع عشر يصفح عنى ؟ . انى أعرف أن الملك لم يكن يميل اليك ، وصحيح أنك رجل ذو ذكاء خارق ، ولكن هناك سرا ولا شك فى هذه المسألة ، فهل لك أن توضح لى هذا السر ؟ »

فسكت اراميس لحظة ليجمع شتات فكره ثم قال : « أتذكر ميلاد لويس الرابع عشر ؟ أعنى ألم تسمع بشيء معين عن ميلاده ؟ »

فقال فوكيه : « أتقصد أنه لم يكن حقاً ابن لويس الثالث عشر ؟ » فقال اراميس : « هذا لا يهمنا ولا يهم المملكة . انه ابن ابيه كما يقول

القانون الفرنسي ، ولكنى أقصد هل سمعت شيئاً غريباً بشأن ميلاده ؟
فسكت الوزير وبقي ينظر حائثاً الى أراميس ، وواصل هذا كلامه فقال :
فقال :

— من هنا يبدأ السر الذى آتته . ان الملكة لم تلد طفلاً واحداً بل وضعت
توأمين !

فقال فوكيه : « اعرف هذا ، وقد مات التوأم الثانى »

فقال أراميس : « كلا ! كل ما هناك ان لويس الثالث عشر خشى لضعفه
وتعلقه بالخرافات ان يقوم نزاع بين الأخوين التوأمين لتساوى حقهما في
وراثة العرش ، ولذا أزاح أحد التوأمين من الطريق وألغى وجوده ، فجلس
أخوه على العرش وحده وكنت أنت وزيره بينما بقى الآخر — وهو صديقى —
مغموراً في عزلة عن العالم ، اذ نشأ في الريف ثم زج به في قلعة الباستيل ! »
فصاح الوزير قائلاً : « أهذا ممكن ؟ » . ومضى أراميس في كلامه قائلاً :
« نعم يا عزيزى فوكيه . . ان أحد التوأمين كان أسعد الناس ، وكان الآخر
اشقاهم وأتسهم ، ولكن العناية الإلهية تداركته أخيراً ! »

فاشتد اهتمام فوكيه وسأله : « كيف كان ذلك ؟ . ان هذا الامر عجيب
حقاً ايها العزيز ! »

فقال أراميس : « أنت توافقنى طبعاً على ان وراثة العرش كانت حقاً ثابتاً
للتوأمين معاً لأنهما بمثابة شخص واحد في جسدين ، وقد حرم أحدهما
من حقه هذا ظلماً وعدواناً ، ثم شاء الله فبعث لهذا المظلوم نصيراً يرد إليه
حقه المغتصب . واحسبك تقرنى على ان من الإغتصاب ان يستحوذ انسان
على حق كامل في الميراث مع ان له نصف هذا الحق فقط ؟ »

فقال فوكيه : « أجل انه اغتصاب لا شك فيه ، فامض في حديثك »

فقال أراميس : « في هذه الحالة أستمر في كلامى . لقد شاءت ارادة الله
ان يكون لذلك الغاصب وزير أول ذو كفاية عالية وطبيعة سمحة »

فقال فوكيه : « حسناً ! . لقد اعتمدت على اذن لكى أصلح الظلم الذى
وقع على ذلك الأمير البائس الشقيق التوأم للملك لويس الرابع عشر ؟ »

فقال له أراميس : « كلا . ليس الأمر كما تظن : ان الملك الغاصب
غضب على وزيره الاول فجأة فصار هذا مهدداً بالخراب وبفقد حريته وربما
بفقد حياته نفسها ، كل ذلك من جراء دسائس ووشايات استمع لها
الملك . ولكن شاء الله ان يكون للمسيو فوكيه صديق مطلع على ذلك السر
الخطير ، وأن يكون لذلك الصديق من القوة والشجاعة ما جعله يبوح بذلك
السر بعد ان كتبه في مكنون صدره عشرين عاماً ! »

فقال فوكيه : « أنتى أفهمك الآن . لقد ذهبت الى المليك حين علمت بنياً
القبض على ، فلما رفض الإفراج عنى هددته بذلك السر وأذرته بأن تفضيه ،
وبذلك قبل تحت تأثير الخوف ما أباه بدافع المروءة . اليس الامر كذلك ؟ ! »

فقال أراميس : « انك لم تفهم شيئاً بعد ، لأنك تغفل أهم نقطة ارتكزت
عليها في بدء حديثى ! . . ولو أنك كنت منطقياً في تفكيرك الآن لأدرت ان
افشاء هذا السر للملك لا يمكن ان تكون نتيجة أقل من قتل مفشيه أو
الزج به في السجن الى الأبد ! »

وكان الأسقف يتكلم بمثل الحماسة التى كانت له حين كان أحد الفرسان
الأربعة المشهورين ، فأحس فوكيه رعدة بالرغم منه . ثم استطرد أراميس
فقال : « ما كان لى أن أعرض نفسى لهذه النتيجة ، وهل تظن ان الملك الذى
انفضك وقرر الانتقام منك لأنك فيما يعتقد اختلست أمواله او كتبت الى
المرأة التى يحبها ، لن يكون أقل غضباً وانتقاماً ممن يهدد تاجه وشرفه ! »
فقال له فوكيه : « اذن أنت لم تكشف للملك عن ذلك السر ؟ . ماذا
فعلت اذن ؟ »

فقال أراميس : « حسناً ! . . لقد وصلنا الى بيت القصيد يا صاحب
الفخامة » . ثم ادار عينيه في الغرفة ليستوثق من أنه وحده مع الوزير فلما
اطمأن الى ذلك جلس بجانبه واستأنف كلامه قائلاً :

— نسيت ان أخبرك بشيء عجيب عن لويس الرابع عشر وأخيه التوأم . .
ان الخالق جعلهما متشابهين الى حد يعجز معه أى انسان عن تمييز أحدهما
من الآخر . ولعل أهمهما نفسها لا تستطيع ذلك ! أجل يا عزيزى فوكيه .
ان لكل منهما مثل ملامح وجه الآخر وقامته وصوته !

فتتمم فوكيه قائلاً : « ولكن أفكارهما وحظ كل منهما من الذكاء ؟
ومعرفتهما بالحياة البشرية ؟ »

فقال أراميس : « اعتقد يا صاحب الفخامة ان سجين الباستيل البائس
المظلوم يكون أبل وأذكى من تولوا ملك فرنسا منذ بدء تاريخها ! »

فاخفى فوكيه وجهه براحتيه ، بينما اقترب منه أراميس وقال له :
« هناك شيء آخر لم يتشابه فيها . شيء يخصك أنت يا عزيزى فوكيه ! . .
ان ذلك الآخر السجين لا يعرف المسيو كولبير ! »

فرفع فوكيه رأسه بفتة وقال له : « انى أفهم ما ترمى اليه . انك تعرض
أحدى تلك المحاولات التى قد تغير مصائر الممالك ؟ ! »

فاوماً أراميس موافقاً وقال : « ومصير وزير المالية كذلك يا صاحب
الفخامة ! »

فقال فوكيه : « فلنختصر يا أراميس . . انك تعرض على الموافقة على
استبدال ابن لويس الثالث عشر الذى هو الآن سجين الباستيل بانه الآخر
الذى ينام الآن في غرفة مورفيوس اله النوم والأحلام . فهل فكرت في أننا
للوصول الى هذه الغاية ينبغي لنا ان نجتمع النبلاء والقساوسة وممثلى
الشعب ، وفي أننا اذ نخلع الملك الحاكم نثير فضيحة تزجج الملك الراقد في

قبره ونضحى حياة الملكة آن وشرفها ، وحياة امرأة أخرى هي ماريما تيريزا ؟ »

فقال أراميس بتؤدة : « لست أجد في كل ما قلته كلمة واحدة ذات فائدة »

فدهش الوزير وقال : « ماذا تقول ؟ . أرجل مثلك يابى أن يرى النواحي العملية في هذا الأمر الجليل ؟ . أنتحصر تفكيرك في سرور كسرور الاطفال يبعثه في نفسك وهم سياسي ، وتفغل عن التفكير في امكان تنفيذه أو استحالته ؟ . اتفغل عن الحقيقة والواقع ؟ »

فقال له أراميس : « يا صديقى العزيز .. ماذا تفعل العناية الالهية لاببدال ملك بأخر ؟ »

قال : « انها تبعث اداتها لقبض روح فريستها ثم تجلس الملك الآخر على العرش الذى خلا من صاحبه . اليس الأمر كذلك ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « لا مجال لذلك يا صاحب الفخامة . انك تخرج عن الموضوع . من ذا الذى ذكر موت لويس الرابع عشر ؟ أو تحدث عن الاقتداء بالعناية الالهية في تنفيذ أوامرها ؟ . كلا ! . انى أريد منك ان تفهم أن الله يحقق مشيئته دون خلل أو اضطراب ، ودون اثاره أى تعليق أو اية ملاحظة ودون مشقة أو اجهاد ، وأن تدرك أيضا ان الناس الذين أوتوا الهاما ربانيا ينجحون كما تنجح العناية الالهية في كل ما يحاولونه وما يباشرونه ! »

فسأله فوكيه : « ماذا تعنى بذلك ؟ » . فأجاب قائلا : « اعنى يا صديقى انه اذا كان هناك أى خلل أو اضطراب أو فضيحة بل أى مجهود فى استبدال السجين بالملك فإنى أتحداك أن تبرهن عليه ! »

فشحب وجه فوكيه حتى صار كوجوه الأموات وصاح فى دهشة : « ماذا تقول ؟ ! »

فقال له أراميس فى هدوء : « اذهب الى جناح الملك - أنت الذى تعرف السر الآن - واتحداك أن تلاحظ أن سجين الباستيل هو النائبم الآن فى سرير اخيه ! »

فتمتم فوكيه وقد تولاه الغزع الأكبر : « ماذا ؟ . وأين الملك ؟ ! »

فأجاب أراميس بأرق لهجة : « أى ملك ؟ . الملك الذى ييفضك أم الملك الذى يحبك ؟ . ان ملك الأمس قد ذهب ليحتل مكان اخيه بالباستيل ! »

فصاح فوكيه فى جزع : « رباة ! . ومن الذى أخذه الى هناك ؟ »

فقال أراميس هادئا : « أنا الذى توليت هذه المهمة ، وقد نقلته بأسطر طريقة الى الباستيل ليلة أمس ، وبينما كان يهبط الى الظلام كان الآخر يرتفع الى النور . وما أحسب أنه حدث أى اضطراب من جراء هذه الطريقة . ان وميض البرق الذى لا يصحبه رعد لا يوقظ أحدا ! »

فصاح فوكيه كأنما تلقى ضربة قاتلة وقال : « أنت فعلت هذا ؟ ! »

- أجل وببراعة تامة . ما رأيك فى ذلك ؟

- أنت أنزلت الملك عن عرشه ؟ وسجنته أيضا ؟

- أجل لقد تم ذلك !

- ومثل هذا العمل قد ارتكب هنا فى فو ؟ . فى بيتى ؟ !

- أجل هنا فى فو . فى غرفة مورفيوس اله النوم ، لكأنما شيدت خصيصا توقعا لهذا العمل !

- ومتى حدث ذلك ؟

- بين الساعة الثانية عشرة والساعة الاولى صباحا !

فأثنى فوكيه بحركة كأنه يريد أن ينقض على أراميس ولكنه تمالك نفسه وقال بصوت مخنوق : « هنا فى فو ؟ ! وتحت سقف بيتى ؟ ! »

- أعتقد ذلك ، لأنه لا يزال بيتك وأحسبه سيظل بيتك أيضا . لان المسيو كولبير لن يستطيع أن يسلبك اياه الآن !

فصاح فوكيه : « أتحت سقف بيتى ارتكبت هذه الجريمة ؟ »

فقال أراميس بدهول : « الجريمة ؟ . أتسمى ذلك جريمة ؟ »

فاستمر الوزير فى كلامه قائلا : « أجل هذه الجريمة الشنعاء ! . هذه الجريمة المقفوتة التى تجاوز الاغتتيال فى بشاعتها . هذه الجريمة التى تصم اسمى بالعار الى الأبد وتجر على لعنة الاجيال القادمة ! »

فقال له أراميس مترددا : « انك لست فى وعيك يا سيدى . انك تتكلم بصوت مرتفع . احذر ! »

فقال فوكيه : « بل سأصيح بأعلى صوتى حتى يسمعنى العالم كله ! . لقد لوثت شرفى اذ ارتكبت هذه الحيانة الدنيئة ، وأثيت هذا الجرم الشائن ، نحو ضيف كان ينام هادئا مطمئا فى بيتى . آه . الويل لى ! »

- بل الويل للرجل الذى أراد لك الحراب وربما الموت نفسه وهو تحت سقف بيتك . هل نسيت ذلك ؟

- لقد كان ضيفي . وكان مليكى !

فقام أراميس وقد احمرت عيناه وارتعشت شفاته وقال له : « هل أنا أحدث رجلا مالكا قواه العقلية ؟ »

فقال له فوكيه : « انك تحدث رجلا شريفا . رجلا لا يمكن الا أن يحول بينك وبين الاستمرار فى هذه الجريمة ! »

وحاول أراميس أن يسبكته قائلا : « انك مجنون اذ ترفع صوتك هكذا ! . ولكن الوزير استمر قائلا وقد اشتدت حدته : « نعم انك تحدث رجلا يؤثر أن يموت أو يقتلك على أن يدعك تكمل هذا العار الذى جلبته عليه ! »

فأخرج أراميس يده التي كان قد أخفاها ، فإذا هي ملوثة بالدم إذ كان قد غرس أظافرها في لحمه كأنها يعاقب نفسه على أن فكر في مشروع لا يقل عبثاً وزوالاً عن حياة الانسان نفسه ، ففزع فوكيه حين رأى تلك اليد وامتلاً قلبه شفقة وفتح ذراعيه يريد أن يعانقه ، وعندئذ تتم أراميس قائلاً : « ليس معي سلاح » . ولم يلمس يد فوكيه وإنما أدار رأسه وتراجع خطوة أو خطوتين وكانت أخرى كلماته لعنة وجهها الى فوكيه . وسرعان ما صب على وجهه بضع نقط من الدم الذي يسيل من صدره . ثم خرج كلاهما من الغرفة من طريق السلم الخفي الذي يقود الى فناء الدار . وأمر فوكيه بإعداد أحسن جواده بينما وقف أراميس عند أسفل السلم المؤدى الى غرفة بورتوس . وجعل يفكر تفكيراً عميقاً على حين كانت عربة فوكيه تخرج من الدار بأقصى سرعتها !

وقال أراميس يحدث نفسه : « أذهب وحدي ؟ أم أحذر الأمير ؟ يا للجنون ! .. أحذر الأمير ثم ماذا ؟ آخذه معي ؟ أأصحب معي هذا الشاهد على في كل مكان ؟ ان الحرب لا بد أن تتبع ذلك ، الحرب الداخلية التي لا يخمد لها أوار ؟ ودون أي مورد أنقذ به نفسي ؟ ان هذا محال ! وماذا يستطيع أن يفعل هو ؟ انه سيهلك ولا ريب . ومع هذا من يدرى ؟ ليجز القدر مجراه . لقد حكم عليه بالسجن فليبق كذلك . أيها الروح الطيب أو السيء ، أيتها القوة القاتمة المزدهرة التي يسمونها العبقرية : انك قوة أكثر قلماً وأقل ثباتاً وأعطل نفعا من الريح السائبة في الجبال ! انك تلهين كل شيء بأنفاسك ، وتسحقين الجبال بقربك ، ولكنك لا تلبثين قليلاً حتى تقضى على نفسك أمام صليب من الخشب الميت ، تقف وراءه قوة غير مرئية مثلك ، وربما تنكرينها ولكن يدها الناقمة مبسوطة فوقك ، تطوح بك في الرغام موصومة بالعار والشنار ! لقد ضمت ! نعم لقد ضمت ! .. ما الذي يمكن عمله ؟ أفر الى (بل - أيل) وأترك بورتوس خلفي يتحدث عن المغامرة مع كل انسان ؟ ان بورتوس أيضاً سيقاسى من جراء ما عمله ولن أدع بورتوس المسكين يتألم ، انه يبدو كعضو من أعضاء جسمي . ان بورتوس سيذهب معي الى حيث نتبع ما قدر لنا . يجب أن يكون الأمر كذلك ! »

وخاف أراميس أن يصادف أحداً فيرتاب في سرعة حركاته ، وصعد الدرج دون أن يراه أحد . وكان بورتوس في سبات عميق وقد نسي جسمه الضخم تبعه كما نسي ذهنه أفكاره

ودخل أراميس غرفته خفيف الخطى كالظل ووضع يدا مرتعشة على كتفه وأخذ يوقظه ، ففتح المارد عينيه وقام من سريره تلبية لطلب صاحبه دون أن يفقه شيئاً . وقال له أراميس : « قم اننا ذاهبان من هنا ! سنركب جوادين بسرعة لم نركب بها قبلاً في حياتنا ! فهيا ارتد ثيابك يا صديقي ! » ثم ساعده في ارتداء ملابسه ، ووضع ذهبه وجواهره في جيبه . وفيما

واستل فوكيه سيفه الذي كان دارثانيان قد وضعه عند رأس سريره وأمسكه بيده في حزم . فقطب أراميس ومد يده الى صدره كأنها يبحث عن سلاح . ولم تفت فوكيه هذه الحركة وهو الذي يفيض نبلاً وكبرياءً فقدف بسيفه بعيداً واقترب من أراميس حتى لمس كتفه وقال له : « يا سيدي .. اني أفضل الموت على الحياة بعد هذا العار ، واذا كانت لديك بقية من الشفقة على فأرجو أن تنهي حياتي ! »

وبقى أراميس ساكناً بلا حراك ، فعاد فوكيه يقول : « مالك لا تجيب ؟ تكلم يا سيدي .. تكلم يا دربلاي »

فرفع أراميس رأسه برفق وبدأ في عينيه شعاع من الأمل وقال : « فكر يا صاحب الفخامة في كل ما ينتظرننا .. ان الملك لا يزال حياً وزجه في السجن قد أنقذ حياتك ! »

فقال فوكيه : « أجل .. أنا أعلم أنك فعلت ذلك من أجلي ، ولكنني لا أقبل خدمايك هذه ! على أنني قبل كل شيء لا أريد التلف والدمار لك . فلتغادر هذه الدار الآن ! »

فاختنقت صيحة دهشة في حنجرة أراميس ، بينما استطرد فوكيه قائلاً : « انني مضياف لكل من يكون تحت سقف بيتي . ولن تكون أضيق ممن جئت به بالحراب ! »

فقال له أراميس في صوت حزين : « سيكون هذا مالك وصدقتي يا فوكيه ! »

فقال : « فليكن ! .. اني أقبل هذا النذير يا دربلاي ، ولكن لا شيء يمنعني أو يقف في طريقي . والآن .. عليك أن تغادر (فو) بل تغادر فرنسا كلها فوراً ! .. اني أترك لك أربع ساعات لتكون بعيداً عن قبضة الملك ! »

فقال أراميس بازدياء غير مصدق ما يسمع : « أربع ساعات ؟ ! »

ولكن فوكيه وأصل كلامه جادا فقال : « خذها كلمة من فوكيه .. لن يتبعك أحد قبل انتهاء تلك المهلة . وبدا تسبق بأربع ساعات أي أحد يسره الملك في أترك للقبض عليك . ان أربع ساعات أكثر من الوقت اللازم لكي تترك سفينة تفر عليها الى (بل - أيل) التي أهبك اياها لتكون مرفأً أمان لك ! .. ان (بل - أيل) التي أملكها هي بالنسبة لك مثل (فو) بالنسبة للملك اذهب اذن يا دربلاي .. اذهب ! .. ما دمت حياً فلن يمس أحد شعرة من رأسك ! »

فقال له أراميس في لهجة ساخرة حزينة : « شكراً لك ! » . بينما واصل الوزير كلامه فقال :

« اذهب فوراً وامدد الى يدك قبل أن يذهب كلانا بعيداً ، أنت لانقاذ حياتك وأنا لانقاذ شرفي ! »

كان مشغولا بذلك استرعى التفاته صوت فنظر واذا بدارتانيان يرقبه من خلال الباب نصف المفتوح فانزعج أراميس . وقال له قائد الفرسان : « بالله ما معنى هذا الاضطراب ؟ »

فصاح به بورتوس قائلا : « صه يا دارتانيان ! » . بينما قال له أراميس : « اننا ذاهبان في مهمة خطيرة »

فغمغم دارتانيان قائلا : « ما أسعدك ! »

وقال بورتوس : « اني لا أزال متعبا ، وكنت أوتر أن أظل في نومي ولكن خدمة الملك . . . »

وقطع أراميس كلامه سائلا دارتانيان : « هل رأيت المسيو فوكيه ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل ! رأيت منذ لحظة وكان راكبا عربته ! »

فسأله : « ماذا قال لك . . . ألم يقل لك شيئا ؟ »

فقال دارتانيان : « قال لي : (وداعا) ، ولم يزد على ذلك . وماذا كان يمكنه أن يقول لي ؟ هل أنا الآن شيء يذكر بعد أن صرتم جميعا ذوى حظوة ؟ ! »

فقال له أراميس وهو يعانقه : « استمع الي . . ان أيامك الجميلة الماضية قد بدأت تعود . ولن تجد سببا للغيرة من أحد ! »

فغمغم قائلا : « هذا لا يهمني ! »

فقال له أراميس : « اني أتنبأ بأن شيئا ما سيقع لك اليوم فيزيد كثيرا في أهميتك . . انك تعرف صدق أنبائي ! » . ثم التفت الى بورتوس وقال له :

« تعال يا بورتوس . هل أنت مستعد الآن للذهاب . . . اذن فلنعانق دارتانيان أولا »

وقال لهما دارتانيان وهما يعانقانه : « ولكن الجياد . . أين هي . . . هل تأخذ جوادى يا أراميس ؟ »

فقال له هذا : « لدينا جوادان . . فوداعا ! وداعا يا دارتانيان ! »

وركب الهاربان جواديهما تحت بصر قائد الفرسان الذى أمسك الركاب لبورتوس ثم نظر وراءهما حتى غابا عن بصره ، وقال دارتانيان يحدث نفسه : « فى أى ظرف آخر كنت أظن أن هذين الرجلين يفران ! . أما فى هذه الايام التى تغيرت السياسة فيها ، فان مثل هذا الرحيل يسمى ذهابا فى مهمة خطيرة ! » . ثم دخل غرفته مطمئنا الى هذه الفلسفة !

ارادة القدر

مصت العربة بفوكيه بأسرع ما استطاعت الجياد ، وكان طول الطريق يرتجف فرقا من التفكير فيما حدث ويسائل نفسه : « كيف كان هؤلاء الفرسان فى شبابهم اذا كانت هذه جراتهم وقد هرموا وشاخوا ؟ ! » . وكان أحيانا يخيل اليه أن ما قصه عليه أراميس لم يكن الا حلما من الاحلام ، أو لعله شراك نصب له حتى اذا وصل الى الباستيل ألقى أمرا بالقبض عليه ليشارك الملك المخلوع فى سجنه . وقد مال الى تصديق هذه الفكرة حتى انه فى أثناء الطريق أصدر أوامر مختومة معينة بينما كانت جياد العربة تستبدل . وكانت تلك الاوامر موجهة الى المسيو دارتانيان ولاآخرين يعتقد أن اخلاصهم للملك فوق كل شك . وقال يحدث نفسه : « بهذه الطريقة سواء أكنت سجيننا أم لا ، أكون قد أدبت واجبى نحو الشرف . ان هذه الاوامر لن تصل اليهم الا بعد عودتي ، اذا عدت طليق السراح ، وعندئذ أستردها . أما اذا لم أعد فان ذلك يكون لسوء وقع بى وحينئذ سأتلقى المعاونة كما يتلقاها الملك ! »

ووصل الوزير الى الباستيل بعد أن اتخذ تلك الالهبة ، وقد سافر بسرعة خمسة فراسخ فى الساعة . وهناك فى الباستيل صادفته كل الصعاب التى ذلت أمام أراميس حين زار السجن من قبل . ولم يجده شيئا ذكر اسمه ولا معرفة الحراس لشخصه ، فلم يسمح له بالدخول فورا . وبعد الحاج فى الرجاء قبل أحد الحراس أن ينبئ بمجيئه أحد رؤسائه ، وهذا ذهب بدوره الى ضابط فأخبره . أما المحافظ فان أحدا لم يجرؤ أن يزعجه . . وهكذا جلس فوكيه فى عربته عند الباب الخارجى للقلعة ، وهو يتميز من الغيظ منتظرا عودة الضابط ، حتى اذا رآه قادما سأله بلهفة : « ماذا وراءك ؟ »

فقال الضابط : « ان رئيس الحراس سخر منى وقال لي : (ان المسيو فوكيه فى قفو ولو أنه كان فى باريس ما كان ليستيقظ من نومه فى مثل هذه الساعة المبكرة !) . واذن لا فائدة يا سيدى من الحاحك فى . . . »

فصاح فوكيه مقاطعا : « انكم جماعة من الحمقى ! » . ثم نزل من عربته ، وقفز الى داخل البوابة قبل أن يتاح للضابط منعه ، فأخذ يصيح طالباً النجدة ، ولكن فوكيه كان قد دخل فأدركه الجندي وجعل يصيح منها الديديبان الآخر الذى عند الباب الثانى ، فشهر الديديبان رمعه فى وجه



شورف

« ونزل فوكيه من عربته وقفز الى داخل البوابة »

الوزير ، ولكن هذا كان قد كسب من الغضب قوة فتزع الرمح من يد الجندي وضربه به ضربة قوية على كتفه ، ثم ثنى بضربة مثلها على الضابط الذي كان قد لحق به ، فأخذ الاثنان يصيحان صيحات مزعجة ، وسرعان ما خفت إليهما قوة الحراس كلها ، واتفق أن كان بين رجالها ضابط عرف الوزير حين رآه فصاح برجالها قائلا : « قفوا أيها الرفاق ! » وحال دون انتقامهم من الوزير . على أنه اعتذر من عدم استطاعته فتح الباب له الا اذا كان معه أمر مكتوب ! فطلب أن ينبأ المحافظ بحضوره ، وكان هذا قد سمع الضجة التي عند الباب فجاء مهرولا يتبعه وكيله وحوالي عشرين رجلا فقد ظن أن هناك هجوما على الباستيل . فلما رأى المسيو فوكيه عرفه من أول نظرة فأرخی سيفه الذي كان قد جرده وأمسك به ، ثم تمتم قائلا :

« صاحب الفخامة ؟ كيف اعتذر ؟ ! »

فقال له المسيو فوكيه وهو في شدة الغضب : « يا سيدي . اني اهنتك على همة حراسك هؤلاء ! »

فشحب وجه المسيو بيزمو اذ ظن أن الوزير يسخر منه . ولكن فوكيه كان قد استعاد هدوءه فأشار الى الديدبان والملازم ، وقال لهما : « ستصرف عشرون بستولا للديدبان وخمسون للضابط . اهنتكما . ولن يفوتني أن أحدث صاحب الجلالة عنكما . والآن يا مسيو بيزمو : لي كلمة معك ! »

وتبع المحافظ الى مسكنه الرسمي مصحوبا بهمة الرضا من الجميع . وكان بيزمو يرتعد خجلا وخوفا . فانه منذ زيارة أراميس الاولى صار يخشى سوء العاقبة . وما لبث المسيو فوكيه أن قال له بحدة : « هل زارك المسيو دربلاي صباح اليوم ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة »

وواصل الوزير كلامه قائلا : « ألم تر وعك الجريمة التي اشتركت فيها ؟ » وتساءل المحافظ : « أية جريمة يا صاحب الفخامة ؟ » . بينما قال فوكيه : « الجريمة التي تستحق من أجلها أن يمثل بك ! » ولكن الوقت لا يتسع للغضب . قدني فورا الى السجن »

فقال بيزمو وهو يرتجف : « أي سجين يا صاحب الفخامة ؟ » فصرخ فيه في حدة قائلا : « أنت جاهل ؟ ! حسنا ! قد يكون هذا خير ما تفعل ! »

وعاد بيزمو يقول : « أتوسل اليك يا صاحب الفخامة أن . . . فقطع الوزير كلامه قائلا : « كفى ! قدني الى السجن ! »

وتساءل بيزمو في استكائة : « الى مارشيلالي يا صاحب الفخامة ؟ »

فنظر اليه متفحصا وسأله : « من هو مارشيلالي ؟ »

فقال المحافظ : « السجن الذي أعاده المسيو دربلاي للسجن صباح

اليوم »

فبدأ يقينه يتزعزع قليلا حيال هدوء بيزمو وقال : « أيسمى مارشيبالي
اذن ؟ »

فقال بيزمو : « أجل يا صاحب الفخامة . انه الاسم المثبت في سجل
السجن »

فنظر فوكيه الى بيزمو نظرة يريد بها أن يسبر غوره . على أنه لما رأى
ملامح وجهه أدرك أن أراميس ما كان ليختار مثل هذا الرجل شريكا له في
المؤامرة . وعندئذ قال له : « أليس هو السجن الذي أخذه المسيو دربلاي
من هنا أول من أمس ثم أعاده الى السجن صباح اليوم ؟ »

وكان قد أدرك الحطة التي اتبعها أراميس . فأجاب المحافظ : « أجل
يا صاحب الفخامة . واذنا كنت قد جئت لأخذه فان هذا يسرني لأنني كنت
سأكتب تقريرا في شأنه ! »

فسأله الوزير : « ماذا فعل اذن ؟ »

فأجاب بقوله : « انه منذ عاد للسجن صباح اليوم قد أزعجني أيما ازعاج
وقد اعترته نوبات من الهياج جعلتني أحسبه سيدمر الباستيل ! »

فقال فوكيه : « سأريحك توا من وجوده هنا . هيا قدني الى غرفته .
فتردد بيزمو وسأل متلجلجا : « هل يتفضل صاحب الفخامة باعطائي
الأمر الخاص بذلك ؟ »

فسأله : « أي أمر ؟ » . فأجاب : « أمر من الملك ! »

فقال المسيو فوكيه : « حسنا ! . انتظر حتى أكتب لك أمرا . ولكن
المحافظ أردف يقول : « ان هذا لا يكفي يا صاحب الفخامة . بل يجب أن
ألقى أمرا من الملك ! »

فاغتاط فوكيه وقال له : « هل كنت تتبع مثل هذه الدقة حين سمحت
للسجين بالخروج ؟ . أرني الأمر الذي أفرج به عن هذا السجن من قبل .
وأطلعني بيزمو على الأمر الخاص بالافراج عن السجن سلدون . فقرأه
فوكيه وقال له : « هذا أمر بالافراج عن سجين آخر اسمه سلدون .
فقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن مارشيبالي ليس طليقا ياسيدي .
بل هو هنا ! »

فقال له الوزير : « انك ذكرت الآن أن المسيو دربلاي أخذه معه ثم
أعاده ! »

فوجه بيزمو قليلا ثم قال : « أحسب اني لم أقل ذلك يا صاحب الفخامة ! »

فقال له محتدا : « بل قلته بالتأكيد حتى لكأنني أسمع الآن ! »

فقال المحافظ : « هي اذن فلتة من لساني يا صاحب الفخامة ! »

فنظر اليه المسيو فوكيه شزرا وقال له : « كن على حذر يا مسيو بيزمو !
فقال هذا : « ليس هناك ما أخشاه يا صاحب الفخامة . اني أعمل طبقا

لأدق الانظمة . وقد أحضر لي المسيو دربلاي أمرا باطلاق سراح سلدون ،
وسلدون طليق الآن ! »

فقال له الوزير : « ان مارشيبالي قد غادر الباستيل . هذا ما لا شك
فيه ! »

فقال : « عليك أن تبرهن على ذلك يا صاحب الفخامة ! »

فقال له : « اذن دعني أقابله قبل كل شيء » . ثم أشار اليه أن يتقدمه
الى غرفة السجن ولكن بيزمو بقي واقفا وقال له : « ان صاحب الفخامة
يعلم تمام العلم أنه لا يجوز لأحد أن يرى أي سجين هنا الا بأمر صريح من
الملك نفسه ! »

فبدأ الغيظ واضحا في وجه الوزير وقال له : « ولكن دربلاي قد دخل
برغم ذلك ! »

فقال بيزمو : « هذا ايضاح يحتاج الى دليل يا صاحب الفخامة ! »

فصاح به الوزير محتدا : « يا مسيو دي بيزمو . اني أحذر مرة
أخرى . ان المسيو دربلاي قد ضاع ! »

فبدأ الفزع في وجه بيزمو وقال : « ضاع ؟ . هذا مستحيل يا سيدي ! .
بينما واصل الوزير كلامه فقال : « أرى أنك كنت واقعا تحت نفوذه ؟ »

فقال بيزمو : « يا صاحب الفخامة . اني هنا لأنفذ أوامر الملك . وأنا
أؤدى واجبي حق أدائه . فأعطني أمرا من الملك أدخلك عند السجن ! »

فقطب فوكيه متأففا ثم قال : « حسنا ! . اتركني أدخل عند السجن ،
وسأعطيك فورا أمرا من الملك . »

فقال بيزمو : « بل أعطني الأمر الملكي قبل ذلك يا صاحب الفخامة ! »

وهنا اشتد غضب الوزير وقال له : « اني أندرك يا مسيو بيزمو . اذا
أبيت على ذلك فسيقبض عليك وعلى جميع ضباطك فورا ! »

فقال بيزمو : « قبل أن تأتي عملا من أعمال العنف مثل هذا يا صاحب
الفخامة ، تذكر أننا هنا لا نطيع الا أوامر الملك ، وانه يسهل عليك أن
تحصل على أمر من الملك بزيارة مارشيبالي بقدر ما يسهل عليك أن تحصل
على أمر بالاضرار بي برغم براءتي ! »

فقال فوكيه بغيظ : « صدقت يا مسيو دي بيزمو . صدقت ! »

ثم جذبه اليه وقال له بصوت منخفض : « أتدري لماذا أحرص على
التحدث الى السجن ؟ »

فأجاب بيزمو : « لست أدري ! . على أنك تخيفتي حتى لقد سرت في
جسمي رعدة وكأني مهدد بالاغماء ! »

فقال له الوزير : « ستجد فوضة للاغماء بعد عشر دقائق حين أعود الى
هنا على رأس عشرة آلاف جندي مزودين بثلاثين مدفعا ! »

فصاح المحافظ في فزع : « رباه . انك لست في وعيك يا صاحب الفخامة ! »

وعاد الوزير يقول في صرامة : « انى أهلك عشر دقائق تحزم فيها أمرك ، وسأجلس هنا على هذا الكرسي حتى اذا انتهت الدقائق العشر وكننت لا تزال على عنادك فسأغادر هذا المكان وستحسبني مخبولا كما تشاء ولكنك سترى العقاب ! »

فضرب بيزمو الارض بقدمه ولكنه لم ينطق ببنت شفة ، وعندئذ أمسك فوكيه بقلم ورقة ورق وكتب ما يأتي : « أمر الى رئيس البلدية بحشد الحراس ومهاجمة الباستيل » . و « أمر الى قائد الحرس السويسرى والى قائد حرس الملك باقتحام الباستيل خدمة للملك »

وكان بيزمو يقرأ ما يكتبه الوزير دون أن ينبس ببنت شفة ، فلما وجده مستمرا في الكتابة وقرأ أمره الجديد وفيه (الى كل جندى وكل مواطن وكل سيد ، بالقبض على المسيو دربلای أسقف فان حيثما يجده ، وكذلك على كل شركائه وفي مقدمتهم المسيو دى بيزمو محافظ الباستيل المتهم بالخيانة العظمى والتمرد) . لم يتمالك نفسه وصاح قائلا : « كفى يا صاحب الفخامة ! انى لا أفهم شيئا من الموضوع كله ، ولكنى أخشى أن تقع فى ساعتين اثنتين فواجع مروعة وكان مبعثها الجنون . ولا ريب أن الملك حين يحاكمنى سيرى عذرى اذ أخالف النظم . تعال معى يا صاحب الفخامة الى زنزانة مارشبال ! »

فنهض فوكيه واندفع خارجا من الغرفة يتبعه بيزمو وهو يمسح العرق الذى يتصبب من جبينه ويقول : « ما أفضله صباحا ! يا للعار ! » . بينما فوكيه يستحله وقد لحظ أنه ما زال خائفا منه فقال له : « دع عنك لعب الاطفال هذا وخذ المفاتيح من السجن فانه لا يجوز لأى انسان أن يرى أو يسمع ما سيحدث ! »

ولما وجده مترددا فى تنفيذ ذلك ، هدده قائلا : « حذار يا مسيو دى بيزمو ، والا غادرت الباستيل توا لكى أنفذ أوامرى بنفسى »

فأطرق بيزمو ، ثم تناول المفاتيح من يد السجن ووضعه ، ومضى يصعد الدرج فى صحبة الوزير وحده ، وسمع هذا ضجة فى أعلى السلم يتخللها السخط والسياب فسأل المحافظ : « ما هذا ؟ » . فأجاب وهو يغمز بعينه : « هذا صاحبك مارشبال . وهكذا يصبح السجناء المجانين ! »

فارتجف الوزير فرقا اذ تبين صوت الملك ووقف لحظة على الدرج ، ثم أخذ المفاتيح من بيزمو اذ كان هذا يخشى أن ينقض عليهما السجن المخبول . وصاح به : « أى مفتاح هو الخاص بهذا الباب ؟ » . وفيما هو يريه المفتاح سمعت صيحة رهيبه يصحبها ضرب شديد على الباب فتردد لهما صدى ملاء السلم . فقال فوكيه لبيزمو بصوت قاصف : « اذهب من هنا ! »

فتمتم بيزمو قائلا : « هذا يسرنى . سيتقابل الآن اثنان من المجانين وانى موقن أن أحدهما سيقتل الآخر ! »

فصاح به الوزير فى حدة قائلا : « اذا وضعت قدمك على هذا السلم قبل أن أناديك فستحتل مكان أحقر سجين فى هذا السجن ! »

فتمتم بيزمو وهو ينسحب بخطى متثاقلة : « ان هذه الوظيفة ستقضى على ! »

وكانت صيحات السجن تزداد شدة ، بينما انتظر فوكيه حتى استوثق من أن بيزمو وصل الى أسفل الدرج ثم وضع المفتاح فى قفل الباب وأداره ، وعندئذ سمع صوت الملك الأجنس وهو يصيح قائلا : « النجدة ، النجدة ! .. أنا الملك ! » . وكان مفتاح الباب الثانى غير مفتاح الباب الاول فاضطر فوكيه أن يبحث عنه فى حزمة المفاتيح ، على حين كان الملك يصيح فى شدة غضبه قائلا : « لقد زج بى فوكيه فى السجن ! النجدة ضد فوكيه ! أنا الملك . ساعدوا الملك على فوكيه ! »

فمزقت هذه الصيحات قلب الوزير ، وتلتها ضربات شديدا على الباب بجزء من الكرسي الذى تسلح به الملك . وأخيرا وجد فوكيه المفتاح ففتحه فى الوقت الذى خارت فيه قوى الملك فكانت كلماته غير واضحة وهو يقول : « الموت لفوكيه ! الموت للخائن فوكيه ! »



كاد فوكيه يرتطم بالملك الذى كان واقفا وراء باب الزنزانه ، ومضت لحظة رهيبه صمت فيها كل منهما وقد عرف صاحبه ، ثم صاح الملك صيحة فزع قائلا : « فوكيه . . هل جئت لكى تقتلنى ؟ ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « رباه . . الملك على هذه الهيئة ؟ ! »

والواقع أن منظر الملك كان يبعث الفزع ، فقد كانت ثيابه ممزقة ، وكان قميصه ملوثا بالتراب والعرق ، والدم يسيل من صدره وذراعيه ، وكان شاحب الوجه أشعث الشعر أعير السحنة ، يبدو عليه اليأس والجوع والخوف معا . وتأثر فوكيه بمראה وقال له بصوت مختنق : « مولاي . . ألا تعرف أخلص أصدقائك ؟ »

فنظر اليه الملك ثمزرا وقال : « أنت ؟ . . أنت صديق لى ؟ ! » فركع الوزير بين يدى الملك وقال له فى هدوء حزين : « بل أكثر خدامك اجلا لا لك ! » . ثم أعقب ذلك بأن نهض واقترب منه ثم احتضنه فى عطف وحنان قائلا له والدمع ينهمل من عينيه : « يا مليكى ! . . يا ولدى ! . . ما أشد ما قاسيته ! »

وكان لويس قد استعاد سكينته فشمع بالحجل من مظهره ومن مسلكه

بهذا الجيش لنحاصر أولئك الثوار الذين أحسبهم قد تحصنوا الآن ،
فقال فوكيه : « لو أن هذا حدث لدهشت له ، لأن زعيمهم الذى هو
روح تلك المؤامرة قد كشفته فسقط المشروع كله ! »
فقال الملك : « وهل كشفت ذلك الأمير الزائف ؟ »
فقال : « انى لم أره بعد يا مولاي ! »

فسأله متعجبا : « من الذى رأيته اذن ؟ »
فأجاب قائلا : « زعيم تلك المغامرة ، وهو غير ذلك الشاب البائس الذى
لم يكن إلا أداة فى يده ، وقد حكم عليه بالشقاء طول حياته كما يبدو . أما
زعيم المؤامرة ومنفذها فهو المسيو دربلاى أسقف فان ! »

فغمغم الملك قائلا : « صديقك ؟ » فنظر الوزير الى الملك فى نيل
واخلاص ظاهرين وأجاب : « لقد كان صديقى يا مولاي ! »

فقال الملك بلهجة أقل ودا من قبل : « هذا ظرف سىء بالنسبة لك ! »
فقال فوكيه : « ان الصداقة التى من هذا القبيل يا مولاي لا شئ فيها
يؤاخذ عليه ما دمت جاهلا بالجريمة ! »

فقال الملك : « كان ينبغى لك أن تتوقعها ! »
فأطرق الوزير وقال : « انى على كل حال أضع نفسى فى يدى جلالتك
حتى تتحقق أنى لست مذنباً ! »

فقال الملك متداركا : « انى ما قصدت ذلك يا مسيو فوكيه . كلا . . . لم
أقصد ذلك قط ، وأؤكد لك أنه برغم القناع الذى كان على وجه ذلك الشرير
فقد خيل الى أنه هو . وقد كان معه رجل ضخم الجسم هائل القوة كان
يتوعدنى بقوته ولست أدري من هو »

فقال فوكيه : « لا بد أنه صديقه البارون دى فالون أحد الفرسان
الاربعة »

فقال الملك : « صديق دارتانيان والكونت دى لافير ؟ يجب ألا ننسى
العلاقة التى بين المتآمرين وبين المسيو دى براجلون ! »

فقال فوكيه : « لا يذهبن بك الفكر بعيدا يا مولاي . . . ان دى لافير هو
أشرف رجل فى فرنسا . فافنع بأولئك الذين سأسلمهم الى جلالتك ! »

فعض الملك على شفتيه وقال : « حسنا ! . . اذن أنت ستقدم الى المجرمين
الاوغاد عقب وصولنا الى فو على رأس الجيش ، وانى لأرجو ألا ينجو أى
واحد منهم حتى لا يفلت عنقه من الجزاء الذى استحقه ! »

فقال الوزير : « هل جلالتك ستأمر بقتلهم ؟ »
فقال الملك فى كبرياء : « ليفهم كل منا الآخر يا مسيو فوكيه . . . اننا
لا نعيش الآن فى تلك العصور التى كان الاغتيال فيها وحده وسيلة الملوك

ومن الشفقة التى أبدتها وزيره نحوه ، وتراجع الى الوراء ، فلم يفهم فوكيه
كنه هذه الحركة ، ولم يدرك أن الملك فى كبريائه لن يغفر له رؤيته اياه فى
تلك الحالة المزرية . ثم قال له فى خشوع : « تعال يا مولاي . . . انك حر
طليق ! »

فقال الملك متعجبا : « طليق ؟! . . . أنت تطلق سراحى بعد أن تجرأت
على رفع يدك ضدى ؟! »
فقال فوكيه فى استياء : « لا تصدق يا مولاي انى يمكن أن أرتكب مثل
هذا الوزر ! »

ثم أخذ يقص على الملك تفصيل ما حدث ، وكان لويس الرابع عشر يستمع
له وهو يشعر بأنم نفسانى شديد ، حتى اذا انتهى فوكيه من كلامه، تغلب
عظم الخطر الذى استهدف له الملك على هول السر الذى وقف عليه بشأن
وجود أخ توأم له ، ثم قال لفوكيه بغتة : « ان مسألة التوأم هذه أكذوبة . . .
انها أمر مستحيل . لا يمكن أن تكون قد خدعت بها ! . . . أجل انه لمستحيل
أن ترتاب فى شرف أمى وفضلتها . ووزيرى الاول لم ينتقم لى بعد من
الجناة ! »

فأجاب فوكيه : « فكر يا مولاي قبل أن يدفعك الغضب . ان ميلاد
أخيك . . . »

فقطع الملك كلامه قائلا : « ليس لى سوى أخ واحد ، وأنت تعرف ذلك
كما أعرفه ! . . . هناك مؤامرة تبدأ من محافظ الباستيل ! »

فقال له فوكيه : « كن حذرا يا مولاي . . . ان ذلك الرجل قد خدع مثل
غيره بالتشابه الشديد الذى بينك وبين ذلك السجين . . . ولا شك فى أن
الذين أعدوا كل شئ ليخدعوا الملكة الوالدة وأعضاء الأسرة المالكة ووزراءك
وضباطك ، قد اطمأنوا كل الاطمئنان الى تمام التشابه بين جلالتك وبينه ! »
فتمتم الملك قائلا : « ولكن . . . ان كل هؤلاء الآن فى (فو) . فكيف
تركتهم هناك ؟ »

فقال فوكيه : « كان واجبى العاجل هو اطلاق سراح جلالتك ، وقد
أديت هذا الواجب . والآن سأنفذ كل ما تأمر به . وأنا فى انتظار أمر
جلالتك ! »

ففكر لويس هنيهة ثم قال : « أجمع كل الجيوش التى فى باريس »
فقال الوزير : « لقد صدرت الأوامر الخاصة بذلك يا مولاي »

فصاح الملك : « أنت أصدرت هذه الأوامر ؟ »
فقال : « أجل يا مولاي . . . أصدرتها لهذا الغرض ، وبعد أقل من ساعة
تكون جلالتك على رأس عشرة آلاف جندى ! »

فكان جواب الملك أن تناول يد فوكيه وضغطها بما يدل على أنه قد تبدد
من ذهنه أخيرا كل سوء ظن بوزيره . ثم قال له : « سنذهب توالى فو

الى الانتقام من أعدائهم ! ان عندى برلمانا يجتمع ويقضى باسمى ، وعندى
مشائق تنفذ عليها سلطتى لإلعيا ! »

فامتقع وجه فوكيه وقال : « اسمح لى يا صاحب الجلالة أن أعارضك ،
فان أى إجراء يتخذ فى هذا الشأن سيجر الفضيحة على العرش ، ولا يجوز
أن يذكر اسم الملكة أن مصحوبا بالابتسام ! »

فغضب الملك على ذلك قائلا : « ومع هذا يجب أن يأخذ العدل مجراه ! »
فقال فوكيه : « حسنا يا مولاي ! ولكن الدم الملكى لا يصح أن يسفك
على المشنقة ! »

فصاح الملك غاضبا : « الدم الملكى ؟ اذن أنت تصدق تلك القصة ؟
ان قصة التوأمن هذه مخترعة ، وانى أرى فى اختراعها نفسه أكبر جرم
اقترفه دربلاي . انى أريد أن أعاقب على الجريمة ذاتها قبل عقابهم على
اتخاذهم العنف معى أو اهانتهم اياى ! »

فقال الوزير فى حزم : « مولاي . ان جلالتك تستطيع أن تقضى على
حياة أخيك فيليب اذا شئت فان هذا أمر يعينك وحدهك ، وأحسب أن
جلالتك ستستشير الملكة الوالدة ، وفى هذا ما يكفى . ولست أحب أن
أندخل فى هذا الأمر ، على أن لى رجاء واحدا أحب أن تحققه جلالتك »

فقال الملك : « أى رجاء لك يا مسيو فوكيه ؟ ثق بأننى لن أتوانى لحظة
عن تحقيقه جزاء اخلاصك ! »

فقال : « شكرا لك يا مولاي ! ان رجائى أن تغفو عن دربلاي ودى
فالون ! »

فنظر اليه الملك متعجبا وقال : « أعفو عن ارادا اغتيالى ! ؟ »

فقال فوكيه : « أنهما نائران لا أكثر من ذلك يا مولاي ! »

فقال الملك : « لقد فهمت . أنك تطلب العفو عن صديقك ؟ »

فأحس الوزير أن هذه العبارة جرحت احساسه وغمغم مرددا :
« صديقى ؟ » . بينما قال الملك : « نعم أنهما صديقاك . ولكن سلامة الدولة
تتطلب عقابا رادعا للمجرمين ! »

فقال فوكيه : « مولاي . انى لا أسمح لنفسى بأن أذكر جلالتك بأنى
أعدت اليك حريتك وأنقذت حياتك ! بل لست أسمح لنفسى بأن أقول
لجلالتك ان المسيو دربلاي لو أراد حقا أن يفتالك لكان من السهل عليه أن
يقتلك فى هذا الصباح بغابة سينار فينتهى الأمر ! »

فبدا الفزع فى وجه الملك ، واستطرد فوكيه فقال : « كان دربلاي
يستطيع أن يطلق رصاصة على رأس لويس الرابع عشر فتشوه وجهه حتى
لا يعرفه أحد حين تكتشف جثته وبذا كان مشروع دربلاي يبلغ نهايته ! »
فامتقع وجه الملك اذ لاح له عظم الخطر الذى كان يواجهه . واستمر

فوكيه يقول : « لو كان المسيو دربلاي قاتلا مغتالا ما كان ليخبرنى بخطته ،
لقد كان على يقين من أن مؤامرتة لن تكتشف ، وكان يرى أن ذلك العاصب
فى نظرنا ليس الا ملكا حقا ما دام ابنا اللويس الثالث عشر . ولو أن الملكة
أن عرفته فانه على أى حال ابنها ! »

وبدل أن يتأثر الملك بهذه الصورة التى رسمها له فوكيه عن سماحة
أراميس ، شعر بالزيد من المهانة ، ولم يطق أن يتصور أن حياته الملكية
كانت بيد ذلك الرجل حينما من الزمن . وما لبث أن قال لفوكيه : « انى
لا أدرى حقا لماذا تطلب العفو عن هؤلاء المجرمين ؟ ما جدوى المطالبة بشيء
يمكن أن يتم دون رجاء ؟ »

فقال فوكيه : « لست أفهم ما تعنيه يا مولاي ! »

فقال : « ان ما أقوله واضح مفهوم . فانا الآن فى الباستيل ، والحراس
يحبسوننى مخبولا . ولا أحد هنا يعرف انى لست مارشيوالى السجين
العادى . وعلى هذا تستطيعون أن تتركوا هذا السجين المجنون حيث هو
حتى ينتهى ، فلا يحتاج المسيو دربلاي ولا المسيو دى فالون الى عفو لأن
ملكهما الجديد سيعدهما بريئين ، بل سيكافئهما على أنهما جاءا به من السجن
الى العرش ! »

فامتقع وجه فوكيه تأثرا وقال : « ان جلالتك تسمى الى بغير حق يا مولاي !
انى لست طفلا كما أن المسيو دربلاي ليس أبله . ولو أنى أردت تنصيب
ملك جديد على العرش كما تقول لما جئت الى هنا لأقتحم الابواب وأطلق
سراحك بل ان ذلك كان ينبىء عن نقص فى الذكاء . ان الغضب وحده هو
الذى جعلك تكافى خدمتى بهذه الاساءة ! »

فأدرك الملك ما كان من شططه وتذكر أن ابواب الباستيل ما زالت مغلقة
عليه . ونفذت كلمات فوكيه الخالصة الى قلبه فرق قليلا وقال له : « انى
لم أقصد أن أسىء اليك ، والله يعلم ذلك . ولكنك طلبت الى العفو فأجبتك
بما أملاه ضميرى . وعلى ذلك ما دمت أحكم ضميرى فان المجرمين اللذين
تتحدث عنهما لا يستحقان عندى أدنى شفقة ! »

وبقى فوكيه ساكتا بينما استطرد الملك فقال : « اننى أقول لك هذا
وأنا أعلم أنى لا أزال فى قبضة يدك ، وأن حريتى بل حياتى نفسها قد
تتوقف على قبول ما تطلبه منى ! »

فقال فوكيه : « لا شك انى أخطأت اذ قدمت ملتصقا بهذا الى مولاي فى
صورة توحى بأنى أفرض قبوله فرضا ! وأنا أسف على ذلك وأرجو صفح
جلالتك ! »

فابتسم الملك وقال : « لقد صفحت عنك يا عزيزى فوكيه »

فسكت فوكيه قليلا ثم قال : « لقد نلت الصفح عن نفسى ولكن المسيو
دربلاي والمسيو دى فالون . . . »

فقطع الملك كلامه قائلا : « انهما لن ينالا منى عفوا ما دمت حيا ، وأرجو
ألا تحدثنى عنهما مرة أخرى ! »

فقال فوكيه : « سمعا وطاعة يا مولاي ! » . ونظر اليه الملك متفحصا ثم
قال له : « وأرجو أيضا ألا يترك هذا أثرا فى نفسك ! »

فقال الوزير : « فليطمئن مولاي ! انى فى الواقع فكرت فى هذا من
قبل ، وقد اتخذت اجراءاتى على أساس أن جلالتك قد لا تغفو عنهما ! »

فسأله الملك فى دهشة : « ماذا تعنى بذلك ؟ » . فأجاب بقوله : « لقد
قدرت للمسيو دربلای أنه باقضاء سره الخطير لى قد هيا لى فرصة انقاذ
الملك والدولة . وعلى هذا لم أستطع أن أبعث به الى الموت ، ولم أستطع أن
أعرضه لمثل غضبك هذا لانه يوازى قتله بيدي ! »

فقال له الملك : « حسنا ! وماذا فعلت اذن ؟ » . فقال : « لقد أعطيت
المسيو دربلای أحسن جياى ، وتركت له أربع ساعات يسبق بها من يمكن
أن تبعثهم جلالتك لادراكه ! »

فتمتم الملك قائلا : « فليكن ذلك ! ان القبض عليه بعد هذه الساعات
الأربع ليس من المحال ! »

فقال فوكيه : « الواقع يا مولاي انى ما سمحت له بذلك السبق الا لى
أنقذ حياته، ومن أجل ذلك وهبته جزيرة (بل - ايل) لتكون مرفأ أمان له،
فقال له الملك : « ولكنك أهديت الى (بل - ايل) هذه من قبل ؟ »

فقال : « عفوا يا مولاي ! اننى لم أهدها اليك لى تقبض فيها على
أصدقائى ! »

فبدا الاهتمام فى وجه الملك ، ونظر الى فوكيه بعينين تقديحان شررا، ولكن
هذا كان مطمئنا الى أنه ادى واجبه طبقا لما أملاه عليه ضميره فقابل نظرة
الملك بانتسامة هادئة ، واضطر الملك الى أن يهدىء من غضبه وقال بعد أن
سكت هنيهة : « أعائد أنت الى فو ؟ »

فأجاب فوكيه : « انى أنتظر أمر جلالتك . ولكنى أحسبك محتاجا الى
تغيير ملابسك قبل الظهور أمام الحاشية »

فقال الملك : « سنمر على اللوفر . هيا بنا ! »

وخرجا من السجن مارين ببيزمو ، فنظر هذا الى الملك فى دهشة وهو
يحسبه مارشياى يخرج من السجن مرة ثانية ، وفيما كان واقفا يعض على
شفتيه من الغيظ لمدم استطاعته شيئا حياى ذلك ، ناداه فوكيه وأعطاه
أمرا بالافراج عن السجن موقعا عليه باسم الملك ، فتسلم الأمر وارتسمت
على شفثيه ابتسامة ساخرة حزينة، اذ حسب أن السجنى الراحل (مارشياى)
هو الذى كتب ذلك الأمر فى نوبة من نوبات الجنون !

فليب الملك

استطاع فيليب توام لويس الرابع عشر أن يقوم بدوره الملكى خير قيام
بعد أن حل محل الملك فى غرفة نومه بقصر (فو) بأن أصدر أمره بأعداد
استقبال حافل عند قيامه من النوم ، وقد اتخذ هذا القرار برغم أن المسيو
دربلای لم يعد اليه فى الموعد المنتظر ، ولعله اعتقد أن غيبته لن تطول فأراد
أن يجرب مقدرته وحظه دون أى سند أو ارشاد ! . على أن سببا آخر
حفزه الى ذلك هو أن أمه الملكة آن النمسوية التى ضحت به فيما يعتقد
ستكون بين يديه عما قليل !

وفتح فيليب أبواب الجناح الملكى فدخل كثيرون فى سكون . ولم يتحرك
حين أخذ خادمه يلبسه ثيابه ، وكان قد درس فى الليلة السابقة عادات
أخيه ليمثل دوره بصورة لا تثير أية شبهة . فلما أتم ارتداء ثياب الصيد
الكاملة سمح باستقبال زائريه . وبفضل ذاكرته ومذكرات اراميس عرف
كل واحد منهم ، وأولهم الملكة آن والدته التى كانت مستندة الى ذراع
ابنها الأصغر ، ثم قرينة هذا الأمير مع المسيو دى سان اينيان . وقد اختفت
ابتسامته حين رأى أمه وبدا كأنه يرتعد ، وحدث نفسه قائلا : « أهذه
الملكة النبيلة المظهر البادية الالم هى التى ضحت ابنا لها فى سبيل سياسة
الدولة ؟ » . ولحظ أنها ما زالت تبدو جميلة برغم تقدم السن بها ، وكان
يعرف أن لويس الرابع عشر يحبها ، فألى على نفسه أن يحبها كذلك والا
يعاقبها على فعلتها وقد بلغت الكبر . ونظر الى أخيه الأصغر نظرة عطف
وحنان ، فان هذا لم يقتصب منه شيئا ولم يسبب له شقاء . وعاهد نفسه
على أن يلبى كل مطالبه . ثم انحنى انحناء ودية لسان اينيان الذى كان
يتنسم ويبدى كل ما يستطيع من اجلال . ومد يدا مرتعشة الى الأميرة
هنريتا زوجة أخيه الأصغر التى بهره جمالها لأول وهلة ، ولكنه رأى فى
نظرتها جفاء فقال يحدث نفسه : « انه لا يسر لى أن أكون بمثابة الأخ لزوجة
أخى هذه من أن أكون عشيقا لها »

والواقع أنه لم يكن يخشى سوى استقبال الملكة زوجة لويس الرابع
عشر ، ولكنها لحسن حظه لم تات الى حفلة الاستقبال . ثم بدأت الملكة
الوالدة خطابا سياسيا علقته به على ترحيب المسيو فوكيه بالبيت الملك
ومزجت فيه عداوتها لفوكيه بمدحها للملك وسؤالها عن صحته قائلة :
« والآن يا بنى لعلك اقتنعت بما هناك عن المسيو فوكيه ؟ »

وهنا التفت فيليب الى سان اينيان وقال له : « ياسان اينيان أرجو أن تذهب وتسال عن صحة الملكة ! »

وكانت هذه الكلمات أول ما نطق به بصوت مرتفع ، فاسترعى الاختلاف الزهيد الذي بين صوته وصوت لويس انتباه الملكة آن ، فنظرت اليه مليا ، بينما خرج سان اينيان من الغرفة لتنفيذ الأمر الصادر اليه

ثم قال فيليب لوالدته : « سيدتي .. انى لا أحب أن أسمع ذما فى المسيو فوكيه ، وأنت تعلمين ذلك ، ولقد أطريته أنت نفسك ! »

فقالت : « هذا صحيح ولذا أسالك عن شعورك نحوه ! »

وقالت هنريتا : « مولاي ، انى من جانبي أميل دائما الى المسيو فوكيه . انه رجل ذو ذوق رفيع فهو اذن رجل ممتاز ! »

وقال الأمير : « انه وزير مالية غير ضنين ولا شحيح . ويدفع بالذهب كل ما أحيله اليه من المطالب ! »

فقالت الملكة الوالدة : « ان كل انسان فى هذا الأمر يفكر فى صالحه لا فى صالح الدولة ! . ان المسيو فوكيه فى الواقع يخرّب مالية الدولة ! »

فقال فيليب بصوت أقل ارتفاعا : « حسنا يا أماه ! . أنت أيضا تجعلين من نفسك درعا للمسيو كولبير ؟ »

فدهشت الملكة العجوز وقالت : « وكيف ذلك ؟ »

فأجاب فيليب : « لانك فى الحقيقة تتكلمين كما لو كانت صديقتك القديمة مدام دى شيفريز تتكلم ! »

فتساءلت الملكة آن متعجبة : « مدام دى شيفريز ؟ » بينما استطرد فيليب فقال :

« أليست مدام دى شيفريز دائما فى حلف ضد اى انسان ؟ .. وهل لم تزرك أخيرا يا أماه ؟ »

فقالت : « سيدى .. انك تحدثنى الآن بلهجة تجعلنى أتصور انى أستمع الى ابيك ! »

فقال لها : « ان أبى لم يكن يميل الى مدام دى شيفريز ، وكان له الحق فى ذلك ! .. اما أنا فانى لا أحبها أكثر مما كان يحبها .. . واذا كانت تحسب أنها ستعود الينا لتبذر بذور الفرقة والبغضاء تحت ستار استجداء المال ، فانى سأنفىها خارج المملكة وأنفى معها كل من يتدخل فيما لا يعنيه من الأسرار ! »

ولم يكن قد قدر اثر هذه الكلمات الرهيبة ، أو لعله أراد أن يرى أثرها ، والواقع أن الملكة آن أوشكت أن يفشى عليها فمدت يديها صوب ابنها الأصغر فسندها وأحاطها بذراعه . وتمتمت هى قائلة : « مولاي . انك تقسو على والدتك ! »

فأجاب قائلا : « كيف ذلك ؟ . انما تكلمت عن مدام دى شيفريز . فتؤثر والدتى مدام دى شيفريز على سلامة الدولة وسلامة شخصى ؟ . حسنا اذن يا سيدتى ! . انى أقول لك أن مدام دى شيفريز انما عادت الى فرنسا لكى تقترض مالا ، وانها لجأت الى المسيو فوكيه لكى تبيعه سرا معيناً ! »

فصاحت الملكة آن : « سرا معيناً ؟ ! »

فقال : « أجل ! . لقد زعمت أن هناك اختلاسات اقترفها وزير المالية . وقد ردها المسيو فوكيه ردا غير كريم ، مؤثرا تقدير الملك له على كل صلة بالدساسين . وهنا باعت مدام دى شيفريز ذلك السر المزعوم الى المسيو كولبير . ولما كانت لا تشبع ، ولم تقنع بمائة الف كرون ابتزتها من ذلك الموظف ، فقد صعدت الى أعلى وحاولت أن تجد ينابيع أعماق غورا .. اليس هذا صحيحا يا سيدتى ؟ »

فقالت الملكة الوالدة بقلق : « انك لا يفوتك شيء يا مولاي ! »

فاستمر فيليب قائلا : « والآن لى الحق فى أن أبغض هذه السيدة التى تدبر الفضيحة لانسان وأخراب لآخر . واذا كان الله قد شاء أن ترتكب بعض الجرائم وأخفاها فى ظل رحمته ، فانى لا أسمح لمدام دى شيفريز أن تكون لها قوة تعارض بها مشيئة الله ! »

وقد تأثرت الملكة آن بهذا الشطر الأخير من عبارة ابنها ، حتى لقد شعر بالشفقة عليها ، فأمسك بيدها وقبلها بحنو ، ولم تدر أنه بهذه القبلة قد غفر لها ما سببته له من آلام طول السنوات الأخيرة . ثم ترك فيليب فترة من الصمت تمحو الانفعالات الأخيرة ، وعاد يقول وعلى فمه ابتسامة مشرقة :

« اننا لن نخرج اليوم فان عندى خطة ! »

والتفت نحو الباب وقد بدأ يشعر بالقلق لغياب أراميس ، وأرادت الملكة الوالدة أن تغادر الغرفة فقال لها : « ابقى هنا يا أماه فانى أريد أن أعقد صلحا بينك وبين المسيو فوكيه ! »

فقالت له : « انى لا أكن ضغنا للمسيو فوكيه وانما يزعجنى اسرافه » فقال لها : « ستعالج ذلك ، ولن نأخذ من وزير المالية سوى صفاته الحسنة ! »

ولحظت الأميرة هنريتا انه ينظر كل لحظة الى الباب ، وحسبته ينتظر دى لافالير فأرادت أن تسدد نحوه سهما صغيرا مسما وقالت له : « ماذا ينتظر مولاي ؟ »

فأدرك فيليب ما يدور بخلفها وقال لها : « أخطاه .. انى أنتظر رجلا ممتازا وناصحا عظيم المقدرة وأريد أن أقدمه اليكم جميعا وأن ينال عطفكم وتقديركم ! »

ورأى دارتايان بالباب فقال له : « أدخل يا دارتايان »

فجاء دارتانيان وقال له : « ماذا تريد يا صاحب الجلالة ؟ » . فسأله :
« ابن أسقف فان صديقك ؟ . انى أنتظره ولكنه لم يأت بعد .. دع أحدا
يبحث عنه »

فوقف دارتانيان هنيهة ذاهلا ثم حسب ان أراميس غادر (فو) فى مهمة
سرية كلمة الملك أياها وأن الملك يريد كتمان أمرها عن الجميع ، فأنحنى أمامه
وقال :

— مولاي .. أتريد جلالتك احضار المسيو دربلای اليك حتما ؟

فقال : « ليس حتما . ولكن اذا وجدتموه ! »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا ما حسبته » . ثم سألت الملكة
آن : « هل المسيو دربلای هذا هو أسقف فان ؟ »

فاجابها فيليب : « أجل يا سيدتى .. انه فارس قديم ! »

فاحمر وجه الملكة واستطرد فيليب فقال : « أحد الفرسان الأربعة
المشهورين الذين أتوا من ضروب البسالة ما يدعو الى العجب ! »

وهنا ندمت الملكة آن على ملاحظتها وأرادت ان تغير مجرى الحديث فقالت :
« على أية حال .. أنا موقنة بانك تحسن الاختيار يا مولاي ! »

فأنحنى الجميع تأييدا لهذا القول .. ثم قال فيليب : « ستجدين فيه
فطنة المسيو دى ريشيليو وسعة حيلته ، دون شح المسيو دى مازارين ! »

وهنا سأل الأمير الشاب : « هل سيكون رئيسا للوزراء يا مولاي ؟ »

فقال فيليب : « سأخبرك عن ذلك فيما بعد أيها العزيز »

ثم صاح قائلا : « لينبأ المسيو فوكيه بانى أريد ان اكلمه امامكم
لا تنسحبا »

وهنا عاد المسيو دى سان اينيان وقال : « ان الملكة بخير ، وقد لزمتم
فراشها من باب الحيلة لتقوى على تحقيق جميع رغبات الملك »

وبينما كان البحث جاريا عن فوكيه وأراميس ، مضى الملك الجديد فى
أحاديثه هادئا دون ان يرتاب فى أمره أحد من أفراد الأسرة المالكة أو
الضباط ورجال البلاط والخدم . ولم يسعه أراء هذا الا أن يحمد الله وأن
يعجب بنفسه اذ أتقن تمثيل دوره ! .. غير انه مع هذا شعر بان ظلا يقف
بينه وبين مجده الجديد ، وذلك لأن أراميس لم يأت ! .. ونسى فيليب فى
غفلته أن يصرف أخاه وقربنته هنريتا ، وقد دهش هذان وبدأ يفقدان
صبرهما .. وأنحنت الملكة آن على أذن ولدها وكلمته باللغة الأسبانية ،
وكان يجهل هذه اللغة جهلا تاما فامتقع وجهه أزاء هذه العقبة غير المتوقعة،
ولكنه تجلد فلم يبد عليه اضطراب ، واكتفى بان نهض واقفا فقالت له
الملكة آن : « ماذا تريد ؟ »

فالتفت الى باب السلم الثانى وقال : « ما هذه الضجة ؟ »

وفى الوقت نفسه سمع صوت يقول : « من هنا .. من هنا ! .. بضع
خطوات أخرى يا مولاي ! »

فقال دارتانيان : « هذا صوت المسيو فوكيه »

وهنا قال فيليب : « اذن لا يمكن أن يكون المسيو دربلای بعيدا ! »

وما كاد يتم عبارته حتى ظهر القادمون ، واتجهت الأنظار كلها الى الباب
الذى كان ينتظر أن يلجئه المسيو فوكيه ، ولكن لم يكن فوكيه هو الذى
دخل .. بل ترددت فى القاعة صيحة رهيبة اشترك فيها فيليب وكل
الحاضرين ، فقد بدا امامهم فى الضوء الخافت منظر لم يكن أحد منهم يتوقع
ان يراه حتى فى الأحلام !

كان القادم هو الملك لويس الرابع عشر نفسه ، وقد وقف شاحب الوجه
مقطب الجبين بباب السلم السرى ، بينما ظهر وجه فوكيه ورائه !

وكانت الملكة الوالدة حين رأت هذا المنظر لا تزال ممسكة بيد فيليب ،
فصاحت مرتاعة كأنها أبصرت شبحا أمامها ! .. وذهل الأمير الأصغر وأخذ
يردد بصره بين أخيه لويس الرابع عشر الواقف بجانبه وبين هذا الآخر
الواقف بالباب وكأنه خيال فى المرآة ، وخطت الأميرة هنريتا خطوة الى
الأمام وهى تفرك عينيها غير مصدقة أن ما تراه حقيقة !

والواقع أن لويس وفيليب كان كلاهما شاحب الوجه يرتجف جسمه
وتنتقبض يداه وقد أخذ كل منهما يفحص الآخر بنظرانه وكان أعينهما
تتبادل السهام !

وكان لويس قد مر باللوفر وبدل ملابسه فبدا هو وفيليب كأنهما
شخص واحد !

ولم يكن فوكيه أقل دهشة وذهولا حين رأى فى فيليب تلك الصورة
الحية للملك لويس الرابع عشر وقال لنفسه : « ان أراميس معذور حقا فى
اختياره هذا الأسير ليحل محل شقيقه التوام وشبيهه الى هذا الحد ! »

ومضت دقائق ساد خلالها سكون رهيب ، وكان دارتانيان مستندا الى
الحائط امام فوكيه ، وقد وضع يده على جبينه يسائل نفسه : كيف حدثت
هذه المعجزة ؟ .. ثم اتضح له ما كان فى مسلك أراميس طول الأيام الأخيرة
من خفاء يرتاب فيه ! .. ثم بدا كأن الحاضرين جميعا يستيقظون بجهد من
نوم مضطرب . غير أن لويس كان أقلهم صبرا وأكثرهم اعتيادا للسلطان ،
فجرى الى إحدى التوافذ وفتحها على مصراعها فى عنف مزق ستائرهما ! ..
وما غمر الضوء المكان حتى تراجع فيليب الى الوراء فى حركة آلية ، وانتهز
لويس هذه الفرصة فخطب الملكة الوالدة قائلا : « أماه . ألا تعرفين ولدك
ما دام الجميع هنا لا يعرفون ملكهم ؟ »

فارتاعت الملكة آن ورفعت بصرها الى السماء دون أن تنطق ببنت شفة !
وعلى اثر ذلك التفت إليها فيليب بدوره وقال لها : « أماه .. ألا تعرفين

الوداع الاخير

افاد اراميس ويورتوس من الهلة التي اتاحها لهما فوكيه ، فاطلقا لجواديهما العنان ، ومضيا يطويان بهما المسافات الشاسعة بما عهد فيهما من براعة في الفروسية ، ولم يكن يورتوس يدري تماما نوع المهمة التي اشتركا في اداها ، ولكنه رأى اراميس يعدو به جواده ففعل مثله . فلما بدأ من (فو) بمقدار اثني عشر فرسخا ، وقفا لأول مرة لابدال الجوادين . وفي خلال ذلك سأل يورتوس اراميس همسا عما هما بسبيله فأجابته قائلا : « صه . يكفي أن تعلم أن حظنا يتوقف على سرعة جيادنا ! »

وكانما عاد يورتوس فارسا شابا كما كان في سنة ١٦٢٦ فاستحث جواده وقد فعلت فيه كلمة ارس عن الحظ والسرعة فعل السحر ثم حدث نفسه قائلا : « ترى أي حظ بجري وراءه الآن ؟ . ان الحظ عادة يعنى الكفاية لمن لا مال له ، ويعنى الكثير الوفير لمن عنده ما يكفيه . ولا شك أن اراميس يعنى أن الملك سيجعلني دوقا ! »

ولم يطق صبورا على الانتظار فصاح باراميس قائلا : « اتعنى ان الملك سيجعلني دوقا ؟ . فلم يسع هذا الا أن ابتسم لسداحة زميله القديم وقال له : « ربما ! » . على أنه برغم ابتسامه وجلده كان يكاد ينفجر لشدة الخلق والغيظ ، فزاد في ركض جواده وحثه على ذلك بسببه تارة وضره تارة اخرى حتى سال الدم من جنبه واضطر يورتوس برغم جمود احساسه الي أن يزجر حانقا . وبقي الفارسان هكذا زهاء ثماني ساعات حتى وصلا الي (اورليانز) في الساعة الرابعة بعد الظهر . وادرك اراميس ان اللحاق بهما فوق الاستطاعة ، وعلى هذا قرر الاستراحة حتى الساعة السابعة مساء ، على أن يستأنفا الرحلة لقطع الفراسخ العشرين الباقية امامهما بالسرعة نفسها ، وبعد ذلك لا يمكن لأحد - حتى دارتانيان نفسه - أن يدركهما !

وقبل أن يصلوا الي (بلوا) بيضعة فراسخ ، صادفتهما عقبة كاداء ، لم تكن في حساب اراميس ، فقد سقط جوادهما لفرط الاجهاد ولم تكن هناك جياد اخرى ليستأجرا اثنين منها بدلا من الجوادين المتعبين . وكاد اليأس يتملكه ، ولكنه تذكر فجأة أن الكونت دي لافير يقيم على مقربة من المنطقة التي بلغاها ، فقال للمشرف على محطة البريد :

- اننا لا نطلب جيادا لمسافات بعيدة ، بل يكفي أن تأتينا بعربة نصل بها الي رجل من النبلاء يقيم على مقربة من هنا !

ابنك ؟ » . ولم يسع لويس الا أن يتراجع بدوره ! . أما الملكة الوالدة ، فقد اشتد بها اضطراب الذهن وقلق الضمير ففقدت توازنها ولم يهرع أحد لعونها فسقطت على كرسي وهي تتنهد في ألم واعياء . ولم يقدر لويس أن يصبر على هذا المنظر وتلك المهانة فاندفع نحو دارتانيان وكان هذا قد بدأ يحس دوارا فاستند الي الباب وقال له الملك : « ياكابتن . انظر الي وجهينا وقل اينما أكثر شحوبا ، أنا أم هو ؟ »

فأبقت هذه الصيحة دارتانيان من ذهوله وحركت في نفسه عوامل الطاعة وهز رأسه ، ومضى بدون تردد صوب فيليب فوضع يده على كتفه قائلا : « سيدى .. أنك سجينى ! »

فلم يتحرك فيليب من مكانه ، وبقي واقفا كأنه سمر به واخذ يحدق في وجه أخيه الملك ، ولم يسع هذا ازاء نظراته الصامتة البليغة الا أن يطرق متأثرا ، ثم رفع رأسه بغتة وسحب أخاه الآخر وقرينته هنريتا ، خلفا وراءه امه الملكة جالسة بلا حراك ، وعلى مسافة ثلاث خطوات ولدها التمس الذي حكم عليه بالموت مرة أخرى !

وهنا اقترب فيليب منها وقال لها بصوت رقيق تغلبه العاطفة : « لو لم اكن ابنك للعنتك يا أماه اذ جعلتني بهذا الشقاء ! »

واحس دارتانيان رعدة تسرى في جسده وانحنى باحترام للأمر وقال له : « معذرة يا صاحب السمو .. انى لست الا جنديا وقد اقسمت بيمين الطاعة والولاء لذلك الذى غادر الفرقة توا ! »

فقال له فيليب : « شكرا لك . ولكن ماذا حدث للمسيو دربلاي ؟ » فأجاب صوت وراءهما : « ان المسيو دربلاي في امان يا صاحب السمو ، ولن يمس أحد شعرة في رأسه ما دمت حيا ! » . وكان فوكيه هو المتكلم ، فالتفت فيليب اليه وقال له بابتسامة حزينة : « شكرا لك يا مسيو فوكيه ! » وهنا ركع فوكيه امامه وقال : « معذرة يا صاحب السمو ! . ولكن ذلك الذى خرج الآن من هنا كان ضيفي ! »

فتتمت فيليب قائلا : « هاهنا اتاس شجعان دوو نفوس عالية . انكم تجعلوننى آسف على العالم . هيا بنا يا مسيو دارتانيان .. انى أتبعك ! » وفي اللحظة التي هم فيها قائد الفرسان بالخروج من الفرقة مع أسيره ، جاء المسيو كولير فسلم المسيو دارتانيان ورقة بها أمر من الملك ثم خرج ، وما ان قرأ دارتانيان هذا الأمر حتى سحق الورقة في يده ، فسأله فيليب : « ماذا فيها ؟ » . فلم يجب دارتانيان ، واكفى بان أعطاه الورقة

فقرأ فيليب الاسطر الآتية وقد كتبها الملك بسرعة بخط يده : « على المسيو دارتانيان أن يذهب بالسجين الي جزيرة سانت مرجريت بعد أن يغطى وجهه بخوذة حديدية لا يستطيع رفعها الا بخطر على حياته »

فسأله رجل البريد عن النبيل الذي يقصدانه ، ولما علم أنه الكونت دي لافير خلع قبعته أجلا وقال : « انه نبيل عظيم حقا »

ثم سارع الى اعداد عربة ذات جواد واحد ، بينما كان بورتوس مسرورا معجبا بنفسه ، اذ حسب أنه أدرك أخيرا سر هذه الرحلة الغريبة ، وارتاح الى فكرة زيارة آتوس ، لشوقه الى لقاء هذا الصديق القديم ، ولحاجته الى التماس الراحة عنده في فراش وثير بعدما لقيه من جهد وارهاق ولما اعدت العربة أمر رجل البريد تابعا له بأن يسوقها براكبيها الى مزرعة الكونت دي لافير ، وجلس بورتوس الى جانب أراميس ثم همس في أذنه قائلا : « لقد فهمت ! »

فقال له أراميس : « وماذا فهمت يا صديقي ؟ »

فقال : « اننا قادمان من قبل الملك لتعرض على آتوس امرا عظيما ! . ليس كذلك ؟ »

وسكت أراميس مكتفيا بإبتسامة غامضة ، فواصل بورتوس كلامه قائلا :
- لست في حاجة الى أن تخبرني عن ذلك الأمر ، ان في استطاعتى أن أدركه من تلقاء نفسى !

فقال أراميس : « حسنا ! » . ولم يزد على ذلك

ووصلا الى دار آتوس في الساعة التاسعة مساء ، وكانت الليلة مقمرة فزاد ضوء القمر من سرور بورتوس وتفاؤله ، ولما لاحظ على أراميس أنه ما زال ساهما ، قال له هامسا وهو يهم بالتزول من العربة :

- لا شك ان المهمة سرية يا أراميس ، على انى فهمت على كل حال !

ولم يجب أراميس ، بل نزل من العربة أمام القصر الصغير ، وذهنه مشغول بما هو فيه !



كان راعول قد غادر باريس بعد أن وقف على خيانة لافالير له . وراح يعزى نفسه بأن الجرح الذى أصاب قلبه كان له الفضل في أن يقربه من أبيه ، والواقع أن ذلك الجرح لم يكن قد اندمل ، ولكن أحاديث أبيه معه كانت تنزل على قلبه بردا وسلاما ، اذ أخذ هذا يعزيه ويرفه عنه بما يقص عليه من ذكريات شبابه ، محاولا أن يدخل في روعه أن الألم الذى يحسه ازاء خيانة حبيبته يكاد يكون لازمة من لوازم الحياة . على أن راعول كان كثيرا ما يصفى الى حديث والده بانتباه دون أن يفقه شيئا منه ، لعجزه عن تناسى ذكرى الحبيبة التى هجرته . وكان أحيانا يرد على حجج أبيه قائلا :

- أن كل ما تقوله حق ، ولعل أحدا لم يتألم من جراء عاطفته كما تألمت

انت ، ولكنك رجل خارق الذكاء حنكتك المآسى ، ولذا أرجو أن تغفو عن ضعف جندى شاب مثلى يتألم لأول مرة ، انى أذفج جزية لن أدفعها مرة أخرى . فاسمح لى أن أغوص في قرارة حزنى حتى أنسى نفسى !

وكان الكونت أول الامر يحاول أن يقنع ولده بأن خطيته لا تستحق منه الا الاهمال ، لتعمدها خيانه والاساءة الى كرامته . ولكن راعول قال له يوما وهو يحاوره : « يا سيدى : انى لا أقدر أبدا أن أعتقد أن لويز الطاهرة البريئة خدعت محبا صادق الحب مثلى ، أو أن وجهها العذب الجميل كان يخفى وراءه تلك الدعارة والدناءة ! آه يا سيدى ، ان هذه الفكرة أفسى على من الموت ! »

ومنذ ذلك اليوم لم يسع آتوس الا أن يعدل خطته ، فعمد الى وسائل جديدة لمواساة ولده وشفائه من ذلك الغرام المكين ، ومن ثم اخذ يدافع عن لويز قائلا له : « ان المرأة التى تستسلم للملك لا لشيء سوى أنه ملك تستحق أن توصف حقا بالفجور ، ولكن لويز تحب لويس لشخصه ، وهما فى غرامهما وشبابهما قد نسيا مركزيهما ، فهو قد نسى أنه الملك وهى قد نسيت يمين الاخلاص لك ، ان الحب يحرر الانسان من روابطه يا بنى ! »

وكان راعول حين يسمع مثل ذلك من أبيه يهرع الى الغابة أو يعتكف في غرفته ، ثم يعود اليه بعد ساعة فيقبل يده ويجلس بين يديه مستأنفا سماع نصائحه وارشاداته !

وهكذا مضت الأيام منذ ذلك الموقف الذى اختلف فيه آتوس مع الملك . غير أنه لم يشر الى ذلك الموقف اية اشارة وهو يحدث ولده ، ولم يذكر له قط تفصيل ما قاله للملك . حتى اذا لجج راعول في سخطه وغضبه ، لم يسع والده أن يعارضه ، بل قال له بصوته الرزين : « انك على حق يا راعول . ولكن يجب على الناس جميعا ، رجالا ونساء ، حكاما ورعية ، أن يعيشوا في الحاضر لأن المستقبل بيد الله وحده ! »

وقد جرى هذا الحديث الاخير بينهما وهما يسيران معا في الطريق الذى تظلل اشجار الليمون في حديقة الدار ، وانهما لتلكاذ اذ وصل الى سمعهما زنين الجرس الذى يدق عادة عند اعداد المائدة أو قدوم زائر ، فاتجها صوب الدار ، وهناك عند نهاية الدرب وجدا نفسيهما وجها لوجه أمام أراميس وبورتوس !

ولما فرغوا من العناق والتحيات قال أراميس لصديقه القديم آتوس :
« اننا لن نمكث معك طويلا يا صديقي »

فسأله الكونت : « ولم لا ؟ » . وكذلك التفت اليه راعول وفي نظراته مثل هذا التساؤل . وهم أراميس بأن يجيب ، ولكن بورتوس سبقه قائلا : « لن نمكث سوى الوقت الذى نحدثكما فيه عن الحظ السعيد الذى واتانى ! »

فاشدد عجب راعول ، بينما نظر أبوه فى صمت الى أراميس وكأنه لا يرى في الجدل البادى عليه ما يتفق مع ما قاله بورتوس . وبعد هنيهة قال راعول

لبورتوس وهو يتنسم : « ما هو ذلك الحظ السعيد الذي أتيتك به ؟ »
فهمس بورتوس في أذن الشاب قائلا : « ان الملك جعلني دوقا ! »
وكان همس بورتوس كما هو شأنه دائما من الارتفاع بحيث سمعه جميع
الحاضرين ، فبدت الدهشة في وجه آتوس وهم بالكلام ولكن اراميس أمسك
يده وانتحى به جانبا حيث قال له : « يا عزيزي آتوس .. انك تراني في
أشد حزن »

فقال الكونت : « في أشد حزن ؟ لماذا يا صديقي العزيز ؟ »
فقال اراميس : « لقد تأمرت على الملك وفشلت المؤامرة ، وانا في هذه
اللحظة مطارد بلا ريب ! »
فازدادت دهشة آتوس وقال : « مؤامرة على الملك ومطاردة ؟ ! ما هذا
الذي تقوله يا صديقي ؟ ! »

فتنهذ اراميس وقال : « هذه هي الحقيقة المؤلمة مع الأسف الشديد ! »
فسأله آتوس : « اذن ما معنى قول بورتوس ان الملك جعله دوقا ؟ »
فاجاب بقوله : « ان هذا أشد ما يؤلمني يا صديقي . فانا قد أشركت
بورتوس في المؤامرة لشدة ايماني بنجاحها ، وسرعان ما اندفع اليها على
عادته بكل قوته ، دون ان يدري شيئا من أمرها ، وهو الآن منهم مثلي وقد
ضاع كما ضعت ! »

وهنا التفت آتوس الى بورتوس ، فوجده يتحدث مسرورا مع راعول ،
بينما استطرده اراميس فقال : « يجب ان أطلعك على الامر بحذافيره
يا آتوس »

ثم أخذ يقص عليه ما حدث . وكان آتوس يستمع له والعرق يتصبب
من جبينه ، واخيرا قال له : « لقد كانت فكرة عظيمة . ولكنها كانت أيضا
غلظة جسيمة ! »

فقال اراميس : « وانا الآن ألقى جزائي عليها ! »

فسكت آتوس هنيهة ثم قال : « اذا شئت ان تسمع رأيي صريحا
يا صديقي ، فانت قد جنيت على نفسك وعلى بورتوس المسكين أكبر
جناية . وكان عليك الا تنسى ان فوكيه رجل شريف لا يمكن ان يفرك على
تلك المؤامرة الخطيرة ، ولا سيما انك اخترت قصره لتنفيذها »

فقال اراميس : « لا شك اني كنت احمق اذ لم أعرفه على حقيقته ، على
ان الحرص والحذر لا يفنيان شيئا عن المرء ازاء مشيئة الأقدار »
ثم سأله آتوس : « ماذا تعتزمه الآن وقد انتهى الامر ؟ »

فاجاب قائلا : « سأخذ بورتوس معي ، لان الملك لن يصدق ابدا انه
اشترك معي في المؤامرة بحسن نية . ولا انه كان طول الوقت يعتقد انه
يخدم الملك . انه سيدفع رأسه تمنا لقلطتي وهذا لا يصح ان يكون »
فعاد آتوس يسأله : « الى اين تذهبان ؟ »

فقال : « سنذهب اولاً الى (بل - ايل) فهي مرفأ منيع ، ثم هناك البحر
وفي الامكان ركوب سفينة تصل بنا الى انجلترا حيث لي اصدقاء كثيرون ! »
وغمغم آتوس متعجبا : « انت لك اصدقاء في انجلترا ؟ ! » . بينما واصل
اراميس كلامه فقال :

- وفي الامكان أيضا ان نذهب الى اسبانيا حيث لي اصدقاء اكثر عددا ،
وهناك أستطيع ان أحصل على عفو من لويس الرابع عشر ، وان أعيد
بورتوس الى حظوته لديه !

فابتسم آتوس وقال : « انك تستمتع بنفوذ كبير يا اراميس »

فقال اراميس : « وسأكون في خدمة أصدقائي دائما . انني لست وحدي
الساخط على لويس الرابع عشر ، ولينتك وراعول تلحقان بنا الى (بل -
ايل) حيث انه لن يمضي شهر واحد حتى يقوم النزاع بين اسبانيا وفرنسا
من اجل جيس فيليب ابن لويس الثالث عشر وهو أمير اسباني بتلك الطريقة
المنافية للانسانية ، ولما كان لويس الرابع عشر لا يعيل الى نشوب حرب
بشأن هذا الموضوع ، فانا كفيل بالوصول الى تسوية تأتي بالمجد لبورتوس
ولي ، وبدوقية في فرنسا لك أنت الذي صرت نبيلاً اسبانياً من قبل ! »

فقال آتوس : « شكرا لك يا صديقي العزيز ، ولكنني اوثر ان أبقى على
ما انا عليه ، فهذا يتيح لي ان أشبع رغبتني في السمو على الملك ولومه كما
تعلم ، اما اذا نفذت اقتراحك فان ما أربحه من وراء هذا مهما يكن جزيلاً
لا يرازي تأنيب ضميري على اذلال كبرياء سلالتنا والنزول الى صفوف
اذئاب الملك ! »

وهنا قال له اراميس : « اذن أعطني جوادين من عندك لتركبهما الى
المحلة الاخرى ، فقد رفض رجل البريد ان يعطيني جيادا بحجة ان دوق
بوفور اخذ جياده كلها ! »

فقال له آتوس : « سيكون لك احسن جيادي يا اراميس . ومرة اخرى
أوصنيك خيراً ببورتوس »

فابتسم اراميس وقال : « لك ان تظمئن عليه كل الاطمئنان »

فقال آتوس : « ان الملك لا يمكن ان يعفو عنه ، اما انت فان المسيو فوكيه
لن يتخلى عنك وان كان هو نفسه في موقف شديد الحرج برغم عمل البطولة
الذي قام به »

فاوما اراميس موافقا وقال : « انت على حق . ولهذا أثرت ان أبقى على
أرض فرنسية بدل ان أجا الى البحر مباشرة ، هذا الى ان جزيرة (بل -
ايل) ستكون لي كما أريد ، سواء أحسبتها انجليزية ام اسبانية ام رومانية .
لأنني توليت تحصينها بنفسي ، وما دمت اتولى الدفاع عنها فلن يستولي
عليها أحد ، ثم ان المسيو فوكيه هناك كما قلت انت منذ لحظة . ولن تهاجم
الجزيرة الا باذنه وتوقيعه »

فقال آتوس موافقا: « هذا صحيح يا أراميس ، ولكن لا تنس أن الملك يجمع بين القوة والدهاء ، فكن دائما على حذر »

فابتسم أراميس وعاد آتوس يقول : « مرة أخرى أوصيك خيرا بيورتوس » . ثم شد على يديه مشجعا ومودعا ، وعادا الى حيث كان بورتوس ما يزال منهما في الحديث مع راءول عن الدوقية التي ينتظرها ، فتعانقوا جميعا ، ثم خرج راءول ليأمر باعداد الجوادين طوعا لاشارة أبيه ، وقال بورتوس في سداخته المحببة :

— حقا لقد ولدت تحت كوكب سعد . أليس كذلك يا آتوس ؟

فأوما آتوس موافقا ، وما كاد يرى صديقيه القديمين يهمان بالرحيل حتى أحس غشاوة على عينيه وضيقا في صدره ، وقال لنفسه : « لا أدري لماذا أميل الى أن أعانق بورتوس مرة أخرى ؟ » . وكان الجوادان قد أعدا ، فنهض بورتوس وعانق آتوس وراءول ثم ركب جواده ، وكذلك فعل أراميس . وبقي آتوس يرقبهما وهما يتعدان في الطريق برداءيهما الأبيضين ، وكانا أشبه بشبحين يكبران وهما يبعدان عن الأرض ، لكنهما لم يخفيا في الضباب مثل الأشباح ، بل اختفيا عند منحدر الطريق . وهنا عاد صوب الدار وهو يقول لابنه في صوت حزين :

— لست أدري ماذا دهاني ؟ أن قلبي يحدثني بأنى لن أرى هذين الصديقين مرة أخرى !

فقال راءول : « أن ذلك لا يدهشنى لأنى أنا أيضا شعرت بهذا الشعور ! » فقال أبوه : « أنك يا عزيزى حزين لسبب آخر يجعلك ترى الأشياء كلها سوداء . على أنك ما زلت شابا فاذا قدر ألا ترى هذين الصديقين الشيخين مرة أخرى لأنهما لن يكونا في هذا العالم ، فإن أمامك سنوات كثيرة تحياها ، أما أنا ... »

وسكت الكونت دون أن يتم عبارته ، فهز راءول رأسه أسفا ، ومال على كتف الكونت دون أن يجد أحدهما كلمة يقولها ليفرج عن قلبه المكروب وانهما كذلك اذا بأصوات تاتى من نهاية الطريق المؤدية الى (بلوا) وجياد ترمح بفرسانها وحملة مشاعل يجرون متفادين الجياد ، وكان هذا المنظر وسط الليل على طرفي نقيض من منظر أراميس وبورتوس وهما يخفیان وسط الظلام !

بين الحب والحرب

ما كاد آتوس وراءول يعودان الى المنزل حتى رأيا ضوء المشاعل يغمر مدخله وسمعا صائحا يقول : « سمو دوق بوفور ! » . فجرى آتوس الى الباب ليستقبل الدوق القادم ، وكان هذا قد ترجل عن جواده ووقف ينظر حوله . فهتف به آتوس قائلا :

— انى هنا يا صاحب السمو

فقال الدوق : « عم مساء يا عزيزى الكونت . لعل الوقت ليس وقت زيارة . ولكن هذا لا يهم كثيرا بين الاصدقاء »

فاقترب منه آتوس مرحبا ، وصافحه الأمير بحرارة ، ثم دخل معه المنزل مستندا الى ذراعه ، وتبعهما راءول ومعه ضباط الأمير ، وكان يعرف كثيرا منهم . ولما وصلا الى غرفة الجلوس أراد أن يتركهما وحدهما فيها ليلحق بأولئك الضباط فى الغرفة الاخرى التى نزلوا فيها ، ولكن الدوق لمحّه فقال لوالده :

— دعه يبق معنا . انه جندى من قمة رأسه الى أخمص قدميه ، وقد سمعت عنه نناء كثيرا من المسيو (لى برانس)

فصاح آتوس بولده : « ابق معنا يا راءول ما دامت هذه ارادة الدوق » وقال الدوق وهو ينظر الى الفتى مليا : « انه طويل القامة وسيم الوجه . ألا تعطينى اياه يا كونت ؟ »

فقال له آتوس متعجبا : « أعطيك اياه ؟! ماذا تقصد يا صاحب السمو ؟ »

فقال الدوق : « لقد جئت اليك لكى أودعك ، ولعلك لا تدري أى مصير اخترته لنفسى أو اختاره لى الملك ! »

فقال آتوس : « أنا أعرف أنك أمير باسل وسيد كامل »

وواصل الدوق كلامه قائلا : « سأصير أميرا افريقيا وسيدا من أسيايد البدو ! ان الملك عهد الى فى القيام بفتوحات فى افريقية »

فازداد تعجب آتوس وقال : « ما هذا الذى تقوله يا صاحب السمو ؟ »

وقال الدوق وهو يبتسم : « انه لأمر عجيب حقا أن أنتقل الى هناك أنا الباريسى حاكم الضواحي الذى لقبه الناس بملك الاسواق ، وأحد قواد



الحرب الداخلية . ولكن هذه هي الحقيقة يا صديقي ، وعمما قريب يتم اعداد الحملة وابحارها الى تلك الاصقاع »
فقال الكونت : « حقا ؟ لولا أنك قلت لي ذلك بنفسك ما كنت لأصدق حرفا منه ! »

فقال الدوق : « هذه عاقبة العودة الى المحطة عند الملك يا صديقي ، ولكنك لم تعلم بعد يا عزيزي الكونت لماذا قبلت هذه المهمة ؟ »
فقال الكونت : « أنا أعلم أن سموك تبحث عن المجد قبل كل شيء »

فابتسم الدوق وقال : « أكبر الظن أنني سألقى هناك شيئا غير المجد ! لقد أردت يا صديقي أن تكون لحياتي هذه الخاتمة بعد كل الأهواء التي اتبعتها خمسين سنة . وأية خاتمة أروع من هذه ، لحياة انسان مثل ولد حفيدا لملك واشترك في حروب ضد ملوك ، واستطاع أن يحتفظ برتبته وأن يكون قائد البحرية الفرنسية ؟ » اني ذاهب الى (جيغلي) بأفريقية يا عزيزي الكونت لكي أقتل هناك بين الأتراك والمغاربة ! »

فقال آتوس : « كيف تقول ذلك يا صاحب السموم ؟ كيف تتصور أن حياة مجيدة كحياتك يمكن أن تنطفئ هكذا في عتمة وشقاء ؟ ! »

فنظر اليه الدوق متعجبا وقال : « لا تظن يا عزيزي أنني بانهاه حياتي على هذا النحو في افريقية سأكون مقبونا ؟ ولا تنس أنني سأجعل الناس يتحدثون عن فعالتي هناك ويدكرون اسمي بجانب (لي برانس) و (دي تورين) وغيرهما من الأبطال المعاصرين . وهكذا تجد أنني لم يبق أمامي سوى أن أرحل الى ميدان القتال لأظفر بتلك الخاتمة الرائعة ان لم يكن في شمال افريقية ففي بقعة أخرى من الارض ! »

وهنا قال له آتوس : « انك تغالي يا صاحب السموم ، وما عهدتك قبل الآن مغاليا الا في اظهار الشجاعة ! »

فابتسم الدوق ساخرا وقال : « يا صديقي العزيز . ان الشجاعة الآن هي مواجهة داء الاستقربوط ومرض الدوسانتاريا والجراد والسهام السامة كما فعل سلفي (سان - لويس) . نعم ان القوم هناك لا يزالون يستخدمون السهام السامة في حروبهم ، وأنت تعرفني حق المعرفة ، وتعرف أنني اذا عزمتم على أمر فاني أبذل فيه قصارى ما أمك من جهد ونشاط »

فقال آتوس مبتسما : « أجل يا صاحب السموم ، أنا أعرفك حق المعرفة ، ولم أنس بعد تصميمك على الفرار من (فينسين) منذ سنين »
فقال له الدوق : « وأنا لم أنس مساعدتك لي في ذلك . ولهذا المناسبة أين المسيو (فوجريمو) ؟ ألم يأت معك الى هنا ؟ »

فقال آتوس : « ان جريمو لا يزال خادما المخلص ، وستراه الآن »
فقال الدوق : « حسنا ! ان معي مائة يستول أحضرتها معي تفصيلا لوصيتي التي أعدتها ! »

وهنا ضحك الدوق ثم التفت الى راعول وقال له : « اني أعلم أن عندكم هنا مقدارا من نبيذ فوفراي وأحسب . . . »

فخرج راعول من الغرفة فورا لكي يأمر باحضار النبيذ ، وعندئذ أمسك الدوق بوفور بيد آتوس وسأله : « ماذا اعترمت أن تصنع بهذا الشاب ؟ »
فقال آتوس : « لا شيء في الوقت الحاضر يا صاحب السموم »

فقال الدوق : « اذن فالأمر صحيح ! عجيب حقا أن يقع الملك في غرام تلك الفتاة ، وأظن أنني رأيت لافالير هذه . . . انها ليست فائقة الجمال ! على أنها تذكرني بسيدة لطيفة كانت أمها تقيم في هالي ، ألا تذكر يا كونت ؟ »

فابتسم آتوس وزفر زفرة حري ، بينما استطرد الدوق فقال : « ما كان أجمل الايام الماضية ! أجل ان لافالير تذكرني بابنة تلك السيدة »
فقال آتوس : « لقد كان لها ابن أيضا ! أليس كذلك ؟ »

فقال الدوق : « نعم ، أظن أنها كان لها ابن . . . لكن خبرني أولا يا كونت : هل راعول غاضب لأن الملك أخذ منه فتاته ؟ »

فاجاب آتوس قائلا : « انه فعل ما هو خير من ذلك . . . لقد اعتزل القصر الملكي ! »

فقال الدوق متعجبا : « اذن . . . لماذا تدعه للصدأ يعلوه هنا ؟ انك مخطيء يا كونت . أعطني اياه ! »

فقال آتوس : « الواقع أنني أحب أن أبقيه معي ما دام يقبل هذا ، وبخاصة أنني ليس لي ابن سواه ! »

فقال الدوق : « اني أتبين فيه معدن الرجولة الذي خلق منه قواد فرنسا العظام . وتظري لا يخطيء ! »

فهز الكونت رأسه أسفا وقال : « ماذا نصنع يا صاحب السموم ؟ ان الملك وحده هو الذي يرفع الضباط الى مرتبة القواد . وراعول لن يقبل أي شيء من الملك ! »

وقطع حديثهما أن عاد راعول للمغرفة ، وخلفه جريمو يحمل صينية عليها زجاجة من النبيذ الذي يؤثره الدوق ، ولما رأى هذا محسوبة القديم صاح صيحة فرح وقال : « جريمو ؟ عم مساء يا جريمو . . . كيف حالك ؟ »

فانحنى الخادم بين يديه في اجلال ووجهه يفيض بالسرور ، بينما ربت الدوق كتفه ملاطفا وقال للكونت : « اننا صديقان قديمان ! » ثم نظر الى الصينية وقال : « ما هذا يا كونت ؟ كأس واحدة ؟ »

فقال الكونت : « انه ليس لي أن أجرؤ على الشرب مع سموك الا اذا أذنت لي في ذلك ! »

فقال الدوق : « أهكذا . . . اذن قد أصاب جريمو اذ جاء بكأس واحدة لآتنا سنشرب منها معا ! »

فالتفت إليه الدوق وقال له : « ماذا تقول يا صنديقي ؟! ومن الذي تخدمه إذن ؟! » لقد مضى العهد الذي كان يمكنك أن تقول فيه : اني من جيش دوق بوفور ! اننا الآن كلنا في خدمة الملك كبارا وصغارا . فأنت اذ تصبح من رجال اسطولي يا عزيزي الفيكونت ، ستكون في خدمة الملك ولا شك ! »

ونظر آتوس الى راعول منتظرا ما يجب به وقد أمل أن يكون فيما ذكره الدوق عقبة في سبيل ذهابه معه ، ولكن هذا أجاب قائلا : « يا سيدي الدوق .. لقد فكرت في الأمر . وسأخدم على ظهر سفنك لان هذا يشرفني ، ولاأني في الوقت نفسه سأكون في خدمة سيد أعظم سلطانا من الملك . سأكون في خدمة الله ! »

وتبادل الدوق والكونت نظرة متسائلة . فمضى يوضح الأمر قائلا :

– الواقع أنني اعترفت أن أصبح فارسا من فرسان مالطة ! أن أهب حياتي كلها خالصة لله !

فترجع آتوس من هذه الصدمة الجديدة وغلب التأثر الدوق ، وسقطت من يد جريمو زجاجة النبيذ وتحطمت دون أن ينتبه اليها أحد . ثم نظر الدوق الى راعول مليا فلما تبين صدق العزم في ملامحه سكنت ولم يقل شيئا . أما آتوس فكان يعرف قوة ارادة ولده ، ولهذا لم يجد فائدة من محاولة ارجاعه عن عزمه . فضغط يد الدوق الممدودة اليه ساكتا ، وقال هذا وهو يودعه : « سأسافر بعد يومين الى طولون ، فهل تقابلني في باريس لأعرف ما عولت عليه ؟ »

فأجابه الكونت : « سيكون لي شرف مقابلتك في باريس لكي أقدم لك شكري على عطفك الجم ! »

فقال الدوق : « إذن .. لا تنس أن تحضر الفيكونت معك ، سواء أكان سيذهب معي أم لا . لقد أعطيته كلمتي ولكن بقي أن أعرف كلمتك أنت ! » ثم جذب الدوق أذن جريمو ملاطفا ، ومضى الثلاثة يودعونه حتى ركب جواده وانطلق به ومن خلفه ضباطه على جيادهم ، وسرعان ما انطلقت بهم الجياد مسرعة بعد أن أخذت كفايتها من الراحة !

وحينما خلا آتوس الى راعول قال له : « أبعد يومين تكون قد تركتني الى الأبد يا راعول !؟ »

فأجابه بقوله : « انني يا سيدي كنت قد اعترفت أن أظن قلبي بسيفي ولكنني عدلت مخافة أن تعد هذا جينا من ولدك . وهذه هي فرصة طيبة قد لا تحت لانقاذي من ذلك المصير المهين ، ومن ميتة أحقر وأمر اذا أنا بقيت هنا فريسة للحزن أو الحب الخائب ! »

وأوى آتوس الى فراشه بعد ذلك . أما راعول فذهب الى الحديقة ومضى بقية الليل تحت أشجار الليمون هناك !

فقال آتوس : « ان هذا شرف كبير لي يا صاحب السمو » وملا الدوق الكأس وشرب بعضها ثم ملاها وناولها لآتوس فشربها وأعادها أمام الدوق ، فأخذ يملؤها قائلا : « اني لا أزال ظمآن ! » ثم التفت الى راعول وواصل كلامه قائلا : « ثم اني أريد أن أشرب نخب هذا الشاب الوسيم . اني أحمل معي حسن الحظ يا فيكونت ! وفي استطاعتك أن تمنى أي شيء يخطر ببالك وأنت تشرب من كأس هذه فتتحقق أمنيتك ! » ومد الى راعول يده بالكأس ، فتناولها وتجرعها مرة واحدة ، ثم انحنى للدوق قائلا : « لقد تمنيت شيئا يا صاحب السمو ! وأرجو أن تنجز وعدك بتحقيق أمنيتي ! »

فقال له الدوق مبتسما : « لك هذا يا فيكونت ! ماذا تمنيت ؟ »

فقال راعول : « تمنيت أن أصبح سيدي الدوق الى جيغلي ! »

فامتقع وجه آتوس ولم يستطع أن يخفي تأثره ، ونظر الى الدوق كأنه يريد أن يعاونه على تحمل هذه الصدمة . ثم قال لراعول : « حسنا جدا يا عزيزي الفيكونت . ولكن والدك يجب ألا تتركه . على أنك على صواب . فليس هنا ما تستطيع عمله ، وليس هنا ما ينسبك ما تحاول نسيانه ! » فاحمر وجه راعول ، بينما استطرد الدوق فقال : « ان في القتال تسلية عظيمة ولا شك ! ونحن نكسب به كل شيء ، ولا نخسر سوى شيء واحد هو الحياة ! »

فقال راعول : « حتى في هذه الحالة يكون هناك كسب عظيم ! »

وقد ندم على هذه الكلمة ، لأن أباه قام على أثرها وتظاهر بفتح النافذة لكي يخفي تأثره ، وهم راعول أن يلحق به ، ولكن آتوس كان قد تمالك جأشه فعاد الى مجلسه باذى الهدوء والسكينة ، ثم قال الدوق : « اذا ذهب معي راعول فسيكون أركان حربي ، بل سيكون ولدي ! » فجننا راعول على احدي ركبتيه بين يدي الدوق وقال : « شكرا كثيرا يا صاحب السمو ! »

وقال آتوس وهو يمسك بيد الدوق : « ان راعول سيفعل ما يعجبه ! »

فقال راعول : « لا .. بل سأفعل ما يعجبك أنت يا أبتاه ! »

فصاح بهما الدوق قائلا : « سيكون ما يعجبني أنا ! وقد قررت أخذك معي يا عزيزي راعول .. ان البحرية تهى لك مستقبلا باهرا ! »

فابتسم راعول ابتسامة حزينة كان لها في نفس أبيه أثر شديد فنظر اليه نظرة صارمة . ثم قام الدوق وقد لحظ أن الوقت تأخر به وقال : « اني على عجل ! ولكن اذا كنت قد ضيعت وقتنا في التحدث الى صديق قديم فقد كسبت جنديا بارعا ! »

فقال له راعول : « معذرة يا صاحب السمو ، أرجو ألا تخبر الملك بذهابي

معك لأنني لا أقصد أن أخدمه ! »



١٩٧٦

« وإذا بالصندوق يفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة »

ذو القناع الحديدي

مضت الرحلة في سبيلها ، وكان آتوس وولده يقطعان أرض فرنسا من الشمال الى الجنوب بمعدل خمسة عشر فرسخا في اليوم . ووصلا أخيرا الى طولون بعد سفر أسبوعين وقد فقدوا كل أثر لدارتانيان في الاثني عشر . وأدركا أن قائد الفرسان قد حرص في طريقه على اخفاء شخصيته . وقد أسف راعول إذ لم يقابل دارتانيان فقد ود لو يودعه ويلتصم العزاء من صلاته . وكان آتوس يعلم أن دارتانيان يصيبه اليكف كلما أراد القيام بمهمة في خدمة الملك !

ولما بدأ راعول يجمع عمارته البحرية ليرسلها الى طولون ، علم الكونت من أحد صيادي السمك أن سفينهته يجري إصلاحها بعد رحلة قامت بها لحساب سيد استأجرها منذ ستة أيام للتوجه الى جزيرة (سان - أونورا) وكان مع ذلك السيد صندوق كبير وعربة أصر على أخذهما معه . ولما عارض الصياد كان جوابه أن ضربه بعصاه ضربات موجعة على كتفيه ، فشكاه الصياد الى رئيس نقابته في الاثني عشر ، وما كاد هذا يطلع على ورقة أبرزها له ذلك السيد حتى انحنى اجلالا له وأمر بوجوب الامتثال لمشيئته دون أية معارضة .

فقال له آتوس : « كيف أصيبت سفينتك ؟ »

فأجاب الصياد : « ان ذلك السيد غير رأيه في الطريق الى (سان أونورا) وطلب التوجه الى جزيرة سان مرجريت ، وقد حاولت أن أعصى أمره ولكنه أمسكني من عنقي وهددني بأن يخنقني ! ثم حدث أن هجمت عليه بمساعدة زميلي ومع كل منا بلطة لكي ننتقم منه ، ولكنه سرعان ما جرد سيفه وأخذ يعمل بطريقة عجيبة حالت دون اقتربنا منه ، وهنا هممت بأن أرميه بالبلطة التي معي ، وإذا بالصندوق الذي معه يفتح فجأة ويخرج منه شبح مغطى الرأس بخوذة وعلى وجهه قناع أسود جعل منظره بشعا مخيفا ، ثم اقترب الشبح مني مهددا بقبضة يده ! »

فسأله آتوس : « من كان ذلك الشخص أو الشبح كما تسميه ؟ »

فقال الصياد : « لقد كان الشيطان نفسه ، ولكن السيد خاطبه عندئذ

قائلا : (شكرا لك يا صاحب السمو) .. »

فتمتم الكونت وهو ينظر الى راعول قائلا : « انها لقصة عجيبة ! »

وسأل راعول الصياد : « ماذا فعلت أنت بعد ذلك ؟ »

هنا ! » . ثم وجه كلامه الى مصدر الطلقات قائلا : « اهبطوا الينا ايها الجناء ! »

وهز راعول قبضة يده صائحا : « أجل اهبطوا الينا ! »

وهم أحد المهاجمين أن يطلق الرصاص ، ولكنه لما سمع صيحة آتوس وراعول رد بصيحة دهشة ، ودفع بندقية زميل له ، فانطلقت رصاصتها في الهواء . ثم اختفيا من الشرفة ، فانتظر آتوس وراعول أن يأتيا اليهما ، ووقفا ينتظران في ثبات وعزم . وبعد خمس دقائق قرع طبل لدعوة الجنود الثمانية الذين بالحصن الى التاهب ، فظهروا على الجانب الآخر من الحفرة وبنادقهم في أيديهم . وكان على رأسهم ذلك الضابط الذي كان أطلق الرصاص ، ورآه راعول يأمر جنوده بأن يستعدوا فصاح بأبيه قائلا : « انهم سيطلقون علينا الرصاص ، فلنجرد السيف ولنقفز الى الحفرة . وسنقتل اثنين على الأقل من هؤلاء الاوغاد حين تفرغ بنادقهم ! »

وقرن القول بالفعل وهم بالقفز وأبوه من ورائه ، واذا بهما يسمعان صوتا مألوفاً يصيح بهما قائلا : « آتوس ! راعول ! » . فصاحا معا : « دارتانيان ! »

ثم سمعاه يأمر الجنود بانزال بنادقهم ، وبعد دقيقة كان بجانبهما فسأله آتوس : « ما معنى هذا كله ؟ لقد أوشكنا أن نقتل دون تحذير ! »

فقال دارتانيان : « لقد كنت أنا الذي سأطلق عليكما الرصاص ، ولو أخطأ الحاكم المرهبي لما أخطأته أنا يا صديقي العزيزين . ولكن من حسن الحظ اني اعتدت أن أمضي وقتا في تصويب البندقية بدلا من أن أطلقها فور رفعها ، ولقد حسبت اني عرفتكما . أه يا صديقي العزيزين : ما أسعدني ! »

ومسح العرق الذي كان يتصبب من جبينه اذ كان قد أتى يجرى . فقال له آتوس : « كيف ذلك ؟ ولماذا يطلق الحاكم علينا الرصاص ؟ »

فقال : « لانكما التقطتما الطبق الذي رماه السجنين لكما ، وقد كتب بأسفله شيئا . أليس كذلك ؟ »

ولما أجابا موافقين ، تناول الطبق منهما في فزع شديد ثم قال : « ها قد جاء الحاكم فاسكتا ! أه لو علم انكما استطعتما الاطلاع على السر الذي كتبه السجنين ؟ اني أحبكما أيها الصديقان العزيزان ولا أتردد في أن أقديكما بنفسي ولكن ما كنت لانتقدكما من السجن المؤبد ان أنقذتكما من الموت . فاسكتا الآن ! »

وجاء الحاكم بعد أن بسطت له قنطرة مر عليها فوق الحفرة ، ونظر الى دارتانيان وقال له : « والآن ماذا يمتعنا ؟ »

فهمس دارتانيان لصديقيه : « انكما اسبانيان ولا تعرفان كلمة فرنسية ! » ثم قال للحاكم : « لقد كتبت على صواب . ان هذين السيدين ضابطان

فأجاب : « انك تعرف يا سيدي أن رجلين مثلي وزميلي لا يستطيعان أن يواجهوا خصمين عنيدين أحدهما شيطان ، وعلى هذا قفزنا الى الماء نطلب النجدة ، بينما مضت السفينة الى سانت مرجريت تساعدها ريح غربية . ولما استعدناها بعد ذلك لم نجد بها أحدا ، وقدمت شكوى الى حاكم الجزيرة فأنذرتني بالجلد اذا ضايقته مرة أخرى بمثل هذه القصة مؤكدا سخافتها ، برغم التلف الذي أصاب السفينة وطلب النجار لاصلاحه مائة وعشرين ليفر ! »

وهنا قال الكونت للصيد : « سننصفك من الخدمة » . ثم صرفه وقال لراعول : « سنذهب الى سانت مرجريت . أليس كذلك ؟ »

فقال راعول : « أجل يا سيدي ، ويخيل الى أن ذلك الصيد لم يصدقنا القول »

فقال الكونت : « هذا ما أرجحه أنا أيضا . ولعل ذلك الصندوق كان يحتوي على مؤونة مهربة . غير أنني أخشى أن يكون ذلك السيد هو دارتانيان ، وأن يكون ذلك الصيد وزميله قد نالا منه ما عجزت عنه السيوف والرصاص خلال أربعين سنة ! »

وفي اليوم نفسه أبحرا قاصدين الى سانت مرجريت على ظهر زورق جيء به من طولون . ولما هبط أرض الجزيرة سرا بمنظرها اذ كانت أرضها مملوءة بالازهار والفاكهة . وكان الجزء المزروع بها بستانا للحاكم ، به أشجار البرتقال والليمون والتين ، وكانت العصافير الملونة تنتقل بين الأشجار والغصون . وكلما سار آتوس وراعول صادفهما أرنب برى روع من مرأهما . وكانت هذه الجزيرة غير مسكونة وأرضها مبسوطة وبشاطئها خليج صغير يصلح لرسو السفن وابعارها . وكان مهربو البضائع يستخدمونها مرقاً لهم تحت حماية الحاكم الذي يشاركهم أربابهم ، ويقطن قلعة تحيط بها بركة عميقة تحميها ولها ثلاثة أبراج

وطاف آتوس وراعول حول سياج الحديقة دون أن يلحقا أحدا يقدمهما الى الحاكم . وأخيرا دخلا الى الحديقة - وكان ذلك في أشد ساعات القيلولة - فلم يريا أحدا فيها أول الأمر ، ثم وجدا جنديا يحمل بسلة مملوءة بالمؤونة فوق رأسه ، ولكنه سرعان ما اختفى خلف كشك الديدبان ، ثم سمعا بفتة صوتا يصيح بهما من خلال قضبان نافذة ، وأبصرا يدا تلوح بشيء أبيض لامع سقط على الارض ، فجرى راعول نحوه والتقطه فوجده طبقا فضيا كتب عليه بحافة سكين ما يأتي : « اني أخو ملك فرنسا . اني سجين اليوم وقد آكون مخبول العقل غدا . أيها السادة الفرنسيون المسيحيون : صلوا لله من أجلى ! »

وسقط الطبق من يد آتوس بينما كان راعول يحاول أن يفهم معنى لهذه الكلمات ، وفي اللحظة نفسها سمعا طلقة من البرج الاوسط، ومرت فوقهما رصاصة أطلقت من البرج . فصاح آتوس قائلا : « رياه ! ان الناس يقتلون

فأجاب الكونت : « بل أعتقد أنه لم يكتب الا الحقيقة » . وأضاف راعول الى ذلك قوله :

« لو أنه كان غير صادق ما أمرك الملك بأن تقتل كل من يسمع قصته ! فقال له قائد الفريسيان : « لا تنس أن كل فرية مهما يكن من سخافتها يسهل رواجها بين الشعب ! »

فقال آتوس : « كلا يا دارتانيان ! بل قل أن الملك لا يريد أن يشيع سر أسرته بين الناس فيوصم بالعار ! »

فقال له دارتانيان : « لا تتكلم هكذا كالاطفال يا آتوس ، انك لم تفقد عقلك لكي تصدق خرافة ان لويس الثالث عشر له ابن هنا في جزيرة سانت مارجريت ! »

فقال الكونت في هدوء : « ولم لا أصدق هذا وأنت قد جئت به الى هنا في سفينة صيد ؟ »

فسأله دارتانيان متعجبا : « من أين علمت أنني جئت في سفينة صيد ؟ »

فأجاب : « انني أعلم كل شيء يا صديقي ، ألم يكن معك في السفينة صندوق به هذا السجين ، وكنت تخاطبه بلقب صاحب السم ؟ »

فغض دارتانيان على طرف شاربه من الغيظ وقال له : « على كل حال اذا صح اني جئت الى هنا في سفينة ومعى سجين في صندوق فليس في ذلك ما يدل على أن هذا السجين أمير من البيت المالكي في فرنسا ! »

فأجاب آتوس في برود : « انك لا تعلم أنني قابلت أراميس بعد حبوط مشروعة في فو ! وقد قصص على ما يكفي لأن أصدق الشكوى التي كتبها ذلك الشاب البائس ! »

فارتسم الحزن على وجه دارتانيان وقال : « هكذا تتبدد ارادة الانسان سماعاً أمام ازادة الله ! انني يا آتوس لالعن الظروف التي جعلتك تقف على هذا الذي وقفت عليه ، لانني الآن ... »

فقطع آتوس كلامه قائلاً بصلابته المعتادة : « هل ذاع سرك لانني وقفت عليه ؟ سل ذاكرتك يا عزيزي : ألم تكن في صدري أسرار لا تقل شأناً عن هذا السر ؟ »

فقال دارتانيان في أسف : « لكن هذا السر أخطر كثيراً ، انه مشنوم يجلب النحس ، ويخيل الى أن كل من وقف عليه سيموت ميتة غير سعيدة ! »

فقال آتوس : « لمن يكون الا ما يريده الله ! » ثم بدا الحاكم قادماً ، فعاد دارتانيان وصديقه يمثلون دورهم . وكان الحاكم سيء الظن قاسي القلب لكنه كان يعامل دارتانيان باجلال كبير ، وعلى هذا حرص طول وقت تناول الطعام على احترام ضيفيه ، ولكنه في الوقت نفسه لم يحد عنهما بصره . وحاول أكثر من مرة ارباكهما بهجوم مفاجيء في الحديث ، ولكنهما لزمنا جانب الحذر ، فلم يبد منهما ما يجعله يشك في أنهما اسبانيان لا يعرفان

اسبانيان عرفتهما السنة الماضية في (ايبير) . وهما لا يعرفان أية كلمة من الفرنسية ! »

فقال الحاكم : « ومع هذا كانا يحاولان أن يقرأ ما كتب على الطبق ! فأمسك دارتانيان الطبق بيده ومحا الكتابة بطرف سيفه . بينما صاح به الحاكم : « ماذا تفعل ؟ اني لا أقدر أن أقرأ الآن ما كان مكتوباً ! »

فقال دارتانيان : « انه سر من أسرار الدولة ، وبناء على أمر الملك ليس لأحد أن يقف على هذا السر والا كان الموت جزاءه ، فلا مانع عندي من أن أدعك تقرؤه ثم تعذب بالرصاص توا ! »

وفي خلال هذا الحوار الذي يتخلله الجدل والهزل معا ، كان آتوس وراعول ساكتين بشكل يدل على غاية الهدوء وعدم الاكتراث . ثم قال الحاكم لدارتانيان : « ولكن ألا يعرف هذان السيدان على الأقل بعض كلمات فرنسية ؟ »

فقال له : « لنفرض أنهما يعرفان بعض كلمات للحديث فأنهما لا يقدران أن يقرأ ما هو مكتوب . انهما لا يعرفان أن يقرأ حتى الكتابة الاسبانية . تذكر أن النبلاء الاسبانيين لا يليق بهم أن يعرفوا القراءة والكتابة ! »

فاضطر الحاكم الى أن يقنع بهذا الايضاح ، ولكنه كان عنيدا فقال لدارتانيان : « ادع هذين السيدين الى دخول القلعة »

فقال له : « هذا يسرني وقد كدت أعرض عليك ذلك »

والواقع أن دارتانيان كان يتمنى لو كان صديقه على بعد مائة فرسخ ، ولكنه اضطر الى أن يجارى الموقف . ثم خاطب آتوس وراعول باللغة الاسبانية موجها اليهما الدعوة فقبلاهما ، واتجهوا جميعا نحو مدخل القلعة ، بينما عاد الجنود الثمانية الى راحتهم التي قطعها عليهم وقوع ذلك الحادث غير المنتظر !

ولما دخلوا القلعة قال آتوس لدارتانيان : « الا تقول كلمة توضح هذا اللفظ ؟ »

فقال دارتانيان : « ان الأمر لا يعدو أنني جئت الى هنا بسجين أمر الملك بالأب يراه أحد ، وقد كنت أتناول الغداء مع الحاكم فرأيت الطبق الذي قذف به من نافذته والتقطه راعول ، فحسبت أنكما على موعد معه وأمرت بأن يطلق عليكما الرصاص »

فقال له آتوس : « لو انك قتلتني يا دارتانيان لكان هذا من حسن حظي اذ كنت أموت في سبيل البيت المالكي بيدك أنت أنبل من يدافع عنه ! »

فسأله دارتانيان : « ماذا تعنى بذكر البيت المالكي هنا ؟ انك لا يمكن أن تصدق ما كتبه رجل معتوه ؟ »

فقال راعول : « انى لا أرضى ذلك لنفسى فانه أمر مهين ! »

فقال له دارتانيان : « كلا ! » ليس بالأمر المهين أن تخضع لقوة أقوى من ارادتك . وإذا كان قلبك يقول لك : (اذهب اليها أو مت) فاذهب اليها دون تردد ! .. انها كانت شجاعة حقاً بل كانت أشجع النساء حين آثرت الملك عليك ، فلماذا تكون أنت أقل شجاعة منها !؟ »

فقال راعول : « كلا ! » لست أريد أن أراها ثانية ، لاني لا أريد أن أنسى حبها ، وعلى هذا أرجو منك أن تسلمها هذا الخطاب الذي كتبته في الليلة الماضية . وهذا هو فقرأه لترى انى على حق ! »
ثم ناوله الخطاب فقراً دارتانيان فيه ما يلي :

« يا آنسة . انك في اعتقادي لم تخطئي اذ لم تحبيني وانما ارتكبت ذنباً واحداً نحوى هو أنك تركتني أعتقد انك تحبيني . على انى اذ أصفح عنك لا أقدر أن أصفح عن نفسي . وقد قيل ان المحبين السعداء في حبههم تصم آذانهم عن سماع شكوى المحبين المنبوذين ، ولكنى على يقين من اننى أستطيع أن أقلب صداقتك لي حبا حين لا تخشين وجودى ولا لومى . فهما يكن الغرام الحديث ذا فتنة لك ، فان الله لم يجعلنى دون الذى اخترته لنفسك فى شيء ، وستحبيننى لأن اخلاصى وتضحيتى ونهايتى المؤلمة ستجعل لي فى نظرك امتيازاً على الآخر . ان كثيراً من الناس أكدوا لي انك أحببتنى الى حد ما ، وفى هذا ما يكفى ليزيل من قلبى كل أثر لما حدث ، فاقبلى منى هذا الوداع الأخير ، وستباركيننى لاننى التمسيت لنفسى ملاذا يبعث فيه كل بغض ، ويدوم فيه كل حب الى الأبد . وداعاً يا آنسة ، وثقى بأن سعادتك لو كانت تشتري بأخر نقطة من دمي لما ضننت بها ! .. راعول فيكونت دى براجلون »

وقال دارتانيان بعد أن قرأ الخطاب : « انه لا بأس به ، ولكنى أحبك به عينا واحداً ، فقد ذكرت فيه كل شيء ما عدا الشيء الذى ينبعث كالسهم القاتل من عينيك ومن قلبك ، وهو ذلك الحب الذى لا معنى له والذى يكاد يلتهمك . لماذا لم تكتب لها بكل بساطة قائلاً : (يا آنسة .. انى بدل أن المنك ، أحبك وأموت) !؟ »

فقال راعول مبتهجا : « صدقت يا سيدي ! » ثم تناول الخطاب من يد دارتانيان ومزقه ، وكتب بدلا منه أسطراً على رقعة ورق أخرى وقدمها لدارتانيان فقراً فيها :

« لكى أسعد بأن أقول لك مرة أخرى انى أحبك ، أرانى انحط الى الكتابة اليك . ولهذا سأموت لأعاقب نفسي على هذه الدناءة » . ثم قال لدارتانيان : « أرجو أن تعطيتها هذه الورقة يا كابتن ، فى اليوم الذى يمكنك أن تضع فيه تاريخاً تحت هذه الأسيطر ! »

وكان أبوه قد أقبل نحوهما بخطى بطيئة فسارعا الى مقابلته ، ثم عادوا

الفرنسية ولا الكتابة والقراءة . فلما فرغوا من تناول الطعام وانصرف الحاكم الى مسكنه الخاص ليأخذ نصيبه من الراحة ، قال آتوس لدارتانيان باللغة الاسبانية : « ما اسم هذا الرجل ؟ » انى لا ارتاح الى منظره ! »
فأجاب دارتانيان : « اسمه دى سان مارس ، وقد أخبرته أنكما جئتما الى هذه الجزيرة لصيد الطيور ولزيارة الدير الذى فيها لطائفة البندكتيين وسترحلان غداً »

ثم اقترح عليهما أن يخرجوا لصيد الارانب البرية قائلاً : « ان الحياة هنا لا تلائمنى كثيراً . وهذا الرجل يضجرني الى حد بالغ مع انى رئيسه ! . على أن المشى فى الجزيرة لذيد لا يجهد ، فطولها لا يزيد على فرسخ ونصف ، وعرضها فرسخ واحد فكأنها حديقة كبيرة ! »

ونادى دارتانيان أحد الجنود وقال له : « أحضر للسيدى بندقتين » . ولما غادروا القلعة قال لهما دارتانيان : « الآن أسألكما بدورى : ما الذى جاء بكما الى هذه الجزيرة ؟ »

فقال له آتوس : « جئنا لنودعك فان راعول مسافر بعد أيام »

فقال دارتانيان : « لا شك فى أنه ذاهب مع دوق بوفور الى أفريقيا . أليس كذلك ؟ »

فقال الكونت : « أجل يا عزيزى . انك دائماً تصيب فى حدسك ! »

وكان راعول قد تركهما يتحدثان ومضى الى صخرة يغطيها العشب فجلس فوقها وقد وضع بندقيته بين ركبتيه وجعل ينظر الى البحر نظرة شاردة ، فقال دارتانيان لآتوس : « انه لم يشف من الصدمة بعد . ولكن قلبه الكبير النبيل كفيلاً بأن يحببه المخاطر ! »

فقال آتوس فى أسف : « ان راعول لن يشفى من أثر تلك الصدمة الا بالموت الذى ينشده فى رحلته ، وقد أصر عليها لهذا الغرض ، وليس فى وسعى أن أصحبه لاني لا أريد أن أراه يموت ! »

فنظر دارتانيان الى صديقه ملياً بينما استطرده هذا فقال : « انك تعرف انى طول حياتي لم أعرف الخوف ، ولكنى لا أكتمك انى أخاف منذ الآن ذلك اليوم الذى أتلقى فيه نعى راعول ! »

فقال له دارتانيان : « دعنى اذن أحدثه فى الأمر ، ولن أحاول أن أعزبه بل سأودى له خدمة أجل ! » . ثم تركه ومضى الى حيث جلس راعول ، وأخذ فى الحديث معه الى أن تطرق الحديث الى الآنسة دى لافالير ، فقال راعول : « عندي كلام كثير أريد أن أقوله لها ولكنى لا أحب أن أكتب اليها »

فقال له دارتانيان : « اذن تعال الى القصر الملكى لتقابلها وتقول لها ما تريد . ان هذا خير من الكتابة اليها ، ثم انها فيما أعتقد فتاة صادقة . ولعلها تحبك أنت الذى هجرتك حبا أشد من حبها للملك ، أعنى أنها تمدك صديقا مخلصا يركن اليه ويسعدها أن تكون على مقربة منها دائماً ! »

الى القلعة ، وقبل أن يبلغوها لحظوا أن الامواج قد علت ايذانا باقتراب عاصفة ، ثم لمحاو شينا قذفته الى الشاطئ فسأل آتوس : « ما هذا ؟ » زورق محطم ؟ » فقال دارتانيان : « كلا انه ليس زورقا ، بل هو الصندوق المغلق الذي رميته في البحر بعد انزال السجين ! »

فقال آتوس : « اذن يحسن أن تحرقه يا دارتانيان حتى لا يبقى له اثر » فقال دارتانيان : « الحق معك يا آتوس وسأتولى ذلك بنفسى فيما بعد ، أما الآن فيها ندخل القلعة لان المطر يهطل مدرارا والبرق مخيف ! »

ومروا فوق الاستحكامات الى رواق كان مفتاحه مع دارتانيان ، فرأوا المسيو سان مارس يتجه صوب غرفة السجين ، فأشار اليهما دارتانيان أن يختبئا في مكن بالسلم . وسأله آتوس : « ما هذا ؟ » فأجابته : « ان السجين عائد من المصلى ! »

وعلى وميض البرق شاهدوا الحاكم وفي أثره رجل يرتدى ثيابا سوداء وعلى وجهه قناع من صلب لاصع ، يمتد من الحوذة التى على رأسه ، ولم يبد من وجهه سوى عينيي تقدحان بالشرر . ووقف السجين لحظة فى وسط الرواق لينظر الى الاق و يستنشق الهواء ويتنهد بما يشبه الزئير . فقال له سان مارس بحدة : « هيا واصل السير يا سيدى ! »

فصاح آتوس من الركن الذى اختبأ به : « بل قل : (ياصاحب السموم) » وكان صوته مخيفا جعل الحاكم يرتعد وجعل السجين يتلفت حوله ، ثم صاح الحاكم قائلا : « من الذى تكلم ؟ »

فسارع دارتانيان الى الاجابة قائلا : « أنا ! » انك تعلم أن الامر يقضى باستعمال هذا اللقب ! »

وهنا قال السجين للحاكم : « كلا ! لا تلقبنى بالسيد ولا بصاحب السموم ، ان اللقب الذى يليق بى الآن انما هو لقب (الملعون) ! » ثم مضى فى طريقه حيث أغلق عليه باب زنزانته

وتتمت دارتانيان مخاطبا راعول وهو يشير الى ذلك الباب : « مسكين ! »

بين الجنس اللطيف

ما كاد دارتانيان يعود الى جناحه مع صديقيه حتى جاء أحد الجنود ينبئه بأن الحاكم يبحث عنه ليسلمه رسالة حملتها اليه سفينة شراعية ، ومضى دارتانيان فتسلم الرسالة وكانت بخط الملك ، وقد جاء فيها ما يلى : « أحسبك قد انتهيت من تنفيذ أوامرى يا مسيو دارتانيان ، واذن عد فورا الى باريس والحق بى فى قصر اللوفر ! »

فصاح دارتانيان فرحا : « حمدا لله ! هذه خاتمة نفىي بهذه الجزيرة ولم أعد سجانا ! »

ثم أطلع آتوس على ذلك الخطاب فقال له هذا فى أسف : « اذن سنتركنا ! » فقال له : « سنلتقى ثانية أيها الصديق العزيز ، ان راعول فى سن تسمح له بالذهاب وحده مع دوق بوفور . ولا شك فى أنه يؤثر أن يعود والده الى باريس مع زميله دارتانيان بدلا من أن يقطع مائتى فرسخ وحده لكى يصل الى بيته فى لا فير ! »

ثم نظر الى راعول كأنما يستطلع رأيه فى ذلك ، فقال هذا بلهجة أسى : « هذا أحسن ! »

وقال آتوس لدارتانيان : « أحسب أننا نستطيع أن نغادر هذه الجزيرة معا فى السفينة الشراعية التى جاءت بالرسالة فتقلنا الى الانتيب »

فأوما دارتانيان موافقا ، ثم غادرا الاصدقاء الثلاثة جزيرة سانت مرجريت بعد أن ودعوا الحاكم ، وبعد أن اطمأن دارتانيان الى حرق الصندوق الذى كان به السجين . وحينما وصلوا الى الانتيب فى الليلة نفسها ودع دارتانيان صديقيه قبل أن يمتطى صهوة جواده وقال لهما : « انكما تشبهان جنديين يفران من موقعهما . وقلبي يحدثنى بأن راعول سيحتاج الى مساعد ، فهل تسمحان لى أن أطلب الى الملك أن يرسلنى الى أفريقيا على رأس مائة من الفرسان القادرين ؟ » ان الملك لن يرفض هذا الطلب ، وسأخذك معى يا آتوس ! »

فضغط راعول يده قائلا : « شكرا لك يا مسيو دارتانيان ! اننى ما زلت شابا احتاج الى ما يجهد الجسم والفكر . أما أبى فانه فى شدة الحاجة الى الراحة . وأنت أعز أصدقائه ولهذا أعهد اليك فى العناية به ، ولا شك فى أن هذا يجعل روحينا فى اطمئنان ! »

فقال له دارتانيان : « انك ستمكث هنا ثلاثة أيام على الاكثر . فمتى يصل الكونت الى بيته ؟ »



فأجاب آتوس : « ان هذا يحتاج الى وقت طويل ، والواقع انى لا أريد أن أعجل بالافتراق عن راءول . ان الوقت نفسه يمضى بسرعة فلا ينبغي لى أن أزيد فى سرعته . ولذا سأؤثر السفر البطيء ، وسأشتري جوادين من صنف أرقى من جواد البريد التى جئت بها الى هنا . ولكى أصل بهما فى حالة جيدة يحسن ألا أقطع أكثر من سبعة فراسخ فى اليوم »

فسأله دارتانيان : « وأين جريمو الآن ؟ » . فأجاب قائلاً : « ان جريمو وصل صباح أمس مع متاع راءول ، وقد تركته ينام ويستريح » . ثم ودعهما دارتانيان مرة ثانية ومضى فى سبيله . وماكادا يستأنفان سيرهما بعد أن اختفى بجواده عن أنظارهما حتى سمعا خلفهما وقع حوافر جواد يعدو ، وشهد ما كانت دهشتهما اذ تبينا أن الفارس القادم هو نفسه صديقهما قائد فرسان الملك ، وما وصل اليهما حتى ففز من فوق جواده وعانقهما عناقاً حاراً ، ثم عاد فركب جواده ومضى مرة أخرى دون أن يقول كلمة !

وعاد الكونت وولده الى طولون وقد بدأت تملئ بضجة العربات والاسلحة والجياد والجنود تأهباً لسفر الحملة الى شمال أفريقيا . وكانت الطبول تفرع أمام طوابير الجند والبحارة . وأخذ دوق بوفور ينتقل فى كل مكان ويشرف على اعداد السفن وركوب القوة فى همة وحماسة . وكان يشجع أقل الجنود ، ويؤنب الضباط حتى كبارهم ! . ويصر على أن يتفقد بنفسه المدافع والمؤونة والمتاع ، ويفحص جهاز كل جندي ويستوثق من صحة كل جواد وقوته . وهكذا انقلب الى عسكري لا مثيل له بعد أن كان فى قصره مثالاً للسيد الاثنانى المغرور ! . على أن العناية الكبيرة التى بذلت فى اعداد الحملة كان يشوبها التسرع الذى لا يؤمن معه الخطر على جنودها . وكانت الليلة مقمرة وقد أخذ البحارة والجنود ينشدون أناشيدهم على ظهر السفن ، يتخللها صوت السلاسل وهى تسحب أو تبسط . بينما جلس آتوس وولده على لسان فى البحر ساكتين والسفن والزوارق تمر حولهما ثم قال الكونت لولده :

— تبارك الله الذى خلق هذا كله كما خلقنا نحن الذرات الضئيلة فى هذا العالم العظيم ! . اننا نسطع مثل تلك النجوم والكواكب ، وتناؤه مثل هذه الامواج ، ونعانى كما تعانى هذه السفن الكبيرة التى يصيبها البلى من مغالبة البحار والرياح . ان كل شىء يريد أن يحيى ويعيش يا راءول . وكل شىء فى الكائنات الحية له جمال وبهاء ! »

فقال راءول : « حقا يا سيدي ان أمامنا منظرا جميلا ! »

ثم قال آتوس فجأة : « ما أطيب قلب دارتانيان ! ان من حسن حظى أنعاوننى صديق مثله طول حياتى . انك فى حاجة الى صديق مثله يا راءول . ان المسيو دى جيش رفيق مناسب ولكنى أعتقد أن عصركم هذا يشغل

كل انسان بشؤونه ومسراته ، على عكس الحال فى عصرنا . لقد التمسنت لنفسك حياة العزلة ، وفيها هناة كبيرة ، ولكنك ضيعت قواك فى عزلتك . أما نحن الفرسان الاربعة ، فقد نشأنا بعيدين عن مسرات العصر الحاضر ، ولذا كنا قادرين على مغالبة البأساء كلما حلت بساحتنا »

فقال راءول : « ان المسيو دى جيش صديق لطيف مخلص ، ولكنى عشت ناعماً بصداقة أخرى من النوع الذى حدثنى عنه ، وتلك هى صداقتك يا أبتاه ! »

فقال آتوس : « انى لم أكن صديقاً لك يا راءول ! »

فسأله : « وكيف ذلك يا سيدي ؟ »

فقال : « لآنى جعلتك تعتقد أن الحياة ليس لها سوى جانبها المحزن القاسى . وا أسفاه ! لقد أعدتلك دائماً - دون قصد كما يعلم الله - عن مسرات الشباب ، ولذا ترانى الآن أسفا على أن لم أتج لك شيئاً من طيش الشباب ونزعاته ! »

فقال راءول : « لست أنت الذى جعلتنى جادا صادفاً عن مسرات الحياة يا أبتاه ، ولكنه الحب الذى دهمنى فى ابان عهدى بالحياة ، أو هو الوفاء الذى فطرت عليه ! . اننى كنت حتى عهد قريب أحسب أن طريق الحياة ممهدة تقوم على جانبها الازهار والفاكهة . وكنت أحسب انى مثلك صلابة وقوة ، فكنت أنت تسهر على بما أوتيت من يقظة ومقدرة ! . وبقي الأمر كذلك حتى كانت تلك الكارثة التى كشفت حجاب غفلتى وجردتنى من كل قوتى وشجاعتى وتركتنى حطاماً . وهكذا ترى يا سيدي ألا لوم عليك فى شىء من أمرى ، وانك فى ماضى حياتى لم تكن الا سعادة لى ، كما انك كل أملى فى مستقبلى . ولهذا أحبك يا أبى وأباركك ، ومن أجلك وحدك أعيش ! »

فقال الكونت : « يا عزيزى راءول . ان كلماتك بلسم لجراحي ، فهى تدلنى على أنك ستذكرنى فى الايام القادمة ! . ولسوف أكون لك فى المستقبل أكثر مما كنت حتى اليوم . سأكون صديقك يا بنى العزيز ، وسأنتظرك حتى تعود لنعيش عيشة مرحة سعيدة بدل أن نحيا هكذا فى عزلة . وسأهب لك يومئذ كل أملاكى ، وان ايرادها ليكفى لان تعيش عيشة راقية ، وأرجو أن يسعدنى الحظ قبيل موتى فأرى حفيداً لى ولا تنقرض سلالتى ! »

فقال راءول متأثراً : « سأفعل كل ما يرضيك »

ثم قال آتوس : « ان مركزك الجديد لا يوجب عليك المجازفة . لقد امتحنتك الوقائع وعرف الناس شجاعتك . وليس من الفخر أن يقع الانسان فى كمين فيموت غير مأسوف عليه . ومعاذ الله أن أنصح لك بأن تتفادى القتال ولكنى أحذرك أن تقع فى كمين ! »

حملة بين ذراعيه ووضعها في زورق ، وركب هو زورقا آخر ، وسرعان ما عملت المجاذيف ، ثم رأى آتوس ولده يصعد درج سفينة القيادة ويقف عند الحاجز حتى لا يغيب عن بصر والده . وأطلق مدفع ايدانا بالايحار . واشتدت الضجة من المودعين بالشاطئ ، وتعالى دحان السفن ، ولكن هذا كله لم يحل دون تتبع الكونت لابنه ببصره حتى اختفت السفينة في الأفق . ثم رأى دخانا أبيض ينبعث خلفها من قذيفة المدفع التي أمر الدوق بأن تطلق تحية أخيرة لأرض فرنسا



لم يستطع دارتانيان أن يخفي شعوره عن صديقيه . لقد خضع ذلك الجندي الجامد الحش للضعف البشري لحظات ، حتى اذا تغلب على تأثيره واستعاد رباطة جأشه ، قال لحادمه الذي اعتاد أن يصغى ولا يتكلم : « رايو . . يجب أن نقطع الطريق الى باريس بمعدل ثلاثين فرسخا في اليوم ! » ثم أخذ يسأل نفسه : « لماذا استدعاني الملك ؟ » ولماذا رمى ذو القناع الحديدى ذلك الطبق الفضى عند قدمي راعول ؟ »

ثم رجع بذكرته الى اللحظة التي أوشك فيها أن يقتل صديقيه ، والى القدر العجيب الذي جعل آتوس يقف على ذلك السر الخطير ، وفكر في المستقبل الغامض المخيف الذي ينتظر راعول فشعر بانقباض زاد فيه تذكره نكبة صديقيه بورتوس وأراميس

ولم يكن الملك يرتقب أوبة دارتانيان بمثل تلك السرعة، وعلى هذا سافر الى ميدون اللصيد ، فلما علم بذلك دارتانيان لم يشأ أن يلحق به كما كان يفعل في ظروف أخرى ، بل خلع ثيابه وحذاءه واستحم وقبع في بيته انتظارا لعودة الملك الى باريس

وقد علم الكثير مما جرى خلال الاسبوعين الاخيرين ، فالملك صار دائم الاكتئاب ، والملكة الوالدة مريضة حزينة ، والأمير الشقيق الأصغر للملك أصبح يغالى في ابداء الولاء ، أما الأميرة قرينته ففي ثورة غضب لا تنتهي ، وقد سافر الكونت دي جيش الى مزرعته . وبينما المسيو كولبير صار بادي السرور والتفاؤل كان المسيو فوكيه يستشير طبيبا جديدا كل يوم دون أن يلقي الشفاء على يد أحد منهم لان مرضه سياسى لا طبى !

أما الأنسة دي لافالير فعلم دارتانيان أن الملك أصبح لا يستغنى عن صحبتها ، واذا لم تكن معه في رحلات الصيد فانه يكتب اليها بلا انقطاع !

وفكر دارتانيان في الخطاب الذي يحمله اليها من راعول ، فرأى أن ينتهز فرصة غياب الملك لكي يقابلها ويتحدث معها قليلا لعله يجد ما يعزى به راعول ، وكان يسيرا عليه أن يقابلها أثناء خروج الملك للصيد ، لأنها كانت تتسلى عادة بالسير مع بعض سيدات البلاط في أروقة القصر الملكي حيث

فقال راعول : « انى بطبيعتى حذر يا سيدى ، وقد اشتركت في القتال أكثر من عشرين مرة ، فكان من حسن حظى أنى لم أجرح الا مرة واحدة ! » فقال آتوس : « يجب أيضا أن تحذر جو افريقيا ! ان الموت بالحلمى موت رهيب . هذا وقد وعد دوق بوفور أن يأتى البريد من أفريقيا كل أسبوعين ، وستشرف أنت على ارساله بوصفك أركان حربيه . فلعلك لا تنسى أن تكتب الى مع كل بريد ! »

فقال راعول وقد غلبه التأثر : « سأكتب اليك يا سيدى ، ولم يقدر آتوس أن يقاوم عاطفته فأحاط ولده بذراعيه وعانقه بقوة . ثم عادا الى المدينة حيث كان جريمو ينتظر أوبة سيده . فصاح به راعول : « لا شك أنك جئت لتخبرنا بأن الوقت قد حان للرحيل ؟ »

فقال جريمو موجها الخطاب الى الكونت : « ينبغي ألا يذهب وحده الى تلك البلاد الغربية . » فقال الكونت : « نعم ، يجب أن يكون مع راعول أحد يعاونه ويذكره بكل من أحب . »

فقال جريمو : « أنا يا سيدى أذهب معه ، صحيح أنى كبير السن ولكن هذا أفضل ! »

فقال له راعول : « لكن الابحار قد بدأ وأنت لم تستعد »

فقال جريمو : « بل تأهبت يا سيدى ! » ثم أبرز مفاتيح حقائبه وقد اختلطت بمفاتيح حقائب راعول . فبدأ التأثر على الكونت وولده وساد السكوت قليلا ثم قال له راعول : « كلا يا جريمو ! ينبغي ألا تترك الكونت وحده ، انك لم تفارقه قط قبل الآن ! »

فردد جريمو بصره بينهما وكأنه يسائل نفسه أيهما أولى به . ولم ينطق آتوس ببنت شفة ، ثم قال جريمو : « ان سيدى الكونت يؤثر ذهابى مع ولده »

فأوما آتوس برأسه موافقا . ثم دقت الطبول فجأة ، وانطلقت أبواق السفن فملأت الجو بصوتها . وبدأ الجنود يأخذون طريقهم الى سفنهم . فحفر جريمو في نشاط الشباب للاشراف على نقل أمتعة سيده الشاب الى سفينة القيادة . وكان آتوس ممسكا بيده يد راعول وكأنه لا يريد أن يفترق عنه ، حتى جاء ضابط يجرى لينبئ راعول بأن الدوق يطلبه فمضى ووالده الى منعطف الطريق حيث وجدا الدوق منتظيا جوادا أبيض فنادى راعول وصافح الكونت بيده . ثم عانق آتوس ولده فقال له الدوق : « اصحبنا الى السفينة فان أمامنا نصف ساعة قبل أن نبحر »

فقال الكونت : « لقد ودعت راعول يا صاحب السمو ، ولا أحب أن أودعه ثانية ! »

فقال الدوق لراعول : « اذن اذهب الى السفينة الآن يا فيكونت » . ثم

فقال دى توناي شارنت : « حقا لا شيء فى أن تنبذ الفتاة خطيبها فى مثل هذه الحالة ، ولكن ليس لها أى حق فى أن تبعث به الى الموت ، أو الى الحرب حيث يلقي حتفه ! »

فوضعت لويز يدها على جبينها ، بينما استطردت الفتاة الماكرة فقالت : « اذا مات المسيو دى براجلون فى افريقيا ، فلا شك فى أنه يكون قد مات متأثرا بفشله فى حب لويز ! »

وهنا استندت لويز الى ذراع دارتانيان اذ ترنحت للسقوط ، وكانت ملامح وجهه تنم عن تأثر عميق . ثم قالت له فى صوت يشوبه الغضب والالتم : « لقد أردت أن تحدثنى يا كابتن . ماذا عندك لى تقوله لى ؟ »

فجذبها دارتانيان الى ركن بعيد فى الرواق ثم قال لها : « ان ما أردت أن أقوله لك يا آنسة ، قد قالته الآنسة دى توناي شارنت . صحیح انها قالته بعف وقسوة ولكنها قالته كله على أى حال ! »

فصرخت صرخة واهنة ثم انفلتت وانطلقت الى باب قريب فى الرواق فدخلته واخفت خلفه ، وفى اللحظة نفسها بدا الملك داخل من باب آخر واتجه بنظرة لأول وهلة الى الكرسي الذى كانت خليلته تجلس عليه فلما لم يجدها وقف هنيهة عابسا ، ثم لمحت عينه دارتانيان وقد وقف حائى الرأس اجلالا له فهتف به : « أهذا أنت ؟ لقد جئت بسرعة . انى راض عنك . » وكان هذا أقصى تعبير عن الارتياح الملكى . . . وكثير من الرجال كانوا يضحون أرواحهم فى سبيل كلمة كهذه من الملك . بينما انسحبت وصيقات الشرف ، وتبعهن رجال البلاط اذ لحظوا أن الملك يتحدث حديثا خاصا مع قائد الفرسان ، ثم قاده الملك خارج الرواق وسأله : « حسنا يامسيو دارتانيان . ماذا فعلت بالسجين ؟ »

فقال : « انه فى السجن يا مولاي . وقد تمرد الصياد الذى نقلنا بسفينته الى سانت مرجريت ، وحاول أن يقتلنى ، فدافع السجين عنى بدل أن يحاول الفرار ! »

فامتقع وجه الملك وقال له : « كفى ! » . ثم أخذ الملك يدور حول مكتبه فى خطى قلقة سريعة ، وقال لدارتانيان بعد قليل : « هل كنت فى الانتيب حين وصل اليها المسيو دى بوفور ؟ »

فقال دارتانيان : « لقد غادرتها فى الوقت الذى دخلها فيه سموالدوق ! » فسكت الملك لحظة ثم سأله : « من الذين رأيتهم هناك ؟ » . فأجاب فى برود : « رأيت هناك كثيرا من الناس ! »

وأدرك الملك أنه راغب عن الكلام فقال له : « لقد بعثت فى طلبك لى تعد مسكنى فى نانت باقليم بريتانى »

فقال دارتانيان : « أتقوم جلاتك بهذه الرحلة الطويلة الآن ؟ »

فقال : « ان برلمان الطبقات مجتمع هناك ، وعندى طلبان ساقدمهما له . »

يمر هو لتفقد الحراس . وعلى ذلك سدد خطاه الى حيث كانت لافاليروسط دائرة من نساء البلاط ، وكأنها الشمس وسط الكواكب ، ولم يكن دارتانيان يعجى وراء النساء ولكنهن كن يحترمنه كما كانت شهرته تثير اعجابهن . فلما رأيته قادما أحطن به ، وأخذن يهاجمنه بالأسئلة عن أسباب غيبته طول تلك المدة . . . فأجاب فى جد وهدوء : « لقد كنت فى بلاد البرتقال ! » وأثارت اجابته ضحكاتهن اللطيفة ، ثم سأله الآنسة دى توناي شارنت : « ماذا تعنى ببلاد البرتقال . . . ؟ . أكنت فى اسبانيا ؟ »

ولما أجاب بالنفى قالت له : « اذن . . . كنت فى مالطة ؟ » . فhez رأسه نائفا أيضا وقال : « لقد اقتربت من الحقيقة ! » . وهنا سأله دى لافالير : « هل هى جزيرة ؟ » . فابتسم وقال : « لن أتعبك أكثر من ذلك يا آنسة . . . لقد عدت من الجهة التى يبحر منها دوق بوفور فى هذه الساعة الى الجزائر ! »

وانهالت الأسئلة عليه من أولئك الحسان عن الجيش والاسطول ، فيجيبهن اجابات مقتضبة ، الى أن سأله الآنسة دى توناي شارنت : « ألم تر أحدا من أصدقائنا هناك ؟ »

فقال : « أجل ! . رأيت ضمن الحملة المسيو دى لاجيلوتير ، والمسيو دى مانشى ، والمسيو دى براجلون . . . »

وهنا امتقع وجه دى لافالير ، بينما استطردت دى توناي شارنت فسألته فى خبث غير ملحوظ : « ماذا تقول ؟ هل المسيو دى براجلون ضمن الحملة أيضا ؟ . . . اذن لقد صح ما توقعته فهؤلاء الرجال الذين اشتركوا فى الحملة كلهم ممن خانهم الحظ فى الحب ، فذهبوا الى الشرق للبحث عن نساء سوداوات يكن أشفق عليهم من حسان باريس ! »

وضحك أكثر الانسى لنكتتها ، بينما اضطربت دى لافالير ، وسعلت مونتاليه متشاغلة . . . فقال دارتانيان : « الواقع أن نساء الجزائر لسن سوداوات ، بل هن سمرافات فاتنات ، ولهن عيون نجل وشفاه قرمزية لم أر مثلها فى حياتى ! »

فقال الآنسة دى توناي شارنت : « هذا من حسن حظ المسيو دى براجلون ، فلعله هناك يعوض عن خسارته هنا ! »

وأعقب ذلك صمت شامل ، ولحظ دارتانيان قسوة هذه الفتاة الحبيثة على دى لافالير وتجاهلها اضطرابها وشحوبها ، ثم استأنفت الحوار بعد لحظة قائلة : « كل هذا ذنبك أنت يا عزيزتى لويز ! »

فقال دى لافالير متلعثمة : « أنا ؟ . أى ذنب لى فى هذا يا آنسة ؟ » فردت عليها قائلة : « ان ذلك الشاب البائس كان خطيبك وكان يحبك ولكنك نبذته ! »

وهنا قالت مونتاليه فى رياء : « هذا حق كل امرأة شريفة . اننا حين يتضح لنا أننا لا نقدر أن نسعد رجلا فالأفضل أن ننبذه ! »

وعلى هذا أرى أن أسافر الى هناك فى هذا المساء ، ولكنك محتاج الى الراحة ولا شك ، واذن ليكن السفر غدا ! »

فقال دارتانيان : « لقد ارتحت يا مولاي » . فقال الملك : « حسنا ! اذن نبدأ السفر بين هذا المساء ومساء غدا ! » . فانحنى دارتانيان كأنه يستأذن فى الانصراف ، ولكنه لحظ اضطراب الملك فسأله : « أتصحب جلالتك معيتك ؟ أعنى هل تحتاج جلالتك الى الفرسان ؟ »

ففكر الملك قليلا ثم قال له : « خذ فرقة منهم . وقد علمت أن قصر نانت غير منظم كما ينبغي ، وعلى هذا لا تنس أن تضع فارساً بباب كل كبير من الكبراء الذين سيصحبوننى مثل المسيو دى ليون والمسيو لتلين والمسيو بريين ووزير المالية ! »

فقال دارتانيان : « غدا آكون قد سافرت ونفذت أمر مولاي ! »

فقال الملك : « حسنا ! ولكن كلمة أخرى يا مسيو دارتانيان . ستقابل فى نانت دوق جيفر قائد الحراس ، فاحرص على تدبير أماكن لفرسانك قبل وصول حراسه . ان السبق هو دائما لمن يأتى أولا . واذأ سألك دوق جيفر عن شيء فلا تقل له أى شيء ! »

وقال قائد الفرسان لنفسه بعد أن خرج : « الى نانت ؟ لماذا لم يجرؤ على القول بأنه ذاهب الى (بل - أيل) من هناك ؟ »

ولما وصل الى باب القصر لحق به أحد كتبة المسيو بريين وقال له : « سيدى . ان جلالة الملك أعطانى هذا الأمر لاسلمه اليك ! »

وتناول منه الأمر ، فوجد عليه خاتم المسيو فوكيه لكنه بخط الملك نفسه وخاص بصرف مائتى بستانى له . فقال لنفسه بعد أن صرف الكاتب : « المسيو فوكيه هو الذى ينفق على هذه الرحلة ١٩٠٠ ان هذا لا يشبه بالأعيب لويس الحادى عشر . لماذا لم يصدر الملك هذا الأمر الى المسيو كولبير ؟ » . ثم ذهب من فوره الى دار المسيو فوكيه ليتسلم المبلغ ثم يتأهب للسفر !

العشاء الأخير

كان وزير المالية قد نعى اليه نيا الرحلة التى اعترم الملك القيام بها ، فاقام بداره مأدبة عشاء لتوديع أصدقائه . وكانت الدار حين وصل اليها دارتانيان تموج بالخدم رائحين غادين يحملون الوان الطعام وصنوف الشراب . فلما أراد قائد الفرسان صرف قيمة الاذن الذى فى يده من المكتب قيل له ان الوقت متأخر وقد اغلقت الخزانة حتى صباح اليوم التالى . فطلب أن يقابل المسيو فوكيه ، وكان هذا مع ضيوفه فى الجناح المخصص لسكناه بالدار وليس من عادته أن يستقبل أحدا فى مثل هذه الساعة ، ولكنه ما كاد يعلم بوجود المسيو دارتانيان قائد فرسان الملك حتى أوفد الشاعر بليسون لاحضاره من غرفة الانتظار فقاده هذا الى حجرة المائدة بعد ان اطمأن الى ان الأمر لا يعدو اذن صرف معه يريد قبض قيمته

وكان الوزير جالسا فى مقعد وثير ومن حوله جماعة الايقوريين من الشعراء الذين اثبتوا اخلاصهم ووفاءهم له حين اقتربت منه العاصفة واهتزت من تحته الارض ، فبقوا على ولائهم له كما كانوا فى عهد رخائه وابان نعمته . وقد جلست الى يساره مدام دى بليير ، وجلست الى يمينه قرينته ، ضاربتين عرض الحائط بقواعد العرف ونوازع الفيرة !

ونفض الوزير لاستقبال قائد الفرسان قائلا : « معذرة يا مسيو دارتانيان اذ لم أخرج للقائك وقد جئت باسم الملك ! »

فأجاب دارتانيان قائلا : « يا صاحب الفخامة . اننى جئت باسم الملك لاصرف اذنا بمبلغ مائتى بستانى ! »

وعندئذ انقضت السحب التى كانت مخيمة على الوجوه ، ما عدا المسيو فوكيه فقد ظل واجما وقال : « اذن أنت أيضا مسافر الى نانت ؟ »

فقال دارتانيان : « الواقع انى لا أدري لماذا أسافر يا صاحب الفخامة »

فقال مدام فوكيه وقد زال عنها ما اعترأها من وجل : « لكنك لا تعجل السفر بحيث لا تجلس معنا قليلا ؟ »

فانحنى لها وقال : « ان هذا شرف كبير لى يا سيدتى ، غير أن وقتى ضيق بحيث اضطررت الى أن أقطع عليكم عشاءكم لكى أصرف هذا الاذن ! »

فقال المسيو فوكيه : « اذن يصرف بالذهب ! » . ثم دعا أحد الكتبة وناوله الاذن الذى تسلمه من دارتانيان ، فقال هذا : « انى لم اكن قلقا بشأن الصرف فان سمعة هذا البيت المالى لا تدع مجالا لى قلق ! »

فارتسمت ابتسامة حزينة على شفتى فوكيه ، وسأله مدام دى



وقال المسيو فوكيه : « بل يقال اكثر من ذلك فسيذاع عنى انى هربت ومعى عشرون مليوناً ! »

فقال لافونتين : « سنكتب مذكرات فى تبرئتك !.. واذن ينبغى لك أن تهرب كما قال بليسون ! »

فقال فوكيه : « بل سأبقى يا أصدقائى !.. ان كل شىء فى مصلحتى ! » وهنا تكلم الأب فوكيه فقال : « عندك (بل - ايل) فاذهب اليها »

فقال فوكيه : « سأذهب بالبداهة الى هناك ولكن بعد أن تنتهى رحلة نانت ! »

فالتفت الى قربته وقالت : « ما أبعد الشقة الى نانت ! » . فقال لها : « أعرف ذلك . ولكن الملك سيدعونى هناك الى حضور برلمان الطبقات ، ولا شك فى أنه بذلك لا يريد غير احرأجى !.. ولكنى لا أريد أن أرفض حتى لا اتهم بالخوف ! »

وحينئذ قال بليسون : « لقد وجدت وسيلة لاصلاح كل شىء.. ستسافر الى نانت . ولكنك ستسافر بعربتك أولاً مع أصدقائك الى أورليانز ، ثم تستقل زورقك الشراعى حتى نانت على أن تكون على أهبة دائمة للدفاع عن نفسك اذا هوجمت ، وللفرار بنفسك اذا هددت بل تحمل معك مالك لمواجهة كل الظروف . وأنت فى طريقك الى الفرار انما تكون مطيعاً للملك وفى خدمته . حتى اذا وصلت الى البحر ، سارعت الى الانتقال الى (بل - ايل) . ومن هناك تدافع عن نفسك فى ذلك الحصن المتيع ! »

فلقيت كل كلمات بليسون موافقة عامة ، وقالت مدام فوكيه لزوجها : « أجل هكذا يجب أن تفعل »

وصاح جميع أصدقائه قائلين : « أجل هذا هو الرأى ! »

فقال فوكيه : « اذن سأفعل ذلك ، وسأبدأ هذا المساء بعد ساعة واحدة بل فى الحال ! »

ثم قال الأب فوكيه : « انك بسبعمائة ألف ليفر يمكنك أن تضع نواة لثروة جديدة . وماذا يمتعنا من تزويد القرصان بالذخيرة من (بل - ايل) ؟ » وقال لافونتين بحماسة : « واذا تطلب الأمر فسنبحر لاكتشاف عالم جديد ! »

وفيما هم فى حديثهم سمعت قرعة على الباب قطعت حديثهم وجاء الحاجب يقول : « رسول من قبل الملك » . فساد المكان صمت عميق . وترقب كل واحد من الحاضرين ما يفعله الوزير ، وكان جبينه يتصبب عرقاً ، وقد عاودته الحمى حقاً فى تلك اللحظة . ثم انتقل الى مكتبه ليتلقى رسالة الملك وسمع الجميع صوته وهو يقول للرسول : « هذا حسن » وكان صوته مرتعشاً يقلبه التعب والتأثر . وبعد برهة نادى جورفيل ثم عاد أخيراً الى ضيوفه وهو فى حالة من الإعياء واليأس فصاحوا به قائلين :

بليير : « أشعر بألم ؟ » . وأردفت قربته قائلة له : « اشعر بأعراض التوبة ؟ » . فاجابها بالنفى شاكراً ، وهنا تساءل دارتانيان : « آية توبة ؟ .. هل صاحب الفخامة يشكو مرضاً ؟ » . فقال فوكيه : « انى أعانى حمى متقطعة أصابتنى بعد مهرجان فو »

فقال قائد الفرسان : « ربما أصبت بالبرد ليلاً ؟ » . فقال فوكيه : « لا يا سيدى ، كل ما فى الأمر انى لم أتحمّل شدة التأثر ! »

وهنا قال الشاعر فى هدوء : « حقاً ! انك أبديت مزيداً من الحماسة فى استقبال الملك ! » . ولم يدر الشاعر أنه بهذه الكلمات قد عاب فى حق الملك . فقال له المسيو فوكيه : « اننا مهما تبلغ حماستنا فى استقبال الملك لا نكون مباغين ! »

فلم يسع دارتانيان الا أن يقول : « الواقع أن كرم الضيافة لم يوجد قط كما وجد فى مهرجان فو ! »

وهنا جاء الكاتب وسلم المال المطلوب للمسيو دارتانيان ، فلما هم هذا بالانصراف نهض المسيو فوكيه وتناول كأساً من النبيذ وأمر بكأس أخرى للمسيو دارتانيان ثم تجرع كأسه قائلاً : « فى صحة الملك دائماً ! »

فتجرع دارتانيان كأسه قائلاً : « فى صحتك يا صاحب الفخامة دائماً » . ثم انحنى مودعاً وغادر الحجر !

وقال المسيو فوكيه بعد انصراف قائد الفرسان وهو يحاول أن يضحك : « لقد حسبت لحظة أنه لم يأت من أجل تقودى ! »

فصاح أصدقائه متعجبين سائلين عن السبب ، فقال فى هدوئه المعهود : « لا تخدعوا انفسكم يا أخوتى فى الايقورية . معاذ الله أن أقارن بينى أنا المذنب الوضيع وبين يسوع ، ولكن تذكروا أنه أدب يوماً لاصدقائه مادبة تسمى (العشاء الأخير) كانت بمثابة التوديع لهم كمأدبتنا هذه ! »

فانبعثت صيحات الإنكار من كل جانب ، وعندئذ أمر فوكيه بخروج الخدم واغلاق الأبواب ثم قال بصوت خافت : « أى أصدقائى الأعزاء ، ماذا كنت من قبل ؟ . وماذا أنا الآن ؟ .. ان رجلاً مثلى لا بد أن ينحدر اذا لم يرتفع باطراد . فما بالكم وأنا لم يعد لى مال ولا يتبقى بى دائن ؟ ! »

فوقف بليسون وقال : « ما دمت تصارحننا هكذا فان من واجبنا أن نصارحك كذلك . هناك سبعمائة ألف ليفر هى كل ما بقى لك كما نعلم ، وهى ... »

فقالت مدام فوكيه متممة : « وهى تكفى ثمناً للخبز القفار ! »

فقال بليسون : « بل تكفى لكى يهرب بها !.. يهرب الى سويسرا ، أو الى سافوى ، أو الى مكان ! »

فقالت مدام دي بليير : « اذا هرب صاحب الفخامة فيسقال أنه مذنب وأنه خاف ؟ ! »

« ماذا هناك ؟ » . فكان جوابه أن مد رسالة الملك التي كانت في يده الى بليسون ، فقرأ هذا فيها ما يلي :

« عزيزي المسيو فوكيه . أعطنا مما بقي لنا مبلغ سبعمائة ألف ليفر لأننا في حاجة اليه للاستعداد للسفر . واذ علمنا أن صحتك ليست على ما يرام نسأل الله لك الشفاء والعافية . . . لويس

« حاشية - هذا الخطاب يعد ايصالا »

فتمتم الجميع بما يدل على الفزع . وسأله بليسون : « ماذا عولت عليه ؟ » فقال : « لقد دفعت المبلغ ! »

فصاحت مدام فوكيه : « دفعته ؟ . . اذن لقد ضعنا ! »

وقال بليسون : « لا فائدة من الكلام ، بعد أخذ المال ستؤخذ الحياة ! . الى جوادك اذن ! . انك اذا اتقذت نفسك فكأنك اتقذتها جميعا ! »

وعارضت مدام فوكيه قائلة : « لكنه لا يستطيع أن يمسك نفسه على الجواد ؟ ! »

وفي هذه اللحظة جاء جورفيل يلهث من التعب وقال : « لقد رافقت رسول الملك بالمبلغ الى القصر الملكي ، وهناك وجدت الفرسان على ظهور جيادهم متأهين ! »

فصاح الجميع قائلين : « اذن يجب ألا تضع دقيقة واحدة ! »

واندفعت مدام فوكيه تأمر باعداد الجياد . بينما جرت مدام دي بليير وراءها فاحتضنتها قائلة : « سيدتي . . في سبيل سلامته ، لا تبدي أي انزعاج ! »

وجرى بليسون ليستوثق من ربط الجياد الى العربية ، وفي الوقت نفسه جمع جورفيل في قبعته كل ما أمكن أولئك الصحاب أن يضعوه فيها من الذهب والفضة ، ثم حمل بعضهم المسيو فوكيه الى العربية فوضعه فيها . وصعد جورفيل فأمسك زمام الجياد . وساعد بليسون مدام فوكيه التي اغمى عليها . أما مدام دي بليير فكانت أقوى منها وتلقت جزاءها على ثباتها في شكل قبلة أخيرة من فوكيه . وفسر بليسون للخدم والكتبة هذا السفر المفاجيء بأن أمرا من الملك قد صدر بدعوة الوزير الى نانت فورا !

□

لم يشأ دارتانيان أن يقيد نفسه بفرقة الفرسان في الرحلة ، فسافر الى نانت بجياد الريد ، وترك الفرقة تلحق به بعد أن أوصى وكيله فيها بسرعة المسير ، ولما مر بشارع (بتي - شان) رأى المسيو كولبير يخرج من بيته ليركب عربته التي كانت تنتظر أمام الباب ، ولمح في تلك العربية رأس سيدتين قد أخفت قبعتاهما وجهيهما ، فحفزه الفضول لأن يعرف شخصيتهما

ولذا استحث جواده حتى صار الى جوار العربية ، وتبين فيها امرأة شابة هي مدام فانيل وأخرى عجوزا هي دوقة شيفريز . فقال لنفسه : « ان الدوقة العجوز قد ودعت كبرياءها وها هي ذى تنزل الى خلية كولبير ، يا لفوكيه المسكين . . ان هذا لا يبشر بخير له ! » ثم مضى في سبيله

واستقل كولبير عربته عقب ذلك الى غابة فنسين حيث نزلت مدام فانيل عند بيت زوجها ، وبقيت مدام دي شيفريز وحدها معه بالعربية . فأخذت تحدثه مثنية على مقدرته ، مؤكدة أنه لن يلبث قليلا حتى يصبح وزيرا خطيرا بينما لا يكون فوكيه شيئا مذكورا ، ثم وعدته بأن تكسب له ، حين يصبح وزيرا للمالية ، تأييد جميع الأسر النبيلة القديمة في المملكة ثم قالت له : « لن أقول لك أكثر مما قلته عن المسيو فوكيه . أن الرحلة التي سيقوم بها الملك الى نانت ستسوى حسابها تماما ! ان الملك بتلمس أية ذريعة يتدرع بها ، ومتى عاد من نانت فسيقول : ان برلمان الطبقات لم يسلك المسلك الواجب ولم يقدم الا توضيحات قليلة ، بينما يقول البرلمان : ان المكوس المطلوبة فادحة وان وزير المالية أرهق كاهل البلاد ، وحينئذ ينحى الملك باللائمة كلها على المسيو فوكيه فلا يجرؤ أحد من الذين يؤيدون المسيو فوكيه على الدفاع عنسه . . فالآنسة دي لافالير مثلا ليس لها الا نفوذ ضئيل ، وهي لا تعرف شؤون السياسة . وقد غازلها المسيو فوكيه يوما ، فاذا هي دافعت عنه فكانها تتهم نفسها ! . أما الملكة الوالدة فاذا كانت قد استطاعت من قبل أن تحول بين الملك وبين الأمر بالقبض على المسيو فوكيه في فو ، فهي لن تستطيع ذلك الآن ، لأنها لا تطيق أحدا ممن اشتركوا بأى شكل في كشف سر خاص كانت جد حريصة على كتمانها ، وقد كان المسيو فوكيه أحد هؤلاء ! »

فقال المسيو كولبير : « اذن نثق بتأييد الملكة الوالدة ؟ »

فقالت له : « نعم ، وقد كنت عندها منذ برهة وجيزة وأكدت لي ذلك ! ولكن هناك مسألة أخرى . أتعرف صديقا حميما للمسيو فوكيه يسمى المسيو دربلاي وأحسبه أسقفا ؟ »

فقال كولبير : « أجل أعرفه ، وهو أسقف مدينة فان »

فقالت الدوقة : « ان المسيو دربلاي هذا يعرف ذلك السر أيضا ، ولذا تطارده الملكة الوالدة الآن بكل ما في وسعها حتى أنها لا تكفى بأقل من رأسه لكي تستوثق من أنه لن يتكلم ثانية ! »

فقال كولبير : « سنبحث عن المسيو دربلاي هذا حتى نعر عليه ما دامت هذه رغبة الملكة الوالدة ! »

فقالت : « ان مكانه معروف ، فهو الآن في جزيرة (بل - أيل - آن - مير) التي يملكها المسيو فوكيه ! »

فقال : « اذن سنقبض عليه هناك في أقرب وقت ! »

فابتسمت الدوقة وقالت له : « لا تظن أن ذلك أمر يسير »

فنظر إليها كولبير نظرة جادة وقال : « لقد مضى الزمن الذى كان الرعايا فيه يكسبون دوقيات بمحاربة الملك . وإذا كان المسيو دربلاي نائرا فسيموت على المشنقة ، ولن يهنا أن يسر هذا أصدقاءه أو لا يسرهم ! »

فقالت الدوقة : « انك لا تعرف الكثير عن المسيو دربلاي ! انه أراميس أحد الفرسان الأربعة الذين جعلوا الكاردينال ريشيليو يرتعد فرقا في عهد الملك السابق ، ثم سبوا متاعب جملة للمسيو مازارين في عهد الوصاية على العرش ! »

فقال لها : « فليكن يا سيدتى ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل الا اذا كان وراءه مملكة تؤيده ؟ »

فقالت جادة : « الواقع أن وراءه مملكة يا سيدى »

فقال : « حسنا ! ما دمت يهكم ألا يهرب هذا النائر فانى أعدك بالأى ندعه يهرب ! »

فقالت : « انك تعلم ان (بيل - ايل) محصنة ، وافته هو نفسه قام بتحسينها »

فقال : « سنحاصرها حتى يسلم ! »

فبدأ البشر فى وجهها وقالت : « كن واثقا يا سيدى أن هذا الاخلاص الذى تبديه لصالح الملكة الوالدة سيلقى منها التقدير ، وأنك ستكافأ أجزل المكافأة على اعتقال ذلك الفارس المسمى دربلاي الذى هو أكثر من جاسوس أسباني . انه قائد الجزويت . وهكذا ترى أننا ان لم نقض عليه فسيقضى علينا جميعا ! »

فقال : « قائد الجزويت ؟ . . اذن لا شىء غير السجن يسوى هذه المسألة يا سيدتى ! »

فابتسمت الدوقة ثانية وقالت : « لعلك لا تعلم أن أراميس فر أكثر من مرة من السجن ؟ . . انه كان أحد الفرسان الأربعة الذين يخشاهم ريشيليو ، ولا تنس أن أولئك الفرسان لم يكونوا وقتئذ يملكون ما يملكونه الآن من المال والخبرة ! »

فعض كولبير شفتيه وقال : « اذن نترك فكرة السجن ، وسنجد له مكانا لا يخرج منه الانسان ! »

فابتسمت وقالت : « أصبت أيتها الحليف ! . ويحسن بنا أن نعود الآن فان الوقت تأخر بنا . فوافق على ذلك قائلا : « حسنا يا سيدتى ، فلنعد الآن الى باريس وبخاصة أن على أن أعد معدات السفر لا تكون فى معية الملك خلال رحلته ! »

فرار المسيو فوكيه

كانت المرحلة الأولى من سفر المسيو فوكيه أو فراره يسودها القلق والخوف من كثرة الجياد والعربات التى كانت ترى خلفه . والواقع أن لويس الرابع عشر ما كان ليترك فريسته تفلت منه بسهولة . ولكن الوزير الهارب عاوده بعض الاطمئنان حين سبق مطارديه بمسافة بعيدة كما أن اسراعه لم يكن يدعو الى الريبة اذ المعروف أنه مسافر ليلحق بالملك فى نانت . وهكذا وصل مطمئنا برغم تعبته الى أورليانز ، وهناك وجد زورقا جميلا ، ذا ثمانية مجاذيف وبه قمرة صغيرة على سطحه ، فاستقله ومعه جورفيل الى بوجنسى عبر اللوار ، ووصلا اليها دون حادث يذكر فقوى أمل الوزير فى أن يبلغ نانت قبل غيره ، وهناك يرى (الأعيان) ويكسب لنفسه أنصارا بين أعضاء البرلمان ، وبذلك يرجئ النكبة ان لم يستطع منعها ، كما يجد جيادا تقله الى بواتو حيث يركب زورقا يبلغ به حصن (بل - ايل) المنيح

على أنهما قبل الوصول الى نانت بساعات لمحا سفينة مسرعة خلفت زورقهما كأنها تطارده ، ثم تبين أن كولبير هو الذى يستقلها ومعه رجال مسلحون ، فلما وصل الجميع الى ميناء نانت اقترب كولبير من فوكيه وحياه باحترام كبير ، وكانت الجماهير قد اجتمعت هناك ، فوقف فوكيه رابط الجأش ورد تحية خصمه قائلا وهو يتصنع الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو كولبير ؟ . . اذن كانت سفينتك تلك التى رأيناها خلفنا وفيها اثنا عشر مجذافا ؟ . . ما هذا الترف يا مسيو كولبير ، لقد حسبت أن تلك السفينة تقل الملكة الوالدة ! »

فاحمر وجه كولبير وغمغم قائلا : « يا صاحب الفخامة ! . . بينما استطرده فوكيه فقال له : « ان هذه الرحلة ستتكلف كثيرا ولكنك وصلت لحسن الحظ . ولعلك رأيت كيف وصلت قبلك مع أن زورقى ليس به سوى ثمانية مجاذيف ! »

ثم ادار له ظهره وركب العربة التى كانت البلدية قد أعدتها لتقله الى دارها . ولم يكده يستقر بالدار حتى خرج جورفيل ليأمر باعداد جياد تقلهما الى بواتييه وفان ، وزورق يقلهما من هناك الى بامبيف . وقد حرص على أن يؤدى هذه المهمة خفية دون أن يعلم بها فوكيه

وذاع فى خلال الليل أن الملك قادم بسرعة على جياد البريد ، وقد يصل بعد عشر ساعات أو اثنتى عشرة ساعة ، ووقفت الجماهير تنتظر الملك ،

وكانت قد سرت بمنظر الفرسان الذين وصلوا مع المسيو دارتانيان فأندهم ليكونوا حرس شرف بالقصر

وجوالى الساعة العاشرة جاء المسيو دارتانيان لزيارة المسيو فوكيه بدافع الأدب والجمالة ، فلم يجد هذا بدا من مقابته في حجرة النوم ، برغم تأله من الحمى التي جعلت العرق يتصبب من بدنه ، وحياه بصوت واهن ، فسأله دارتانيان : « كيف كانت رحلة صاحب الفخامة ؟ »

فقال فوكيه : « لا بأس بها وشكرا لك . وها أنذا أتجرع دواء مهدئا كما ترى ! »

فقال قائد الفرسان : « يجدر بك ان تنام أولا يا صاحب الفخامة »

فقال : « يسرنى ان انام لو استطعت ذلك ، ولكن كيف انام مع هذه الحمى ، ومع توقع زيارة قائد الفرسان لى باسم الملك ؟ ! »

فقال دارتانيان : « كلا ، ليس الأمر هنا كما كان في باريس ، وثق يا صاحب الفخامة بأننى فى اليوم الذى أزورك فيه باسم الملك للغرض الذى تفهمه ، لن أجعلك فى شك من الأمر . بل سترانى أضع يدي على سيفي ، وستسمعنى أقول لك بلهجة رسمية : (باسم الملك أقبض عليك !) . ولكننا لم نصل الى هذا . . . وأقسم لك بشرفي ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك يا مسيو دارتانيان ، ولكن ما الذى جعلك تعتقد عكس هذا الذى اعتقده ؟ »

فقال : « اننى لم أسمع أى شىء تشتم منه تلك الراححة ، وثق يا سيدى بأنك رجل لطيف برغم الحمى التى بك ، وليس يسع الملك الا أن يحبك من فرارة فؤاده ! »

فبدا الشك فى وجه فوكيه وقال له : « وهل يحبنى المسيو كولبير أيضا ؟ »

فأجاب دارتانيان : « انى لا أتحدث عن المسيو كولبير . انه رجل شاذ ، ولا يحبك . ولكن السنجاب يستطيع أن يحمى نفسه من الشعبان بقليل من الجهد ! »

فقال له الوزير : « أتدرى انى لم أصادف فى حياتى أحدا بمثل ذكائك وطيبة قلبك ؟ »

فحنى دارتانيان رأسه شاكرا وقال : « أنك لم تشرب الدواء بعد يا صاحب الفخامة ! » . ثم ناوله الدواء فى مودة ظاهرة فأخذه منه فوكيه وهو يتسهم ، وقال قائد الفرسان : « لقد قضيت عشر سنوات تحت بصرك وأنت تنثر الذهب ، وتتفق معاشا قدره أربعة ملايين فى السنة ، لكنك لم تلحظ وجودى قط ، ولكن ثق يا سيدى بأنى أفدرك كل التقدير ! »

فقال فوكيه : « شكرا لك ! . . هذا يجعلنى أنسى سوء التقدير الذى يلاحقنى به المسيو كولبير ! »

فقال دارتانيان : « يبدو أن المسيو كولبير أثقل عليك من الحمى التى تشكوها ! »

فقال فوكيه : « ان لى ما يبرر ذلك ، وقد كان يطارد الزورق الذى جئت به الى هنا مطاردة الواثق من أن نكبة يجب أن تحل بى ! »

وهنا بدا الجد فى هيئة دارتانيان وقال : « الحق معك يا سيدى ! » . بينما واصل الوزير كلامه قائلا : « ألا تحسب الملك قد جاء بى الى نانت لىكى يبعثنى عن باريس حيث لى أعوان كثيرون ، ثم يستحوذ على (بل - أيل) . . . ؟ »

فقال دارتانيان : « أنت تعنى رغبة الملك فى الوصول الى المسيو دربلوى الذى لجأ الى هناك ، على اننى أذكر لك يا صاحب الفخامة ان الملك لم يقل لى شيئا ضدك . لقد أمرنى جلالته أن أسافر الى نانت ومعى فرقة من الفرسان ، وأمرنى كذلك بالأأذكر شيئا عن ذلك للمسيو دى جيفر الذى تنطق عيناه بغير ما تنطق به شفاته . أما الفرقة فتضم تسعة وتسعين فارسا ، أى مثل عدد الفرسان الذين خولوا القبض على دى شاليه ودى سانت مارس ومونتورنسى »

فأصغى فوكيه الى هذه الكلمات التى كان دارتانيان يقولها بغير اكرات . ثم سأله : « ألم يأمرك الملك بغير ذلك ؟ »

فأجاب قائلا : « لقد أصدر الى أوامر أخرى غير ذات شأن ، مثل حراسة القصر وحراسة كل مسكن فيه وألا أترك حراس دى جيفر يحتلون أى موقع فيه »

فنظر اليه فوكيه مليا ثم قال له : « يا عزيزى المسيو دارتانيان . . ان شرفى وربما حياتى نفسها ، فى خطر شديد ، فبماذا أمرك الملك فى شأنى ؟ »

فقال دارتانيان فى هدوء : « ألم أقسم بشرفى أن ليس عندى فى شأنك أى أمر من الملك . . . ثق يا سيدى بأن جميع الأوامر التى تلقيتها من الملك ليس فيها ما يتعلق بك ، فهى كلها اجراءات بوليسية كهذه التى ذكرتها لك ، وكمنع الجياد والعربات من أن تغادر نانت دون أمر موقع عليه من الملك . . . »

وهنا قطع فوكيه كلامه هاتفا : « رباه ! أمر الملك بهذا أيضا يا مسيو دارتانيان ؟ »

فضحك دارتانيان وقال : « نعم يا صاحب الفخامة ، ولكن كل هذا لا ينفذ الا بعد وصول الملك الى نانت . وهكذا ترى أن الأمر لا صلة له بك ! »

فبدا التفكير فى وجه فوكيه وتظاهر دارتانيان بأنه لا يلحظ ما هو فيه من قلق وقال : « انى اذ أذكر لك الأوامر التى أصدرها الملك انما أريد أن أثبت لك انها لا تتعلق بك ، والا ما كان لى أن أوقع نفسى فى ورطة باناحة

القبض على فوكيه

ما كاد فوكيه يهبط من عربته أمام القصر حتى خف إليه رجل وضيق المظهر وانحنى له في اجلال كبير ثم ناوله خطابا ، وقد حاول دارتانيان أن يحول دون اقتراب ذلك الرجل من الوزير ، ولكن هذا كان قد تسلم منه الخطاب . ولما قرأه بدا عليه فزع لم يفت دارتانيان . ثم وضع فوكيه الورقة في حافظة أوراقه التي يحملها تحت ابطه وقصد الى جناح الملك

وفيما كان دارتانيان يتطلع من نوافذ السلم الى خارج القصر لمح الرجل الذي جاء بالخطاب الى الوزير ، ولاحظ أنه يخاطب بعض الافراد بأشارات معينة اختفوا عقبها في الشوارع المجاورة بعد أن كرروا تلك الاشارات . وفي طريقه الى المقصورة الملكية مر أمام فوكيه الذي كان واقفا ينتظر بالشرفة المجاورة للردهة الصغيرة ، وما كاد لويس الرابع عشر يرى قائد فرسانه حتى هتف به قائلا : « حسنا . . هل نفذت الأمر ؟ » أين المسيو فوكيه ؟ »

فانحنى دارتانيان وقال : « انه يتبعني يا مولاي »
فقال له الملك : « اذن دعه يدخل بعد عشر دقائق »

ثم صرف دارتانيان بإشارة من يده ، على أن هذا لم يكده يصل الى حيث كان فوكيه ينتظر حتى دق الملك الجرس طالبا أن يعود اليه ، ثم سأله قائلا : « ألم تلاحظ على فوكيه شيئا من الدهشة ؟ » . ولما أجاب بالنفي صرفه الملك مرة أخرى ، فخرج دارتانيان وقد أكد ظنه أن الملك لم يذكر كلمة (مسيو) قبل اسم الوزير . ولم يكن فوكيه قد غادر الشرفة التي وقف بها ينتظر ، وعاد يقرأ الرسالة التي وضعها ذلك الرجل في يده ، وكان فيها ما يلي : « ان شيئا يعد ضدك . ولعلمهم لا يجروون على تنفيذه بالقصر ، على أن ينفذوه في الطريق عند أوبتك . ان القصر الآن محاط بالفرسان فلا تدخل . هناك جواد أبيض ينتظر خلف الميدان »

وكان فوكيه قد أدرك منذ وقعت عينه على الخطاب أنه بخط صديقه المخلص جورفيل ، فأشفق أن يقع هذا الصديق في مأزق بسبب خطابه هذا اذا هو قبض عليه ، وسرعان ما مزق الخطاب قطعاً صغيرة وقذف بها من الشرفة فحملتها الريح الى كل ناحية . وفيما هو ينظر اليها وهي تطير جاءه دارتانيان وقال له : « ان الملك في انتظارك يا سيدي »

فمشى فوكيه بخطى ثابتة في الردهة الصغيرة حيث كان (دي برين)

الفرصة أمامك للهرب حيث لا شرطة ولا حراس ولا أوامر ، والنهر حر والطريق حرة ، بل انى لا مانع لدى من اعادة جياذك لك اذا شئت مغادرة نانت قبل وصول الملك ، ويمكنك أن تطلب الى ما تشاء فاني في خدمتك . وليس لي ما اطلب في مقابل ذلك الا أن تؤدي لي خدمة مشكورة بأن تبلغ تحياتي الى أراميس وبورتوس اذا أبحرت الى (بل - أيل) ، ما دام لك الحق في ذلك الآن ! »

ثم انحنى أمام الوزير وغادر جناحه . ولم يصل الى درج الردهة حتى دق فوكيه الجرس وصاح بالخدم قائلا : « أعدوا جياذى وزورقى ! »

ثم ارتدى الملابس التي وجدها في متناول يده وصاح وهو يضع ساعته في جيبه : « أين جورفيل ؟ » . وجاء هذا مسرعا وهيثته تدل على الرعب ، فمازأه فوكيه حتى صاح به : « هيا بنا ! »

فقال جورفيل : « لقد فات الوقت يا سيدي ، لأن الملك وصل الى القصر الآن ! »

فتمتم فوكيه قائلا : « اذن لقد ضعنا ! »

والواقع أن الملك كان في تلك اللحظة يدخل المدينة ، فأطلقت المدافع من الحصون تحية لقدومه وجاوبتها مدافع من سفينة حربية بالنهر . وتملك فوكيه اليأس فنادى وصفاءه وارتدى ثيابه الرسمية ، ورأى من وراء ستائر النافذة تحمس الجماهير وحركة الجيوش . ومضى موكب الملك الى القصر وسط مظاهر فخمة ، ثم رآه يهمس شيئا في أذن دارتانيان بعد أن نزل من فوق ظهر جواده عند الباب . فاتجه دارتانيان صوب البيت الذي نزله فوكيه ولكن ببطء وتردد . ففتح فوكيه النافذة ليكلمه وهو في الردهة . ولما رآه دارتانيان صاح به قائلا : « ألا تزال هنا يا صاحب الفخامة ؟ . لقد جئت أسأل عن صحتك ، ولكي أرجو أن تذهب الى القصر اذا سمحت بذلك حالتك الصحية . ان وصول الملك لم يدع لأحد حرية المرور بل هناك كلمة سر تتحكم فيها جميعا ! »

فتنهذ فوكيه من أعماق قلبه ، ثم ركب عربته متهالكا فيها على المقعد وذهب الى القصر في صحبة دارتانيان !



و (روز) يعملان ، بينما جلس (سان - اينيان) على كرسى صغير وسيفه بين ساقيه ينتظر الاوامر فى صبر نافذ . وعجب فوكيه كيف لم يلتفت اليه هؤلاء الثلاثة اقل التفات مع أنهم كانوا عادة كثيرى الأدب نحوه ، ولكنه تجاهل ذلك قائلا لنفسه : « ماذا ينتظر من رجال البلاط غير ذلك بعد أن أدركوا غضب الملك على وزيره ؟ » . ثم مضى فى طريقه وقد رفع رأسه أمام الجميع ، الى أن دخل جناح الملك بعد أن أعلن قدومه جرس صغير هناك

ولما رآه الملك أوما له برأسه دون أن يقوم للقاءه ، ثم سأله : « كيف أنت يا مسيو فوكيه ؟ »

فقال : « اننى أشعر بحمى شديدة ، ولكنى فى خدمة الملك على كل حال ! » فقال الملك : « حسنا ! ان البرلمان سيجتمع غدا فهل أعدت خطابا ؟ » فنظر فوكيه الى الملك مندهشا وقال : « لم أعد أى خطاب يا مولاي ، ولكنى لن أجد مشقة فى الارتجال ما دمت ملما بكل صغيرة وكبيرة من شئون الوزارة . على أنى أريد أن أسأل جلالتك سؤالا واحدا فهل تسمح جلالتك بذلك ؟ »

قال : « سل ما تريد »

فقال : « لماذا لم تذكر جلالتك لوزيرك الأول أن عليه أن يعد خطابا ؟ »

قال : « لم أرد أن أجهدك لعلمي بأنك مريض ! »

فقال الوزير : « ان العمل لا يجهدنى كما يعلم مولاي ، وعلى كل حال أرجو أن يسمح لى مليكى باستيضاح أمر آخر »

فاحمر وجه الملك ، وسأله : « أى أمر يا مسيو فوكيه ؟ » . فأجاب الوزير : « ان بعض الناس قد افترؤا على كذبا ، ولهذا أطمع فى عدالة جلالتك »

فبدا الضجر فى وجه الملك وقال : « انى أعرف كل شىء ولا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسيء اليك ! »

فقال الوزير : « شكرا لك يا مولاي ، على أنى أرجو أن تسمح لى جلالتك بأن أذفع عن نفسى ما بلغوك عنى من الوشائيات والانهامات ! »

فقال الملك وقد اشتد ضجره : « أكرر لك أنى لا أتهمك بشىء »

فانحنى فوكيه قليلا وتراجع خطوة الى الوراء وهو يقول لنفسه : « لا ريب أنه قد صمم على قرار . انه اعتاد ألا يتراجع بأى حال »

ثم قال للملك : « هل بعثت جلالتك فى طلبى لأجل اجتماع البرلمان غدا فقط ؟ »

فقال الملك : « كلا يا مسيو فوكيه ، بل أردت أن أنصح لك بأن تستريح وتستريح ولا تبدد قوتك هباء . ان اجتماع البرلمان لن يطول ، ولن تكون هناك بعد ذلك أعمال عاجلة فى باريس لمدة أسبوعين ! »

فقال الوزير : « أليس لدى الملك ما يقوله لى بشأن اجتماع البرلمان ؟ » قال : « كلا . كل ما أريده أن تستريح ! »

فعض فوكيه شفقتيه من الغيظ ، وحنى رأسه متظاهرا بالاعتناء ، لكن الملك لم يفته أنه مشغول إلبال فسأله متلطفا : « أيفضبك أن تستريح يا مسيو فوكيه ؟ »

فنتهد الوزير وقال : « الواقع يا مولاي انى لم أعتد الراحة حتى حين أكون مريضا ، ثم انى سمعت جلالتك الآن تتحدث عن خطاب ألقيه فى البرلمان ! »

فبهت الملك لهذه الملاحظة القوية ، ولحظ فوكيه تردده وخيل إليه أنه يقرأ نذير الخطر فى عينيه فقال لنفسه : « لو أبديت خوفا لضعفت » . ثم قال للملك : « ما دام مولاي يشفق على صحتى الى حد الاستغناء عن عملى ، فهل لى أن أطمع فى أن يسمح لى بالتخلف عن اجتماع المجلس غدا لا اعتكف فى الفراش ؟ »

فقال له الملك : « كما تشاء يا مسيو فوكيه ، اعتكف غدا وسأبعث اليك طبيبى ليعالجتك من الحمى التى تشكوها »

فانحنى فوكيه شاكرا ، ثم أراد أن يرمى آخر سهم فى جعبته فنظر الى الملك متفرسا وقال : « هل لى أن أرجو تفضل جلالتك بزيارة قصر (بل - أيل) ؟ »

فاحمر وجه الملك ثانية وقال وهو يحاول أن يبتسم : « هذا ما اعتزمته يا مسيو فوكيه ، وأنت تذكر طبعاً أنك أهديت الى هذا الحصن ! »

فقال فوكيه : « نعم أذكر ذلك يا مولاي . وانه لشرف عظيم لى أن أرى كل هذه الحاشية العسكرية تاتى من باريس لهذا الغرض ! »

فقال الملك متلعثما : « ان الفرسان لم يأتوا من باريس لأجل ذلك وحده . وقد سمعت مديحا كثيرا فى فلاحيك هناك ولهذا أريد أن أراهم . واذ كانت لديك وسائل للانتقال فلنساقر غدا الى (بل - أيل) اذاشئت ! »

فشعر الوزير بهذه الضربة وقال : « الواقع يا مولاي أنى كنت أجهل رغبة جلالتك هذه - وعلى الأخص رغبتك فى السفر بهذه السرعة - ولهذا لا تزال الزوارق الخمسة التى عندى كلها فى الميناء ، أو فى بامبيف ، واحضارها الى هنا يستغرق على الأقل أربعاً وعشرين ساعة . فهل أبعث رسولا لاحتضارها ؟ »

فقال الملك : « يجب أن تشفى أولا من الحمى . فلننتظر الى غد ! » . ثم هم الملك بدق الجرس فحال فوكيه دون ذلك قائلا : « معذرة يا مولاي ! ان بى ألما ورعدة من الحمى . واذا بقيت لحظة أخرى فربما أغمى على . ولذا أرجو من جلالتك السماح لى بالذهاب لآوى الى فراشى ! »

فنظر اليه الملك وقال : « انك ترتعد حقا يا مسيو فوكيه ، فاذهب الى فراشك وسوف أستعلم عن صحتك »

فقال فوكيه : « شكرا لمولاي على هذا العطف الكريم ، واني لا أشعر بأن صحتي ستتحسن بعد ساعة على الأكثر ، وسيسرني أن أعتد الآن على ذراع أى انسان ! »

فدق الملك جرسه الصغير وصاح قائلا : « يا مسيو دارتانيان »

فضحك فوكيه وقال : « أتعطينى قائد فرسانك لكي يأخذني الى مسكني؟ ان هذا شرف يحتمل معنيين يا مولاي . ان حاجبا يكفي لهذا الغرض ! »

فقال الملك دون أن يضحك : « ان المسيو دارتانيان كثيرا ما يقودني ! »

فرد فوكيه قائلا : « انه حين يقود جلاتك يا مولاي انما يكون في خدمتك ورهن اشارتك فقط ، أما حين أعود الى بيتي وذراعي في ذراع قائد الفرسان فسيقال في كل مكان انك أمرت بالقبض على .. ولا شك في أن بعض الناس سيضحكون فرحا لذلك ! »

وكان فوكيه بارعا في هذا الهجوم فقد جعل لويس الرابع عشر يتراجع أمام الأمر الذي ينتويه . فلما جاء المسيو دارتانيان قال له : « كلف أحد فرسانك أن يرافق الوزير »

فقال فوكيه : « ان جورفيل ينتظر في الخارج ، وهذا يكفي . على أني يسعدني أن المسيو دارتانيان سيرى (بل - أيل) وهو الخبير بالاستحكامات » فانحنى دارتانيان دون أن يفهم شيئا ، وانحنى فوكيه للملك ثانية ثم غادر الجناح الملكي وحده في وقار حتى اذا صار خارج القصر قال لنفسه : « لقد نجوت ! يا لك من ملك غادر ! انك سترى (بل - أيل) ولكن حين لا أكون هناك ! »

وقال الملك لدارتانيان بعد أن انصرف فوكيه : « اسمع يا كابتن .. ستتعلم المسيو فوكيه على بعد مائة خطوة ، وستقبض عليه باسمي ونحزبه في عربة بحيث لا يتكلم في الطريق مع أحد ولا يرمى ورقة لأحد ! وقد أعدت لذلك عربة ذات قضبان متشابكة ، وقد ربطت بها الجياد وأخذ سائقها مكانه فيها ، وهي الآن والفرسان ينتظرون في فناء القصر »

فانحنى دارتانيان وقال : « والى أين نقود المسيو فوكيه ؟ »

فقال : « الى قصر أنجير أولا ، ولا تنس أن المسيو دي جيفر سيغضب لأننا استخدمنا الحرس الخاص دون حرسه هو في القبض على المسيو فوكيه ! »

فانحنى دارتانيان وقال : « ان جلاتك لم تستخدم حرسك الخاص الا لأنك تحرص على ألا يهرب المسيو فوكيه ، وإذا كان هذا قد يحدث مع سواي فانه لا يحدث معي يا مولاي ، برغم اعتقادي التام بأن المسيو فوكيه

ليس رجل سوء . والآن عندي أوامر أنفذها ويمكنك أن تعد المسيو فوكيه مقبوضا عليه وأنه محبوبس في قصر أنجير »

فقال الملك : « لكنك لم تقبض عليه بعد يا كابتن ! »

فقال : « هذا أمر يخصني . كل انسان له صناعته يا مولاي . ولكن اذا كان مولاي جادا في هذا الأمر الذي أصدره الى بالقبض على المسيو فوكيه ، فأرجو التفضل باعطائي هذا الأمر مكتوبا »

فناوله الملك ورقة وقال : « هاك الأمر مكتوبا ! »

فانحنى دارتانيان وغادر الغرفة . ولمح من الشرفة جورفيل ذاهبا في سرور صوب مسكن فوكيه !



قال دارتانيان يحدث نفسه : « هذا عجيب حقا . جورفيل يمشي هكذا في الشوارع مسرورا مع أنه يعلم علم اليقين أن المسيو فوكيه في خطر ، ومع أن من المؤكد أن جورفيل نفسه هو الذي حذر المسيو فوكيه بتلك الرسالة التي مزقها الوزير اربا في الشرفة »

ثم تتبع دارتانيان وهو ينظر من شرفة القصر العالي شوارع نانت، فرأى خارج أبواب المدينة طريقين أبيضين ، وشارع ايرب يقود الى أحد هذين الطريقين ، وهم بأن يهبط الدرج ويأخذ العربة ذات القضبان المتشابكة ويذهب الى مسكن المسيو فوكيه ، ولكن اتفق أن لفت نظره وهو يهبط الدرج نقطة تتحرك في ذلك الطريق . فسأل نفسه : « ما هذا ؟ انه جواد يركض ، وعليه أحد الناس . لا بد أن يكون غلاما قد طمى جواده فهو يذهب به الى نقطة بشاطئ النهر لكي يشرب » . ثم وجد على بعض الدرج قطعاً من الورقة التي مزقها فوكيه فتناولها وقال : « انها بخط جورفيل . ان الحظ حليف لويس الرابع عشر على فوكيه » . وما لبث أن قرأ على تلك الورقة كلمة « جواد » وتناول ورقة ثانية فلم يجد بها شيئا ثم ثالثة فوجد بها كلمة « أبيض » . فارتاب في الأمر وقال : « انه اذن جواد أبيض . ليس غير فوكيه يركب هكذا وسط الحقول في وضح النهار . ليس غير وزير المالية يهرب هكذا نحو البحر ليستقل زورقا الى بل - أيل »

وسرعان ما أمر بالمضى بالعربة ذات القضبان الحديدية الى غابة في خارج المدينة ، ثم اختار أحسن جياده وقفز فوق ظهره وجرى به في شارع ايرب، ثم لم يتخذ الطريق الذي سلكه فوكيه بل سار على شاطئ اللوار وهو موقن أنه بذلك يقتصد عشر دقائق في المسافة كلها ، وانه عند مفترق الطريقين يستطيع ادراك الهارب الذي لا يدرى أنه مطارد . ومن عجب أنه - وهو الشفيق على فوكيه - قد صار الآن قاسيا يكاد يطلب دمه . وظل مدة طويلة يجري



وقال الملك للمسيو فوكيه : « لا يمكن أن أسمح لأحد بأن يسيء إليك »

به جواده دون أن يلمح الجواد الابيض، فخاف أن يكون فوكيه قد اختفى في طريق تحت الارض ، أو أن يكون قد أبدل بجواده الابيض أحد تلك الجياد السوداء الشهيرة التي تسابق الريح ، وكان دارتانيان قد رآها في (سان - انديه) وأعجب بها . وأعمل مهمازه في الجواد حتى كاد يقتله من السرعة وصار يلوم نفسه اذ ترك جورفيل يخدعه ويقول لنفسه انه لا شك قد بلغ به الكبر مبلغه ، وتصور أن الناس سوف يقولون انه أخذ من فوكيه مليون فرنك ليدعه يهرب . وانه لكذلك اذا به يرى بفتة شبعا أبيض على بعد ، وكان يسير بسرعة البرق، فقال لنفسه : « ان فوكيه ليس فوق جواد عادى ! يجب أن أدركه ولو قتلت جوادى . لعل الجواد الابيض يضعف ، واذا لم يسقط من التعب فقد يسقط راكبه » . ولكن الجواد وراكبه ظلا يتهبان الارض نهبا . فصاح دارتانيان صيحة مرعبة جعلت فوكيه يلتفت وراءه ويزيد في سرعة جواده . وعندئذ صرخ دارتانيان بأعلى صوته : « يا مسيو فوكيه ! قف ! قف ! باسم الملك ! » . ولكن فوكيه لم يجب . وعاد دارتانيان يصيح : « أسمعني ؟ قف ! » . وكاد دارتانيان يجن جنونه ، وغلا الدم في عروقه حتى صعد الى عينيه . ثم صاح : « قف باسم الملك والا أطلقت عليك الرصاص » . فصاح فوكيه قائلا : « أطلق » . ولم يقف

فأمسك دارتانيان بمسدسه وصوبه وصاح به : « ان معك مسدسك فاستدر ودافع عن نفسك »

واستدار فوكيه ولكنه لم يلمس جراب المسدس . ولم تكن المسافة التي بينهما تزيد على عشرين خطوة . فقال له دارتانيان : « انى لا أريد أن أغتالك . اذا كنت لن تطلق الرصاص على فاستسلم ! »
فأجاب فوكيه : « انى أوتر الموت ، فانه أخف ألما ! »

فغلب اليأس على دارتانيان وقذف بمسدسه الى الارض وقال : « سأخذك حيا ! »

وببراعة لا تتاح لغير ذلك الفارس جعل جواده أمام الجواد الابيض بعشر خطوات ، ثم مد يده استعدادا لأمساك فوكيه . فصاح به هذا : « اقتلنى . اقتلنى . ان ذلك أقرب الى الانسانية ! »

فتمتم الكاتبن قائلا : « كلا بل آخذك حيا ! »
واتفق في هذه اللحظة أن عبث جواده فاستطاع جواد فوكيه أن يتقدمه !

وعادت المطاردة من جديد فتملك دارتانيان اليأس وأمسك بمسدسه وصوبه قائلا : « الى جوادك لا اليك » . وأطلقه فأصاب الجواد الابيض ولكنه ظل يعدو . وفي تلك اللحظة وقع جواد دارتانيان ميتا فصاح دارتانيان بخضمه يقول : « أذف الى مسدسا لأطلقه على رأسى . . اننى أوتر أن أموت ميتة شجاع بهذا الطريق على أن أقتل نفسى بعد ساعة ! »

ثم أخذ يجرى على قدميه وراء فوكيه ، وتخلص من قبعته وردائه وغمد

سيفه لكي يخف حملة ، وما لبث قليلا حتى ألقى سيفه أيضا حتى لا يعوقه عن العدو . وبدأ الوهن يصيب الجواد الأبيض فتعثر في مشيته وظهر الزبد على فمه ممزوجا بدم . وبذل دارتانيان جهدا مضاعفا حتى وصل إلى فوكيه فأمسك به من إحدى سناقيه وقال له وهو يلهث من التعب : « باسم الملك أقبض عليك ! . أطلق الرصاص على رأسى إذا شئت . لقد أدى كل منا واجبه ! »

وكان جواب فوكيه أن ألقى في النهر بالمسدسين اللذين كانا معه ، ثم نزل من فوق جواده قائلا : « انى أسيرك يا سيدى ، استند إلى ذراعى فانى أراك مشرفا على الإغماء ! »

فتمتم دارتانيان قائلا : « شكرا لك ! » . وكان يحسن أن الأرض تتحرك تحت قدميه وأن السماء تدوب فوق رأسه ، بينما انطلق فوكيه إلى حافة النهر فاغترف بعض الماء في قبعته ورجع بها إلى دارتانيان وأعطاه رشقات من الماء وراح يربت عارضيه بالقبعة المبللة وهو يتنسم له في عطف ، فغمغم الفارس القديم قائلا : « شكرا لك يا سيدى . ان هذا النيل العظيم من محكوم عليه مثلك لا يمكن أن يرقى إليه لويس الملك الجالس على عرش فرنسا ، ولا فيليب نزيل سانت مرجريت ! »

فابتسم فوكيه في مرارة وقال : « لقد كان جدبرا بى أن اتخذك صديقا يا مسيو دارتانيان ، ولكن هكذا كان . والآن كيف نعود إلى نانت وقد صرنا على مسافة بعيدة منها ؟ . ان الجواد الأبيض قد يستعيد قوته ، وعلى هذا تستطيع أن تتركب أنت وأمشى أنا حتى تستريح ! »

فقال دارتانيان : « ان هذا الجواد المسكين لا يستطيع السير لأنه جريح ! » فقال فوكيه : « أؤكد لك أنه يستطيع السير . انى أعرفه جيدا يا مسيو دارتانيان ، بل هو يستطيع أن يحملنا معا ويسير بنا في بطاء . فهيا نحاول ذلك »

ثم ركبا الجواد معا ، فمضى بهما بضع دقائق في الطريق إلى نانت ، ثم غلبه التعب فتعثر في مشيته وما لبث قليلا حتى سقط ميتا !

ووقف فوكيه ودارتانيان هنيهة صامتين ، ثم قال فوكيه : « سنسير على أقدامنا . ان القدر يريد ذلك ! »

ثم تأبط ذراع دارتانيان ، ومشيا في بطاء كأنهما يتنزهان ، حتى إذا قطعوا الفراسخ الأربعة التي تقع في نهايتها الغابة حيث خبئت العربية ذات القضبان المتشابكة ، قال فوكيه لدارتانيان وهو يشير إلى العربية : « لماذا تلك القضبان المتشابكة يا مسيو دارتانيان ؟ . انها ليست فكرتك ولا شك ! » فقال قائد الفرسان وهو يكاد يدوب خجلا : « هكذا أراد الملك حتى لا تلقى رسالة إلى أحد في الطريق . على أنك ان لم تستطع الكتابة إلى من تشاء ففى استطاعتك أن تقول ما تريد فيبلغ إلى من تريد ! »

فنظر إليه فوكيه شاكرا وقال : « انها كلمة واحدة هي كلمة (سان - مانديه) . فهل تعدنى بأن تبلغها إلى مدام دى بليير أو إلى بليسون ؟ » فقال دارتانيان : « أعدك بذلك يا سيدى ! » . ثم ركب العربية فمضت في شوارع نانت حتى بلغت طريق أنجير

□

كانت الساعة الثانية بعد الظهر حينما نفذ صبر الملك فخرج إلى الشرفة وترك باب الردهة مفتوحا ليرى ما يفعله سكرتيره . وكان المسيو كولبير جالسا يتحدث بصوت منخفض مع المسيو دى بريين . فدخل عليهما الملك فجأة وسأل : « ماذا تقولان ؟ »

فنهض المسيو دى بريين وقال : « كنا نتحدث عن اجتماع البرلمان » فقال الملك : « حسنا » . ثم رجع إلى غرفته . وبعد خمس دقائق دق الجرس داعيا إليه روز سكرتيره الخاص وسأله : « هل انتهيت من النسخ ؟ وهل رجع المسيو دارتانيان ؟ »

ولما علم بأن دارتانيان لم يرجع بعد ، بدت في وجهه أمارات الدهشة والقلق ، وأمر بأن يدعى إليه المسيو كولبير ، وكان هذا في انتظار ذلك منذ الصباح ، فلما رآه الملك قال له : « يا مسيو كولبير . . أريد التأكد مما حدث لدارتانيان »

فقال كولبير بصوته الهادىء : « أين تريد جلالتك أن نبحث عنه ؟ » فقال الملك : « ألا تدري أين بعثته ؟ . . اننى لم أخبرك بهذا ولكن هناك أشياء تستطيع أن تعرفها بالحدس والتخمين ! »

فقال كولبير متلعثما : « ان الظن يخطئ أحيانا كما يصيب أحيانا » ولم يكذب ينطق بهذه الكلمات حتى دخل دارتانيان صاحب الوجه وقال للملك : « مولاي . . هل جلالتك أصدرت إلى الفرسان أمرا في شأن المسيو فوكيه ؟ »

فقال الملك : « كلا ، وهنا عض دارتانيان على طرفي شاربه وأشار إلى كولبير قائلا : « اذن لم أخطئ في حدسى . . ان هذا السيد هو الذى أمر بقلب دار المسيو فوكيه رأسا على عقب ، وبضرب خدمه وتحطيم خزانته ونهبها ! »

فامتقع وجه كولبير ، وواصل دارتانيان كلامه فقال : « ان الملك وحده هو الذى له الحق في إصدار الأوامر إلى فرسانى . أما أنت فلا حق لك في ذلك . وأنا أقول لك أمام صاحب الجلالة : ان السادة الذين يحملون السيوف ليسوا مثل أولئك الأشخاص الذين يحملون أقلاما وراء آذانهم ! »

فقال له الملك : « دارتانيان ! . علام هذه الضجة كلها ؟ »

والتنكيل ؟. ولكن عفوا يا مولاي ولاحدثك عن مهمتى أولا .. لقد قبضت على المسيو فوكيه و ... »
فقطع الملك كلامه وقال له في حدة : « لقد استغرقت وقتا طويلا في أداء هذه المهمة ! »

فنظر دارتانيان الى الملك متعجبا وقال : « عفوا يا مولاي ، انى أخطأت التعبير فالواقع انى لم أقبض على المسيو فوكيه ولكنه هو الذى قبض على ! »
فبدت الدهشة في وجه الملك ، بينما أخذ دارتانيان يروى له ما حدث من هرب فوكيه على جواد أبيض ، ثم مطاردته اياه وما كان من نبيل فوكيه بعد ذلك ، ثم قال : « ان رجلا له هذا الخلق الكريم يا مولاي لا يمكن أن يكون عدوا للملك . وانى اذ اصارح بجلالتك براى هذا لا قدر ما قد تقوله جلالتك من أن القبض عليه يرجع الى أسباب تتعلق بالدولة » . فسكت الملك قليلا ثم قال : « أين المسيو فوكيه الآن ؟ »

فقال له دارتانيان : « انه الآن يا مولاي في القفص الحديدى الذى أعده له المسيو كولبير ، والجياد تعدوه به في الطريق الى أنجير ! »
فسأله الملك : « لماذا تركته بالطريق ؟ »

فأجاب قائلا : « ان جلالتك لم تأمرنى بالذهاب الى أنجير ، وهناك سبب آخر هو أن المسيو فوكيه المسكين لن يحاول الهرب لو أننى بقيت معه ! »
فبدت الدهشة في وجه الملك وسأله مستنكرا : « ماذا قلت يا كابتن ؟ »
فأجاب قائد الفرسان : « ان جلالتك تدرك ولا شك أن حريته صارت أعز أمانى بعد تصرفه معى على ذلك النحو . ولقد سلمته الى أغبى جندى بين فرسانى لكى أتبع له فرصة للفرار »

فشبك الملك ذراعيه فوق صدره وقال في غضب : « هل جنتت يا مسيو دارتانيان ؟. لماذا اذن لم تسرفى ركاب ذلك الذى اراد المسيو فوكيه أن يضعه فوق عرشى ؟ »

فأجاب دارتانيان في هدوء : « لو أن المسيو فوكيه لم يسارع اليك في الباستيل ، لسارع اليك رجل واحد هو دارتانيان ! »

فسكت الملك ، وبعد قليل رجع كولبير الى الحجر فسأله الملك : « هل قمت بتفتيش منزل المسيو فوكيه ؟ وماذا وجدتم فيه ؟ »

فقال كولبير : « ان المسيو دى رونشير الذى ذهب الى هناك مع الفرسان سلمنى بعض الاوراق »

فقال الملك : « سأنظر فيها فيما بعد ، أما الآن فهات يدك لكى أضعها في يد المسيو دارتانيان ! »

ثم التفت الملك الى دارتانيان وقال له : « انك يا مسيو دارتانيان لا تعرف هذا الرجل حق معرفته ، لكنك ستعرف اى رجل عظيم هو حين أرفعه الى مركز من الدرجة الاولى ! »

ولكن دارتانيان استمر في كلامه قائلا : « ان هذا مهين !. لقد وصم فرسانى بوصمة العار . انى لا اقود جماعة من الناهبين السالين ولا كسبة في المالية . وهذا السيد ما كان يعرف اوامر جلالتك ، ولا انى ذهبت للقبض على المسيو فوكيه ، ولكنه مع هذا أرسل المسيو دى رونشير الى دار المسيو فوكيه بحجة البحث عن أوراق صاحبها ، وكنت قد وضعت فرسانى حولها منذ الصباح ، فأمرهم المسيو كولبير بالاشتراك في اقتحامها واتلاف أثارها ونهب ما فيها !. اننا في خدمة الملك ولسنا في خدمة المسيو كولبير ! »

وهنا أسكته الملك قائلا في حدة : « حذار يا مسيو دارتانيان . ان مثل هذه الأقوال لا تقال في حضرتى ، وبمثل هذه اللهجة ! »

وقال كولبير متلعثما : « لقد فعلت ما فيه مصلحة الملك . وانى ليحزنى أن ألقى مثل هذه المعاملة من أحد ضباط جلالتك فلا أستطيع الرد احتراما لمقام الملك ! »

فقال له دارتانيان وعيناه تغدحان شررا : « ان احترام مقام الملك يكون أولا بجعل سلطته تحترم وشخصه يحب . وأما اذا لعن الناس اليد التى تضربهم باسم الملك فهذا شيء آخر !. وأنه لعجيب حقا أن يحتاج مثلك الى تعلم الرافة والشفقة من جندى مثلى قضى أربعين سنة في ميادين القتال وسفك الدماء !. انك يا سيدى ألقى القبض على كثير من الأبرياء وكبلتهم بالأغلال ثم قذفت بهم الى السجن . فبأى حق فعلت هذا ؟ ! »

فقال كولبير : « لعلهم شركاء المسيو فوكيه ؟ ! »

فقال دارتانيان : « من الذى قال لك ان المسيو فوكيه كان له شركاء ؟. بل من الذى قال لك انه مجرم ؟. ان الملك يا سيدى هو الذى يستطيع أن يقول ذلك لأن عدالته ليست عمياء !. ثم ما هذا الذى تقوله يا سيدى عن احترام مقام الملك ؟. ان جلالتك لا يمكن أن يسمح بمثل هذا التهديد . وثق كل الثقة بأننى أعرف لنفسى حقها وأعرف كيف أحميه ! »

ووقف قائد الفرسان أمام الملك وكولبير شامخ الرأس متقد النظرات ويده على سيفه ، وشفتاه ترتعشان ، ولم يخف عليه تردد الملك وحيرته فاتحنى له كأنما يستأذنه فى الانصراف. ولكن الملك استوقفه قائلا : « انك فى حاجة الى الراحة يا كابتن ، ويمكنك أن تذهب لتستريح ، ولكن خبرنى أولا : ماذا كانت نتيجة المهمة التى عهدت اليك فيها ؟ »

ولم يسع كولبير الا أن ينحنى للملك ثم يغادر الغرفة وعيناه تشعان بالوعيد لدارتانيان ، فلما صار هذا وحده مع الملك ولى عنه الغضب وقال : « مولاي .. ان الفجر هو الذى يدل الناس على أن اليوم سيكون صحوا أو معتما . وأنت ملك شاب فى فجر عهدك فماذا يقول الناس عن مستقبلهم فى هذا العهد اذا كان بين وزرائك من يحفزهم الغضب الى استعمال العنف

فارتبك كولبير سرورا وخجلا ، وغمغم هو ودارتانيان كلمات لم تسمع
بينما وأصل الملك كلامه فقال : « ان المعارضة الشديدة التي أبداها اراء
المسيو فوكيه كانت موجهة ضد الفساد لا ضد الاشخاص ، وان في ذهنه
من الآراء ما هو جدير بأن يجعل من مليكه ملكا عظيما ويحقق لوطنه رخاء
عاما »

ومد كولبير يده فصافح دارتانيان قائلا : « ان لم أستطع أن أكسب
لنفسى مودة بطل شريف مثل المسيو دارتانيان ، فاني لأرجو بتصرفاتي أن
أكسب تقديرك ! »

وأثرت هذه الكلمات في نفس دارتانيان فانحنى لكولبير باحترام ، وهنا
صرفهما الملك مغتبطا بأنهما تصالحا ، فغادرا الفرقة معا ، ولما صارا خارجها
قال دارتانيان للوزير الجديد :

— ان شعاع الشمس يمنع الأعين من رؤية اللهب المتوهج . ولكن ما دممت
قد وصلت الى مركزك فلماذا تواصل اضطهاد رجل منكوب سقط من
شاهق ؟

فقال كولبير : « أنا لا أضطهده يا سيدي وانما أردت أن أدير مالية الدولة
وأتقا من كفاءتي ونزاهتي ، لكي أنشئ بمال الدولة مدنا وثغورا ، كما أنشئ
بحرية تحمل علم فرنسا الى أقصى الأقطار ، وأفتح مكتبات عامة وأكاديميات .
وبومئذ لا أرى مانعا من طلب الرحمة للمسيو فوكيه الذي كان يحول دون
تلك الأعمال ! »

فقال دارتانيان : « ان الملك لم يسحقه الا من أجلك يا سيدي ! »

فرفع كولبير رأسه وقال : « من أجلى أنا ؟ ! ان الأمر ليس كذلك يا سيدي
فعند الملك أسباب خاصة لمعاداة المسيو فوكيه وأنت أدري بهذه الأسباب ! »

وهنا سمعا صوت الملك يصيح بسكرتيره أن ينادوا دارتانيان فسارع
هذا اليه ، وقال الملك : « أعطت المسيو دي (سان - اينيان) عشرين من
فرسانك ليكونوا حراسا على المسيو فوكيه ، ولكي يقودوه من أنجر الى
الباستيل في باريس ! »

ثم قال لسان اينيان : « أطلق الرصاص على كل من يحاول التحدث مع
المسيو فوكيه ! »

فانحنى (سان اينيان) وذهب لينفذ الأمر ، وهم دارتانيان بالانصراف
ولكن الملك استبقاه قائلا : « اذهب توا الى (بل - أيل - أن - مير) وخذ
معك العدد الكافي من الجنود لمواجهة أى تمرد يقع هناك ! . لقد رأيت ذلك الموقع
في حدائتي ولا أحب أن أراه ثانية ، فاذهب اذن ولا تعد الا بمفاتيح ذلك
الحصن ! »

وهنا التفت كولبير الى دارتانيان وقال له : « هذه مهمة جلييلة اذا أحسنت
أداءها كنت جديرا بعضا المارشالية ! »

فسأله دارتانيان : « وهل لديك شك في أنني سأحسن أداءها ؟ »

فقال كولبير : « ان لك أصدقاء هناك يا مسيو دارتانيان ، وليس يسيرا
على رجل مثلك أن يمشى فوق جثث أصدقائه لكي يصل الى النجاح ! »
فلم يجد دارتانيان كلمة يقولها وخرج

وبعد ربع ساعة تسلم دارتانيان أمرا مكتوبا موقعا عليه من الملك ، يقضى
بأن يدك (بل - أيل) اذا قاومت ، وبمنحه السلطة المطلقة على جميع من
بالجزيرة حتى لا يتمكن أحدهم من الفرار

وقال دارتانيان لنفسه : « ان عصا المارشالية ستكلفني حياة صديقين
عزيزين كما قال كولبير ، ولكنهما ليسا أغني من الطيور ، لكي ينتظرا
الصيد ويسبوا له أجنحتهما ليصيها بسهولة ! »

ثم مضى يعد العدة لحشد الجيش الملكي دون أن يضيع دقيقة واحدة !



إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ولم يجب أراميس بشيء . ثم مر بهما صياد عجوز وصاح وقد رأى الزوارق القادمة : « انها ليست زوارقنا ! » فهي تحمل أعلاما كالتي تحملها سفن نقل الجنود ! »

فصاح بورتوس في فرح : « اذن هو مدد أرسل الينا يا أراميس ؟ »
ففكر أراميس هنيهة ثم قال له : « بورتوس ! قم فأعط إشارة الخطر ،
ومر رجال المدفعية بأن يستعدوا خلف مدافعهم ، ثم راقب أنت بطاريات
الشاطيء ! »

فتفتح بورتوس فاه من الدهشة ونظر الى صديقه ليستوثق من أنه لم
يصبه خبل . ولما رأى أراميس تردده قال له : « سأذهب أنا فورا لاعطاء
هذه الاوامر ! »

فقام بورتوس وهو يقول : « سأذهب أنا لتنفيذها يا عزيزي ما دمت
مصرا على أن القادمين أعداء ! »

ولم تمض دقائق حتى كانت الجزيرة على استعداد للدفاع

وبعد ساعة ، كانت السفن قد اقتربت من الجزيرة ، واستطاع الأهالي
والجنود المرابطون فوق الصخور أن يروا في ضوء الشمس الغاربة علم ملك
فرنسا يرفرف فوق أشرعتها ، كما رأوا احدي تلك السفن تقف في عرض
البحر حين وصلت الى مرمى المدافع من الجزيرة ، ثم أنزل منها زورق صغير
فيه ثلاثة رجال اتجهوا به صوب الميناء ، وما لبثوا قليلا حتى وصلوا الى
سفح الحصن ، فقفز أحدهم الى الشاطيء وكان ممسكا خطابا بيده يلوح به
في الهواء طالبا مقابلة المسيو دربلاي ، فصحبه اثنان من الجنود حتى وضلا
به الى أراميس ، وكان هذا واقفا على رصيف الميناء وقد شمل الظلام المكان
برغم المصابيح التي يحملها بعض الجنود، على أن أراميس عرف فيه جوناتان
لدليل الميناء فهتف به سائلا : « أين كنت ومن هذا الخطاب ؟ »

فاجاب قائلا : « بعد أن خرجنا للبحث عن رفاقنا لم نكد نقطع فرسخا
حتى أسرتنا سفينة تابعة للملك ، وضمنا رجالها الى رفاقنا الذين أسروهم
منذ يومين ، وقد أفرجوا عنا اليوم وأعطاني هذا الخطاب لفخامتك قائدهم
وهو الكابتن دارتانيان ! »

فامر أراميس بادناء المصباح منه، ثم فض الخطاب فوجده بخط دارتانيان
وفيه يقول :

« أمر الملك بالاستيلاء على (بل - أيل) وبقتل حاميتها اذا قاومت .
وأمر بسجن جميع رجال الحامية . وقد قبضت منذ يومين على المسيو فوكيه
لزوجه في الباستيل . دارتانيان »

فامتقع وجه أراميس ، وسأله بورتوس متعجبا : « ما هذا ؟ انه لشيء
عجيب جدا ! »

القائد الأسير

وقف أراميس وبورتوس يتحدثان معا عند شاطيء البحر في جزيرة
(بل - أيل) . وقال بورتوس متعجبا : « ان اختفاء جميع زوارق الصيد
التي أبحرت منذ يومين يبدو حادثا غير طبيعي ، فالبحر هادىء كما ترى ،
بل لو أنه كانت هناك عاصفة ما غرقت تلك الزوارق كلها ! »

فقال له أراميس : « صدقت يا عزيزي بورتوس ، ان هذا الأمر لا يخلو
من غرابة »

فقال بورتوس : « وأعجب من هذا أن الزورقين الباقيين بالجزيرة لم
يعودا بعد أن أرسلتهما للبحث عن الزوارق الأخرى ! »

وهنا صاح به أراميس قائلا : « ماذا تقول يا بورتوس ؟ هل أرسلت
الزورقين الباقيين ليبحثا عن الزوارق الأخرى ؟ اذن لقد ضعنا ! »

فارتاع الى بورتوس وسأله : « ماذا تقول ؟ أنضيع لاننا لن نجد
زورقا ننزله به في البحر هنا ؟ »

فقال أراميس : « بل ضعنا لاننا لن نستطيع السفر بعد ضياع الزورقين
الباقيين ! »

فقال بورتوس : « ولماذا نسافر ما دامت الاوامر التي عندنا تقضى بأن
نعصم هنا في (بل - أيل) وتدافع عنها ضد الغاصب ؟ ! »

فتمتم أراميس قائلا : « صدقت ! » ثم سكت وأخذ ينظر الى البحر
نظرات زائغة . وظن بورتوس انه اقتنع بما قاله له فاستطرد قائلا : « انك
لم تفسر لي كيف اختفت جميع تلك الزوارق ، على الأقل لكي أستطيع أن
أجيب عن الأسئلة التي تنهال على من نساء الصيادين والملاحين وأولادهم ؟ »

فقال أراميس : « افرض أى شيء ولا تجب بشيء ! المهم هو أن تحييني
الآن عن هذا السؤال : ألا ترى زورقا في عرض البحر قادما نحونا ؟ »

فقال بورتوس وهو يبدق النظر الى نقطة سوداء على صفحة الماء : « انهما
زورقان بل ثلاثة بل أربعة . . . بل هو أسطول كامل يا عزيزي أراميس ! »

فقال أراميس منزعجا برغم تظاهره بالهدوء : « لعلها زوارق الجزيرة
عائدة ! »

فقال بورتوس : « كلا . . . انها أكبر من زوارق الصيد . ألا تلاحظ انها
قادمة من نهر اللوار ؟ » وما قد اجتمع النساء والأطفال على الشاطيء
لرؤيتها ! »

فقال بورتوس : « كلا . . . انها أكبر من زوارق الصيد . ألا تلاحظ انها
قادمة من نهر اللوار ؟ » وما قد اجتمع النساء والأطفال على الشاطيء
لرؤيتها ! »

واستأنف جوناتان كلامه فقال : « وقد ذكر المسيو دارتانيان أنه مستعد لأن يكلمك على ظهر سفينته . وكلفني أن أكون في خدمتكما بزورقي إذا شئتما الذهاب اليه للحصول على معلومات أوفى ! »

فقال بورتوس : « اذن نذهب اليه فوراً »
فعارض أراميس قائلاً له : « كلا ! ربما يكون هناك فسخ منصوب لنا ! » . ثم التفت الى دليل الميناء وقال له : « ارجع الى مسيو دارتانيان وأخبره بأننا نرجو حضوره هو الى الجزيرة »

فقال جوناتان : « وماذا أصنع إذا رفض الحضور ؟ »
فقال له أراميس : « إذا رفض فعندنا مدافعنا وسنستخدمها ! »
فصاح بورتوس : « نستخدم مدافعنا ضد دارتانيان ؟ ! »

فقال له أراميس : « إذا كان هو دارتانيان حقاً يا بورتوس فإنه سيأتي ! »
ثم أمر جوناتان بالرجوع لتبليغ الرد ، فمضى هذا لتنفيذ الأمر ، بينما تمت بورتوس قائلاً : « لست أفهم شيئاً من كل هذه الألفاظ ! »

فقال له أراميس : « سأشرح لك الآن كل شيء يا صديقي العزيز . هيا اجلس على عربة المدفع هذه وأصغ الى ، فقد آن الاوان لكي تعرف جلية الأمر »

فجلس بورتوس وقال : « انك يا صديقي تحسن الكلام حتى ان في استطاعتي أن أستمع اليك أيما دون أن أضجر . ولكي أسهل عليك الأمر سأوجه أنا اليك أسئلة لكي تجيب عنها . أما السؤال الأول فهو : لماذا نحارب هنا ؟ »

فأجاب أراميس بقوله : « الحق ان الاعتراف مهما يكن شاقاً فإنه يسهل أمام رجل شجاع كريم مثلك . فاعلم يا صديقي العزيز أنني خدعتك مع الأسف الشديد ! »

فقال بورتوس : « أنت خدعتني ؟ حسناً يا عزيزي ، اذا كان هذا لصالحك فإني تكون قد أديت لي خدمة ، لأنك لو لم تخدعني لخدعت نفسي في هذه الحالة ، فبماذا خدعتني ؟ »

فقال أراميس : « انني كنت أخدم الملك الغاصب الذي يوجه الآن لويس الرابع عشر جهوده ضده ! »

فحك بورتوس رأسه قائلاً : « الملك الغاصب ؟ ! اني لا أفهم تماماً ! »
فقال له : « انه أحد اثنين يتنازعان تاج فرنسا ، وليس هو لويس الرابع عشر ! »

فقال بورتوس : « هل لي أن أفهم من ذلك اننا نأثران على الملك لويس الرابع عشر ؟ ! وعلى هذا كانت الدوقية التي وعدت بها لا أساس لها ؟ ! »
فقال أراميس : « ان الملك الآخر هو الذي كان سيسمحك هذه الدوقية .

وثق يا صديقي بأنه لو كان الأمر قد تم طبقاً لحظتي لأصبحت أنت أميراً . أما وقد فشلت الحطة لسبب خارج عن ارادتي فسأسوى المسألة فيما بينك وبين الملك لويس الرابع عشر الغاصب علينا الآن بأن ألقى التبعة كلها على عاتقي ، فأنا وحدي الذي دبرت تلك المؤامرة ، وقد كنت في حاجة الى رفيق فلجأت اليك ولبيت أنت طلبى دون أن تعلم شيئاً من أغراضى ! »

فقال بورتوس : « ما دمت قد عملت لصالحك فمن المحال أن ألومك . انه لامر طبيعي أن تلجأ في ذلك الى صديق حميم ! »

وضغط بورتوس يد صديقه أراميس في نبل وسفاحة . فشعر هذا بأنه برغم ذكائه صغير الى جانبه ، واستطرد بورتوس فقال : « والآن وقد علمت موقفنا من لويس الرابع عشر ، أحسب أنه قد آن الاوان لأن تطلعني على المؤامرة السياسية التي كنت ضحية لها »

فقال أراميس : « ان دارتانيان صديقنا العزيز قادم الينا وسيقص عليك تفصيل تلك المؤامرة . ولكن ثق بأنني في أشد الألم من أجلك ، وسأبذل كل جهدي لكي أخرجك من المأزق الذي دفعتك فيه . . انني أنا وحدي الذي تأمرت ضد الملك لويس الرابع عشر ، أما أنت فلم تكن الا أسيراً عندي ، وسأطلق سراحك الآن لتعود الى مليكك مع صديقنا دارتانيان قائد فرسانه القادم الآن ! »

وهنا سمع الصديقان صوت زورق يرسو على الشاطئ فصاح أراميس : « دارتانيان ؟ »

وكان قائد الفرسان هو القادم حقاً فهتف قائلاً : « أجل أنا دارتانيان . ثم صعد سلالم الرصيف مسرعاً حتى اذا بلغ وسطها وقف فجأة ثم التفت الى ضابط كان يتبعه وقال له : « لسنا الآن على ظهر السفينة حيث يسرى الأمر الذي معك ! »

فقال له الضابط على مسمع من أراميس وبورتوس : « ان الأمر الذي معي يا سيدي يقضى بأن أتبعك وأقف على كل حديث لك مع أي انسان ! »

فارتعد أراميس وبورتوس من القلق ، بينما عض دارتانيان على طرفي شاربه لشدة غيظه واقتراب الضابط وقال له : « لقد سمحت لك بالاطلاع على الكتاب الذي أرسلته الي هنا ، كما سمحت لك بسماع كل كلمة قالها الرسول بعد عودته جواباً عن ذلك الكتاب ، وتركتك تتعني حتى وصلنا الى (بل - ايل) والأمر الذي معك من المسيو كولبير لا يسرى فيها ، وعلى هذا سأواصل الصعود الى هذين السيدين وحدي ، فان أنت خطوت خطوة أخرى خلفي ، فأقسم لأقطع رأسك شطرين بهذا السيف ثم لأدفن بك في البحر ! »

فامتقع وجه الضابط ولكنه لم يتحرك من مكانه وقال لدارتانيان : « انني سأؤدى واجبي يا سيدي ! » . ثم رسم علامة الصليب على صدره ومضى

يصعد السلم خلف قائد الفرسان ، وهنا صرخ بورتوس وأراميس وأسرعوا ليحولا دون ضربة السيف التي كادت تصيب الضابط ، بينما قال له دارتانيان : « أنك رجل شجاع ، ولهذا أقول لك : ان هذين السيدين صديقاى وأريد أن أتحدث معهما دون شاهد ! »

فقال الضابط : « لست أستطيع أن ألبى طلبك هذا يا سيدى ، وفى الوقت نفسه لا أستطيع أن أسئ الى بطل مثلك أحله وأمجده . وعلى هذا سأجلس هنا على السلم ريثما تتحدث مع صديقك ! »

وتعانق الأصدقاء الثلاثة ، ثم قال دارتانيان لأراميس وبورتوس : « لقد منع الملك دخول أى شئ الى الجزيرة أو خروجه منها . والسفن الحربية وأقفة لكما بالمرصاد للقبض عليكم ، وكنت أريد أن آخذكما الى سفينتى لتكونا على مقربة منى ثم أطلق سراحكما . ولكن ما يدرينى الآن أنى حين أرجع الى السفينة لا أجد أوامر سرية تنزع القيادة منى وتعطيها شخصا سوى يتصرف بى وبكما دون أمل لنا فى أى عون ؟ ! »

فقال أراميس : « اذن نبقى فى (بل - ايل) وأؤكد لك أننا لن نستسلم بسهولة ! »

وانظ دارتانيان أن بورتوس لم يقل شيئا فعجب لذلك ثم قال : « سأجرى تجربة أخرى مع هذا الضابط الشجاع ، انه خصم شريف شجاع كما رأيتما . ثم التفت الى الضابط وسأله : « اذا أردت أن آخذ هذين السيدين معى فماذا تفعل ؟ »

فأجاب الضابط : « ليس لى أن أعارض ذلك يا سيدى ، ولكن عندى أوامر مشددة بأن أبقيهما فى هذه الحالة تحت حراستى ! »

فغمغم أراميس قائلا : « لقد انتهى الأمر ! » . ثم قال لدارتانيان : « خذ معك بورتوس ، وسيكون فى مكانه بمعاونتك أن يثبت للملك أنه لم تكن له يد فى الأمر كله »

وهنا قال بورتوس : « أحب أن أفكر أولا فى هذا الأمر » . فتبادل صديقاى نظرات اعجاب به واشفاق عليه . ثم همس دارتانيان فى أذن أراميس بضع كلمات ، قال له هذا على أثر سماعها : « انها فكرة بدیعة ولا شك ! »

ومرة أخرى عانق دارتانيان صديقيه ، ثم غادر (بل - ايل) مع الضابط الذى كان ينتظره صامتا ، وما كاد يصل الى سفينته حتى دعا جميع الضباط الثمانية الذين تحت قيادته وبينهم هذا الضابط وقال لهم : « لقد ذهبت الى (بل - ايل) ووجدتها حصينة ذات حامية قوية لديها من معدات الدفاع ما قد يكون متعبا لنا . وعلى هذا أقترح أن ندعو الى هنا الضابطين الرئيسيين فى حامية الجزيرة ليريا بأعينهما القوة التى تحت تصرفنا ويقدران المصير الذى ينتظر الحامية ان لم تستسلم . وستؤكد لهما أن المسيو فوكيه سجين الآن وأن كل مقاومة لا فائدة منها »

وهم الضابط الذى تبعه بالكلام ، ولكنه منعه قائلا : « اننى اعرف ان هناك أمرا من الملك يمنع كل اتصال سرى بالمدافعين عن (بل - ايل) ولهذا لا أريد الاتصال بأحد منهم الا أمامكم »

وبدا من الضباط أنهم موافقون على هذا الاقتراح ، فسر دارتانيان وهم بإرسال زورق ليحىء بأراميس وبورتوس ، ولكن ذلك الضابط ناوله ورقة مطوية كتب عليها رقم (١) وقال له : « اقرأ هذا الأمر أولا يا سيدى ! »

فبسط دارتانيان الورقة وقرأ فيها ما يلى : « محظور على المسيو دارتانيان ان يجمع أى مجلس حربى أو أن يفاوض بأى شكل قبل استسلام (بل - ايل) واعدام رجال حاميتها بالرصاص . . لويس »

فتمالك دارتانيان نفسه وتصنع الابتسام وقال للضابط : « حسنا يا سيدى ! ان أوامر الملك مطاعة ! »

ثم خاطب الجميع قائلا : « أيها السادة . . ما دام الملك قد عهد الى غيرى فى شأن أوامره السرية فهذا دليل على أنى غير جدير بثقتة . وعلى هذا سأعود توا لأقدم لجلالته استقالتى ، وأطلب اليكم جميعا أن تعودوا معى الى شاطئ فرنسا »

وخيل الى دارتانيان ان خطته لانقاذ صديقيه كلت بالنجاح ، اذ يكون فى استطاعتها متى فك الحصار عن الجزيرة أن يفرا الى انجلترا أو اسبانيا . غير أن الضابط أبرز أمرا ثانيا من الملك هذا نصه : « فى اللحظة التى يبدى فيها المسيو دارتانيان رغبته فى الاستقالة تنتهى قيادته للحملة ولا يدين أى ضابط بالطاعة له . وعليه فى هذه الحالة أن يعود فوراً الى فرنسا بصحة الضابط الذى يبلغه هذه الرسالة ، وعلى هذا الضابط أن يعده أسيراً يسأل عنه ! »

وامتقع وجه دارتانيان برغم شجاعته وقلة اكترائه ، وقال لنفسه : « فلأضع هذا الأمر فى جيبى حتى لا يطلع عليه أحد قبل أن انقذ صديقى البائسين ! »

على أنه ما كاد بهم بتنفيذ فكرته هذه حتى أبصر الضباط حوله يقرأون صورا من ذلك الأمر وزعها عليهم الضابط . ثم اقترب منه هذا قائلا : « سيدى . . انى أنتظر ابداء رغبتك فى الرحيل ! »

فقال دارتانيان وهو يكظم غيظه : « انى مستعد ! »
فأمر الضابط باعداد زورق له ولأسيره ، ثم ناول قائد الأسطول ورقة مطوية وقال له : « هذه تعليمات الملك ! »

وما كاد الزورق الذى استقله دارتانيان وأتباعه من الفرسان مع الضابط يقترب من شاطئ فرنسا حتى وصل الى مسامعهم دوى المدافع التى بدأ الأسطول اطلاقها على (بل - ايل)

رجع أراميس وبورتوس الى الحصن الكبير بالجزيرة بعد أن تركهما دارتانيان ، وكان بورتوس يبدو مشغول الفكر فقال له أراميس : « عندى

فكرة تجعلنا نستعيد حريتنا بعد اثنتى عشرة ساعة . ان صديقنا دارتانيان سيعود ليقدم استقالته للملك ، وفي أثناء رجوعه سيرفع الحصار عن الجزيرة ، وبذلك نستطيع ان نغادرهم سالمين ، أو تستطيع أنت ذلك على الأقل ! »

فهز بورتوس رأسه وقال : « اما ان ننجو معا يا أراميس ، واما ان نبقى هنا معا ! »

فقال له : « حقا انك لبيل طيب القلب يا بورتوس ، غير ان اكتئابك يحزننى ! »

فقال بورتوس : « انى لست مكتئبا يا أراميس ، ولكنى مشغول البال بكتابة وصيتى لأنى أشعر منذ أيام بشيء من الضعف فى ساقى ، وقد جرت العادة فى أسرتنا بأن يكون هذا الشعور نذيرا باقتراب نهاية صاحبه . وقد كان جدى أنطوان له ضعف حجمى وقوتى وكان فى مثل عمري الآن حين خرج يوما للصيد فشعر بضعف فى ساقيه لم يشعر بمثله من قبل ، ولم يمض قليل حتى صادف خنزيرا برياً فأطلق عليه بندقيته ولكنه أخطأ الرمى فهجم عليه الوحش ومزقه شر ممزق ! »

فقال له أراميس : « ليس فيما تقوله أى داع . لأن تقلق على نفسك يا عزيزى بورتوس ، وأمامك فرص كثيرة . لكن ... »

فقطع بورتوس كلامه قائلا : « وكذلك كان أبى جاسبار فى مثل قوتى ، وكان جنديا بأسلا من جنود هنرى الثالث ثم هنرى الرابع ، فاتفق أن يشعر بضعف فى ساقيه يوما وهن ينهض عن المائدة فقال لأمى ضاحكا : (أترانى سيقنلتنى خنزير برى كالذى قتل أبى ؟) . فنصحت له أمى بأن يأوى الى فراشه ولكنه أصر على الخروج الى الحديقة وسرعان ما زلت قدمه وهو يهبط أولى درجات السلم فسقط على حجر حطم رأسه وقضى لساعته ! »

فقال له أراميس : « هذان حادثان لا يقاس عليهما ، وليس يليق برجل فى مثل قوتك أن يؤمن باغرافات ، ثم انك لم تكن قط بمثل القوة التى تبدو بها الآن حتى لتستطيع أن تحمل بينا فوق كتفك ! »

فقال بورتوس : « على كل حال ليس فى الموت ما يخيفنى ولكنه يقلقنى الى حد ما . ان الحياة عزيزة على من يملك ثروة ومزارع وجيادا وله أصدقاء يحبهم مثل دارتانيان وآتوس وراؤول وأنت ! »

وأعجب أراميس ببساطة بورتوس كما أعجب بصراحته اذ لم يخف عليه المرتبة الأخيرة التى صار ينزله فيها بين أصدقائه ، فمد اليه يده قائلا : « لا يزال أمامنا سنوات عديدة نحياها لنحفظ للعالم نماذج من الرجال النادرين . ثق بى يا صديقى ... اننا لم نتلق جوابا من دارتانيان وهذه علامة طيبة . لا شك أنه قد أصدر أمرا بحشد السفن تمهيدا للعودة بها . وقد أمرت بأعداد سفينة شراعية عند فوهة كهف لوكاماريا لى نبحر به

من هناك فى الظلام . ومتى وصلنا الى أسبانيا فتق بأنك ستنال لقب دوق الذى تستحقه ! »

وانهما كذلك اذا بصيحة تطرق آذانهما : « الى السلاح ! الى السلاح ! » . وأطل أراميس من النافذة فأبصر جمعا من الناس ، بعضهم يحملون المصابيح وبعضهم جنود يحملون بنادقهم ، وراه أحد هؤلاء فهتف به قائلا : « الأسطول ! الأسطول ! » . فخرج ومعه أراميس وسارعا الى الميناء حيث وقفا خلف المدافع المعدة للدفاع ، بينما سفن الأسطول تقترب من شاطئ الجزيرة . وبعد خمس دقائق بدأ إطلاق المدافع ، ولم تمض الا دقائق حتى تمكنت بعض السفن من الوصول الى الشاطئ ، وهبط منها الجنود الى البر حيث بدأ الالتحام بين المهاجمين والمدافعين !

وكانما عاد أراميس وبورتوس الى أيام الشباب فهجما على رجال الأسطول فى قوة وعنف ، وأثار هذا حمية رجالهما فاستبسلا فى القتال ، واضطر جنود الملك ان يعودوا الى سفنهم حاملين جرحاهم الكثيرين !

وقال أراميس لصاحبه : « أسرع يا بورتوس ، يجب ان نأسر أحدا منهم ! »

وسرعان ما مد بورتوس يده القوية فقبض بها على عنق أحد ضباط الأسطول الملكى وكان واقفا ينتظر حتى يركب جميع جنوده ثم رفعه بيده فى الهواء كأنه يحمل سمكة وقال لأراميس : « أيعجبك هذا الأسير ؟ »

فضحك أراميس وقال له : « ألم اقل لك انك لم تبد فى يوم من الايام أقوى مما أنت الآن ؟ »

فقال بورتوس : « لا تنس انى اخذته بيدي لا بساقى ! »

وقد سر البريتانيون من أهل الجزيرة بهذا الانتصار ولكن أراميس لم يشجعهم على الزهو والفخر ، بل قال لبورتوس : « ان الملك ستثور نأثرته حين يعلم بنبا هذه المقاومة وسيصيب جام غضبه على أهل الجزيرة الطيبين فيأمر بأعدام من يؤسر منهم فيما بعد ! »

فقال بورتوس : « هل معنى هذا أن ما فعلناه لا جدوى منه ؟ »

فقال أراميس : « ربما يكون له بعض الفائدة فى الوقت الحاضر فقد أسرنا أسيرا وسنعلم منه ما يعده أعداؤنا لنا . فأوما برأسه موافقا وقال : « اذن هيا بنا نستجوب الأسير ، ولعلنا نحسن ان دعواتنا الى العشاء معنا ، حتى اذا لعبت الخمر برأسه أفاض فى الكلام ! » . فوافق أراميس على ذلك

وكان الضابط الأسير قلقا فى البداية ، غير أنه اطمأن بعد قليل فأخذ يقص على أراميس وبورتوس بلا حيلة تفاصيل استقالة دارتانيان ورحيله ، وذكر لهما كيف أمر القائد الجديد للحملة بمهاجمة الجزيرة

وسأله أراميس عما يعترمه قائد الحملة نحو قائدى حمية الجزيرة

فأجاب قائلاً: « ان الاوامر تقضى بالقتل في اثناء القتال ثم الشنق بعد ذلك ! »

فتبادل اراميس وبورتوس نظرات قلقة وعلت وجهيهما حمرة ، ثم قال اراميس : « انى خفيف الوزن لا اصلح للمشنقة ، والناس الذين مثلى لا يشنقون ! »

فقال بورتوس : « اما انا فتقيل الوزن الى حد ان اى حبيل للمشنقة لا بد ان ينقطع اذا علقت به ! »

وهنا قال لهما الاسير معجبا : « انى واثق باننا كنا نسمح لكما بالميتة التى تختارنها ! »

فقال له اراميس : « شكرا جزيلا لك يا سيدى »

وانحنى له بورتوس ثم قدم له كأسا اخرى وتناول كأسه وشرب نخبه ... وطلال الحديث معه منتقلا من موضوع الى آخر . وكان الضابط شابا ذكيا وقد فتنه اراميس بذكائه ولباقته كما أعجبه من بورتوس بساطته ومودته . وما لبث قليلا حتى قال لهما : « معذرة اذا سألتكما : الستما من فرسان الملك السابق ؟ »

فأجابه بورتوس : « أجل يا سيدى بل كنا من احسن فرسانه ! »

فقال الضابط : « بل احسن الفرسان جميعا ! وانا اقول هذا برغم انه يسيء الى ذكرى أبى ! »

فنظر اليه كلاهما متسائلين عما يقصد باساءته الى ذكرى ابيه ، وواصل هو كلامه فقال :

— ان اسمى جورج دى بيسكارا

فصاح بورتوس : « بيسكارا ؟ الا تذكر هذا الاسم يا اراميس ؟ »

ففكر اراميس هنيهة وهو يردد اسم بيسكارا ، ثم سبقه بورتوس الى الكلام قائلاً :

— بيسكارا الملقب بالكاردينال ، أحد الاربعة الذين اعترضونا بسيوفهم يوم بدأنا صداقتنا مع دارتانيان !

فقال اراميس : « الآن تذكرت ! . انه كان الوحيد الذى لم نجرحه يومئذ من اولئك الاربعة ! »

فقال الضابط الاسير : « ذلك لانه كان من ابرع المبارزين بالسيف ! »

فصاح اراميس وبورتوس معا : « يسرنا ان نعرف ابن ذلك الرجل الشجاع ! »

ومدا اليه يديهما فصافحهما بحرارة ، ونظر اراميس الى بورتوس نظرة كانه يقول بها : « ها هنا رجل سيساعدنا بلا تردد » . ثم قال اراميس للضابط :

« من سوء الحظ ان تعرف ليوم رجلين مقدرهما الاعدام بالرصاص او بحبل المشنقة ! »

فقال الضابط الشاب فى حماسة : « كلا يا سيدى .. انكما لن يقدر لكما مثل هذا المصير ! »

فقال له : « لكنك انت نفسك قلت ذلك منذ قليل ؟ »

فقال : « نعم قلت ذلك حين لم اكن اعرف من انتما . اما الآن وقد عرفتكما فانكما ستفاديان ذلك المصير اذا شئتما ! »

فصاح اراميس وهو يردد بصره بين الاسير وبورتوس : « كيف ذلك ؟ »

وقال بورتوس : « بشرط الا يكون فى الامر ما يشيننا ! »

فأجاب الضابط : « ليس مطلوباً منكما شيء . انهم اذا وجدوكما قتلوكما بلا ريب . فاحرصا اذن على الا يجدوكما ! »

فقال بورتوس فى شمم : « اذا اردوا ان يجدونا فليأتوا الينا هنا ! »

فقال له اراميس : « صدقت يا بورتوس » . ثم التفت الى الضابط وقال له : « انك تريد ان تدلنا على مخرج لكنك لا تجرؤ على القول ، اليس كذلك ؟ »

فقال الضابط : « اذا انا تكلمت خنت واجبى . ولكنى اسمع الآن صوتا يعلو على صوتى »

فقال بورتوس : « انه صوت المدافع يا عزيزى ! »

وقال اراميس متمما : « مدافع وبنادق وسيوف ومسدسات ! » . ثم التفت الى الضابط وقال له : « ان الهجوم الذى قمتم به لم يكن الا ذرا للرماد فى العيون ، ولا شك فى ان رفاقك قد تظاهروا بالارتداد عن الحصن لكى ينزلوا بالجانب الآخر من الجزيرة . اليس كذلك يا عزيزى ؟ »

فقال الضابط : « أجل يا سيدى . وهم مع الاسف الشديد كثيرون ! »

فقال الأسقف فى هدوء : « اذن .. لقد ضعنا ولا شك ؟ ! »

وقال بورتوس : « ربما . ولكننا لم نؤسر ولم نشنق بعد ! »

ثم قام بورتوس فتناول سيفه ومسدساته وفحصها فحص جندى قديم يستعد للقتال

وعلى صوت المدافع والهجوم المفاجيء على الجانب الآخر من الجزيرة ، اندفع الاهالى نحو الحصن يطلبون العون والنصح من قوادهم فوق اراميس بالنافذة بين مصباحين ، شاحب الوجه مكتئبا ، ونظر الى الجنود المحتشدين بغناء الحصن ينتظرون الاوامر ، وقال لهم : « يا اصدقائى : ان المسيو فوكيه صديقكم وحميكم ووالدكم قد قبض عليه بأمر الملك وزج به فى الباستيل ! »

فصاح الجميع صيحات السخط واخذوا يهتفون : « الانتقام للمسيو فوكيه ! »

فصاح اراميس وبورتوس معا : « يسرنا ان نعرف ابن ذلك الرجل الشجاع ! »

ومدا اليه يديهما فصافحهما بحرارة ، ونظر اراميس الى بورتوس نظرة كانه يقول بها : « ها هنا رجل سيساعدنا بلا تردد » . ثم قال اراميس للضابط :

وعاد أراميس فقال لهم : « كلا يا صحاب ! لا مقاومة ، ان الملك هو السيد في مملكته . ان الملك هو ظل الله في أرضه . فاخضعوا ليد الله التي ضربت سيدكم ، ولا تنتقموا له . فانكم بذلك انما تضحون انفسكم بغير طائل ، وتضحون معكم نساءكم واولادكم ومتاعكم وما تملكون . ضعوا سلاحكم ايها الرفاق ما دام الملك يأمركم بذلك ، وعودوا في هدوء الى بيوتكم . اننى انا الذى آمركم بذلك باسم المسيو فوكيه ! »

فزمجر الجمهور المحتشد تحت النافذة غضبا ورجبا ، ثم قال لهم أراميس : « ان جنود لويس الرابع عشر قد دخلوا الجزيرة . ومنذ هذه اللحظة لن يكون الامر قتالا بينهم وبينكم ، بل يكون مذبحه لكم . فاذهبوا اذن وانسوا ما كان . انى في هذه المرة آمركم بذلك باسم الله ! »

فترجعوا في بطء ساكتين خاضعين . والتفت بورتوس الى أراميس قائلا : « ما هذا الذى قلته لهم يا صديقى ؟ »

وقال له الضابط الاسير : « ربما تكون يا سيدى قد اتقذت الاهالى بذلك ولكنك لم تنقذ نفسك ولا صديقك ! »

فالتفت أراميس الى الضابط الاسير وقال له بلهجة تدل على النيل والادب : « يا مسيو دى بيسكارا ، انك الآن تملك تمام حريتك ! » فقال الضابط متأثرا : « انى أود ذلك يا سيدى ، ولكن . . . »

فواصل أراميس كلامه قائلا : « ان فى ذلك خدمة لنا ، فانك حين تجرب قائد أسطول الملك باستسلام حامية الجزيرة ، قد تستطيع أن تحصل لنا على بعض العطف حين تذكر الطريقة التى تم بها ذلك الاستسلام ! »

فصاح بورتوس والشرر يتقد فى عينيه : « بعض العطف ؟ ماذا تقول يا أراميس ؟ »

فلمس أراميس كوعه بعنف كما كان يفعل فى ايام شبابهما كلما أراد أن ينبهه الى غلظة أتاها أو يوشك أن يقع فيها . ففهم بورتوس قصده وسكت . وعندئذ قال بيسكارا : « اذن . . . سأذهب يا سيدى ! »

فقال له أراميس وهو ينحنى له : « فلترافك السلامة ونحن شاكران لك » وتردد الضابط قليلا ثم قال : « لكن ماذا يحدث لكما يا صديقى ، ولئى الشرف ان ادعوكما كذلك ؟ . كيف تنتظران هنا بينما الامر بشأنكما صريح ؟ ! »

فقال له أراميس : « انى أسقف فان يا مسيو دى بيسكارا ، وزميلي من النبلاء كما قد علمت . ولا شك فى انهم لن يطلقوا الرصاص على مثلنا أو يشنقونا ! »

فقال الضابط : « اجل يا صاحب الفخامة ، انت على حق . لقد بقيت لكما هذه الفرصة للنجاة . وسأذهب الآن لآخبر قائد جنود الملك . وداعا اذن . بل الى اللقاء ! »

ثم ركب الضابط جوادا اعطاه أراميس اياه وسار فى اتجاه صوت المدافع

الذى حشد الاهالى . ونظر اليه أراميس حتى غاب عن بصره ، حتى اذا صار وحده مع بورتوس قال له : « هل فهمت ؟ »

فهز بورتوس رأسه وقال : « كلا ! لم أفهم شيئا ! »

فقال له أراميس : « ان وجود بيسكارا هنا كان يضايقنا برغم انه ضابط شجاع . ذلك لان مخبأنا الاخير فى كهف لوكماريا يجب ألا يعرفه احد غيرنا . أفهمت الآن يا عزيزى ؟ »

فقال بورتوس : « نعم فهمت ! . اننا سنهرب من طريق ذلك الكهف ؟ اليس كذلك ؟ »

فأجاب أراميس فى سرور : « هذا اذا شئت ! . . . والآن هيا الى الامام يا صديقى بورتوس ، ان زورقتنا ينتظرنا والملك لم يأمرنا بعد ! »



لامر فخامتك قد وضعت في الزورق صندوق البارود ورصاص البنادق
الذين أرسلتهما الى من الحصن »

فقال أراميس : « حسنا » . وتناول الصباح ، وأخذ يفحص بنفسه كل
أجزاء الزورق بدقة رجل ليس هياها وليس جاهلا بالخطر الذي يواجهه .
وكان الزورق طويلا خفيفا متين الصنع ، وقد زود بثمان بنادق وبضعة
مسدسات ومقادير من الرصاص والخيز المجفف والفواكه الجافة واللحم
المقعد وقوارير من الجلد مملوءة بالماء . كما زود بمجاذيف احتياطية وبكل
ما يلزم للرحلة

وبدا البريتانيون الثلاثة يضعون الزورق على عجل لينزلق نحو الشاطئ ،
وإذا بهم يسمعون نباح كلاب من داخل الكهف ، وكان الفجر قد انشق وأوشك
النهار أن يبسط نوره وصحت الطيور تعلن بدء يوم جديد . فقفز أراميس
وبورتوس الى خارج الكهف عند سماع ذلك النباح ، وقال بورتوس :
— انها جماعة من كلاب الصيد . ولا شك انها في اثر رائحة !

فقال أراميس : « ترى من الذي يصيد في هذه الساعة ، وفي هذا الطريق
حيث ينتظر مرور الجنود الملكيين ؟! »

واقترب صوت النباح منهم فنادى أراميس ايف من الزورق وسأله :
« ما معنى الصيد في هذه الساعة يا ايف ؟ »

فقال الرجل : « الواقع أني لا أفهم ما هناك يا صاحب الفخامة . ان
السيد دي لوكماريا لا يصطاد في مثل هذه الساعة . . ومع هذا فان
الكلاب . . . »

فقال بورتوس : « لعلها هربت منه لحبسها ؟ »

فقال جين : « كلا انها ليست كلاب السيد دي لوكماريا ! »

فقال أراميس . « اذن من الحكمة ان نعود الى الكهف ، فان صوت النباح
يزداد اقترابا ، وسنعرف جلية الامر بعد قليل »

ودخلوا الى الكهف من جديد ولكنهم لم يكادوا يخطون مائة خطوة في
الظلام حتى مرق أمامهم ثعلب كالسهم وقفز فوق الزورق ثم اختفى مخلفا
وراءه رائحته فمكثت بضعة ثوان تحت قبو الكهف الواطئ

فقال أراميس : « انه ظرف ملعون . لقد كشف المخيا ! »

فقال له بورتوس : « كيف ذلك ، اتخاف ثعلبا يا أراميس ؟ »

فاجابه أراميس : « الا تعلم أنه بعد الثعلب تأتي الكلاب ، وبعد الكلاب يأتي
الرجال ؟ »

وسرعان ما جاءت ستة كلاب في أثر الثعلب فقال أراميس : « هاهي ذي
الكلاب فمن هم الصيادون ؟ »

فقال ايف : « اذا كان هو السيد دي لوكماريا فانه سيتترك الكلاب ولا
يدخل الكهف بل ينتظر خروج الثعلب عند الفوهة الاخرى للكهف »

معركة في كهف

كان كهف لكماريا بعيدا من حاجز الميناء ، فبذل أراميس وبورتوس جهدا
كبيرا لكي يصلا اليه عند منتصف الليل ، وقد حملا معهما أموالهما وأسلحتهما
ومشيا فوق المرج الذي بين الرصيف والكهف ، وهما يصغيان الى كل صوت ،
وكانا يتفاديان السير في الطريق . وحدث أن صادفهما بعض الاهالي الهاربين
من داخل الجزيرة عقب سماعهم بنزول جنود الملك فاخفيا وراء كتلة من
الصخور حتى مر أولئك الهاربون ، وأخيرا بعد مشي يتخلله الوقوف والاختباء
مرات ، وصلا الى الكهف الذي نقل اليه زورق متين لانزاله الى البحر .
وعندئذ قال بورتوس لصاحبه : « لقد وصلنا أخيرا ولكنك حدثتني عن ثلاثة
أرجال او ثلاثة من الخدم سيصبحوننا فأين هم ؟ »

فقال له أراميس : « لا شك أنهم ينتظروننا في الكهف ، ولعلمهم يرتاحون
قليلا بعد نقل الزورق »

وهم بورتوس بدخول الكهف ولكن أراميس أوقفه قائلا : « اتسمح لي بأن
ادخل أولا ؟ . اني أعرف الاشارة التي اتفقت عليها مع أولئك الرجال ، فإذا
لم يسمعوها فلعلمهم يقتلون من يدخل بالرصاص أو بالخناجر ! »

فقال بورتوس : « اذن ادخل انت أولا . انك حكيم بعيد النظر . آه .
لقد عدت أشعر بذلك التعب في ساقى ! »

وتركه أراميس جالسا عند مدخل الكهف ، ودخل الكهف بعد أن حتى
قامته وأخذ يقلد صوت البومة ، فرد عليه من داخل الكهف صوت مثله ،
وواصل أراميس سيره بحذر ، وما لبث أن قال : « أنت هنا يا ايف ؟ »
فأجابه ايف قائلا : « أجل يا صاحب الفخامة ، وكذلك جين وابنه ! »

فقال له : « هذا حسن ! وهل أعد كل شيء ؟ »

فقال : « أجل يا صاحب الفخامة ! »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه في انتظار أوامره ، فقال لهم : « اذهبوا الى
مدخل الكهف ، ان البارون دي فالون هناك يرتاح من التعب ، وإذا وجدتموه
عاجزا عن المشي فاحملوه وأثنوا به الى هنا ! »

فأطاع الرجال الثلاثة أمر أراميس ، وكان بورتوس قد استراح واستعاد
قوته ونشاطه فعاد معهم ماشيا ، ثم أشعلوا مصباحا أضاء داخل الكهف ،
وبعد قليل قال أراميس : « هيا بنا لنرى الزورق ونستوثق من متانته ! »
فقال ايف : « لا تقرب منه فخامتك كثيرا ومعك مصباح وقد فاني تبعا

— لعله كهف مسحور . هيا بنا ندخله لنرى ماهناك !

وقفز من فوق جواده ليدخل الكهف وأراد رفاقه أن يدخلوا معه ، ولكنه طلب اليهم الانتظار ودخل وحده وسار خطوات في الظلام وهو باسط يده أمامه ، وإذا بها تقبض على أنبوبة البندقية التي بيد بورتوس ، وفي اللحظة نفسها انقضت أيف بسكينه يريد أن يجهز عليه ، ولكن بورتوس أوقفه بيده القوية وزمجر قائلاً : « لا أريد أن يقتل ! »

وكاد بيسكارا أن يصيح من الدهشة بين ذلك الوعيد وهذا العون ، ولكن أراميس وضع منديلاً على فمه ليمنعه من كل صوت وقال له بصوت منخفض : « يا مسيو بيسكارا . أننا لا نريد بك سوءاً ولعلك عرفت من نحن . ولكن إذا لفظت أية كلمة فانا سنضطر إلى قتلك كما قتلنا كلابك ! »

فقال الضابط بصوت منخفض : « أجل ، لقد عرفتكما . ولكن لماذا أنتما هنا وماذا تفعلان ! لقد حسبتكما بالحصن ؟ »

فسأله أراميس : « هل حصلت لنا على شروط حسنة ؟ »

فأجاب بيسكارا : « لقد بذلت جهدي ، ولكن بلا جدوى فالأمر صريحاً » فأدرك أراميس وبورتوس أن الأوامر تقضى بقتلها ، وقال له الأول : « يا مسيو بيسكارا . . . أننا رأينا شبابك وذكرنا صلتنا بأبيك ولهذا إقينا على حياتك ، وفي إمكانك الآن أن تخرج من هذا الكهف إذا أقسمت لنا بأنك لن تخبر رفاقك بأنك شهدتنا هنا »

فقال بيسكارا : « أنى أقسم لابذلن قصارى جهدى لاحول دون دخول رفاقي في هذا الكهف »

وهنا سمعت أصوات من خارج الكهف تناديه باسمه فقال له أراميس : « أجيبهم يا بيسكارا »

فصاح بيسكارا قائلاً : « ها أنذا »

ثم غادر الكهف عائداً إليهم ، وكان بعضهم قد اقتربوا حتى بدت ظلالهم في الكهف ، فأسرع بيسكارا ليحول دون تقدمهم بينما أراميس وبورتوس يصغيان بكل انتباه

ولما رأى الفرسان زميلهم راعهم الشحوب الذي اعتراه فقال لهم : « ماذا تحسبوننى رأيت ؟ لقد كنت أشعر بالحر قبل أن أدخل ، ولما دخلت وجدت الهواء بارداً . هذا كل ما فى الأمر ! »

فسأله أحدهم : « هل وجدت الكلاب ؟ وماذا دهاها فأسكتها ؟ »

فأجاب : « أحسبها قد خرجت من فوهة الكهف الأخرى ! »

وصاح ضابط آخر يدعوهم إلى الدخول فهتفوا جميعاً قائلين : « هيا إلى الكهف ! »

وهنا وقف بيسكارا أمام رفاقه قائلاً : « بالله لا تدخلوا ! »

فقال أراميس : « ليس السيد دى لوكماريا هو الصائد . انظر يا بورتوس هناك على السطح »

فنظر بورتوس ورأى على سطح التل اثني عشر فارساً يستحثون جيادهم في أثر الكلاب . فصاح قائلاً : « الحرس ! »

وقال أراميس في كآبة : « نعم . أنهم حراس الملك ! »

وارتاع البريتانيون الثلاثة ورددوا مدعورين : « حرس الملك ؟ »

ثم قال أراميس : « أن بيسكارا في الطليعة فوق جواد أشهب ، ليس كذلك يا بورتوس ؟ » . فأوماً هذا موافقاً وبقي ساكناً . وكانت كلاب الصيد في الوقت نفسه مندفعة في داخل الكهف وقد ردد صدى نباحها الذي يصم الأذان . فقال أراميس وقد استعاد رباطة جأشه : « انى موقن أننا ضعنا ولكن بقيت لنا فرصة . إذا كشف الحراس الذين يتبعون تلك الكلاب الفوهة الأخرى للكهف فلا أمل لنا ، لانهم إذ يدخلون يروننا ويرون الزورق . إذن لا ينبغي أن تخرج الكلاب من الكهف »

فقال بورتوس : « هذا واضح ! »

فقال أراميس بلهجة القائد السريع البت : « انها ستة كلاب يجب ان تقتل عند الفتحه الضيقة للكهف ! »

فقفز البريتانيون الثلاثة وفي أيديهم المدي ، ولم تمض دقائق حتى ارتفعت صيحات الكلاب من الألم ثم سكنت أصواتها . فقال أراميس : « هذا حسن ! . والآن إلى أسياذ الكلاب ! »

فسأله بورتوس : « ماذا نفعل بهم ؟ »

فقال أراميس : « ننتظر مجيئهم ثم نقتلهم ! . أنهم ستة عشر ، ولا تتطلب التخلص منهم أكثر من عشر دقائق . وسنفيد من أسلحتهم بعد ذلك ! »

ثم تناول أراميس إحدى البنادق ، ووضع سكيناً في فمه وقال : « على أيف وجين وابنه أن يقدموا لنا البنادق ، وأنت يا بورتوس تطلق الرصاص على القوم حين يقتربون ، وسنقتل منهم ثمانية قبل أن يدرى الباقيون بما حدث ، ثم نهجم نحن الخمسة على الثمانية الباقين بالمدي ونجهز عليهم ! »

فقال بورتوس : « وبيسكارا المسكين ؟ »

ففكر أراميس هنيهة ثم قال في برود : « بيسكارا قبل غيره . . . لانه

يعرفنا ! »

وبعد قليل وصل بيسكارا إلى مدخل الكهف قبل رفاقه ، وأدرك أن التعلب والكلاب محجوزة بداخله . غير أنه ككل إنسان يخشى الظلام ويخاف الكهوف ، فوقف عند مدخل الكهف في انتظار الفرسان الآخرين . حتى إذا وصل هؤلاء وتساءلوا عما جرى للكلاب ولماذا سكنت مرة واحدة ، أجابهم قائلاً :

فتعالت أصواتهم متسائلين عما يحول دون ذلك ، وقال واحد منهم :
« لا شك أنه رأى الشيطان نفسه داخل الكهف ! »
فقال آخر : « إذا كان قد رآه فلا يصح أن يكون أنايا ويمنعنا من أن
نلقى عليه نظرة بدورنا ! »

وعاد بيسكارا يروجهم ألا يدخلوا ولكن بلا جدوى، فقد أصروا على ولوج
الكهف وتقدمهم أحدهم شاهرا سيفه بيده ، فتبعه الآخرون بعد أن أراحوا
بيسكارا جانبا حتى لا يعوقهم، ولم يرد هو أن يدخل معهم فيحسبه أراميس
وبورتوس قد خان عهده وحنث بقسمه . وما كادوا يتقدمون داخل الكهف
خطوات معدودات حتى دوت فجأة طلقات الرصاص ، وتبعتها صيحات الذين
أصيبوا ، واستطاع الذين في المؤخرة أن يعودوا أدراجهم . ولما رأوا
بيسكارا قالوا له : « ما هذا ؟! » أكنت تعلم أن الكهف به كمين ولم
تحذرننا ؟ انك السبب في قتل أربعة من رجالنا ! »

وصاح به أحد الضباط : « أنت سبب هذا الجرح الذي أصبت به ، ان
دمي فوق رأسك ! »

ثم ارتدى تحت قدميه وقد خارت قواه . بينما ارتفعت أصوات أخرى
تقول له : « أخبرنا على الأقل من في الكهف ؟ »

ولكن بيسكارا بقي ساكنا ، فتجامل زميله الضابط الجريح على نفسه
وزحف إليه مجردا سيفه في وجهه قائلا له : « قل لنا من هناك والا فالموت
لك ! »

وكان جواب بيسكارا أن فتح أزرار مئزرته كاشفا عن صدره وقال
لزميله الذي يهدده : « اضرب يا أخى ! » . ولكن الجريح ارتدى على الأرض
ثانية وهو يئن أنه خافتة أسلم روحه على أثرها متأثرا بجرحه !

وهنا ارتاع بيسكارا وتملكه اليأس والقنوط ، وصاح قائلا : « نعم ،
الموت لي ان رضيت باغتيال رفاقي ! » . ثم اندفع إلى الكهف وقد رمى سيفه
جانبا لانه يطلب لنفسه الموت ، وتبعه بقية رفاقه ، غير أنهم لم يكادوا
يتقدمون حتى أطلق عليهم الرصاص ثانية فجنبدل خمسة منهم ، وتراجع
الباقيون وهم يتساءلون من أين يأتيهم الرصاص ؟ غير أن بيسكارا لم يتراجع
معهم بل جلس فوق صخرة ينتظر . وقال واحد من الستة الباقين :
« لا شك أنه الشيطان ! » . فرد آخر قائلا : « بل هو شر من ذلك ! » .
ثم قال ثالث : « اسألوا بيسكارا فانه يعرف خافية الأمر ! »

وأخذوا ينظرون حولهم باحثين عنه ، فلما لم يجدوه قال واحد منهم :
« لا بد أنه قتل بالكهف ! »

فقال آخر : « كلا ! » لقد رأيته وسط الدخان جالسا في هدوء على صخرة
هناك داخل الكهف ! »

وقال أحد رفاقه : « لا بد أنه يعرف من هم ! » لقد كان أسيرا لدى
التوار ! »

ثم أخذوا ينادونه ولكنه لم يجب . وما لبث أحدهم أن قال : « لسانا
بحاجة اليه فقد جاء لنا مدد ! »

وكانت فرقة من الحراس قد وصلت في هذه اللحظة وهي مؤلفة من خمسة
وسبعين جنديا أو أكثر . فأسرع الضباط الخمسة إلى لقاءهم ورووا لهم
ما حدث ، فسألهم قائد الفرقة : « أين بيسكارا ؟ »

ولما قيل له : « انه بالكهف » . حسب أنه أسير ، ولكن هذا ما لبث أن
ظهر عند فوهة الكهف وأشار اليهم بالتقدم فلما وصلوا اليه قال له القائد :
« انك تعرف الذين بالكهف ، وأنا أمرك باسم الملك أن تخبرني من هم ! »
فقال بيسكارا : « لا حاجة بك لأن تأمرني . فقد أحللت من كلمة الشرف
منذ لحظة . وأنا قادم اليكم من عند أولئك الرجال لكي أخبركم بأنهم
سيدافعون عن أنفسهم حتى آخر نسمة من حياتهم ، الا اذا منحتموهم
شروطا حسنة ! »

فسأله القائد : « كم عددهم ؟ »

فقال بيسكارا في هدوء : « انهم اثنان ! »

وهنا صاح به القائد محنقا : « اثنان ويريدان أن يفرضا شروطهما
علينا ؟! »

فقال بيسكارا : « أجل انهما اثنان ، لكنهما قتلا عشرة من رجالنا .
انهما اثنان من الفرسان الاربعة الذين سبق أن قاوموا جيشا ! »

فسأله القائد : « ما اسمهما ؟ »

فقال : « كانا يسميان في العهد الماضي بورتوس وأراميس . أما الآن
فيسميان المسيو دربلاي والمسيو دي فالون ! وهما يدافعان عن (بل - أيل)
لصالح المسيو فوكيه ! »

فسرت في الجنود مهمة حين سمعوا اسمي بورتوس وأراميس . وأخذوا
يرددون : « الفرسان الاربعة ! الفرسان الاربعة ! » . وكان كل من يحمل
سيفا في فرنسا يعرف أولئك الفرسان ويكن لهم كل تقدير واعياب
وسكت الضابط قائد الفرقة قليلا ثم قال : « رجلان اثنان يقتلان عشرة !؟
ان هذا محال يا مسيو بيسكارا ! »

فقال بيسكارا : « لقد رأيت هذين الرجلين حين كنت أسيرا عندهما ،
واني موقن أنهما يقدران وحدهما أن يهلكا جيشا كاملا ! »

فقال القائد : « سنرى الآن ! » . ثم أمر رجاله بالتقدم وسار هو على
رأسهم يريد اقتحام الكهف ، وعبثا حاول بيسكارا أن يشبه عن الهجوم إذ
أصر عليه قائلا له : « لن نسمح بتقهقر ثمانين من حرس الملك أمام اثنين
من العصاة ، ولو أنني قبلت نصيحتك لفقدت شرفي ! »



« وأخذ بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحداً واحداً »

ثم وقف قائد الفرقة عند مدخل الكهف وقسم رجاله ثلاثة أقسام ، على أن يدخل كل قسم منها بعد الآخر مع اطلاق التيران فى كل اتجاه ، وقال لنفسه : « لا شك أننا فى هذا الهجوم سنفقد خمسة رجال آخرين وربما عشرة ، ولكننا آخر الأمر سننتخب على الثائرين . وعلى أى حال لن يتاح لرجلين اثنين أن يقتلا ثمانين رجلاً ! »
وهنا قال له بيسكارا : « أرجو أن تسمح لى بالسير على رأس القسم الاول ! »

فقال له : « فليكن ! انى أمنحك هذا الشرف ! »
فشكره بيسكارا وتقدم دون أن يأخذ سيفه قائلاً : « ساذهب هكذا ! »
ثم صاح برجاله : « هيا الى الأمام ! »



كان طول الكهف نحو مائتى ياردة ، وينتهى الى منحدر يشرف على خليج صغير . وكانت أرضه غير ممهدة وسقفه متفاوت الارتفاع تبعاً للصخور التى فوقه . وقد رأى أراميس بعد المعركة التى دارت داخل الكهف أن يركن الى الفرار مع صديقه بورتوس قبل أن يصل مدد الى الحراس الذين نجوا من القتل . وعلى ذلك أمر بانزال الزورق فى البحر دون إبطاء ، فرفعه بورتوس بكلتا يديه ثم وضعه البريتانيون الثلاثة على اسطوانات خشبية لدحرجته ، ولما وصلوا به الى قرب الفوهة الأخرى للكهف وحسدوا بعض الصخور قد سدتها بحيث يصعب مزور الزورق منها ، وسرعان ما أجعل بورتوس قوته فوضع كتفه تحت إحدى الصخور وأزاحها من مكانها . وعندئذ بدأ الرجال الثلاثة يخرجون الزورق ، ولم يكن قد بقى بينه وبين مخرج الكهف سوى عشرين ياردة حين أقبلت فرقة الفرسان ، فأيقن أراميس الذى كان يرقب كل شيء بالأبد من نشوب معركة جديدة رهيبة . ولحظ أن ازاحة الصخرة عن فوهة الكهف قد جعلت الضوء يغمر مدخله بحيث يرى المهاجمون الزورق فيسهل عليهم رميه بالرصاص وقتل ركابه الخمسة . فاشتد غيظه ، وهتف بزميله بورتوس الذى كان يعمل وحده أكثر مما يعمل الرجال الثلاثة : « ان أعداءنا قد تلقوا مددا لا يقل عن سبعين جندياً ، وسيكون فى مقدورهم أن يهدموا الكهف علينا، وعلى هذا يجب أن يستمر رجالنا الثلاثة فى دحرجة الزورق بينما نحفظ نحن الاثنين بصندوق البارود وبالرصاص والبنادق الى جانبنا هنا »

فقال بورتوس : « ان اثنين فقط لا يمكن لهما أن يطلقا أكثر من رصاصتين مرة واحدة ، وعلى هذا أفضل أن أكن خلف هذا العمود ومعنى هذا القضيب الحديدى ، ثم أفاجيى المهاجمين من حيث لا يروننى بضرب جماجمهم بمعدل ثلاثين ضربة فى الدقيقة . فما رأيك فى هذه الخطة ؟ »

فابتسم أراميس وقال : « انها خطة بارعة وأنا أقرها غير أنك ستخيفهم ، فيبقى نصفهم في الخارج ليحاصرونا ثم يأسرونا بعد أن ينال منا الظمأ والجوع ! »

فقال بورتوس : « انك على حق يا أراميس ولكن كيف نجذبهم جميعا الى الداخل ؟ »

فأجابه قائلا في هدوء : « عليك أنت أن تكمن لهم حتى يدخلوا جميعا ، وحينئذ ننفذ معا ما رسمته من خطة لإبادتهم . وها هي ذى صيحاتهم تقترب فهيا الى مكنك »

وسارع بورتوس الى مكنه المختار وسط الكهف حيث الظلمة شاملة ، وقد أمسك قضيبا ضخما من الحديد يزن نحو خمسين رطلا كان البريتانيون الثلاثة يستخدمونه في دحرجة الزورق الى الشاطئ . بينما وقف أراميس محتبئا في الجانب الذي يدخله الضوء من الكهف . ولم تمض دقيقة حتى ارتفع صوت قائد الفرقة يأمر رجاله بالتقدم ، فقفز القسم الأول منهم وعددهم خمسة وعشرون رجلا من الصخور المظلة على الكهف الى مدخله حيث اتخذوا موقفهم وشرعوا يطلقون البنادق . وبعد لحظات صاح بهم بيسكارا : « الى اليسار ! » فاندفعوا خلفه الى اليسار حيث يضيق الممر تدريجا ، وعندئذ صاح أراميس قائلا : « اضرب يا بورتوس ! » وسرعان ما أهوى هذا بالقضيب الحديدى على رؤوسهم فكان بيسكارا أول من أصيب وقد مات لتوه دون أن ينطق ببنت شفة ، وسقط بعده عشرة من جنوده ، وحاول الباقون أن يعودوا أدراجهم هاربين فأخذوا يتعشرون في الظلام بينما بورتوس الجبار يحطم جماجمهم بالقضيب الحديدى واحدا واحدا حتى قضى عليهم جميعا في أقل من عشر دقائق !

وكان قائد الفرقة قد تقدم القسم الثانى منها وفي يده مشعل اتخذه من أغصان الشجر الجافة ، فلما وصل بمن معه الى حيث يكمن بورتوس أخذهم الرعب اذ رأوا أنفسهم يمشون فوق جثث اخوانهم وفي بحر من دماهم . وأراد القائد أن يكشف على ضوء مشعله سر موت أولئك الجنود ، فما كاد ينحنى فوق جثة أحدهم حتى مد بورتوس يده فقبض بها على عنقه بكل قوته فسقط المشعل من يده وانطفا كما انطفأت في اللحظة نفسها شعلة الحياة في جسده ! وجاء الجنود في أثره واحدا بعد واحد وهم يتحسسون طريقهم في الظلام بين الجثث ، فكان بورتوس يتلقفهم ويقضى عليهم بالطريقة نفسها ، فسقط أكثرهم جثا هامة قبل أن يطلق الباقون منهم بنادقهم فتدوى طلقات الرصاص داخل الكهف كالرعد ، وتتساقط قطع من صخره فيختلط غبارها بدخان البارود ، ثم ساد السكون فلم يعد يسمع سوى وقع خطوات الفصيلة الثالثة وهى تدخل الكهف !

نهاية بورتوس

كان بورتوس قد اعتاد الظلام أكثر من أولئك الجنود الاتين من الضوء الى الظلمة ، فنظر حوله لعله يرى أراميس ، واذا بهذا يلمس ذراعه لمسا خفيفا ويهمس اليه أن يتبعه في سكون الى الجانب الاقصى للكهف دون أن يشعر بهما أحد من رجال الفصيلة الثالثة الاخيرة

وهناك أشار أراميس الى برميل من البارود كان مخبأ في فجوة بالجدار الصخرى ويتراوح وزنه بين سبعين وثمانين رطلا ، ثم قال لبورتوس : « ستحمل أنت هذا البرميل ، بينما أشعل أنا عود الثقاب الذى به ثم تقذف به وسط المهاجمين ، وتلحق بنا الى الشاطئ حيث أسبقك لمساعدة البريتانيين الثلاثة على انزال الزورق فى البحر ! »

فرجع بورتوس البرميل بيد واحدة وقال : « أشعل عود الثقاب يا عزيزى ، حقا انها لفكرة جهنمية ! »

وأشعل أراميس عود الثقاب ومضى مسرعا بعد أن ربت ذراع بورتوس ملاطفا ، وما ان لمح الجنود فى الضوء القليل لبورتوس يحمل البرميل فى يده حتى اشتد رعبهم وحاول بعضهم أن يهربوا عائدين أدراجهم فسقطوا فوق من خلفهم من زملائهم الذين هموا بتصويب بنادقهم لاطلاقها عليه فطاشت رصاصاتهم وأصابت ثلاثة من الجنود ، بينما أطلق بورتوس ضحكة عالية ، ثم رفع يده بالبرميل وقذف به وسط بقية الجنود فانفجر انفجارا مروعا كأنه الرعد ، فتفتنت الصخور وتناثرت وتمزقت الابدان وتبعثرت الاشلاء ، وانقلب الكهف كله قبرا رهيبا لأولئك العشرات من الجنود والضباط وقد اختلطت أشلاؤهم بالدماء والحجارة والتراب

أما بورتوس فأسرع بعد أن رمى البرميل قاصدا الى الشاطئ ليلىح بأراميس والبريتانيين الثلاثة . واستطاع خلال الغبار المنعقد حوله أن يرى بعينيه الحادتين جانبا من الزورق الذى أعده أراميس وزميلاه للفرار والنجاة ! وملا المارد المنتصر رثيئة الواسعتين من هواء البحر ، وارتسمت على شفثيه ابتسامة مرحة ، وحث خطاه الواسعة مستعجلا بلوغ الحرية والأمان ، حتى اذا لم يبق بينه وبين باب الكهف غير خطوات معدودات شعر فجأة بضعف شديد فى ركبتيه ، وكادت قدماه تعجزان عن حمله ، فجدت نفسه قائلا : « لقد عاد الى ذلك التعب الملعون ! »

وكان أراميس ينتظره بالباب وقلبه يرقص فرحا كلما سمع وقع خطاه .

وكان يهيم بمناداته لكنه شعر بتوقفه عن المشى اليه فهتف به قائلا : « هيا يا بورتوس . تعال . أسرع ! »
فأجاب في جهد وهو ما زال واقفا : « ركبتي يا أراميس ! لا أستطيع المسير ! »

وخذلته ساقاه المجهدان ، فجنا على ركبتيه ، ولكنه تعلق بالصخر بيديه القويتين فاستطاع أن يقوم ورد على أراميس قائلا : « ها أنذا ! »

وفي هذه اللحظة دوى في الكهف صوت انفجار جديد عنيف فاهتزت الارض تحت أقدام الفارسين القديمين الصديقين ، وتهدم جانب كبير من القبو الصخري من قوة الانفجار ، وكأنما أعادت هذه الهزة المخيفة الى بورتوس قوته الضائعة ، فقام يجرى بين الصخور التي كانت تنهار حوله ، وأخذ يمد ذراعيه يمينا وشمالا ليعبدها من طريقه . واستطاع أن يرد بيديه القويتين كتلة هائلة من الصخر كادت تسقط عليه ، ولكن كتلة صخرية أخرى سقطت بين كتفيه ، فاستسلمت ذراعا القويتان لحظة ، ثم استجمع كل قواه وراح يعالج الصخرة التي كادت تسد فتحة الكهف حتى زحزحها من طريقه ، ولكن الجهد الجبار الذي بذله جعله يفقد توازنه حيال الصخرة التي تثقل كتفيه ، فاضطر مرة أخرى الى أن يجثو على « ركبتيه » ، وهنا عادت الصخرة التي كان قد زحزحها عن الباب الى وضعها الأول فزادت في ثقل الصخرة التي فوق كاهله ، واضطر الفارس المارد الى السقوط تحت وطأة هذا الثقل الهائل الذي يكفي لسحق عشرة من الرجال ، لكنه لم يصوخ متألما أو مستغيثا ! .. وحينما ناداه أراميس مدعورا : « بورتوس .. بورتوس .. أين أنت ؟ » أجابه وهو تحت الصخور بصوت ضعيف : « ها أنذا ! صبرا . صبرا يا أراميس ! »

على أن صخورا أخرى انقضت فوقه فحجبت ، وأدرك أراميس الخطر الذي أحاط بصاحبه فسارع الى انقاذه ومعه اثنان من رجاله ، أما الثالث فبقى ليحرس الزورق ، وأخذوا يحاولون ازالة الصخور التي تراكمت فوقه بمعاولهم بأذلين في ذلك قصارى جهدهم ، ولكن جهودهم كلها ذهبت سدى ، بينما تمتم بورتوس تحت ثقل الصخور قائلا بصوت واهن : « انها ثقيلة ! » . ثم اظلمت عيناه وأغمضتا وشحب وجهه وابتضت يده ، ولفظ المارد آخر أنفاسه فسقطت بذلك آخر صخرة كان يدفعها عنه بيديه !

وبقى أراميس واقفا بباب الكهف ينظر الى منوى بورتوس صامتا واجبا ، بينما أحاط بأراميس رجاله البريتانيون الثلاثة ثم حملوه الى الزورق حيث وضعوه على مقعد بجانب الدفة وأخذوا يجذفون خارجين بالزورق الى عرض البحر حتى لم يعد يبدو من كهف لوكماريا القديم سوى تل من الانقاض ، ولم يحول أراميس بصره عنه وهو يبتعد عن الشاطئ ، وقد خيل اليه أن ذلك التل من الصخور يقف ممدود القامة مرتفع الرأس مبتسم الثغر كشأن بورتوس ، فأخذ يحدث نفسه قائلا : « يا لبورتوس المخلص الأمين ! لقد

قطر على أن يساعد غيره وعلى أن يضحي نفسه في سبيل الضعيف ، وكأنما وهبه الله قوته الهائلة لهذا الغرض وحده . ولقد مات وهو يحسب نفسه ينفذ شروط اتفاق بينه وبينى في حين أنه لم يعرف من مشروعي الا نتائجه الوحيدة ! »



بقى أراميس ينظر الى ذلك القبر الصخري الذي ضم رفات صاحبه حتى آخر شعاع من ضوء النهار ، وحتى بهت شاطئ الجزيرة في الأفق على مرمى البصر . ولم ينبس طول الوقت ببنت شفة ، ولم تخرج من صدره آهة ولا زفرة . وكان زملاؤه البريتانيون الثلاثة ينظرون اليه مرتاعن ، وقد نشروا الشراع فمضى الزورق مسرعا في خليج جسكونيا قاصدا الى اسبانيا . وبعد حوالي نصف ساعة من نشر الشراع لاحت لهم من خلفهم نقطة بيضاء كأنها جامدة في مكانها لا تتحرك . غير أنهم لم يروا أن يخبروا أراميس بأمرها اذ خيل اليهم أنه استغرق في النوم من الحزن والاضى !

وبعد ساعة أخرى ، كان ضوء النهار قد اختفى ، ولكن المسافة قصرت بينهم وبين تلك النقطة البيضاء التي لاحت لهم ، فتمتم (حين) قائلا : « انه زورق ! .. اننا مطاردون ! »

ورأى ايف من الحيطه أن ينزل الشراع حتى لا يراه الذين يطاردونهم ، ولكن السفينة التي يستقلها هؤلاء نشرت شراعين آخرين لتزيد في سرعتها . وكانت الليلة صافية السماء مقمرة ، فهتف ايف بأراميس قائلا : « يا صاحب الفخامة . انهم يوشكون أن يدركونا ! »

ومد أراميس يده المتخاذلة فأخرج بها تلسكوبا من بين متاعه ، ثم أعطاه لايف قائلا : « انظر ! »

فرجع ايف التلسكوب الى عينه وما ان نظر فيه حتى صاح صيحة رعب فقد حسب أن السفينة التي تطاردهم قد قطعت المسافة كلها بفتة ، لكنه اطمأن حين أبعد التلسكوب عن عينه فرأى السفينة لا تزال بعيدة .. ثم تمتم قائلا : « انهم على هذا يروننا كما نراهم .. انهم خمسة وعشرون رجلا على الأقل . وأرى القبطان في المقدمة ممسكا بمنظار كهذا الذي معي . انه يلتفت جانبا ويصدر أمرا . آه . انهم يدفعون مدفعا الى الامام . انهم يعبثونه .. ويصوبونه ! رياه . انهم يطلقونه علينا ! »

وأطلق المدفع على أثر ذلك فبنت سحابة من الدخان تحت الأشعة ، وسقطت فذيفته على مسافة ميل من الزورق فأحدثت فجوة في البحر جعلت الامواج تضطرب بشدة . فسأل ايف : « ما العمل يا صاحب الفخامة ؟ »

وركع الملاحان الآخرون أمام الأسقف قائلين بتوسل : « امنحنا المغفرة ! » فنظر اليهما أراميس وقال في وقار : « انكم تنسون أن أعداءنا يرونكم ! »

حتى رأسه . ولم ينبس أراميس بكلمة لكنه رفع يده اليسرى وأرى الضابط
فص خاتم في إحدى أصابعها ، فانحنى له هذا مرة أخرى أكثر من قبل ،
وكانه حيال ملك أو امبراطور ، ثم أشار الى قمرة ودعاه الى الدخول قبله!
وعجب البريتانيون الثلاثة الذين جاءوا الى سطح السفينة في أثر
الاسقف ، ولم يكن رجال السفينة أقل عجباً من ذلك المنظر حتى لقد عقدت
الدهشة ألسنتهم . وبعد خمس دقائق نادى القائد مساعده وأصدر اليه
تعليمات بتوجيه السفينة صوب (كورونا) . ثم عاد أراميس الى ظهر
السفينة واتخذ له مقعداً وأخذ ينظر الى (بل - أيل) لا يحيد عنها ببصره!
وجاء ملاح يسأل القائد : « أى اتجاه نتخذه ؟ » . فأجاب القائد :
« الاتجاه الذى يأمر به صاحب الفخامة ! » . وأشار الى أراميس !
ومضى أراميس ليلته بقرب حاجز السفينة . ولما دنا منه ايف فى صباح
الغد لحظ أن الحشب الذى أسند الاسقف اليه رأسه ميلل بالماء ، فظن أنه
قطر الندى ، ولم يدر انها دموعه سكبها حزناً على زميله الراحل العزيز
بور توس



إنتاج (جدران المعرفة) للعمل التطوعي

مع تحيات : MICO MARK

Mico_maher@hotmail.com

ولا ريب أننا اذا حاولنا الفرار فسيغرقون زورقنا ، ثم ان الظلام نفسه
لا يجدينا نفعا فلا بد ان عندهم نارا اغريقية يمكنها أن تضىء لهم الطريق !
وفى اللحظة نفسها ارتفعت سحابة أخرى من الدخان نحو السماء وظهر
وسط تلك السحابة سهم من اللهب ما لبث حتى سقط فى البحر وظل
مشتعلًا وهو يضىء دائرة قطرها ربع فرسخ . ونظر البريتانيون الثلاثة
بعضهم الى بعض فى ذعر شديد ، فقال لهم أراميس : « ها أنتم أولاء ترون
أن لا بد لنا من الانتظار ! »

وعندئذ ترك المجذفون مجاذيفهم فوق الزورق فوق صفحة الماء متأرجحا
بينما أخذت السفينة تقترب ولعلها ضاعفت سرعتها بحلول الليل . وكانت
ترسل سهام النار الاغريقية بين الفينة والفينة . وكان جميع رجالها فوق
سطحها وفى أيديهم بنادقهم ، بينما ربض رجال المدفعية خلف المدافع ،
وكانهم مقبلون على معركة بحرية كبيرة لا يقل أعداؤهم فيها عنهم عددا
وعدة !

وصاح قائد السفينة فى نفيح : « انى أدعوكم الى التسليم ! »

فنظر الملاخون الثلاثة الى أراميس متسائلين فأوماً لهم برأسه يائسا ،
وعندئذ رفع ايف قطعة قماش أبيض ، فزادت السفينة اقترابا من الزورق
وبعثت سهمها ناريا آخر سقط على بعد عشرين خطوة من الزورق ،
وانبعث منه ضوء كضوء النهار أو أشد . ثم صاح قائد السفينة برجاله
قائلا : « اذا بدت أية دلالة على المقاومة فأطلقوا النيران ! »

ثم التفت الى البريتانيين الثلاثة وقال لهم : « انى أومنكم على حياتكم
أيها الاصدقاء ما عدا الفارس دربلای ! »

فارتاع أراميس لحظة ونظر الى أعماق المحيط وقد أضاءه السهم النارى ،
ثم سأله رجاله الثلاثة : « أسمع أنت يا صاحب الفخامة ؟ »

فقال لهم فى هدوء : « اقبلوا ما قبل لكم ! » . ثم مال الى جانب الزورق
أكثر من قبل وأخذ يعبث بالماء بأصابعه البيضاء ، بينما صاح ايف قائلا
لضابط السفينة : « اذا قبلنا فأى ضمان لنا ؟ »

فأجاب الضابط : « كلمة الشرف ! » . انى سأل على حياتكم جميعا
ما عدا المسيو دربلای . انى ضابط السفينة الحربية بوموناواسمى لوييس
كونستان دى بريسينى ! »

فرفع أراميس رأسه وقال لرجالها وهو يبتسم : « أنزلوا السلم أيها
السادة ! »

ولبى رجاله الأمر فأنزلوا السلم توا ، وقام هو فأمسك حبل السلم
وهبطه دون أن يبدو عليه شيء من الخوف الذى توقعه رجال السفينة ، ثم
قصد توا الى القائد فى خطى ثابتة ورأس مرفوع ، فلما بلغ موضعه نظر
اليه نظرة قوية، ثم أشار له بيده اشارة امتقع الضابط على أثرها وارتعد ثم

عفو ملكي

فانه ساذج لا حيلة له ، ولكنهما سيجدان ولا شك مخرجا لهما بعد أن يعطيا درسا قاسيا لجنود الملك . ان لديهما مدافع وذخيرة وحامية ومع هذا لعل الخير في منع ذلك القتال لو كان الأمر خاصا بي ما كنت لا تحمّل نظرات غضب ولا غدر من جانب الملك . ولكنني يجب من أجل صديقي أن أتحمّل كل شيء . . سأذهب الى المسيو كولبير انه الآن هو الذي يجب أن أخيفه ! »

وقصد توا الى المسيو كولبير ، فقيل له : « انه عند الملك في قصر نانت ! » فصاح قائلا : « لقد عاد الوقت الذي كنت أنتقل فيه من المسيو دي تريفيل الى الكاردينال ، ومن الكاردينال الى الملكة ، ومن الملكة الى لويس الثالث عشر . . حقا ان الرجال اذا كبروا عادوا أطفالا ! »

ولما رجع دارتانيان الى القصر وجد المسيو دي ليون خارجا ، وصافحه هذا بكلتا يديه قائلا : « ان الملك كان مشغولا طول الليلة الماضية وقد أمر بعدم ادخال أي أحد ! »

فسأله : « حتى ولا قائد الفرسان الذي يتلقى أوامره وكان يدخل دائما في أي وقت ؟! ان هذا لا معنى له الا أن الملك قد مات ، أو أن قائد الفرسان مفضوب عليه . وعلى هذا أرجو أن تعود الى الملك لتبينه باستقالتي ! »

فقال دي ليون بعد تردد : « حسنا . سأفعل يا مسيو دارتانيان ! » ومكث دارتانيان ينتظر وهو يمشي في الردهة هائج الاعصاب . ثم رجع دي ليون وقال له :

– لقد قبل الملك يا سيدي !

فانفجر دارتانيان صائحا : « هل قبل الاستقالة ؟ حسنا ! . . اذن أصبحت حرا ولست الآن الا مواطنا بسيطا . . وداعا يا سيدي وشكرا ! »

وقفز دارتانيان الى السلم ثم قصد الى النزل . وبدل أن يرمى سيفه ومعطفه ، أخذ مسدساته ووضع نقوده في كيس كبير من الجلد وطلب جيادا من اسطبلات القصر ، وأمر بالسفر الى فان ليلا . وقد تم كل شيء طبقا لرغباته . وعند الساعة الثامنة كان يضع قدميه في الركاب ، واذا بالمسيو دي جيفر قد جاء على رأس اثني عشر حارسا أمام النزل ، ورأى دارتانيان ذلك بطرف عينه ولكنه تظاهر بعدم رؤيته ، حتى تقدم منه المسيو دي جيفر وناداه باسمه بصوت مرتفع فقال له دارتانيان مدعيا الدهشة : « أهذا أنت يا مسيو دي جيفر ؟ هل جئت لتقبض علي بأمر الملك ؟! »

فقال دي جيفر : « لكي أقبض عليك ؟! معاذ الله يا سيدي ، انني انما أقوم بدورتي التفيتشية العادية ، وكل ما هناك أن جلالة الملك يريد أن تقابله الآن ! »

فقال دارتانيان : « لعله يريد أن يرسلني الى الباستيل لاؤنس المسيو فوكيه . حسنا ! انه رجل قدير ويسرني أن أكون معه ! »

عاد دارتانيان الى نانت وهو في غيظ وهياج . وذهب توا الى القصر الذي به الملك وهو يرتعد من الغضب ، وكانت الساعة السابعة صباحا فلما وصل الى الردهة الصغيرة ألقى هناك المسيو دي جيفر ، فوقفه هذا بأدب وطلب اليه ألا يرفع صوته حتى لا يزعج الملك لأنه نائم فقال دارتانيان : « حسنا ! سأدعه ينام . ولكن في أية ساعة تحسبه يصحو من نومه ؟ »

فقال دي جيفر : « ربما بعد ساعتين . لقد سهر الملك طول الليل ! » فانحنى له دارتانيان وعاد الى مسكنه . ثم رجع الى القصر عند منتصف الساعة العاشرة صباحا فقيل له : « ان الملك يتناول طعام الفطور . » فقال : « ان هذا يلائمني . سأحدث الملك بينما يأكل ! »

وذكره المسيو دي بريين بأن الملك لا يستقبل أحدا أثناء الطعام ، ولكن دارتانيان قال له : « لعلك لا تعلم أن لي امتياز الدخول عند الملك في أي مكان وفي أية ساعة ؟! »

فتناول بريين يد دارتانيان بعطف وقال له : « ليس ذلك في نانت يا عزيزي المسيو دارتانيان . ان الملك قد غير كل شيء في رحلته ! » فولى بعض الغضب عن دارتانيان وسأل : « متى ينتهي الملك من تناول طعام الفطور ؟ » فأجاب بريين : « لست أدري يا سيدي ! »

فقال له دارتانيان : « كيف هذا ؟ ألا تعلم كم من الوقت يتطلبه تناول الملك طعامه ؟ انه في العادة نحو ساعة . واذا فرضنا أن جو اللوار قد زاد في شهيته فلنمد الوقت الى ساعة ونصف ساعة . وأحسب ان هذا وقت كاف . وسأنتظر حيث أنا ! »

فقال بريين في هدوء : « يا عزيزي المسيو دارتانيان . ان الأمر يقضى بعدم ترك أحد بالردهة . وأنا هنا لتنفيذ ذلك ! »

فتملك الغضب دارتانيان ، وخرج مسرعا حتى لا يزيد الموقف حرجا ، ولما صار وحده جعل يحدث نفسه قائلا : « ان الملك لا يريد أن يستقبلني . هذا واضح . ان هذا الشاب غاضب ، وهو يخشى ما سأقوله له . أجل ولكن في خلال ذلك تكون (بل – أيل) قد حوصرت وأسر صديقي أو قتلا . ان أراميس لا تعوزه حيلة وأنا مطمئن عليه ، أما بورتوس الجبار

فقال الدوق دي جيفر ملاطفا : « بالله كن هادئا يا سيدى ، ان الملك فى سورة غضب ، ومن الخير ألا تزيد فى غضبه وأنت تكلمه ! »
فقال دارتانيان : « انك تطمح الى توحيد حراسك مع فرسانى ، وهذه فرصة سانحة يا سيدى ! »
فقال الدوق : « ثق بانى سأحرص على ألا أنتهزها ياكابتن . . على الأقل كى أتفادى القتل بيد فرسانك الذين يقدرسونك ! »
فتمتم دارتانيان قائلا : « لا رأى لى فى ذلك لأن أولئك الرجال يحبوننى حقا ! »

ثم تركه دي جيفر يدخل أولا وذهب به ثوا الى غرفة الانتظار وكان الملك جالسا ينتظر قائد فرسانه وهو يتحدث بصوت مرتفع مع المسيو كولبير . وكان الفرسان مصطفين أمام الباب الرئيسى للقصر وقد سرت شائعة فى المدينة بأن قائد الفرسان قد قبض عليه ، وعندئذ تحرك أولئك الفرسان الشجعان كما كانوا يفعلون فى الايام الجيدة الماضية على عهد لويس الثالث عشر والمسيو دي تريفيل . وامتلات بهم الردهات وسمعت همهمة تصعد الى الطوابق العليا ، وبدأ الدوق دي جيفر ينزعج بينما جلس دارتانيان على قاعدة نافذة وصار ينظر بعين النسر الى ما يجرى حوله دون أن يبدو عليه أى تأثر !

على أن السكون ما لبث أن ساد بعد قليل حين ظهر المسيو بريين وصاح قائلا : « اسكنوا أيها السادة . انكم تعكرون صفو الملك ! »

فتنهذ دارتانيان أسفا وقال لنفسه : « لقد انتهى كل شيء . ان فرسان العصر الحاضر ليسوا مثل فرسان لويس الثالث عشر . لقد انتهى كل شيء ! »
ثم صاح حاجب يقول : « المسيو دارتانيان . . الى جناح الملك ! »
فنهض دارتانيان متناقلا ومشى فى خطى ثابتة حتى دخل الجناح الملكى ، وكان الملك جالسا فى غرفة مكتبه وظهره الى الباب ، وأمامه مرآة يرى بها الداخل ، فلما رأى دارتانيان داخلا تجاهل رؤيته وأخذ يقلب الاوراق التى على مكتبه . فأدرك دارتانيان غرضه ووقف ساكنا ثم قال الملك : « أهذا أنت يا مسيو دارتانيان ؟ ماذا عندك لتقوله لى ؟ »

فقال له : « ليس عندى ما أقوله لك يا مولاي سوى أنك أمرت بالقبض على وها أنذا ! »

وهم الملك بأن يذكر أنه لم يأمر بالقبض عليه ولكنه رأى فى ذلك ما يدل على الاعتذار فأثر الصمت . وكذلك سكت دارتانيان فى عناد ، وأخيرا استأنف الملك كلامه قائلا : « ماذا صنعت فى (بل - أيل) ؟ »

فقال دارتانيان : « لم يكن لى أن أصنع شيئا ! . . فمع انى قائد الحملة لم يصدر الى أى أمر معين ، بينما كانت هناك أوامر كثيرة يحملها غيرى من الضباط ! »

فقال الملك : « ان الأوامر قصرت على الموثوق بهم ! »

فقال دارتانيان : « لقد أدهشنى يا مولاي أن ضابطا مثل يوازي فى الرتبة مارشالا فرنسيا ، يجحد نفسه تحت أوامر خمسة أو ستة من الملائمين والبيكاشيين الذين قد يصلحون لأن يكونوا جواسيس ولكنهم غير جديرين بقيادة حملات . ولقد جئت الى جلالتك لأطلب ايضا عن ذلك فاذا بى أجد بابك مغلقا فى وجهى ، وكانت هذه الإهانة الأخيرة التى لحقت بفرانس قديم مثلى ، سببا فى أن أترك خدمة جلالتك ! »

فقال الملك : « انك تحسب أنك تعيش فى العصر الماضى ، ولهذا تنسى أن الملك لا يقدم حسابا عن أعماله لأى أحد ! »

فأحس دارتانيان أن كرامته قد جرحت ورد على الفور قائلا : « أنى لا أنسى شيئا مطلقا يا مولاي . على أنى لا أدري لماذا يهان الرجل الشريف اذا سأل ملكه عما ساء منه !؟ »

فقال الملك : « لقد أسأت خدمتى بانحيازك الى أعدائى ! الرجال الذين أرسلتكم لتحاربهم ! »

فقال دارتانيان : « أرجلان اثنان يخشى منهما على جيش ضخم ؟ هذا أمر بعيد ! »

فقال لويس الرابع عشر : « ليس لك الحق فى أن تحكم بصواب رغبتى أو عليها ! »

فقال : « ولكن لى الحق فى أن أقدر أصدقائى يا مولاي ! »

فقال الملك : « ان الذى يخدم أصدقاءه لا يخدم سيده ! »

فأجاب : « لقد أدركت ذلك يا مولاي ولذا قدمت استقالتى ! »

فقال الملك : « وأنا قبلتها . وقد أردت أن أبرهن لك على أنى عند كلمتى ! »
فقال له : « ان جلالتك ذهبت الى أبعد من ذلك ، اذ لم تقبل استقالتى فقط بل أمرت أيضا بالقبض على ! »

فتجاهل الملك هذه السخرية وقال : « لقد كانت رغبتى هى أسر العصاة وتأديبهم ، أفكان واجبا أن أسأل : هل هؤلاء العصاة من أصدقائك أم لا ؟ . . ان ارسالك فى هذه المهمة كان امتحانا لاخلاص خدمى المزعومين الذين يتغذون بخبزى ويجب أن يدافعوا عن شخصى . ولقد فشلت فى الامتحان يا مسيو دارتانيان ! »

فقال دارتانيان بمرارة : « أصغ الى يا مولاي . . انى لست معتادا هذه الخدمة . ان سيفى يعصانى اذا أريد منى عمل سوء . ولقد كان من السوء أن تبعث بى لأقود الى المشنقة صديقين لى توسل اليك منقذك المسيو فوكيه أن تبقى على حياتهما . ثم ان جلالتك أسأت بى الظن قبل أن أفعل شيئا فأحطتني بالعبور ووصمتنى بالعار أمام الجيش بعد أن خدمته ثلاثين سنة قدمت لك خلالها ألف برهان على اخلاصى وصدق ولائى !؟ »

فقال الملك : « كفى يا مسيو دارتانيان ! اننى أعلم على تكوين دولة لن

يكون بها سوى سيد واحد . واني لأعلم حق العلم أن أى ملك آخر تختاره سيدا لك لن يرضى لنفسه أن تسيره أنت . وكان فى امكاني أن أبعث بك لتكون فى صحبة المسيو فوكيه وغيره بالباستيل ، ولكن لى ذاكرة قوية ، وعندى أن الخدمات التى تؤدى هى مؤهلات للعرفان والحصافة . وسأكتفى بهذا الدرس يا مسيو دارتانيان ليكون عقابا لك على مخالفة النظام ، ولن أفلد أسلافى فى غضبهم كما لم أفلدهم فى رضاهم وحظوتهم . وهناك أسباب أخرى تجعلنى أتلطف بك ، لأنك رجل قدير ذو مواهب ، وستكون خادما صالحا للرجل الذى يقدر أن يسودك ، ثم انك لم يعد لك باعث على التمرد فان أصدقائك قد أهلكتهم أو خربت ديارهم ، وهكذا أزلت أولئك الأعدان الذين كنت تعتمد على معونتهم . وفى هذه اللحظة لابد أن جنودى قد أسروا أو قتلوا العصاة فى (بل - أيل) ! »

فامتنع وجه دارتانيان وقال : « أسروا أو قتلوا ؟ » لست أريد أن أصدق هذا لأنى لا أريد أن أنسى ما فى كلماتك من نبيل ، ولا أريد أن أعذب ملكا وحشيا وانسانا غير طبيعى ! »

ثم ابتسم واستطرد قائلا : « ولكنى لا أنسى أن مولاي ملك شباب لا يعرف أى رجلين هما دريلاي ودى فالون ؟ ! »

وهنا اشتد غضب الملك وقال له : « ان كلامك هذا كلام عاص متمرد . خبرنى : من هو ملك فرنسا ؟ أتعرف ملكا سواى ؟ »

فرد قائد الفرسان فى برود : « مولاي . . انى أذكر جيدا أنك فى صباح يوم وجهت هذا السؤال نفسه الى عدد من الناس فى فو فلم يجيبوك ، ولكنى أنا الذى أجبتك . فاذا كنت قد عرفت الملك فى ذلك اليوم ، حين لم يكن الأمر سهلا ، فأجيب أن من العيب أن أسأل هذا السؤال الآن ، وجلالتك وحدك معى ! »

فأرخى الملك بصره ، وخيل اليه أن ظل فيليب المسكين يمر بينه وبين دارتانيان ليثير ذكرى تلك المغامرة الرهيبة . وفى اللحظة نفسها دخل ضابط وسلم الملك رسالة فلما قرأها امتنع وجهه وقال لدارتانيان : « ان ما علمته الآن جدير بك أن تعلمه : لقد دارت معركة فى بل - أيل »

فدق قلب دارتانيان وكاد يقفز من بين جنبيه ، ثم قال متصنعا الهدوء : « ماذا كانت النتيجة يا مولاي ؟ »

فقال الملك : « لقد فقدت مائة وعشرة من جنودى ! »

فبان بريق الفرح فى عيني دارتانيان وقال : « والعصاة ؟ »

فأجاب الملك : « لقد فروا ! . . غير أن أسطولى يحاصر الآن بل - أيل ، ولا يمكن لأى زورق أن يفر ! »

فقال دارتانيان : « اذن يا مولاي لن يؤخذ أسيرين ، انى موقن بأنهما سيؤثران ميتة أنبل ! »

ثم مسح دارتانيان العرق الذى كان يتصبب من جبينه ، بينما قال له الملك : « لقد ذكرت لك أنى سأصبح يوما ما سيدا كريما ودودا وقيما . وأنت وحدك الآن كل من بقى من رجال الايام الحالية ، وسأهبك من غضبي أو صداقتى بحسب مسلكك . فهل تحب يا مسيو دارتانيان أن تخدم ملكا له فى مملكته مائة ملك أنداد له . . . وهل ترى أنى بذلك الضعف أستطيع أن أحقق الاهداف العليا التى رسمتها لى ؟ هل رأيت فنانا يبدع آيات فنية بأداة عصية . . . انتى سيد بلادى يا مسيو دارتانيان وسيكون لى خدم قد يقلون عنك فى الذكاء ولكنهم سيصلون بالولاء والطاعة الى مرتبة البطولة ! »

وبقى دارتانيان صامتا يصغى الى الملك ، بينما واصل هذا كلامه فقال : « لنعقد بيننا تلك الصفقة التى وعدت بك بها يوما حين كنت طفلا صغيرا فى (بلوا) . . . ان الرؤوس العالية قد انحنت كلها يا مسيو دارتانيان ، فاما أن تحنى رأسك أنت أيضا ، واما أن تختار المنفى الذى تؤثره . ولعلك حين تفكر فى الأمر ترانى ملكا سمحا كريما ! . . انك رجل شجاع ولكنك تحكم على قبل الأوان ! »

وأحس دارتانيان لأول مرة فى حياته أنه لا يقدر أن يبيت برأى ! . . لقد وجد الآن خصما جديرا به . فليس ما يبديه الملك مكرًا ولكنه حساب يقدر ، وليس عنفا ولكنه قوة ، وليس عاطفة هوجاء ولكنه ارادة وعزيمة . ثم مضى الملك فقال : « ماذا تتنويه ؟ لقد قدمت استقالتك . فأرفضها ؟ انى أقر بأن من الصعب على فارس شيخ مثلك أن يستعيد صفو مزاجه ! »

فقال دارتانيان وفى صوته رنة أسف : « انى متردد فى سحب استقالتي لأنى شيخ كبير حقا ، ولأنى اعتدت عادات من الصعب تركها . ومنذ الآن ستحتاج الى رجال بلاط يسلونك ، والى مجانين يندفعون نحو الموت لكى ينفذوا لك ما تسميه بالفعال العظيمة . انهم قد يصيرون عظاما ولكنى لا أحسبهم كذلك ! . . لقد شهدت الحرب يا مولاي وشهدت السلم ، وخدمت ريشيليو ومازارين ، ولفحتنى النار مع أبيك فى حريق روشيل ، وفى جسمى ثقوب من الطعان حتى صار كالمصفاة ، وقد جددت جلدى عشر مرات كما تفعل الثعابين . وبعد أن أسىء الى وصبرت على ضروب من الظلم صارت لى قيادة كانت من قبل شيئا مذكورا اذ كانت تبيح لصاحبها أن يخاطب الملك كما يشاء . ولكن قائد فرسانك سيكون بعد الآن ضابطا يحرس الابواب الدنيا . حقا يا مولاي اذا كانت الوظيفة ستصبح هكذا فأرجو أن تنتهز فرصة هذه العلاقة الطيبة بيننا لتأخذها منى . ولا تظن أنى أحمل من أجل ذلك ضعفنا وان تكن قد صغرت من شأنى . انك اذ حنيت رأسى قد أقنعتنى بضعفى . ولا شك فى أنك تأسف مثلى لو أنك علمت كم يسرنو

أصدقاء فوكيه

قضى دارتانيان أربعاً وعشرين ساعة في (بل - أيل) يبحث بكل وسيلة مستطاعة عن أراميس وبورتوس ليلقبهما عقو الملك عنهما ، وقد علم بما قام به صديقه البطلان من الدفاع ضد جيش كامل ، كما علم بأن زورقا رأى بعد ذلك في عرض البحر وخلفه سفينة حربية بقيت تطارده حتى أسرت من فيه . وعيناً حاول دارتانيان أن يقف على أية معلومات أخرى فغادر الجزيرة يائساً من لقاء صديقه وأن كان كبير الأمل في نجاتهما ، وما لبث أن عاد إلى باريس في معية الملك حيث أخبره بما كان

وكان لويس الرابع عشر قد اطمأن إلى نجاحه في توطيد سلطانه ، فدا أكثر ابتهاجاً ولطفاً ، وأكثر من الخروج على جواده حيث يسير بجانب نافذة العربة التي تقل الأنسة دي لافالير ، وكان الجميع في مقابل ذلك يبذلون قصارى جهدهم لتسليّة الملكتين زوجته ووالدته

وبعد أيام ما كاد الملك يتناول الفطور حتى جاءه دارتانيان شاحب الوجه بادي الحزن وقال له : « لقد همتني كارثة شديدة يا مولاي . ان المسيو دي فالون قتل تحت الصخور في « بل - أيل ! »

فقال الملك في هدوء : « كنت أعرف ذلك ، ولكنني أشفقت عليك من وقع النبأ فلم أخبرك به ، كما أتى أعلم أن المسيو دربلاي أخذ إحدى سفني مع من فيها وأجبرهم على الذهاب به إلى بايون »

فسأله دارتانيان : « لكن يا مولاي كيف علمت بهذه الأنباء ؟ »

فابتسم وسأله : « وكيف علمت بها أنت يا دارتانيان ؟ »

فأجاب : « علمتها من هذا الخطاب الذي أرسله إلى المسيو دربلاي من بايون بعد أن أصبح حراً بعيداً عن الخطر »

وأخرج الملك من درج مكتبه ورقة قدمها له قائلاً : « هذه صورة من الخطاب الذي أرسله إليك المسيو دربلاي ، سلمها إلى المسيو كولير قبل أسبوع من وصول الخطاب إليك . ان لي خدماً مخلصين كما ترى ! »

فتمتم دارتانيان قائلاً : « أجل يا مولاي . انك الرجل الوحيد الذي قدر لحظه أن يغلو حظ صديقي ، وقدر لسلطانه أن يغلب قواهما . ولقد استخدمت قوتك يا مولاي ، ولكنك لن تسيء استخدامهما ! »

فابتسم الملك برفق وقال له : « يا دارتانيان : لقد كان في استطاعتي أن أتى بالمسيو دربلاي من أسبانيا حياً لتوقيع العقوبة

أن أرفع رأسي وكيف يؤلمني أن أنحنى حتى أشم رائحة سجادتك ! ان أولئك السادة اللوحين الذين كانوا في الماضي رجال البلاط ، كانوا كذلك أبطالا في الحروب ! وكانوا يلقون اليد التي تطعمهم ، ويعضون اليد التي تضربهم ، فاذا وضعت بعض الذهب على معاطفهم ، وزادت وقتهم اعتدالا ، وخطط شعرهم الشيب ، رأيت أمامك دوقات فرنسا ومارشالاتها ! ولكن لماذا أقول لك ذلك كله ؟ ان الملك هو سيدي . وهو يريد مني أن أقرض أشعارا ، وأن أمسح الفيسيفساء في غرفه بقطع من الجلد . ولكن هذا أصعب من كل صعب تغلبت عليه ، ولست أدري ماذا يدعوني إلى أن أقبل كل هذا ؟ ألا أحي أحب المال ؟ كلا فعندي منه ما يكفي ! أم لا أحي طموح ؟ كلا فهذه حياتي قد ختمت . أم لا أحي أحب البلاط ؟ كلا ! وانما أبقى في الخدمة لأني اعتدت خلال ثلاثين سنة أن أتلقى أوامر الملك وأن أسمعها يقول لي : (عم مساء يا دارتانيان) بابتسامه لا أستجديه اياها . أما الآن فاني سأستجدي تلك الابتسامه . أفريضك هذا يا مولاي ! »

وحنى دارتانيان رأسه الفضي ، فقال له الملك وهو يبتسم بكبرياء : « شكرا يا خادمي القديم ، يا صديقي الأمين . انني لم يبق لي عدو في فرنسا بعد اليوم ، ولهذا سأرسلك إلى ميدان قتال خارجي لتكسب لنفسك فيه عصا المارشالية . والى أن يحين ذلك كل من أحسن طعامي ونم مطمئنا ! » فقال دارتانيان في تأثر شديد : « هذا كله عطف جميل من جلالتك ولكن ماذا عن الرجلين اللذين في (بل - أيل) ؟ »

فسأله الملك : « أما زلت مصرا على طلب العفو عنهما ؟ »

فقال : « وأنا راكع على ركبتى يا مولاي ! »

فقال : « حسنا ! اذن اذهب اليهما به اذا كان في الوقت متسع . على أن تضمنتهما بعد ذلك . وسأسافر غدا إلى باريس فعد إلى متى انتهيت من مهمتهما لأني لا أحب أن تبتعد عني في المستقبل ! »

فقبل دارتانيان بيد الملك وقال : « كن واثقا من ذلك يا مولاي »

وخرج من القصر وقد غمر الفرح قلبه وأسرع قاصدا إلى (بل - أيل)



العادلة عليه . ولكن كن واثقا بانى لن أستسلم حتى لهذا الحافظ الطبيعى .
وسأدعه حرا كما هو الآن ! »
فقال دارتانيان : « شكرا يا مولاي . وأرجو ان يبقى لنا دائما هذا النبل
وهذه السماحة اللذان اظهرتهما نحوى ونحو المسيو دربلای . فلا يؤثر
فيهما المستشارون الجدد لجلالتك ! »

فقال الملك : « كلا يا دارتانيان . انت مخطيء في هذا الظن . ان مستشارى
لا ينصحون لى بالعنف . بل الواقع ان فكرة الابقاء على المسيو دربلای لم
تكن الا فكرة المسيو كولبير ! »

فأبدى دارتانيان دهشته ثم استطرد الملك قائلا بلطف غير معتاد منه :
« اما أنت فان عندي انباء سارة لك ، ولكنك ستعلمها حين تنتظم ماليتى .
لقد وعدتكم بأن أحقق لك حظك وقريبا يتم ذلك ! »

فقال دارتانيان : « الف شكرا يا مولاي . انى أقدر ان أنتظر . ولكنى
اتوسل اليك يا مولاي ان تتنازل لجلالتك وتنظر بعين العطف والرحمة الى
اناس باتسين ظلوا في غرفة الانتظار وقتنا طويلا ، ومعهم مظلمة يريدون
رفعها الى جلالتك »

فرجع الملك رأسه وسأله : « من تعنى ؟ »

فقال : « هم جماعة أصدقاء المسيو فوكيه ، أو ثلاثة منهم هم : المسيو
جورفيل والمسيو بليسون الشاعر والمسيو جان دى لافونتين »

ففكر الملك هنيهة ثم سأله : « ماذا يريدون ؟ »

فأجاب : « لست أدري يا مولاي ، انهم لا يقولون شيئا ولكنهم سيكون ! »
فقال : « دعهم يدخلوا الآن ! »

ووقف الرجال الثلاثة بالباب بعد ان انسحب رجال البلاط كأنما يخشون
ان تصيبهم عدوى النكبة والحراب ، بينما سارع دارتانيان فأخذ بأيديهم
وهم يرتجفون وقادهم حتى صاروا امام الكرسي الذى يجلس عليه الملك .
وتقدمهم بليسون وقد كفكف دمه حتى يستطيع ان يخاطب الملك . فقال
له الملك دون ان يبدو عليه أى تأثير : « تكلم ! »

فانحنى بليسون ، وركع لافونتين كما يركع الناس في الكنائس ، وظل
الجميع صامتين ، فقال الملك بلهجة جافة : « يا مسيو بليسون ، ويا مسيو
جورفيل ، وأنت يا مسيو . . . ان سكوتكم مناف للاحترام الواجب نحو
الرغبة التى أبديتها لكم الآن ! »

وهنا تكلم بليسون فقال : « مولاي . . . اننا لم نأت الا لتعبر لجلالتك عن
أعمق الاحترام وأصدق الولاء الواجب على الرعية نحو الملك . ان عدل
جلالتك هائل جبار يخضع له الجميع ، ونحن ننحنى امامه باحترام . ومعاذ
الله ان ندافع عن ذلك الذى كان من سوء حظك ان كسب غضب جلالتك .
انه قد يكون صديقا لنا ولكنه الآن عدو للدولة . ونحن نتركه لصرامة عدلك
والدمع في أعيننا ! »

فقال الملك : « ان البرلمان سببت في الأمر . انى لا أضرب الا بعد ان أزن
الجريمة . ان عدالتى لا تستخدم السيف الا بعد ان تستخدم الميزان ! »
فقال بليسون : « لذلك نحن واثقون بعدل الملك ، ونأمل ان نسمع أصواتنا
الضعيفة ، باذن جلالتك - حين تحين ساعة الدفاع عن المتهم »
فقال الملك : « ماذا جئتم تطلبون الآن ؟ »

فاستطرد بليسون قائلا : « ان المتهم قد خلف وراءه زوجة وأسرة .
والأملاك القليلة التى كانت له لم تكفى للوفاء بديونه ، ومدام فوكيه قد
تخلت عنها الناس جميعا منذ قبض على زوجها . ان يد جلالتك تضرب كيد
الله . واذا قضى الله بلعنة البرص او الطاعون على أسرة فان كل انسان يفر
منها ، وأحيانا قليلة يجرؤ طبيب على ان يلج بابها معرضا حياته للخطر ،
ويكون هو الملاذ الأخير للمريض . اننا نبتهل اليك ان ترحم مدام فوكيه ،
فلم يبق لها صديق ولا معين . انها تبكى في بيتها المهجور ، وقد تركها كل
من كانوا يزدحمون ببابها وقت الرخاء . ان المخلوق البائس الذى حلت به
نقمتك ، يتناول على الأقل خبزه كل يوم فيأكله ميلا بدموعه . أما مدام
فوكيه فلا تقل عن زوجها حزنا وعوزا ، وهى التى حازت شرف استقبال
جلالتك على مائدتها ، قد أصبحت الآن لا تجد الخبز ! »

وساد الغرفة صمت رهيب لا يقطعه سوى نشيج بليسون وزميليه ،
وكان الملك يحرص على ألا يظهر تأثرا لما سمع ولكن الدم صعد الى خديه ،
وقال بصوت يقلبه التأثير : « وماذا تريدون ؟ »

فأجاب بليسون : « لقد جئنا في خضوع لكى نرجو من جلالتك ان تسمح
لنا بأن نعطي أرملة فوكيه الفى بستول جمعناها من أصدقاء زوجها القدماء »

وامتقع وجه الملك اذ سمع كلمة (الأرملة) تطلق على زوجة فوكيه وهو
على قيد الحياة ، ونظر بعطف الى الرجال الثلاثة الذين كانوا راكعين ينسججون
عند قدميه وقال لهم : « معاذ الله ان أخذ البرىء بجريرة المذنب . ان الذى
يرتاب في رحمتى بالضعفاء لا يعرفنى حق المعرفة . انى لا أنزل ضرباتى الا
بالمتعالي المتعجرف . افعلوا أيها السادة كل ما تحدثكم به قلوبكم لتخفيف
ويلات مدام فوكيه ! »

فنهض الرجال الثلاثة صامتين وقد جف الدمع في مآقيهم وغلبهم التأثير
فلم يدروا كيف يشكرون للملك عطفه . ولما خرجوا قال دارتانيان للملك :
« لكان شعارك يا مولاي هو (رفيق بالضعفاء ، عنيف مع الأقوياء) . . . »
فابتسم لويس الرابع عشر وذهب الى جناحه الآخر !

واردا من أسبانيا أدرك انه بخط أراميس لأول وهلة ، وما ان قرأ الأسطر الأولى حتى صاح قائلا : « لقد مات بورتوس ! شكرا لك يا راعول !. لقد وفيت بوعدك ان تخطرني بكل شيء ! »

ثم تصيب منه العرق وأغمى عليه وهو في سريره . ولما أفاق من أغمائه امر على أن يذهب الى بلوا ليستطيع منها أن يرسل ابنه ودارتانيان وأراميس

وكان خطاب أراميس قد أنبأه بفشل مغامرة (بل - أيل) وبموت بورتوس ، فأراد أن يزور المثنوي الأخير لهذا الصديق العزيز ، وأن يكون ذهابه الى بل - أيل بصحبة دارتانيان . ولكنه لم يكدر يرتدي ملابسه ، ولم يكدر جواده يعد للرحلة ، حتى أحس أعياء شديدا ، فأمر خدمه بأن يحملوه الى العشب ليرقد تحت أشعة الشمس ، ولما استراح قليلا أبقن أنه عاجز عن الرحيل فحمله خدمه الى البيت ، وما لبث أن استغرق في تفكير عميق ، فان البريد لم يأت اليه بخطاب من ولده برغم طول الانتظار ، وكان يعرف أن البريد يأتي مرة كل اسبوع ، فعليه أن ينتظر أسبوعا آخر وهو في قلق شديد !

وجاء الطبيب ففحصه وأمر له ببعض الأدوية ثم عاد الى بلوا . وعندئذ غلبه النوم وهو يفكر في راعول ، وما لبث حتى رأى في المنام حقول أفريقيا حول جيغلي حيث رابط دى بوفور بجيشه ، وكانت هناك صخور جرداء ، ورأى دخانا يتصاعد وراء تلك الصخور ، وسمع أصوات حركة تدل على الرعب والاضطراب ، ثم شهد بفتة لها يصعد من ذلك الدخان فيزحف على البيوت ثم يشمل المدينة كلها وترتفع صيحات الرعب وصرخات الفرع الى غنان السماء . وسمع صوت بيوت تهدم وسيوف تحطم وأحجار تتساقط وأشجار تحرق . ومن عجب أن آتوس لم ير في هذا المنظر الغريب أى انسان . وكانت المدافع تعصف من بعيد ، والبنادق تطلق والسيوف تقمقع والبحر يزار وقطعان الغنم تفر فوق السفح الأخضر ، ولكن آتوس لم ير أى جندي يطلق المدفع أو ملاحا يشترك في حركات الأسطول أو زاعيا وراء قطيع الغنم . وانما دمرت البلدة تدميرا كأنه تم بسحر ساحر دون اشتراك أحد من البشر فيه !.. ثم انطلقت النار وهبط الدخان وأرخت الليل سدوله فوق الميدان ، فساد سكوت رهيب . وأرسل القمر أشعته الباهتة فوق ميدان المعركة فتبين آتوس فيه جثتا مبعثرة ، وعرف من ملابس أصحابها أنهم جنود فرنسيون سقطوا في القتال ، فتولاه رعب شديد ، وأخذ يفحص جثة بعد أخرى خشية أن يكون راعول بينها . واشتد عجبه حين لم يجد جنديا حيا يقوده الى خيمة بوفور . ونظر حوله فوجد شبعا يرتدى بذلة ضابط وفي يده سيف مثلوم ، وتقدم هذا الشبح صوبه ببطء ، وآتوس ينظر اليه دون أن يتكلم وفتح ذراعيه ليتلقاه اذ تبين فيه ولده راعول ، ولكن الشيخ أشار اليه بالصمت ، وحاول آتوس

مصرع راعول

بعد أن فرقت الظروف بين الفرسان الأربعة الذين كانوا من قبل مرتبطين معا وكانهم شخص واحد ، بقي آتوس وحده بعد سفر ولده راعول ، وقد عاد الى بيته في بلوا ، ولم يبق له حتى جريمو خادمه الأمين ليؤنس وحدته . وكان يقاوم الشيخوخة يقرب ولده منه ، اما الآن فقد بدأ الكبر يتغلب عليه بما يعتوره من ضعف وألم بعد أن بقي شابا حتى الثانية والستين من عمره ، واحتفظ بقوته وسلامة تفكيره وصفاء روحه برغم مختلف المتاعب والأخطار

أجل ان آتوس بلغ من الكبر عتيا في أسبوع واحد انقضى منذ سفر ولده الى شمال أفريقيا . فقد ترك كل التمارين الرياضية التي كان يمارسها ، وصار باوى الى فراشه ويديه كتاب غير أنه لم يكن يقرأ ولا ينام . وكان خدمه قد اعتادوا أن يروه يخرج مع الفجر فدهشوا اذ وجدوه يلازم سريره حتى الضحى ، وكان كثيرا ما يروعهم منظره وهو جالس منهمك في أحلام اليقظة ، يظنونه نائما وما هو بنائم ، وكانت الساعات تفر به وهو لا يدري بمرورها ، حتى لقد كان ينسى وقت وجبات الطعام . وقد تنقضى أيام متوالية دون أن يخاطب أحدا أو ينطق ببيت شفة ، وكان يرفض استقبال الزائرين الذين يجيئون لزيارته ، وفي خلال الليل كان يقضى الساعات وهو يكتب الى جانب مصباح !

وقد كتب خطايا الى أراميس في فان ، وآخر الى دارتانيان في فوتينيلو . ولكن الأول كان قد غادر فرنسا بينما الثانى كان مسافرا من نانت الى باريس !

وكان الطبيب يزور آتوس ويفحصه مرة بعد أخرى مجاولا أن يسبر غور المرض الذى يقعده ويسرع به الى الاضحلال . اما آتوس فلم يكن يعترف بأنه مريض ولا يبالي أن يعالج !

وفي إحدى الليالي رأى في منامه ولده راعول يرتدى ملابسه في خيمة ليذهب مع حملة يقودها السيو دى بوفور بنفسه ، وكان الشاب بادى الحزن وقد تمنطق بسيفه ببطء فسأله والده : (ماذا بك ؟) . فأجاب : (يحزننى موت بورتوس . لقد كان صديقا مخلصا . وأنا أتالم هنا للحزن الذى سيغمرك)

وما لبث الكونت آتوس قليلا حتى تلقى في صباح اليوم التالى خطايا

أن يصرخ ولكن الصرخة كتمت في حنجرتة ورأى الشيخ يتراجع دون أن يبصر له قدمين ، فتبعه وهو يرتعد فرقا وأخذ يعبر الصخور والأحراش والبرك ، والشيخ أمامه لا يبدو عليه أنه يمشی على أرض . وما لبث الكونت أن تعب من المشى فوقف منهك القوى ، بينما الشيخ الذى شبه رءول يشير إليه ليتبعه ، فاستمد الأب من جبه الأبوى قوة وتبعه فوق التل مسحورا بأشارته وابتسامته . وأخيرا وصل الشيخ الى قمة التل فمد كل منهما يده للأخر ، ولكن قوة خفية جذبت رءول ورآه آتوس يترك الأرض وأبصر السماء الزرقاء بين قدمى ولده وبين الغبراء ، وارتفع رءول الى السماء وهو لا يزال يتنسم لوالده ويشير إليه ليتبعه ، فصاح آتوس صيحة حنان ورعب معا ، ونظر الى تحت فرأى معسكرا قد ضرب ، وأبصر جثث الموتى مبعثرة على الأرض ، ثم رفع بصره الى السماء فرأى ابنه لا يزال يشير إليه ليصعد مثله !

واستيقظ آتوس من نومه بعد هذا الحلم المروع على صوت ضجة عند الباب الخارجى للدار ، ثم سمع صوت جواد يدخل الفناء ، وبعدئذ صوت وقع قدمين على الدرج ، فحسب أن البريد قد جاءه ، ولكنه فوجيء بأن خادمه جريمو هو القادم ، وكانت ملابسه يعلوها غبار السفر ، وقد وقف بالباب يرتعد فما أن رآه آتوس هكذا حتى قال له : « لقد مات رءول .. أليس كذلك ؟ »

وكان الخدم واقفين وراء جريمو وقد كتموا أنفاسهم . فأجاب جريمو وهو يتنهد : « أجل يا سيدى ! »

ثم ارتفع عويل الخدم بينما كان الأب الثاكل يردد بصره فى العرفة ليرى صورة ابنه . ولم تصدر عنه زفرة ولم تنحدر من عينه دمععة بل كان مستسلما صابرا كالشهداء ، ورفع بصره نحو السماء وكأنه يبحث عن ولده الذى رآه فى الرؤيا يصعد إليها فوق التل . وضم يديه معا فوق صدره والتفت نحو النافذة وصار ينظر الى عالم مجهول وظل على هذه الحالة وقتا ثم قال : « هانذا ! » . ولم يدر أحد أقالها مخاطبا ابنه أم ربه ! وعندئذ سقطت يده الى جانبه برفق وكأنه وضعهما هكذا الى جانب السرير !

لقد كان الموت رفيقا بهذا الانسان النبيل فوقاه ألم الاحتضار ولم يعش بعد ولده . وظن خدمه أنه نائم لما يبدو عليه من هدوء ، وظل جريمو يرغم تعبه من الرحلة جالسا على عتبة الباب لا يريد أن يترك سيده وكأنه ديدبان يؤدى واجبه . وكان السكون يعم الدار وما لبث جريمو أن لحظ أن سيده لا يسمع له تنفس فقام اليه وسرعان ما استوثق من وفاته !

وفى تلك اللحظة سمع وقع حوافر جواد قادم ، ثم سمع صوت دارتانيان وهو يصيح بعد أن ترجل عند الباب : « آتوس أيها الصديق ! » . فتمتم جريمو قائلا : « المسيو دارتانيان ! » . ثم نهض فاستقبله وأمسك ذراعه بأصابعه اليابسة وأشار الى السرير ، وما نظر دارتانيان الى آتوس حتى أدرك أنه

قد فارقتة الحياة ، لكنه وضع أذنه على صدره ليتحقق الامر . ثم جاء جريمو فغطى جثمان سيده وجلس عند قدميه يبكى بكاء مرا . وأحس دارتانيان ألما يفتت كبده ووقف برهة أمام جثمان زميله الميت يتأمله ويودعه ، ثم جلس على حافة السرير يستعيد ذكرياته مع هذا الفارس الذى نعم بعطفه ومودته خمسا وثلاثين سنة . وأخيرا لم يستطع أن يكتف شعوره فقام والعبرات تخنقه حزنا على آتوس ورءول وبورتوس فى آن واحد !

ثم قال لجريمو : « لقد رأيت الأب يموت . حدثنى كيف مات الابن ؟ ! » فأخرج جريمو من صدره خطايا كبيرا كتب على ظرفه عنوان آتوس ، فعسرف دارتانيان لتوه خط دوق بوفور وفض الخطاب وشرع يقرؤه على ضوء الفجر الذى كان قد أنبثق وهو يمشی بين أشجار الليمون ، ولا تزال بالطريق آثار قدمى الكونت الذى مات !

« عزيزى الكونت .. لقد نزلت بنا كارثة شديدة ، وسط انتصارنا العظيم ، فقد فقد الملك جنديا من أبسل جنوده ، وفقدت أنا صديقا عزيزا . لقد مات رءول ميتة مجد وفخار ، ولكنى لا أجد فى نفسى القدرة على أن أبكيه كما أود . فتقبل عزائى مع جم الثناء على ولدك العزيز . أن الله يتحننا بالمصائب على قدر إيماننا . وهذه مصيبة كبيرة ولكنها لا تجل على صبرك وشجاعتك .. صديقتك المخلص دوق بوفور »

وكان مع الخطاب رسالة كتبها أحد سكرتيرى الدوق ، وقد حوت وصفا دقيقا للحادث الاليم الذى ذهب براءول . وجاء فى تلك الرسالة ما يلى :

« هجم الجيش صباحا بقيادة سمو الدوق . وبدأت المدفعية بإطلاق نيرانها . وتقدمت الفرق فى عزم صادق ، وتبع الأمير حركات الجنود ، لكى يعد لهم احتياطيا فويا . وكان مع سموه كبار الضباط وأركان حربه . وتلقى المسيو دى براجلون أمرا بالآ يترك صاحب السمو . وفى خلال ذلك كان العدو قد نظم تصويب نيران مدافعه وبنادقه ، فقتل عدد من الرجال الذين كانوا يقرب الأمير . وبدأ شيء من التردد من جانب رجالنا إذ كانت المدفعية لا تؤيدهم التأيد الكافى . والواقع أن البطاريات التى اتخذت مواقعها فى الليلة السابقة كانت لا تحكم التصويب لسوء تلك المواقع . فأمر صاحب السمو بانتقالها الى الطريق ، وتطوع رءول فورا لتنفيذ هذا الامر ، ولكن الأمير رفض رجاءه إذ كان يحبه ويريد أن يبقى على حياته . وكان الأمير على حق لأن الجاويش الذى كلف حمل الرسالة لم يكد يصل الى شاطئ البحر حتى حنذلته رصاصتان من بنادق العدو . وعندئذ التفت الدوق الى رءول وقال له : (أرايت ؟ لقد أنقذت حياتك . لا تنس أن تخبر بذلك والدك يوما ما ليقدم الى شكره) . فابتسم الفيكونت رءول دى براجلون ابتسامة حزينة وقال : (هذا صحيح يا صاحب السمو ، فلولا عطفك لقتلت حيث سقط الجاويش المسكين ولكنك وجدت الراحة) . فدهش الدوق وقال : (رباه ! أن من يسمعك تقول هنا يخيل اليه أنك تمنى الموت)

« وهنا احمر وجه الفيكونت وقال له : (عفوا يا صاحب السمو . . لقد بحثت دائما عن فرص للمجد . وانه لما يدعو الى السرور ان نمتاز في عيني قائدنا)

« فارتاح سمو الأمير لهذا الجواب . وأخذ يصدر أوامره . واقترب رماة القنابل من البرك ليرموا قنابلهم . ولكن كان تأثيرها ضعيفا . وفي الوقت نفسه كان المسيو دستريه قائد الأسطول قد لاحظ ذلك الجاويش يحاول أن يبلغ السفن ، فأدرك أنه لا بد له أن يعمل ولو لم يتلق أوامر ، وأخذ يطلق المدافع . ورأى الأعداء شدة الإصابات التي حلت بهم من نيران الأسطول ، فصاحوا صيحات فزع ، وهبط فرسانهم من فوق الجبل وهجموا هجمة واحدة على فرق المشاة ، فشبك هؤلاء حراهم ووقفوا هذا الهجوم ، وعندئذ تندف الأعداء في عنف شديد نحو رجال أركان الحرب ولم يكن هؤلاء على حذر في تلك اللحظة . وكان الخطر شديدا فاستل الدوق سيفه ، وفعل الرجال الذين حوله مثله ، واشتبكوا مع الأعداء في قتال عنيف . وحانت لراءول فرصة لتحقيق رغبته فقاتل كما كان يقاتل الرومان القدماء . ولاحظ الدوق حماسه البالغة وهو يتعد نحو الخنادق فأمره بالوقوف ولكنه لم يطع الأمر ، فأدهش عصابه الجميع وصاح به الدوق : (قف ! الى أين أنت ذاهب ؟ قف . أمرك بالوقوف !)

« ولكن راءول لم يطع وظل يتقدم بجواده ، وعاد الدوق يصيح به أن يقف وأخيرا قال له : (أمرك بالوقوف . . . باسم أيبك) . وعندئذ التفت خلفه والحزن باد على ملامحه . ولكنه لم يقف . فحسبنا أن جواده قد جمح به ، فأمر الدوق بإطلاق الرصاص على ذلك الجواد ولكن خاف الجميع أن يفعلوا فيصيبوا الفارس كذلك . وأخيرا تقدم جندي بارع في الرماية يدعى لوزرن فسدد بندقيته ورمى الجواد فأصابه ولكنه بدل أن يقع زاد هياجا واستمر متدافعا الى الأمام براكبه ، وأدركنا جميعا أن الفارس سيلقى حتفه وصحنا جميعا نقول : (اقدف بنفسك من فوق الجواد يا فيكونت) . وكان راءول ضابطا محبوبا من الجميع . ولكنه كان قد وصل الى مرمى بنادق العدو . فانها الرصاص حوله وأخفاه الدخان عن أبصارنا ، ثم تبدد الدخان فرأناه واقفا على قدميه وقد مات جواده !

« ودعا الأعداء الى التسليم ولكنه أشار لهم برأسه إشارة الرفض ، واستمر يتقدم نحو سياجهم . وكان هذا طيشا منه ولكن جيشنا كله سره منه أنه لم يتقهقر . ومشى بضع خطوات فصفقنا له جميعا . وعندئذ عاد العدو فاطلق عليه الرصاص واختفى ثانية في الدخان ، ولما تبدد الدخان لم نره واقفا هذه المرة بل كان منبطحا على الأرض . وتقدم الأعداء يريدون أن يسحبوا جثته ولكن الدوق صاح برجاله قائلا : (اتدعونهم يأخذون ذلك الجسم النبيل ؟) . ولوح بسيفه وأندفع بجواده تجاه العدو فتقدمت الفرق معه وهي تصيح صيحات مرعبة ، وابتدأ القتال عند جثة راءول ، وكان

حامى الوطيس ، وفقد فيه الأعداء مائة وستين قتيلًا وفقدنا نحو خمسين من رجالنا . وحمل ملازم من اقليم نورماندى جثة الفيكونت على كتفه وعاد بها الى خطوطنا . ثم تابع جيشنا هجومه وقد انضمت اليه القسوات الاحتياطية فحطمت استحكامات العدو وسكنت نيرانه عند الساعة الثالثة . ثم استمر التلاحم بالسيوف ساعتين ولم توف الساعة الخامسة حتى تم لنا النصر في جميع النقط . وأمر سمو الدوق برفع العلم فوق قمة الجبل وعندئذ فقط بدأنا نفكر في راءول ، وقد وجدنا بجسمه ثمانية جروح كبيرة نزف منها دمه كله تقريبا . ولكنه مع هذا كان لا يزال يتنفس وقد فرح الدوق بذلك فرحا شديدا وأصر على أن يكون حاضرا حين يفحصه الجراحون ، وقد صرح اثنان منهم بأنه سيعيش ، فعانقهما الدوق ووعد كلا منهما بمكافأة اذا أمكنهما انقاذ حياته !

« وسمع الفيكونت ذلك فدلّت ملامحه على غير الارتياح . أما الجراح الثالث فقد ربط الجروح ولكنه لم يقل شيئا . ولما سأله الدوق صرح بأن بجسم الفيكونت ثلاثة جروح قتالة ، ولكن نظرا الى قوة الشبّاب فان الأمل وطيد في شفائه ، ثم قال : (وأهم شيء ألا يتحرك أدنى حركة فان ذلك يقتله لا محالة) . وعندئذ تركنا الخيمة وقد ضعف فينا الأمل . وخيل الى أحد السكرتيرين أنه رأى الجريح يتسم حين سمع تلك النصيحة من الجراح . ودخل الدوق عنده فقال له : (سننقذك من الموت يا فيكونت . سننقذك)

« وفي المساء بعد أن اعتقدنا أن الجريح قد ارتاح دخل أحد المساعدين خيمته ولكنه ما لبث حتى خرج وهو يصرخ صرخة مفزعة ، فدخلنا جميعا ومعنا الدوق وإذا براءول ملقى بجانب سريره غارقا في بقية دمه . واتضح أنه قد تحرك أو تشنج فسقط من فوق السرير . وقد عجّلت هذه السقطة بنهايته كما قال ذلك الجراح . ولما رفعناه وجدناه جثة هامدة ، وكان يمسك بخصلة شعر جميل في يده ويضع هذه اليد فوق قلبه »

ثم تلا ذلك وصف أعمال الحملة ، ولكن المسيو دارتانيان وقف عند موت راءول وقال : « يا للفتى المسكين . لقد انتحرت ! »

ثم التفت صوب الغرفة التي سجد بها جثمان الكونت دي لافير وقال : « لقد وفي كل منهما بوعده للآخر . الآن أحسبهما سعيدين ، وقد عاد كل منهما الى صاحبه ! »

ثم مشى بخطى وثيدة كاسف البال حزينا ، وكانت القرية كلها قد علمت بالكارثة المزدوجة فاشتد بها الأسى وأخذت تستعد للجنائز !

الوداع الاخير

في اليوم التالي لموت الكونت آتوس ، جاء جميع النبلاء الذين وصل نعيه الى اقاليمهم ، ليشتروا في الجنازة . وكان دارتانيان قد حبس نفسه في الدار اذ كان لا يريد أن يكلم أحدا ، فقد كان صعبا عليه أن يفقد آتوس وراويل بعد أيام معدودة من فقده بورتوس . وكان لا يدخل غرفته أحد من الخدم سوى جريمو . وقد كتب الى الملك راجيا مد اجازته . وكان جريمو قد جلس على كرسي بقرب الباب وهو يفكر تفكيرا عميقا ، ثم نهض وأشار الى دارتانيان لينبعه ، وهبط معه الدرج الى غرفة نوم الكونت وأشار الى السرير الذي خلا من سيده ونظر الى السماء ، فقال له دارتانيان : « أجل يا جريمو . لقد ذهب مع ابنه المحبوب ! »

ثم غادر جريمو الغرفة وقاد دارتانيان الى القاعة حيث تقضى تقاليد الريف بعرض جثمان الميت على الانظار قبل دفنه . وقد عجب دارتانيان اذ رأى هناك تابوتين مفتوحين ولما اقترب منهما بناء على اشارة جريمو رأى في أحدهما جثمان آتوس وفي التابوت الآخر جثمان راول . وارتجف دارتانيان لرؤية الأب والابن ميتين ، وتمتم قائلا : « راول هنا ؟ لماذا لم تخبرني بذلك يا جريمو ؟ »

فهز جريمو رأسه ولم يجب ، وإنما قاد دارتانيان الى تابوت راول وأراه مواقع الجروح وقد اسودت ، فأدار الكابتين وجهه من الألم ، وتذكر أن سكرتير الدوق قد كتب أكثر مما طاق هو أن يقرأه . ثم أخرج الورقة من جيبه وقرأ فيها ما يلي : « وقد أمر سمو الدوق بتحنيط جثمان الفيكونت على أن يتقله خادم أمين الى دار الكونت دي لافير »

فقال دارتانيان يحدث نفسه : « وهكذا يا بنى العزيز بأشيع جنازتك ، أنا الرجل الشيخ الذي لم تعد له قيمة في الحياة ، وسأهيل التراب على جبينك الذي قبلته منذ شهرين اثنين . لقد أردت لنفسك هذه النهاية ، فليس لي الحق حتى في البكاء . لقد اخترت لنفسك الموت بعد اذ أثرت على الحياة »

وأخيرا حان وقت تشييع الجنازة ، ومضى عدد كبير من الضباط والمدنيين الى المقبرة المجاورة لكنيسة صغيرة ، وكان الطريق مملوا بالفرسان والمارة وكلهم في ثياب الحداد . وكان آتوس قد بنى لنفسه قبرا في نطاق تلك الكنيسة عند حدود مزرعته

ولما تمت المراسم ودفن الأب والابن ، بقي دارتانيان وحده ، وكانت الشمس قد غربت ولكنه نسي مرور الوقت وهو يفكر . ثم قام من فوق مقعده بالكنييسة وأراد أن يذهب الى القبر ليودع صديقيه الوداع الاخير ، واذا به يرى امرأة راكعة هناك على الارض ، فوق باب الكنيسة يتأملها وكانت مخفية وجهها في راحتها البيضاء كالشمع ، وكان خارج السياج عدد من الجياد يركبها خدم ، وعربة تنتظر . وظلت السيدة تصلي عند القبر وهي بين حين وآخر تمسح عينها بمنديل . ورآها دارتانيان تضرب صدرها بيدها وهي تقول : « ألا مغفرة ! » . وأخيرا تقدم دارتانيان نحوها فما أن سمعت وقع خطاه حتى رفعت رأسها فيان وجهها وقد بلله الدمع . فعرف أنها الأنسة دي لافالير ! وتمتمت قائلة : « المسيو دارتانيان !؟ »

فرد قائلا بلهجة صارمة : « أنت هنا ؟ وددت لو رأيتك مسجاة في دار الكونت دي لافير ! انك أنت التي قتلت هذين الرجلين بلا رحمة ! »

فقال له : « سيدي .. أشفق على ! »

فقال : « معاذ الله يا سيدتي أن أهين سيدي . غير أنني أصارحك القول بأن مكان القاتل ليس هو قبر فريسته ! »

فأرادت أن تقول شيئا ولكنه واصل كلامه قائلا : « ان هذا الذي قتلته لك الآن قد قتلته للملك من قبل ! »

فصمت يديها وقالت : « اني أعرف ! لقد كنت السبب في موت راول ! لقد وصل النبا الى البلاط أمس . فسافرت خلال الليل مسافة أربعين فرسخا لكي آتي وأطلب المغفرة من الكونت دي لافير اذ حسبته لا يزال على قيد الحياة ، ولكي أسأل الله على قبر راول أن يقدر لي كل الكوارث التي أستحقها ، ثم علمت أن موت الابن قد عجل بنهاية الأب ، فأدركت أنني ارتكبت جريمة واحدة . والآن أترقب عقوبتين ينزلهما الله علي ! »

فقال لها دارتانيان : « سأعيد على سمعك ما قاله عنك راول حين كان يتوقع لنفسه الموت . لقد قال يومئذ : (لو كانت فتاة طامحة لعبوا وحادت عن الطريق السوي فاني أغفر لها مع اذرائي اياها . ولو كان الحب هو الذي جعلها تخطيء نحوي فاني أغفر لها وأقسم لها أنه لم يجبها أحد كما أحببتها !) »

فقالت لوزي : « أنت تعلم أنني في سبيل الحب كدت أضحي نفسي ، وأنت تعلم أنني كنت أتألم حين قابلتني وأنا ضائعة مهجورة . اني لم أقاس في حياتي كما أقاسي الآن . فقد كنت وقتئذ ذات أمل ورغبة . أما الآن فليس لي شيء منهما ، لأن موت راول وأبيه قد قبر معهما كل مسرة لي ، ولا أستطيع الآن أن أحب دون أن أعاني وخز الضمير . واني لأشعر بأن ذلك الذي أحبه سيجزيني بالعذاب الذي سببته لغيري ! »

فلم يجب دارتانيان اذ كان موقنا بأنها صادقة ، وواصلت هي كلامها

لقاء ووداع

مضى على موت بورتوس وآتوس وولده أربع سنوات ، وفى ذات يوم ، كان اثنان من الفرسان يعبران غابة بلوا فى باكورة الصباح ليرتبا رحلة صيد للملك ، وكان أحدهما حافظ كلاب الملك والآخر حافظ صقوره . فوجدا فى مكان هناك فرسان الملك و خلفهم قائدهم دارتانيان ، وقد عرفاه بجواده الأصيل وبذئته المزركشة وشعره الأشيب ، فقال أحدهما للآخر: « ان المسيو دارتانيان لا يبدو عليه كبير . انه أكبر منا سنا بعشرين سنة ومع هذا يجلس فوق جواده جلسة فارس شاب ! »

فقال الفارس حافظ الصقور : « انى لم ألحظ عليه أى تغير خلال العشرين سنة الاخيرة ! »

غير أن هذا الضابط كان مخطئا ، فان دارتانيان كان قد حطمته السنوات الاربع الاخيرة . ثم اقترب هو منهما وحياهما ثم قال لهما : « ان الملك فى هذه الايام يستخدم فرسانه أكثر مما يستخدم كلابه وصقوره ! »

فقال حافظ الكلاب : « نعم يا سيدى ، ما أجمل تلك الايام الماضية حين كان الملك السابق يطير العقوق (طائر ملون) فى الكروم التى وراء بوجنس، وكنا جميعا فى مبة الشباب »

وكان دارتانيان قد منح لقب كونت منذ أربع سنوات . ثم سأله حافظ الصقور : « ألم تنعب من الرحلة التى قمت بها ؟ »

فقال : « لقد قطعت أكثر من خمسمائة فرسخ فى الذهب والاياب ! »

فسأله فى صوت هامس : « أهو بخير . أعنى المسيو فوكيه المسكين ؟ »

فأجاب دارتانيان : « كلا ! . انه دائم الشكوى ولا يقدر أن يفهم كيف يكون السجن منه . ويرى أن البرلمان قد حكم بنفيه ، وان النفى معناه الحرية . انه لا يتصور أنهم كانوا يريدون اعدامه ، وانه جدير به أن يحمد الله الذى نجاه من مخالب البرلمان ! »

فقال الفارس : « حقا ان ذلك الرجل المسكين كان قد دنا من المشنقة . لقد أشيع أن المسيو كولبير كان قد أصدر أمرا الى الباستيل للاستعداد لاعدامه ! »

فقال دارتانيان : « كفى ! ولنترك هذا الحوار . وعندئذ دنا منهما الفارس حافظ الكلاب وكان قد ابتعد قليلا وقال : « ان المسيو فوكيه قد

فقال : « والاآن يا مسيو دارتانيان لا تقس على ! . اننى كفرع انتزع من شجرة . فانا لا أعتمد على شىء وانما يجرفنى تيار لا أدرى الى أين . اننى أحب بجنون ، أنى أحب الى حد أنى أخبرك بحبى فوق هذا القبر . وأنا لا أحجل من هذا الحب ولا يؤنبنى ضميرى عليه . ان هذا الحب هو دينى ولكن لما كنت سترانى فى المستقبل منسية منبوذة ، وسينزل بى العقاب المقدر لى ، فأرجو أن ترحمنى فى سعادتى الموقوتة وأن تتركها لى بضعة أيام أو بضع لحظات . ولعلها فى هذه اللحظة التى أكلمك فيها قد انتهت ! »

وبينما كانت تقول ذلك سمع صوت جياد تقترب ، وجاء المسيو دى سان اينيان قاصدا الى لافالير فقال لها : « لقد كان الملك فريسة الغيرة والقلق ! »

ولم يكن قد رأى المسيو دارتانيان اذ أخفاه عن نظره جذع شجرة تظل القبر . فشكرت لويز المسيو سان اينيان وصرفته ، وعندئذ قال لها دارتانيان : « رأيت يا سيدتى ؟ ان سعادتك لا تزال قائمة ! »

فرفعت الفتاة رأسها برزاة وقالت : « سيأتى يوم تندم فيه على سوء ظنك بى . وفى ذلك اليوم سأسأل الله أن يغفر لك ظلمك اياى . وفضلا عن ذلك سأشقى أنا الى حد يجعلك تتألم لشقائى . فلا تلمنى على هذه السعادة فقد كلفتنى ثمنا غاليا ولم أسدد دينى بعد ! »

ثم عادت فركمت الى جانب القبر وقالت : « سامحنى يا راعول . لآخر مرة أطلب اليك الغفران يا خطيبي العزيز . لقد خنت عهدك ، ولكنى ساموت مثلك من الحزن . واذا كنت أنت قد سبقت الى الرحيل فلا تخش شيئا فسأتبعك عما قريب . ولعلك الاآن تدرك أنى لست دينئة والا ما جئت الاآن لاودعك الوداع الاخير : والله وحده يعلم أنى ما كنت لاتردد فى أن أفتديك بروحى . ولكنى لم أستطع أن أمنحك حبى . مرة أخرى أرجو الصفح والمغفرة يا راعول ! »

ثم تناولت غصنا وغرسته فى الأرض ، وبعدئذ مسحت الدمع من عينيها وانصرفت بعد أن انحنت تحية لدارتانيان !

ونظر دارتانيان الى الجياد والعربة الذهبية ، ثم قال لنفسه : « متى يأتى دورى فى الرحيل ؟ ماذا بقى لرجل بعد الشباب والحب والمجد والصدقة والقوة والثروة ؟ . لم يبق سوى صخرة يرقد تحتها بورتوس الذى أتاحت له كل تلك النعم . ولم يبق سوى هذا القبر الذى يرقد تحته آتوس وراؤول وكان لهما أكثر مما كان لبورتوس ! »

ووقف لحظة متريدا ثم قال لنفسه : « الى الأمام ! حين تدق ساعتى سينبئنى الله بها كما أنبأ هؤلاء ! »

ثم لمس الارض وقد بللها ندى المساء ، وغادر المقبرة وركب جواده عائدا وحده الى باريس !

فقال له : « أن جلالتك كنت نائما حين وصلت ، ولم تكن قد استيقظت بعد حين تسلمت عملي صباح اليوم ! »

فقال له الملك : « انك أنت لا تتغير . خذ نصيبك من الراحة يا كونت . اني أمرك بذلك . وستتناول طعام الغداء معي اليوم ! »

فأحاطت بدارتانيان همهمة اعجاب من معية الملك ، وكان كل فرد تواقا لان يحييه . فان تناول الغداء مع الملك صار شرفا لا يسخو به لويس الرابع عشر كثيرا . ثم تقدم الملك بوضع خطوات فوجد دارتانيان نفسه بين جماعة أخرى كان المسيو كولبير هو البارز فيها . وقال له هذا الوزير بأدب ومودة : « عم صباحا يا كونت دارتانيان . هل كانت رحلتك ممتعة ؟ »

فانحنى دارتانيان على رأس جواده وأجاب : « أجل يا سيدي ! »

فقال الوزير : « لقد سمعت الملك يدعوك الى مائدته ، وستقابل هناك صديقا قديما لك هو دوق الميدا »

وهنا فتح باب عربة فظهر منها شيخ وقور أشيب وقال : « ها أنذا يا كونت ! »

فصاح دارتانيان في دهشة بالغة : « أراميس ! »

وعانق صديقه القديم ، ثم تركهما كولبير ومضى بجواده . فقال دارتانيان لأراميس : « ما هذا ؟ كيف عدت الى فرنسا ثانية أنت النائر المنفي ؟ ! »

فابتسم أراميس وأجاب : « وسأتناول معك الغداء على مائدة الملك . أجل . ألا تسأل نفسك : ما جدوى الاخلاص في هذا العالم ؟! ولكن لتقف عربتنا لحظة كي ندع عربة دي لافالير المسكينة تمر . أنظر ما أشد قلقها واضطرابها . وكيف تتبع الملك وهو على جواده ، بعينين دامعتين ! »

فسأله دارتانيان : « ومن تلك التي مع الملك ؟ »

فأجاب أراميس : « انها (كليز - شارنت) وقد أصبحت الآن مدام دي مونتسيان ! . أما لافالير فالملك لم يهجرها تماما ولكنه لا يلبث قليلا حتى ينبذها ! »

وجعل الصديقان يتحدثان وهما يتبعان حملة الصيد . وما لبث الملك قليلا حتى ترجل عن جواده فاقترنت به مدام دي مونتسيان . وكانا أمام كنيسة صغيرة مهجورة تحيط بها أشجار كثيفة ، وكان خلف الكنيسة سياج يتوسطه باب ، وكان البازي قد أسقط فريسته وراء ذلك السياج فأراد الملك أن يدخل ليأخذ من الطير المصيد أول ريشة كما جرت العادة . وأحاطت المعية بالكنيسة ولم تقدر أن تدخل السياج لصغر المساحة وكثرة عددهم . وأمسك دارتانيان ذراع أراميس وقال له : « أتدري يا أراميس الى أين قادتنا المصادفة ؟ »

فأجاب دوق الميدا : « كلا ! »

فقال دارتانيان في حزن : « هنا أناس كنا نعرفهم . هنا آتوس ورامول ! »

استحق ذلك اذ سلب الملك مالا كثيرا . ومن حسن حظك انك أنت الذي ذهبت به الى هناك ! »

فنظر دارتانيان اليه نظرة قاسية وقال له : « لو أن أحدا أنبأني بأنك أكلت لحم كلابك لما اكتفيت بتكذيبه بل كنت أشفق عليك اذا حكم عليك بالسجن من جراء هذه التهمة ، وكنت لا أطيق أن أسمع أحدا يذكرك بسوء . وأنا أؤكد لك أن المسيو فوكيه لا يقل براءة عنك ! »

وتراجع حارس الكلاب بعد هذا الدرس القاسي ، بينما عاد زميله حافظ الصقور فقال لدارتانيان : « انه راض عن نفسه لان كلاب الصيد رائجة الآن . ولو كان من حملة الصقور لما قال ما قاله ! »

فابتسم دارتانيان ، وعاد بذهنه الى المسيو فوكيه وما كان فيه من عز وبذخ ، وما ينتظره من ميتة محزنة . ثم سال حارس الصقور : « هل الملك سيأتي قريبا ؟ »

فأجاب : « عند الساعة السابعة أطلق الصقور ! »

فسأله : « من سيأتي مع الملك ؟ وكيف حال الاميرة هنريتا ؟ وكيف

حال الملكة ؟ »

فقال : « ان الملكة أحسن حالا من قبل ، وقد تحسنت صحتها بعد أن ساءت منذ حزنها الأخير ! »

فتساءل دارتانيان متعجبا : « أي حزن ؟ ان هذا النبأ جديد على لانتي لم أعد الا أخيرا ! »

فقال الفارس : « لقد ساء ما اجمال الملك اياها بعد موت الملكة الوالدة ، وزاد في حزنها أنها شكت اليه فأجابها بقوله : (حسبك أني أنام عندك كل ليلة !) . »

فقال دارتانيان : « يا لها من امرأة مسكينة . لابد أنها تكره الانسة دي لافالير من أعماق قلبها ! »

فقال الفارس : « ان منافستها الآن ليست الانسة دي لافالير ! »

وفي تلك اللحظة سمع صوت نغير يدعو الكلاب والصقور ، فمضى الضابطان توا دون أن يتم ذلك الحوار ، وظهر الملك قادما تحيط به السيدات والفارسان . وتقدم الجميع في نظام ، وتبين دارتانيان وراء ذلك الجمع ثلاث عربات ، كانت الاولى للملكة ولكنها كانت خالية . ورأى دارتانيان الانسة دي لافالير في العربة الثانية وكانت وحدها مع اثنتين من الوصيفات . وكان الى يسار الملك سيدة بارعة الجمال ، والملك يبتسم لها وهي تبتسم له ، وكان يضحك لكل كلمة تقولها !

فقال دارتانيان لنفسه : « يجب أن أعرف من هذه المرأة » . ثم انطلق فلحق بحافظ الصقور ليسأله ، ولكن الملك لمح فناداه قائلا : « لقد عدت يا كونت . لماذا لم أرك اذن ؟ »

فقال لها الملك : « اصغى الى .. اذا كان أصدقاؤك يسيئون الى سمعتك فليست هذه غلطة الأمير ! »

وقد نطق هذه الكلمات برقة جعلتها توشك أن تفضى اليه بأشجانها ، ثم قال لها : « هيا بشيى شكواك . انى كصهر ساشفق عليها . وكمملك سآزىل أسبابها ! »

فرفعت عينها النجلاوين وقالت برنة حزن : « ان أصدقائى لا يسيئون الى سمعتى ، فانهم اما غائبون واما مختفون . لقد حل بهم غضب جلالتك برغم اخلاصهم وولائهم ! »

فقال لها : « أنت تقصدين دى جيش الذى نفيته الى الخارج بناء على رغبة أخى الأمير ؟ »

فقالت : « قد حاول كل يوم أن يلقي حتفه ! »

فقال لها : « أتحسبين ذلك ظلما منى يا أختاه ؟ »

فقالت : « انه لظلم عظيم ، ولولا انى آكن لك الاحترام ممزوجا بالمودة للجات فى ذلك الى أخى تشارلس الذى يمكننى دائما أن أعتمد عليه ! »

فقال لها الملك : « ماذا كنت تطلين اليه ؟ »

فأجابت : « كنت أطلب اليه أن يبين لك أن زوجى الأمير وصديقه الفارس دى لورين لا ينبغى لهما أن يكونا جلادى شرفى وسعادتى ! »

فسألها : « أتعنين الفارس دى لورين ، ذا الوجه الذى يقبض الصدر ؟ »

فقالت : « أجل ! انه عسدى الألد طالما بقى فى قصرى يقربه الأمير منه ويخوله سلطته ، ليجعلنى أتعس امرأة فى المملكة ! »

فقال الملك بتؤدة : « وهكذا تحسبين أخاك ملك انجلترا صديقا أخلص لك منى ؟ »

فقالت : « ان الاعمال هى التى تتحدث يا مولاي ! »

فقال : « وأنت تؤثرين أن تطلبى المعونة هناك ؟ »

فقالت بكبرياء : « انها بلادى . أجل يا مولاي ! »

فقال الملك : « انك حفيدة هنرى الرابع كما أنا حفيده ، فانا ابن عمك وأخو زوجك فى آن واحد ! »

فقالت : « اذن اعمل ما يحقق صالحى ! »

فقال : « هيا بنا نعقد محالفة .. أنت تقولين انى نفيت دى جيش ظلما ، وأذن يعود فى أقرب وقت ! »

فقالت : « حسنا » . ومضى هو فقال : « وتقولين ان وجود الفارس دى لورين فى معية أخى الأمير يسىء اليك ، واذن لن يزعجك بعد اليوم ! »

فقالت الأميرة : « هذه يا مولاي مقدمة حسنة لمخالفة بيننا . وأنا أقبلها راضية . ولكن اذا كان هذا نصيبك منها فما هو نصيبى ؟ »

فدخل أراميس بخطى مرتعشة من باب صغير فتحة له دارتانيان . ومضيا الى القبر الذى تطله شجرة السرو . ولكن الملك كان قادما من تلك الناحية اذ كان الطائر المصيد قد وقع هناك . فوقف أراميس واختفى قى الظل . وعندئذ رأى الاثنان - دون أن يريا - وجه دى لافالير الشاحب وقد تركت فى عربتها ، فنظرت أولا ثم دفعتها الغيرة الى النزول من العربة ودخلت الكنيسة واستندت الى عمود فيها وأخذت تتأمل الملك وهو يبتسم لمدام دى مونتسبان ويشير اليها لتقترب منه وانه ليس نمة ما تخشاه ، فأطاعت مدام دى مونتسبان ، وتناولت يد الملك التى مدها اليها ، ثم جذب ريشة من الطائر الذى خفه البازى ووضعها فى قبعتها ، فابتسمت له وقبلت يده بحنو ، وعندئذ احمر وجهه من السرور ونظر اليها نظرة حب ووله ، وقال لها : « ماذا تعطينى فى ابل هذه الريشة ؟ »

فاقتطعت غصنا صغيرا من شجرة السرو الصغيرة وأعطته الى الملك . وهنا قال أراميس لدارتانيان : « انها هدية حزينة لانها مقطوعة من شجرة تظلل قبرا ! »

وسمعا خلفهما أنينا ، ونظرا فرأيا امرأة تسقط على الارض مغمى عليها . وكانت هى دى لافالير وقد رأت كل شىء وسمعت كل شىء !

فتمتم دارتانيان وهو يساعد بعض رجال المعية على حملها الى عربتها : « يا لها من امرأة مسكينة ! »

وفى مساء ذلك اليوم كان دارتانيان جالسا الى مائدة الملك على مقربة من المسيو كولبير ودوق أليدا ، وكان الملك بادى السرور ، وقد خاطب دوق أليدا مرتين أو ثلاثا بلقب (سعادة السفير) ، فزاد ذلك فى دهشة صديقه دارتانيان !

ولما قام الملك من المائدة مد يده للملكة ، وأشار الى المسيو كولبير ، فأخذ هذا دارتانيان وأراميس جانبا ، ثم أخذ الملك يتحدث مع زوجة أخيه الأميرة هنريتا ، بينما كان زوجها الأمير يتحدث مع الملكة وهو لا يحيد ببصره عن زوجته . ودار الحديث بين أراميس ودارتانيان وكولبير حول شؤون شتى ، فتحدثوا مثلا عن الوزراء السابقين ، وذكر كولبير أعمال مازارين وسأل عن أعمال ريشيليو . وقد عجب دارتانيان اذ وجد هذا الرجل سليم الحكم على الأمور

وكان واضحا من ملامح الأمير أن تحدث الملك مع زوجته يزعجه ، وكانت عينها الأميرة قد احمرتا تقريبا ، أنراها ستشكو وتثير فضيحة فى البلاط ؟

وأخذها الملك جانبا وقال لها بلطف ذكرها بالوقت الذى كانت فيه محبوبا له : « أختاه .. لماذا أرى الدمع فى عينيك الجميلتين ؟ ان زوجك يشع

بالغيرة . أليس كذلك ؟ »

فنظرت صوب زوجها وكان هذا برهانها على أن الحديث يدور حوله ثم قالت : « نعم ! »

فقال لها : « بدل أن توقى بينى وبين أخيك تشارلس ، اجعليه أكثر مودة لى ! »

فقال : « هذا أمر يسير يا مولاي »

فقال : « كلا ! انه ليس يسيرا كما تتصورين ، لان الصداقة العادية بين الناس يكفى فيها العناق أو الكرم أما الصداقة السياسية ... »

فقالت الاميرة : « أهى صداقة سياسية اذن ؟ ! »

فقال الملك : « أجل يا أختاه ! وفيها لا يوجد عناق ولا مآذب ، ولكن جنود وذخيرة وعتاد ، يخدم بها الصديق صديقه ... وسفن تقدم بما فيها من مدافع ومؤونة . ان خزائنا لم تكن دائما مستعدة لتوطيد صداقات من هذا القبيل ! »

فقالت الاميرة : « أنت على حق . ان خزائن ملك انجلترا ظلت طنانة رنانة وقتنا غير قصير ! »

فاستطرد الملك قائلا : « أنت يا أختاه لك نفوذ على أخيك ملك انجلترا وتقدرين أن تحصلى منه على أكثر مما يحصل عليه أى سفير ! »

فقال : « هذا يتطلب أن أسافر الى انجلترا ، أليس كذلك يا أخى العزيز ؟ »

فقال لويس الرابع عشر : « أحسب ذلك ، وأرى أن مثل هذه الرحلة تصلح من حالتك النفسية »

فقالت الاميرة : « ولكن ربما أفضل فى مهمتى هذه . فان ملك انجلترا له مستشارون يحسب حسابهم فى المحالفات ولا سيما اذا كانت مخالفة حربية تكلف أموالا ورجالا وسفنا . وليس يخفى على جلالتك أن مستشارى ملك انجلترا سبعة هم - أو بالأحرى - هن الأنسات : ستيوارت وويلز وجوين وأورشى وزونجا وديفيز والكونتس المتكبرة كاستلمين ! »

فقال الملك : « أتخشين فى مثل هذه الحالة أن تفشل مفاوضاتك ؟ »

فقالت الاميرة : « ان أولئك السيدات يسببن فشل كل مفاوضة لا يقمن بها بأنفسهن ! »

فقال : « لقد خطرت لى فكرة هى أن تأخذى معك مستشارة لها من الفصاحة ما يسكت مستشارات أخيك ! »

فقال : « هذه فكرة صائبة يا مولاي ، وسأبحث عن مستشارة من هذا القبيل »

فقال الملك : « ويجب أن تكون تلك المستشارة جميلة . فان الوجه الحسن خير من الوجه القبيح ! أليس كذلك ؟ »

فقال : « نعم ، وأن تكون ذات جراءة وحيوية . وأن تكون نبيلة وتعرف اللغة الانجليزية بحيث تخاطب الملك دون أدنى ارتباك ! »

فاوما الملك لويس الرابع عشر موافقا ، بينما واصلت الاميرة كلامها

فقال : « ان كل هذه الصفات تنطبق على الأنسة دى كيروال ! »

فقال الملك : « لقد أحسنت الاختيار يا أختاه . وأنا أتصورك الآن فى طريقك الى انجلترا ! »

فقال : « سأذهب حالما اعرف مهمتى التى سأتفاوض بشأنها ! »

فقال الملك : « ان الهولنديين كما تعلمين يهينوننى كل يوم فى صحفهم ، وهذا عدا ان نظامهم جمهورى وأنا لا أحب الجمهوريات ! »

فقالت الاميرة : « هذا أمر سهل فهمه يا مولاي . ومضى الملك فقال : « انى أرى مع الالم أن ملوك البحر هؤلاء - كما يسمون أنفسهم - يسدون على فرنسا طريق الاتجار مع الهند ، وسفغهم لا تلبث حتى تحتل كل موانئ أوربا . ان مثل هذه القوة البحرية صارت قربة منا أكثر مما يجب ! »

فقالت الاميرة : « لكنهم مع هذا حفاؤك ! »

فقال : « هذا يدل على مدى خطئهم اذ صنعوا وساما يمثل هولندا وهى تصد الشمس . ان هذا لا يدل على مخالفة واء . أليس كذلك ؟ ! »

فقال : « كنت أحسب أنك نسيت هذا الحادث ! »

فقال لها : « انى لا أنسى شيئا يا أختاه ! . واذا كان أصدقائى المخلصون ، كأخيك تشارلس مثلا ، يؤيدوننى ... »

وسكنت الاميرة ولم تتكلم ، فاستطرد لويس الرابع عشر قائلا : « ان مملكة الحار مقسمة ، وانجلترا خاضعة لهذا التقسيم ، فلماذا لا أمثل أنا الشرط الثانى بدلا من الهولنديين ؟ »

فقالت الاميرة : « ان الأنسة دى كيروال ستعالج هذا الموضوع »

وهنا سألها الملك : « الا تشترطين شيئا آخر للموافقة على السفر ؟ »

فقال : « لا شىء الا موافقة الأمير زوجى . فقال الملك : « انى أضمن موافقته . ثم أشار الى كولبير فقطع هذا حديثه مع أراميس ودارتانيان ، والتفت الى أولهما قائلا : « يا سعادة السفير . أنتحدث عن الاعمال ؟ »

فانسحب دارتانيان بأدب ، ومضى الى المدفأة بحيث يسمع الحديث الذى سيدور بين الملك وأخيه الأمير ، وكان هذا ظاهر القلق بينما الاهتمام يبدو فى وجه الملك بعد أن تخلص من كل معارضة فى فرنسا ، وأوشك أن يقضى على كل مناوأة فى أوربا ، ثم قال لأخيه الأمير : « انى غير راض عن الفارس دى لورين ، وأنت الذى تشرفه بحمايتك ، فينبغى لك أن تنصح له بالسفر بضعة أشهر ! »

فانقضت هذه الكلمات على الأمير كالصاعقة اذ كان يحب دى لورين ويثق به . وسأل الملك قائلا : « وكيف استطاع الفارس دى لورين أن يشير غضب جلالتك ؟ »

فأجاب الملك : « سأقول لك ذلك بعد أن يرحل ... وايضا بعد أن تكون الاميرة زوجتك قد سافرت الى انجلترا »

فتمتم الامير مندهشا : « الى انجلترا ؟ ! » . بينما واصل الملك كلامه قائلا : « أجل يا أخي العزيز ، وسنذهب نحن كلانا الى حيث أخبرك فيما بعد ! »

واستدار الملك على عقبه وهو يتسم لآخيه ليخفف من مرارة الجرعة التي جرعه اياها . وفي خلال ذلك كان كولبير يتحدث مع دوق الميدا ويقول له : « لقد حان الوقت لكي نصل الى تفاهم . لقد أصلحت بينك وبين الملك وكان هذا واجبا على نحو رجل في مثل مقدرتك . ولكن لما كنت قد عبرت مرارا عن صداقتك لي فقد سنحت فرصة للبرهان عليها . على أنك فرنسي أكثر منك إسبانيا . فأرجو أن تجاوبني بصراحة : انضمن حياذ إسبانيا اذا باشرنا حربا ضد هولندا ؟ »

فقال له أراميس : « يا سيدي ان مصلحة إسبانيا واضحة ، وترمي سياستنا الى بذر بدور الخلاف بين أوروبا وبين هولندا ، غير أن هذه الدولة هي حليفة ملك فرنسا . وأنت تعلم أن مثل تلك الحرب ستكون حربا بحرية ، وإن فرنسا لا تمكثها ظروفها الحالية من الاستفادة من مثل هذه الحرب ! »

فالتفت كولبير الى دارتانيان وناداه ، وقال لأراميس : « يمكننا أن نشرك المسيو دارتانيان في حديثنا ، أليس كذلك ؟ »

فاوما أراميس موافقا وقال : « بكل تأكيد ! » . ثم قال كولبير لقائد الفرسان : « لقد كنت أتحدث مع دوق الميدا في شأن الحرب مع هولندا ، ومن رأينا أنها ستكون حربا بحرية »

فقال دارتانيان : « هذا أمر واضح ! »

فسأله كولبير : « ما رأيك في مثل هذه الحرب يا مسيو دارتانيان ؟ »

فأجاب : « أعتقد أنه للنجاح في مثل هذه الحرب يجب أن يكون لنا جيش برى ضخم ! »

فظن كولبير أن دارتانيان لم يفهم قصده وعاد يسأله : « ماذا تقول ؟ . »

وسأله أراميس بدوره : « وما الحاجة الى جيش برى ضخم ؟ »

فأجاب قائلا : « لأن قوات الملك ستهزم في البحر اذا لم تكن انجلترا حليفة لنا . واذا هزمتنا بحريا غزيت بلادنا دون ابطاء ، من جانب الهولنديين بحرا ومن جانب الأسبانيين برا ! »

فسأله أراميس : « واذا بقيت إسبانيا على الحياد ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أن إسبانيا ستبقى محايدة طالما كانت كفة فرنسا هي الراجحة »

فأعجب كولبير بفتنة دارتانيان وبعد نظره . وابتسم أراميس إذ كان يعرف أن دارتانيان لا يفوقه أحد في الشؤون الدبلوماسية . ثم استأنف الكلام وسأل دارتانيان : « من الذي أنبأك أن الملك لا يملك أسطولا بحريا ؟ »

فقال دارتانيان : « اني لم أعبا بالتفاصيل ، وليست لي خبرة بحرية . بل أنا ككل رجل عصبى أكره البحر . غير اني أعتقد أنه اذا أصبحت فرنسا تملك سفنا كافية فانها ستجد رجال البحرية الكافين »

فأخرج كولبير من جيبه كراسية صغيرة قسمت صفحاتها الى عمودين ، وفي ناحية منها أسماء السفن ، وفي الناحية الاخرى عدد المدافع والرجال المطلوبين لها . وقال لدارتانيان : « انه احصاء بالسفن الحربية التي تملكها . والمدافع التي بها . . انها خمس وثلاثون سفينة وبها حوالي ألفي مدفع . وهكذا يمكن أن يكون لنا ثلاث مجموعات بحرية . ولكن يجب أن يكون عندنا خمس مجموعات »

فصاح أراميس : « خمس مجموعات ؟ ! »

واستطرد كولبير قائلا : « انها ستنزّل الى البحر قبل نهاية هذه السنة . وسوف يكون لدى الملك خمسون سفينة . وعندئذ يمكننا أن ننازلهم . أليس كذلك ؟ »

فقال دارتانيان : « ان تشييد السفن صعب ولكنه ممكن . اما تزويدها بالسلاح فما الذي يمكن عمله ؟ . ان فرنسا لا تملك مصانع ذخيرة ولا أحواض سفن ! »

فقال الوزير : « لقد أنجزت كل ذلك خلال الشهر الثمانية عشرة الاخيرة . ألم تعلم ذلك ؟ ألا تعرف المسيو ايمفريل ؟ »

فقال دارتانيان : « ايمفريل ؟ كلا لست أعرفه ! »

فقال الوزير : « رجل اكتشفته . رجل عبقري يعرف كيف يغري الرجال بالعمل . وهو الذي صنع المدافع وقطع أشجار الغابات في بورجونى . ثم ان عندي فكرة أفضى بها اليك يا سعادة السفير وربما لا تصدقها »

فقال أراميس : « اني دائما أصدقك يا سيدي ! »

فقال كولبير : « لقد قلت لنفسى : ان الهولنديين تجار وهم اصداق الملك ، فيسرههم بلا ريب أن يبيعوه ما يصنعونه لأنفسهم . وهكذا زدنا ما نشتره منهم . . . ان عندنا فوران . أتعرف فوران يا دارتانيان ؟ »

وابتسم دارتانيان إذ ناداه الوزير هكذا دون لقب كما يناديه الملك ، ورد عليه قائلا : « لا يا سيدي لست أعرفه ! »

فعاد الوزير يقول : « انه رجل آخر اكتشفته وهو نابغة في الشراء . ان فوران هذا قد اشترى لي ثلاثمائة وخمسين ألف رطل من الحديد ومائتي ألف رطل من البارود ، كما عقد لي اثنتي عشرة صفقة من خشب البلدان الشمالية ، وهذا كله عدا صفقات الكبريت والقنابل والقار وغيرها ، وقد اشتراها لنا أرخص بمقدار سبعة في المائة من تكاليف صنع مثلها في فرنسا ! »

فقال دارتانيان : « انها لفكرة حسنة ان تصنع الذخيرة بأيدي الهولنديين

راتبه مائة ألف ليفر في السنة لتنفقات التمثيل والمآدب وغيرها ! »

فقال له كولبير : « أتظن أن الملك سيساومك ؟ »

فقال له : « أنك يا سيدي لا تفهم قصدي . انى أقول انى بوصفى قائدا للفرسان ، وبوصفى ضابطا أقدم من مارشالات فرنسا ، وجدت نفسى ذات يوم مساويا لقائد الحرس وقائد الحرس السويسرى . فأنأ لن أصبر على ذلك . ان لى عاداتى القديمة وسأصر عليها ! »

فقال له كولبير : « لقد فكرت فى كل ذلك . ألم أحدثك منذ لحظة عن القنوت والبرك فى هولندا وعن خوفى أن تغرق ؟ . حسنا ! أنك اذا غرقت فذلك لانك ينقصك زورق أو لوح من الخشب ... أو ... عصا ... »

فقال دارتانيان : « بل عصا مهما قصرت ! »

وأوما الوزير موافقا وقال : « لذلك لم أسمع قط بأن مارشالا فرنسيسا غرق ! »

فشحب وجه دارتانيان وقال بصوت يعلبه التأثر : « ان الناس فى فرنسا سيفخرون بى اذا صرت مارشالا . ولكن لا بد أن يقود الضابط حملة رئيسية لينال تلك الرتبة ! »

فقال له كولبير : « هنا فى هذه الكراسى خطة لحملة ستتولى أنت قيادتها فى الربيع القادم »

فتناول دارتانيان الكراسى بيد مرتعشة وقال لكولبير : « أرجو أن تخبر الملك بأنه فى أول فرصة تسنح سينال نصرا عظيما أو يرانى جثة هامدة ! »

فقال كولبير : « اذن سأعد لك عصا المارشالية توال ! »

وفى صباح الغد جاء أراميس ليودع دارتانيان فى فندقه قبل أن يعود الى أسبانيا ليقتع ملكها بالحياد ، فقال له دارتانيان : « ليحب أحدنا الآخر حبا يكفى أربعة ، فقد صرنا اثنين فقط ! »

فقال له أراميس : « لعلك يا عزيزى دارتانيان لن ترانى ثانية ! . آه لو عرفت قدر حبى لك ! اننى الآن شيخ فى الهالكين ! »

فقال له دارتانيان : « يا صديقى ، أنك ستعيش بعدى . ان السياسة تتطلب منك أن تعيش . أما أنا فإن الشرف يتطلب منى أن أموت ! »

فقال له أراميس : « ان الرجال أمثالنا ، يا فخامة المارشال ، لا يموتون الا بعد أن يشبعوا فرحا ومجدا ! »

فابتسم دارتانيان ابتسامة حزينة وقال : « أوكد لك يا سيدي الدوق انى صرت لا أشتهى هذا ولا ذاك ؟ »

ثم تعانقا مرة أخرى ، وافترقا !

لتعود اليهم بعد ذلك طلقات تستقر فى صدورهم ! »

فقال الوزير : « ليس هذا فقط بل بخسارة لهم كذلك ! » . ثم ضحك وواصل كلامه فقال : « ان الهولنديين أيضا يبنون للملك الآن ست سفن على طراز أحسن سفنهم الحربية . ويتضح من ذلك كله ان ملك فرنسا اذا أراد أن يحارب الهولنديين فسيكون له أسطول قوى . أما الجيش البرى فانت أدرى به من كل انسان »

فتبادل دارتانيان وأراميس نظرة بدت فيها دهشتها مما أنجزه كولبير فى وقت وجيز

وسر كولبير من هذا المديح الصامت . ثم قال له دارتانيان : « اذا كنا ونحن فى فرنسا نجعل كل ذلك فلا شك ان غيرنا أجهل به ! »

وعندئذ قال أراميس : « اذا ساعدتكم انجلترا فانى أضمن لكم حيا أسبانيا »

فسارع كولبير الى القول : « انى أسجل عليك وعذك هذا . وعلى ذكر أسبانيا أراك لا تحيل وسام الفروة الذهبية . ولقد سمعت الملك منذ أيام يقول أنه يود أن يراك متقلدا وشاح الوسام الأكبر لسان ميشيل ! »

فانحنى أراميس شاكرا ، وقال دارتانيان لنفسه : « لو كان بورتوس حيا لسعد بعدد من هذه الاوسمة ! رحمة الله على بورتوس ! »

ثم قال كولبير : « يا مسيو دارتانيان . . انى أراهن أنك تتمنى لو تغزو هولندا بفرسانك ، أتتقن السباحة ؟ »

وضحك كولبير ثانية لئكتته هذه ، فقال له دارتانيان : « اتى أسببح كالسمك ! » . فقال كولبير : « ولكن فى هولندا عددا من القنوت والمستنقعات وقد يفرق فيها أحسن السباحين ! »

فقال دارتانيان : « ان مهنتى هى أن أموت فى خدمة صاحب الجلالة . ولكن فى الحروب يقابل الماء الكثير بنيران كثيرة ، وسأبدل قصارى جهدى لاختيار النيران . انى أوغل فى الكبير . والماء يبرد أطراف جسمى . أما النار فتدفئنى ! »

وبدا كأنه عاد الى شبابه وهو يقول هذه الكلمات بحفاضة وعزم ، فلم يسع كولبير الا أن يعجب به . وتذكر أن أحسن التجار هو الذى يفرض ثمنا غالبا لسلعته فاستعد لدفع هذا الثمن سلفا . وقال له : « وعلى ذلك تذهب الى هولندا ؟ »

فأجاب دارتانيان : « أجل : ولكن ... »

فسأله كولبير : « ولكن ماذا ؟ »

فأتم كلامه قائلا : « فى كل أمر يوجد أيضا الصالح الشخصى ... ان لقب قائد الفرسان لقب جميل . ولكن لدينا الآن حرس الملك ، وقوة القصور . فقائد الفرسان يجب أن يراس جميع هذه القوات ، وعندئذ ينبغى أن يكون

بارعة فقتلوا من جنود دارتانيان سبعة وسبعين رجلا وحطموا بعض منشاتهم ، وقد أزعج ذلك دارتانيان وخرج مع عدد من قاذفي القنابل ليصلحوا ما تهدم !

وكان رسول المسيو كولبير قد أمر بان يقابل المسيو دارتانيان حيث يكون ، لذا اتجه صوب الخنادق ووراءه الحرس الذي يصحبه وكلهم على ظهور الجياد . وقد راوا دارتانيان في السهل المنبسط وعرفوه بقبعته ذات المخرم الذهبى وعصاه الطويلة وكان بعض على طرفي شاربه ويزيح عن ملابسه التراب الذى يثيره الرصاص الذى يصيب الارض على مقربة منه . وراوا كذلك جنودا وضابطا يصلحون الخنادق . وبعد ثلاث ساعات تمت هذه المهمة وبدا على دارتانيان الارتياح والهدوء . ولم يكد رسول كولبير يحدث دارتانيان حتى اصابته برصاصة فى احدى قدميه فذهبت بها وسقط بين يدي القائد ، فرفعه هذا وحمله الى الخندق بين هتاف رجال فرقتين من الجيش ، ومن تلك اللحظة صار القتال اقرب الى الجنون ، وتقدمت الفرقتان الى المواقع الامامية فدكتها دكا واندفع رفاقهم وراءهم فى هجوم عنيف

وبينما كان دارتانيان يهتف بنفسه بهذا الانتصار، سمع وراءه صوتا يناديه فالتفت وراءه وتناول خطاب كولبير وقرا فيه ما يلى :

« عزيزى المسيو دارتانيان . . ان الملك قد امرنى بان اخبرك بأنه قد عينك مارشالا لفرنسا جزاء لك على خدماتك الجليلة وعلى المجد الذى كسبته لجيوشه . والملك شديد السرور بالانتصارات التى حزتها . والصندوق المرافق هو هديتى الخاصة ، وانتم يا رجال الحرب بينما تشهرون سيوفكم للدفاع عن البلاد ، أعنى انا بحث رجال السفن على ابداع الهدايا التى تستحقونها . وانى فخور بصدافتك يا سيدى المارشال . . . كولبير »

فتملك دارتانيان الفرح ، وأشار الى الرسول فاقترب بالصندوق، ومد دارتانيان يده ليفتح الصندوق واذا برصاصة من قبل البلدة قد حطمت لصندوق بين يدي الضابط واصابت دارتانيان فى صدره فوقع على الارض لتوه ، وسقطت عصا المارشالية من الصندوق المحطم تحت يد المارشال . وحاول أن ينهض ولكنه لم يستطع ، وظن رجاله أنه لم يجرح ولكن اذا به قد لون الدم ثيابه بلون أحمر قان ، وشحب وجهه شحوب الموت !

وصاح ضباط دارتانيان فرجا . ثم اتكأ على أذرعهم التى امتدت له من بل جانب ، فاستطاع أن يلقى نظرة أخيرة على المكان وأن يرى علم ملك فرنسا مرفوعا على الحصن الرئيسى ، وسمع بأذنيه اللتين بدأتا تصمان عن سماع أصوات الحياة ، صوتا ضعيفا لطول تعلن النصر . ثم أمسك بيده الواهنة عصا المارشالية ونظر إليها، وبعدئذ تراجع الى الوراء وهو يتمتم هذه الكلمات التى لم يفهمها ضابطه : « يا آتوس ، يا بورتوس ، الى اللقاء . يا أراميس وداعا الى الأبد ! »

وهكذا لم يبق من الفرسان الأربعة سوى جسم واحد ، أما الارواح فقد قبضها الله اليه !

نهاية الفرسان الأربعة

وفى الملك لويس الرابع عشر بعده . فاستقدم المسيو دى جيش من منفاه، ونفى الفارس دى لورين من خدمة الامير شقيقه ، وعلى هذا سافرت الاميرة هنريتا الى لندن حيث بذلت جهدها لتغرى أخاها تشارلس الثانى بأن يصغى الى نصائح الأنسة دى كيروال ، وهكذا عقدت محالفة بين إنجلترا وفرنسا ، وعاونت بضعة ملايين من الذهب الفرنسى سفن إنجلترا على القيام بحملة ذريعة ضد أسطول هولندا . وكافأ تشارلس الثانى الأنسة دى كيروال على نصائحها الطيبة فجعلها دوقة بورتسموث . وكان كولبير قد وعد ملك فرنسا بالسفن والذخائر والانتصارات ، وقد وفى بوعده كما هو معروف . وكذلك أراميس الذى كان أكثر الاعتماد على المفاوضات التى قام بها فى مدريد .

وفى الربيع التالى بدأ الجيش البرى حملته ، وكان دارتانيان يقود اثنى عشر الفا من الفرسان والمشاة ، وعهد اليه فى الاستحواذ على النقط الاستراتيجية الهامة . وكان الضباط يعرفون بسالة قائدهم وبراعته ، وانه لن يضحي رجلا واحدا ولن ينزل عن شبر أرض الا عند الضرورة . وقد استولى خلال شهر على اثنى عشر موقعا صغيرا . ثم شرع يحاصر الموقع الثالث عشر ومكث فى ذلك خمسة أيام امر فيها بحفر الخنادق دون أن تبدو من جانب العدو نية التسليم !

وبعث دارتانيان رسولا الى الملك ليخبره بما تم ، فسر الملك بالانباء وزاد ميلا لمداعبة السيدات اللاتى حوله، وقد زادت الانتصارات جلالا حتى صارت مدام دى مونتسبان لا تسميه الا باسم « لويس المظفر » . وفقدت الأنسة دى لافالير كثيرا من حظوتها لديه وصارت عينها دائمى الاحمرار من البكاء، وهو امر لا يلائم ملكا منتصرا يتسم له العالم . . . وبينما أفل نجم لافالير وسط السحب والدموع ، سطع نجم مدام دى مونتسبان التى تضاعف مرحها مع انتصارات الملك . وكان لويس الرابع عشر يعرف أن الفضل فى ذلك يرجع الى دارتانيان ، فكتب الى المسيو كولبير ما يلى :

« يا مسيو كولبير . . ان علينا وعدا للمسيو دارتانيان يجب أن نوفى به ، وقد حان الوقت لذلك . . لويس »

وعلى أثر هذا ارسل كولبير الى دارتانيان خطابا ، وصندوقا من الآبنوس المرصع بالذهب ، حملهما اليه رسول خاص زود بحرس مؤلف من خمسة رجال . وقد وصلوا قبيل الفجر الى الموقع الذى يحاصره دارتانيان ، وكان محافظ تلك البلدة قد استطاع أن يهجم مع بعض المحاصرين بحيلة